الكشف والبيان في تفسير القرآن

المعروف ب

تفسير الثعلبي

للإمام العالم العلامة أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي

المتوفى ٤٢٧ هـ

تحقيق

الشيخ سيد كسروي حسن

الجزء الثالث

المحتوى:

من أول سورة الأعراف - إلى آخر سورة النحل

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signé par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4410-3

9782745144102 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

وهى مائتان وست آيات

روى أبو أمامة عن أُبى بن كعب عن النبىّ ﷺ قال: «مَنْ قرأ سورة الأعراف جعل الله بينه وبين إبليس ستراً وكان آدم له شفيعًا يوم القيامة».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣
وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ
إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ
عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
يَظْلِمُونَ ۝٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

﴿الٓمٓصٓ﴾: روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: ﴿الٓمٓصٓ﴾ قسم أقسم الله عزّ وجلّ، وقال عطاء بن أبى رباح: هو من ثناء الله سبحانه على نفسه، أبو صالح عن ابن عباس: اسم من أسماء الله تعالى، أبو الضحى عن ابن عباس: أنا الله أفصل وقال وهى هجاء موضوع، قتادة: اسم من أسماء القرآن. وقيل: اسم السورة، مجاهد: فواتح افتتح الله بها كتابه، الشعبى: فواتح السور من أسماء الله تعالى إذا وصلها كانت اسمًا.

وقال أبو روق: أنا الله الصادق، سعيد بن جبير: أنا الله أصدق، محمد بن كعب: إلاّ أن افتتاح اسمه أحد أول آخر، واللام افتتاح اسمه لطيف، والميم افتتاح اسمه مجيد وملك، والصاد افتتاح اسمه صمد وصادق أحد وصانع المصنوعات.

ورأيت فى بعض التفاسير معنى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١) وقيل: هى حروف هجاء مقطعة، وقيل: هى حساب الجمل، وقيل: هى حروف اسم الله الأعظم، وقيل: هى حروف تحوى معانى كثيرة، وقيل: الله بها خلقه على مراده كلّه من ذلك، وموضعه رفع بالابتداء وكتاب خبره كأنّه قال: ﴿الٓمٓصٓ﴾ حروف ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وقيل: كتاب خبر ابتدأ فى هذا كتاب.

وقيل رفع على التقديم والتأخير، يعنى أُنزل كتاب إليك وهو القرآن ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال أبو العالية: ضيق، وقال مجاهد: تَنك، وقال الضحاك: إثم، وقال مقاتل: فلا يكن فى قلبك شك فى القرآن. إنّه من الله، وقيل: معناه لا أطبق قلبك بإنذار من أرسلتك بإنذاره وإبلاغ من أمرتك بإبلاغه إياه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى عظة لهم وموعظة، وموضعه رفع مردود على الكتاب.

وقيل: هو نصب على المصدر تقديره ويذكر ذكرى. ويجوز أن يكون فى موضع الخفض على معنى لتنذر فى موضع خفض، والمعنى الإنذار والذكرى، وأمّا ذكرى فمصدر فيه ألف التأنيث بمنزلة دعوت دعوى ورجعت رجعى إلاّ أنّه اسم فى موضع المصدر.

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أى قل لهم: اتبعوا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

قرأ العامّة بالعين من الاتباع، وروى عاصم الجحدرى عن أبى الشيخ ومالك بن دينار «ولا تبتغوا» بالغين المعجمة أى لا تطلبوا ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بالعذاب وموضع ﴿وَكَم﴾ الرفع بالابتداء وخبره فى ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ وإن شئت نصبته برجوع الهاء، ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾: عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾: ليلاً كما يأتى بالعساكر ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾: يعنى نهاراً فى وقت القائلة وقائلون نائمون ظهيرة، ومعنى الآية: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ يعنى: إن من هذه القرى ما أُهلكت ليلاً ومنها ما أُهلكت نهاراً وإنّما حذفوها لاستثقالهم نسقًا على نسق، هذا قول الفراء، وجعل الزجاج أو بمعنى التحيّر والإباحة تقديره: جاءهم بأسنا مرّة ليلاً ومرّة نهاراً ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾: أى قولهم ودعاؤهم مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ (الأنبياء: ١٥) قال الشاعر:

وإن مذلت رجلى دعوتك أشتفى بدعواك من مذل بها فتهون

مذل رجله إذا خدرت ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ عذابنا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: مسيئين آثمين ولأمره مخالفين أقرّوا على أنفسهم.

روى ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: «ما هلك قوم حتّى يعذروا من أنفسهم. قال: قلت:

كيف يكون ذلك؟.

فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ الآية.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾: يعنى الأمم عن إجابتهم الرسل ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: عن تبليغ الأمم ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾: قال ابن عباس: ينطق لهم كتاب أعمالهم يدلّ عليه قوله ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ (الجاثية: ٢٩) الآية.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: عن الرسل فيما يُلقون وعن الأمم فيما أجابوا ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ﴾: يعنى السؤال ﴿ٱلْحَقُّ﴾: قال مجاهد: والقضاء يومئذ العدل، وقال آخرون: أراد به دون وزن الأعمال وذلك أن الله عزّ وجلّ ينصب الميزان له يدان وكفّان يوم القيامة يوزن أعمال العباد خيرها وشرها فيثقل مرّة ميزان الحسنات لنجاة مَنْ يريد نجاته. ويخفّف مرّة ميزان الحسنات علامة هلاك مَنْ يُريد هلاكه.

فإن قيل: ما الحكمة فى وزن أعمال العباد والله هو العالم بمقدار كلّ شىء قبل خلقه إياه وبعده قلنا أربعة أشياء: أحدها: امتحان الله تعالى عباده بالإيمان فى الدنيا، والثانى: جعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة فى العقبى.

والثالث: تعريف الله عزّ وجلّ للعباد ما عند الله من جزاء على خير وشر، والرابع: إلقاؤه الحجة عليه.

ونظيره قوله: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ (الجاثية: ٢٩) الآية فأخبر ما تأتى الأعمال ونسخها مع علمه بها ما ذكرناه من المعانى والله أعلم.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: قال مجاهد: حسناته ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: إلى قوله تعالى: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ يجحدون قال حذيفة: صاحب الموازين يوم القيامة جبرائيل يقول الله تعالى: «يا جبرائيل زن بينهم فردَّ بعضهم على بعض» قال: وليس ثمّ ذهب ولا فضّة وإن كان للظالم حسنات أخذ من حسناته فيرد على المظلوم وإن لم يكن له حسنات يحمل عليه من سيئات صاحبه، يرجع الرجل وعليه مثل الجبال».

قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له لسان وكفتان فأمّا المؤمن فيؤتى بعمله فى أحسن صورة فيرتفع فى كفّة الميزان وهو الحق فينقل حسناته على سيئاته فيوضع عمله فى الجنّة يعرفها بعمله فذلك قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون ولهم غرف بمنازلهم فى الجنّة إذا انصرفوا إليها من أهل الجنّة إذا انصرفوا إلى منازلهم.

وأمّا الكفّار فيؤتى بأعمالهم فى أقبح صورة فيوضع فى كفّة الميزان وهى الباطل فيخفّ

وزنه حتّى يقع فى النار ثمّ يقال للكافر: الحق بعملك.

فإن قيل: كيف تصح وزن الأعمال وهى غراض وليست بأجسام فيجوز وزنها ووصفها بالثقل والخفة وإنما توزن الأعمال التى فيها أعمال العباد مكتوبة.

يدلّ عليه حديث عبد الله بن عمر، وقال: يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان ثمّ يخرج له تسعة وتسعون سجلاً كلّ سجل منها مثل مدى البصر فيها خطاياه وذنوبه فيوضع فى الكفّة ثمّ يُخرج له كتاب مثل الأنملة فيها شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ يوضع فى الكفّة الأُخرى فيرجّح خطاياه وذنوبه، ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

فإنّ قيل: لما جمعه وهو ميزان واحد.

قيل: يجوز أن يكون أعظم جميعًا ومعناه واحد كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ (المؤمنون: ٥١)، وقال الأعشى:

ووجه نقى اللون صافٍ يزيّنه مع الجيد لبّات لها ومعاصم

أراد لبّة ومعصمًا.

وقيل: أراد به الأعمال الموزونة.

وقيل: الأصل ميزان عظيم ولكل عبد فيه ميزان معلّق به.

وقيل: جمعه لأن الميزان ما اشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ولا يحصل الوزن إلاّ باجتماعهما.

وقيل: الموازين أصله: ميزان يفرق به بين الحق والباطل وهو العقل، وميزان يفرّق بين الحلال والحرام وهو العلم، وميزان يفرّق به بين السعادة والشقاوة وهو عدم سهو الإرادة، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ملّكناكم فى الأرض ووطّأنا لكم وجعلناها لكم قراراً ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾: يعيشون بها أيام حياتكم من المأكل والمشرب والمعايش جمع المعيشة الياء من الأصل فلذلك لا تهمز ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: فيما صنعت إليكم.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ

وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي
لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن
شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ : قال ابن عباس : خلقنا أصلكم وأباكم آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ : فى أرحام أُمهاتكم قال قتادة والربيع والضحاك والسدى : أمّا خلقناكم فآدم وأمّا صوّرناكم فذريّته . قال مجاهد : خلقنا آدم ثمّ صوّرناكم فى ظهر آدم .

وقال عكرمة : خلقناكم فى أصلاب الرجال وصورناكم فى أرحام النساء قال عطاء : خلقوا فى ظهر آدم ثمّ صوروا فى الأرحام .

وقال يمان : خلق الإنسان فى الرحم ثمّ صوّره ففتق سمعه وبصره وأصابعه ، فإن قيل : ما وجه قوله : ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وإنّما خلقنا بعد ذلك وثمّ يوجب الترتيب والتراخى . كقول القائل : قمت ثمّ قعدت لا يكون القعود إلاّ بعد القيام .

قلنا : قال قوم : على التقديم والتأخير ، قال يونس : الخلق والتصوير واحد . . . .[1] إلينا ، كما نقول : قد ضربناكم وإنّما ضربت سيدهم ، قال الأخفش : ثمّ بمعنى الواو ومجازه : قلنا ، كقول الشاعر :

سألت ربيعة من خيرها ... أبًا ثم آمًا فقالت لمّه

أراد أبًا وأُمًّا .

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ : يعنى الملائكة ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ : لآدم فقال الله لإبليس حين امتنع من السجود لآدم ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ : قال بعضهم : لا زائد وأن صلة ، تقدير الكلام : ما منعك السجود لآدم ، لأن المنع يتعدّى إلى مفعولين قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء : ٩٥) .

قال الشاعر :

ويلحيننى فى اللهو أن لا أحبه ... وللهو داعٍ دائب غير غافل

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

أراد : أن أُحبُّه .

وقال آخر :

فما ألوم البيض أن لا تسخروا لما رأيتي الشمط القفندرا

وقال آخر :

أبى جوده لا البخل واستعجلت به نعم الفتى لا يمنع الجود قاتله

أراد : أبى جوده البخل .

سمعت أبا القاسم الحبيبى يقول : سمعت أبا الهيثم الجهنى يحكى عن أحمد بن يحيى ثعلب قال : كان بعضهم يكره القالا ، وتناول فى المنع بمعنى القول ، لأن القول والفعل يمنعان ، وتقديره : من قال لك لا تسجد . قال بعضهم : معنى المنع الحول بين المرء وما يريد . والممنوع مضطر إلى خلاف ما منع منه فكأنّه قال : أى شىء اضطرّك إلى أن لا تسجد .

﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ : قال إبليس مجيبًا له ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ : لأنّك ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ : والنار خير وأفضل وأصفى وأنور من الطين قال ابن عباس : أوّل مَنْ قاس إبليس . فأخطأ القياس فمَنْ قاس الدين بشىء من رأيه قرنه مع إبليس .

وقال ابن سيرين : أوّل مَنْ قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلاّ بالمقاييس .

وقالت الحكماء : أخطأ عدو الله حين فضّل النار على الطين ، لأن الطين أفضل من النار من وجوه :

أحدها : أنّ من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناة والحلم والحياء والصبر ، وذلك هو الداعى لآدم فى السعادة التى (سبقت) له إلى التوبة والتواضع والتضرّع وأدرته المغفرة والاجتباء والهداية والتوبة ومن جوهر النار الخفّة والطيش والحدّة والارتفاع والاضطراب ، وذلك الداعى لإبليس بعد الشقاوة التى سيقت له إلى الاستكبار والإصرار فأدركه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاق .

والثانى : أنّ الطين سبب جمع الأشياء والنار سبب تفريقها .

والثالث : أن الخبر ناطق بأن تراب الجنّة مسك أذفر ولم ينطق الخبر بأن فى الجنة نارًا وفى النار ترابًا .

والرابع : أن النار سبب العذاب وهى عذاب الله لأعدائه وليس التراب سببًا للعذاب .

والخامس : أنّ الطين يُسقى من النار والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب .

فقال الله له : ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ أى من الجنّة ، وقيل : من السماء إلى الأرض فألحقه بجزائر

البحور وإنّما سلطانه وعظمته فى خزائن البحور وعرشه فى البحر الأخضر فلا يدخل فى الأرض إلاّ لهبة السارق عليه أطمار تروع فيها مَنْ يخرج منها ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فليس لك أن ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ : فى الجنّة، وليس ينبغى أن يسكن الجنّة ولا السماء متكبر ولا بخلاف أمر الله عزّ وجلّ ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾ : الأذلاء والصغر الذل والمهانة قال إبليس عند ذلك ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ﴾ : أخرنى وأجلنى وأمهلنى ولا تمتنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ : من قبورهم وهو النفخة الأخيرة عند قيام الساعة، أراد الخبيث أن لا يذوق الموت، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ : المؤخرين.

ثمّ بين مدّة النظر والمهلة فى موضع آخر، فقال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ (الحجر:٣٨) وهى النفخة الأولى حين ثبوت الخلق كلّهم ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ . اختلفوا فيما قال: فبعضهم قال: هو استفهام يعنى فبأى شىء أغويتنى ثمّ ابتدأ فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ قيل: هو ما الجزاء يعنى فإنّك أغويتنى لأجل أنك أغويتنى لأقعدن، وقيل: هو ما المصدر فى موضع القسم تقديره: بإغوائك إياى لأقعدن كقوله ﴿بِمَا غَفَرَ لِى﴾ (يس:٢٧) يعنى بغفران ربّى.

وقوله ﴿أَغْوَيْتَنِى﴾ : أضللتنى عن الهدى. وقيل: أهلكتنى، من قول العرب غوى الفصيل يعنى غوى وذلك إذا فقد اللبن فمات. قال الشاعر:

معطفة الأثناء ليس فصيلها برازئها دراً ولا ميّت غوى

وحكى عن بعض قبائل طى أنها تقول: أصبح فلان غاويًا أى مريضًا غاراً، وقال محمد بن جرير: أصل الإغواء فى كلام العرب تزيين الرجل للرجل الشىء حتى يحسنه عنده غاراً له.

قال الثعلبى: وأخبرنا أبو بكر محمد بن محمد الحسين بن هانئ قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن محمد الراوسانى قال: حدثنا علىّ بن سلمة قال: حدثنا أبو معاوية الضرير عن رجل لم يسمّ قال: كنت عند طاوس فى المسجد الحرام فجاء رجل ممّن يرمى القدر من كبار الفقهاء فجلس إليه فقال طاوس: يقوم أو يقام فقال الرجل فقال لطاوس: تقول هذا الرجل فقيه، فقال إبليس: أفقه منه بقول إبليس ربِّ بما أغويتنى ويقول هذا: أنا أغوى نفسى.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ : يعنى لأجلسنّ لبنى آدم على طريقك القويم وهو الإسلام كما قال: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أوعجلتم أمر ربّكم يعنى عن أمر ربّكم.

وروى عن النبىّ ﷺ أنّه كان يقول: «إن الشيطان قعد لبنى آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال له أتسلم وتذر دينك ودين آبائك، فعصاه فأسلم ثمّ قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك فإنّما مثل المهاجر كالفرس فى الطول. فعصاه وهاجر ثمّ قعد له

بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال فقال: أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصى له وجاهد».

وعن عون بن عبد الله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: طريق مكّة ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يقول أشككهم فى آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أن يُقيم فى كتابهم ﴿وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ اشتبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أُشهّى لهم المعاصى.

روى عطيّة عن ابن عباس قال: أما بين أيديهم فمن قبل دنياهم وأمّا من خلفهم فإنّه آخرتهم وأمّا عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم.

وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنّه لا يعذّب ولا جنّة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزيّنها لهم ودعاهم إليها، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم يزين لهم السيئات والمعاصى ودعا إليها وأمرهم بها، إياك يا بن آدم من كل وجه غير أنّه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وقال الحكم والسدّى ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: يعنى الدنيا أدعوهم إليها وأُرغبهم فيها وأُزينها لهم. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: من قِبَل الآخرة أُشككهم وأثبطهم فيها. ﴿وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾: من قبل الحق أصدهم عنه (أبتلكم) فيه، وعن شمائلهم من قِبل الباطل أُخففه عليهم وأُزينه لهم وأُرغبهم فيه.

وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون، قال ابن جريج: معنى قوله: من حيث يبصرون أى يخطئون حيث يعلمون أنّهم يخطئون وحيث لا يبصرون لا يعلمون أنهم يخطئون.

وقال الكلبى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: من قِبل آخرتهم أخبرهم أنّه لا جنّة ولا نار ولا نشور. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: من قِبل دنياهم فآمرهم بجمع الأموال لا يعطون لها حقًا وأُخوفهم الضيعة على ذرّيتهم.

﴿وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾: من قبل دينهم فأُبيّن لكلّ قوم ما كانوا يعبدون وإن كانوا على هدى شبّهته عليهم حتّى أخرجتهم منه ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾: من قِبل الشهوات واللذات فأُزيّنها لهم.

وقال شقيق بن إبراهيم: ما من صباح إلاّ وقعد لى الشيطان على أربعة مراصد من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى، أما من بين يدى فأقول: لا تحزن فإنّ الله غفور رحيم، ويقول: ذلك ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢).

وأمّا من خلفى فتخوّفنى الضيعة على عيالى ومحللى فأقول ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦).

وأما من قبَل يمينى فيأتينى من قبل الثناء فأقول ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

وأمّا من قبَل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات واللّذات فأقول ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ: ٥٤).

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾: قال الله عزّ وجلّ لإبليس ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أى معيبًا والذيم والذأم أشد العيب، وهو أبلغ من الذم، يقال: ذمّه يذمّه ذمًّا فهو مذموم وذاءمه يذائمه ذأمًا فهو مذءوم وذامه يذيمه ذيمًا، مثل سار يسير، فهو مذيم والمدحور المقصى يقال: دَحَره يدحره دحرًا إذا أبعده وطرده.

قال ابن عباس: مذءوم عنه ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ يعنى غير مطرود إذ قال الربيع ومجاهد: مذؤومًا ممقوتًا وروى عطية: مذؤومًا مقوتًا، أبو العالية: مذؤومًا مزريًا به.

وقال الكلبى: مذؤومًا ملومًا مدحورًا مقصيًا من الجنة ومن كل خير، وقال عطاء: مذؤومًا ملعونًا.

وقال الكسائى: المذؤوم المقبوح. وقال النضير بن شميل: المذؤوم المحبوس وقال أبان عن ثعلب والمبرّد: المذؤوم المعيب.

قال الأعشى:

وقد قالت قبيلة إذ رأتنى وإذ لا تعدم الحسناء ذأمًا

وقال أُميّة بن أبى الصلت:

قال لإبليس رب العباد أخرج رجس الدنيا مذؤومًا

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: من بنى آدم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾: منك ومن ذريتك وكفار ذريته آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

❖❖❖

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٩ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ

بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ﴾ : يعنى إليهما ومعناه فحدث إليهما ﴿لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ : يعنى ليظهر لهما ما غطى وستر عنهما من عوراتهما، وقال وهب: كان عليهما نور لا يرى سوءاتهما ثمّ بين الوسوسة ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا﴾ : يا آدم وحواء ﴿رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ : يعنى إلاّ أن تكونا وكراهيّة أن يكونا من الملائكة يعملان الخير والشر.

وقرأ ابن عباس والضحاك ويحيى بن أبى معين: ملكين بكسر اللام من الملك أخذوها من قوله ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (طه: ١٢٠).

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ : من الباقين الذين لا يموتون ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ : أى أقسم وحلف لهما، وقاسم من المفاعلة أى يختص الواحد مثل المعافاة والمعاقبة والمناولة.

قال خالد بن زهير:

وقاسمهما بالله جهدًا لأنتم ألذ من السلوى إذا ما نشورها

قال قتادة: حلف لهما بالله عزّ وجلّ حتّى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال: إنى خُلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله خدعنا.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن غر كريم، والفاجر خبٌّ لئيم».

وحدثنا أبو القاسم الحبيبى فى بعضها قال: أنشدنا أبو الحسن المظفّر بن محمد بن غالب قال: أنشدنا نفطويه:

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجربًا لا يخدع

﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ : يعنى فخدعهما يقال: ما زال فلان يدلى لفلان يعرّفه، يعنى ما زال يخطّئه ويكلّمه بزخرف القول الباطل، وقال مقاتل: فزين لهما الباطل.

وقال الحسن بن الفضل: يعنى تعلقهما بغرور، يقال: تدلى بنفسه ودلى غيره. ولا يكون التدلّى إلاّ من علو إلى أسفل، وقيل أصله دللهما فأبدل من إحدى اللامات ياء، كقوله: (تمطّى) و(دسّاها)، وقال أبو عبيدة: دلّيهما أخذ لهما وكلاهما من تدلين الدلو إذا أرسلتها فى البئر لتملأها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾: أكلا منها ووصل إلى بطنيهما ﴿بَدَتْ﴾: ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾: عوراتهما وتهافت عنهما لباسهما حتّى أبصر كل واحد منهما ما ورى عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك.

قال قتادة: كان لباس آدم وحوّاء فى الجنّة ظفر أكله فلما واقعا الذنب كشط عنهما وبدت سوءاتهما فاستحيا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾: يوقعان ويشدان ويمزّقان ويصلان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهو ورق التين حتّى صار بهيئة الثوب ومنه خصف النعل.

وروى أُبى بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «كان آدم رجلاً طوّالاً كأنّه نخلة سحوقًا كثير شعر الرأس فلمّا وقع فى الخطيئة بدت له سوءاته وكان لا يراها فانطلق هاربًا فى الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنّة فَحَسَبَهُ بشر. فقال: أرسلنى، قالت: لست بمرسلتك، فناداه ربّه يا آدم أمنّى تفر، قال: لا يا رب ولكنّى أستحيى منك».

وقال ابن عباس وقتادة: قال الله عزّ وجلّ لآدم: ألم يكن لك فيما أبحته ومنحته لك من الجنّة مندوحة من الشجرة، قال: على عهدى ولكن ما ظننت أن أحدًا من خلقك يحلف بك كاذبًا، قال: فبعزّتى لأُهبطنّك إلى الأرض ثمّ لا تنال العيش إلاّ نكدًا فاهبطا من الجنّة، فكانا يأكلان رغدًا إلى غير رغد من طعام وشراب، تعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثمّ سقى حتى إذا بلغ حصد ثمّ طحنه ثمّ عجنه ثمّ خبزه ثمّ أكل ثمّ بلعه حتّى بلغ منه ما شاء الله أن بلغ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ الآية، قال محمد بن قيس: ناداه ربّه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال: يا رب أطعمتنى حواء، قال لحواء: لم أطعمتيه؟ قالت: أخبرتنى الحيّة، قال للحيّة: لمَ أمرتيها؟ قالت: أمرنى إبليس فقال الله عزّ وجلّ: أمّا إنّك يا حوّاء فكما أدميت الشجرة فَسأدميك، وأمّا أنت يا حيّة فأقطع قوائمك فتمشين جهتىّ الماء على وجهك وسيندفع رأسك من لقيك، وأمّا أنتَ يا إبليس فملعون مدحور.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾: ضررناها بالمعصية ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: الهالكين ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾: يعنى فى الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ : أى خلقنا لكم، وقيل: نزّلنا أسبابه وآلاته لأنه المثبّت بما يقول.

وقيل: على الحكم كبقيّة صنعته وذلك أن قريشًا كانوا يطوفون بالبيت عراة وقوله ﴿لِبَاسٗا﴾ : وهو ما يُلبس من الثياب ﴿يُوَٰرِي﴾ : يستر ﴿سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ : عوراتكم واحدها سوءة، وهى فعلة من السوء سمّيت سوءة لأنّه يسوء صاحبها انكشافها من جسده ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ : يعنى مالاً فى قول ابن عباس والضحاك والسدى، فقال: الريش: الرجل إذا تموك وقال ابن زيد: الريش الجمال.

وقيل: هو اللباس. وحكى أبو عمرو أنّ العرب تقول: أعطانى فلان ريشة أى كسوة وجهازة.

وقرأ عثمان بن عفان والحسن وأبو عبد الرحمن وأبو رجاء وقتادة: ورياشًا بالألف وهو جمع ريش مثل ذئب وذياب وبير وبيار وقَدحَ وقداح.

قال قطرب: الريش والرياش واحد، كقولك دبغ ودباغ ولبس ولباس وحل وحلال وحرم وحرام، ويجوز أن يكون مصدرًا من قول القائل: راشه إليه يريشه رياشًا.

والرياش فى كلام العرب الأثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفراش وغيرها. وقال ابن عباس: الرياش اللباس والعيش والنعيم. وقال الأخفش: الرياش الخصبة والمعايش.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ : قرأ أهل المدينة والشام. والكسائى ولباس التقوى بالنصب عطفًا على الريش. وقرأ الباقون بالرفع على الابتداء وخبره (خير).

وجعلوا ذلك صلة فى الكلام، وكذلك قرأ ابن مسعود وأُبى بن كعب: ولباس التقوى خير. واختلفوا فى لباس التقوى ما هو هل يدلّ على لباس التقوى الدرع والساعدان. والساقان. والآلات التى يتّقى بها فى الحرب مع العدو.

وقال قتادة والسدى وابن جريج: لباس التقوى هو الإيمان: وقال معبد الجهنى: هو الحياة وأنشدنى أبوالقاسم السدوسى قال: أنشدنى أبو عرابة الدوسى فى معناه

إنى كأنى أرى من لا حيـالة ... ولا أمانة وسط الناس عُريانًا

عطيّة عن ابن عباس: هو العمل الصالح وروى الذبال بن عمرو عن ابن عباس قال: هو السمت الحسن فى الوجه.

وقال الحسن: رأيت عثمان بن عفان (رضى الله عنه) على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص قوهى محلول الزر وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام، ثمّ قال: أيها الناس اتقوا الله فى هذه السرائر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفس محمد بيده ما عمل أحدٌ قط سرًا إلاّ ألبسه الله رداءه علنية إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر» ثمّ تلا هذه الآية ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قال: السمت الحسن.

وقال عروة بن الزبير: لباس التقوى خشية الله، ابن زيد: ستر للعورة يتقى الله فيوارى عورته ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: قال وهب بن منبه: الإيمان عريان لباسه التقوى وزينته الحياء وكماله الفقه وجماله العفّة وثمره العمل الصالح.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: لا يعلّمنّكم ولا يستزلّنكم فتبدى برأيكم للناس فى الطواف بطاعتكم ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ﴾ يعنى الشيطان ﴿يَرَاكُمْ﴾ يا بنى آدم ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ خيله وجنوده وهم الجن والشياطين.

قال ابن زيد: نسله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ﴾ قال مجاهد: قال إبليس: جعل لنا أربعًا: نرى ولا يُرى ونخرج من تحت الثرى. ويعود شيخنا فتى.

قال مالك بن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلاّ مَنْ عصم الله.

وسمعت أبا القاسم الحبيبى قال: سمعت أبى قال: سمعت علىّ بن محمد الورّاق يقول: سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول: الشيطان قديم وأنت حديث والشيطان ليّن وأنت ناعم الناحية والشيطان يراك وأنت لا تراه والشيطان لا ينساك وأنت لا تزال تنساه ومن نفسك له عون وليس لك منه عون.

وقيل: صدر ابن آدم مسكن له ويجرى من ابن آدم مجرى الدم، وأنه لا يقاومه إلاّ بعون

الله. ومنه يقول: ولا أراه من حيث يراني. وعندما أنساه لا ينساني فسيدى إن لم تغث يسبيني كما سبا آدم من جنانك.

قال ذو النون المصرى: إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإنّ الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه فإنّ كيد الشيطان كان ضعيفًا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾: أعوانًا وقرناء ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾: وفاحشتهم أنّهم كانوا يطوفون بالبيت عُراة الرجال بالنهار والنساء بالليل. ويقولون: نطوف كما ولدتنا أُمهاتنا ولا نطوف فى الثياب التى اقترفنا فيه الذنوب.

وكانت المرأة تضع على قُبُلها النسعة أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه   ومـا بدى منه فلا أُحلّه

وفى الآية إضمار ومعناه: إذا فعلوا فاحشة ونُهوا عنها ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ قيل: من أين أخذ آباؤكم قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ قال ابن عباس: بلا إله إلاّ الله، وقال الضحاك: التوحيد، وقال مجاهد والسدى: بالعدل ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال مجاهد والسدى وابن زيد: يعنى وجهوا وجوهكم حيث ما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة.

وقال الضحاك: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلّوا فيه ولا تقولون: أحب أن أُصلى فى مسجدى، وإذا لم يكن عند مسجد فليأت أىّ مسجد فليصلّ فيه.

وقال الربيع: معناه واجعلوا سجودكم لله سبحانه وتعالى خالصًا دون ما سواه من الآلهة والأنداد ﴿وَٱدْعُوهُ﴾: واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾: الطاعة والعبادة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: قال النبى ﷺ: «تبعث كل نفس على ما كانت عليه».

قال ابن عباس: إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا كما قال ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾ (التغابن: ٢) ثمّ يعيده يوم القيامة كما بدأ خلقهم كافرًا ومؤمنًا، فيبعث المؤمن مؤمنًا والكافر كافرًا.

وقال جابر: يبعثون على ما ماتوا عليه المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه. وقال أبو العالية: عادوا إلى علمه فيهم.

قال محمد بن كعب: من ابتدأ خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدأ عليه خلقه وإن عمل بإعمال أهل السعادة، كما أنّ إبليس عمل أعمال أهل السعادة صار إلى ما ابتدأ عليه خلقه، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدأ عليه خلقه وإن عمل أهل الشقاوة، كما أنّ

السحرة عملت أعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدأ عليه خلقهم.

وقال سعيد بن جبير: معناه كما كتب عليكم تكونون نظير قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

قال قتادة: خلقكم من التراب وإلى التراب تعودون نظير قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ (طه: ٥٥).

وقال الربيع بن أنس: كما بدأكم عريانًا تعودون لهم عريانًا. نظيره قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الأنعام: ٩٤).

وقال السدى: كما خلقكم فريق مهتدون وفريق ضلال، كذلك تعودون تخرجون من بطون أُمهاتكم، قال الحسن ومجاهد: كما بدأكم فخلقكم فريق مهتدون وفريق ضلال. كذلك تعودون يوم القيامة، نظيره قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «يُحشر الناس حُفاة عُراة وأول من يُكسى إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: قال المفسّرون: كانت بنو عامر فى الجاهلية يطوفون فى البيت عُراة الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانوا إذا قدموا مسجد منى طرح

أحدهم ثيابه فى رحله وإن طاف وهى عليه ضُرب وانتزعت منه فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ يعنى الثياب.

وقال مجاهد: ما توارى به عورتك للصلاة والطواف وقال عطية وأبو روق وأبو رزين: المشط.

وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا الهيثم الجهنى يحكى عن السنوخى القاضى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ يعنى: رفع الأيدى فى مواقيت الصلاة.

وروى على عن النبى ﷺ فى الخبر، قول جبرائيل (عليه السلام) للنبى ﷺ: «إن لكل شىء زينة وإن زينة الصلاة برفع الأيدى فيها فى ثلاث مواضع إذا تحرمت للصلاة: إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع».

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾: قال الكلبى: كانت بنو عامر لا يأكلون من الطعام إلاّ قوتًا ولا يأكلون دسمًا فى أيام حجهم يعظّمون بذلك حجّهم فقال المسلمون: يا رسول الله نحن أحق أن نفعل ذلك، فأنزل الله تعالى ﴿وَكُلُواْ﴾: يعنى اللحم والدسم ﴿وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾: يعنى الحرام.

قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك سرف ومخيلة، وقال مجاهد: الإسراف ما قصرت به عن حق الله. وقال: لو أنفقت مثل أُحُد فى طاعة الله لم يكن سرفًا ولو أنفقت درهمًا أو مدًا فى معصية الله كان إسرافًا.

وقال الكلبى: ولا تُسرفوا يعنى لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾: المتجاوزين من فعل الحرام فى الطعام والشراب، وبلغنى أنّ الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق، فقال لعلىّ بن الحسين بن واقد: ليس فى كتابكم من علم الطب شىء، والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان، قال علىّ: قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا قال: وما هى؟ قال قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ فقال النصرانى: ولا يؤثر على رسولكم شىء فى الطب؟

فقال علىّ: جمع رسول الله ﷺ الطب فى ألفاظ يسيرة قال: وما هى؟ قال: قوله: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كلّ دواء وأعط كل بدن ما عودته».

فقال النصرانى: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًّا.

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾: يعنى الثياب ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾: قال ابن زيد: كان قوم إذا حجّوا أو اعتمروا حرموا الشاة عليهم وما يخرج منها لبنها وسمنها ولحمها وشحمها، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ الآية.

قال ابن عباس وقتادة: يعنى بالطيبات من الرزق ما حرم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصايا والحوامى. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ﴾: قال ابن عباس: إنّ المؤمنين يشاركون المشركين فى الطيّبات من الدنيا فأكلوا من طيّبات طعامهم وأُلبسوا من جياد ثيابهم وأنكحن الزوج . . . إلخ كما هم، ثم يخلص الله الطيبات فى الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شىء ومجاز الآية: قل هى للذين آمنوا مشتركة فى الحياة الدنيا وخاصة فى يوم القيامة.

وقراءة ابن عباس وقتادة ونافع: خالصة بالرفع يعنون قل هى خالصة.

وقرأ الباقون: بالنصب على القطع لأن الكلام قد تمّ دونه ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَٰحِشَ﴾: يعنى الطواف عُراة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: طواف الرجال بالنهار ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: طواف النساء بالليل.

وقيل: هى الزنا والمخالة.

وقال النبى ﷺ: «ليس أحد أحب إليه من المدح من الله سبحانه من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، وليس أحد أحب إليه العذر من الله عزّ وجلّ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل».

﴿وَالْإِثْمَ﴾: يعنى الذنب والمعصية. وقال الحسن: الإثم الخمر. وقال الشاعر:

شربت الإثم ظل عقلى كذلك الإثم يذهب بالعقـــول

وقال الآخر:

نشرب الإثم بالصواع جهاراً ونرى السكر بيننا مستعـــارا

﴿وَالْبَغْيَ﴾: وهو الظلم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾: حجة وبرهانًا ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: تحريم الملابس والمآكل ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: مدّة وأجل، وقيل: وقت حلول العقاب وأوّل العذاب. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: وإذا انقطع أجلهم، وقرأ ابن سيرين آجالهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾: لا يتأخّرون ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: لا يتقدّمون ﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾: شرط معناه: إن أتاكم عجزًا به فمن اتقى، وقيل فأطيعوه وقال مقاتل: أراد بقوله يا بنى آدم لا تشركوا بالرب، وبالرسل محمد ﷺ وحده. ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾: عمله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ﴾: عن الإيمان بمحمد والقرآن ﴿أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ﴾: حظّهم بما كتبوا لهم فى اللوح المحفوظ. وقال الحسن والسدي وأبو صلاح: ما كسب لهم من العذاب.

وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطيّة: ما سبق لهم من الشقاوة والسعادة. وروى بكر الطويل عن مجاهد فى هذه الآية قال: قوم يعملون أعمالا لا بد من أن يعملوها ولم يعملوها بعد. قال ابن عباس وقتادة والضحاك: يعنى أعمالهم وما كتب عليهم من خير أو شر، فمن عمل خيراً أُجزى به ومن عمل شراً أُجزى به. مجاهد عن ابن عباس قال: هو ما وعدوا من خير وشر. عطيّة عن ابن عباس أنّه قال: ينالهم ما كتب لهم وقد كتب لمن يفترى على الله أن وجهه مسود، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (الزمر: ٦٠).

قال الربيع والقرظى وابن زيد: يعنى ما كتب لهم الأرزاق والأعمال والأعمار فإذا فنيت

وتم خرابها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ : يقبضون أرواحهم يعنى ملك الموت وأعوانه ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ﴾ : تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ : انشغلوا بأنفسهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ : أقروا ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ : قالوا : شهدنا على أنفسنا بتبليغ الرسل وغرّتهم الحياة الدنيا وشهدوا وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾ : يقول الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة ادخلوا ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ : يعنى مع جماعات ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ﴾ : يعنى كفار الأمم الماضية ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ : فى الدين والملة ولم يقل أخاها لأنّه عنى بها الأُمّة فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود، وكذلك النصارى النصارى والمجوس المجوس ويلعن الأتباع القادة يقولون : لعنكم الله أنتم غررتمونا يقول الله عزّ وجلّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ : أى تلاحقوا ﴿جَمِيعٗا﴾ : قرأ الأعمش : حتّى إذا تداركوا، على الأصل، وقرأ النخعى : حتّى إذا ادركوا، مثقلة الدال من غير ألف أراد فنقلوا من الدرك .

﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ : قال مقاتل : يعنى أُخراهم دخولاً للنار وهم الأتباع ، ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ : دخولاً وهم القادة .

قال ابن عباس : ﴿أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ يعنى آخر الأُمم ، ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ يعنى أوّل الأمم ، وقال السدى : ﴿أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ يعنى الذين كانوا فى آخر الزمان . ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ يعنى الذين شرعوا لهم ذلك الدين .

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ : عن الهدى يعنى الفساد ﴿فَـَٔاتِهِمۡ﴾ : أى فأعطهم ﴿عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ : أى مضعفًا من النار ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ : من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ : حتّى يحل بكم ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ : لأنّكم كفرتم كما كفرنا ونحن وأنتم فى الكفر سواء وفى العذاب أيضًا ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ﴾ : قرئ بالياء والتاء والتشديد والتخفيف جميعًا ﴿لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ : يعنى لا أرواحهم ولا أعمالهم لأنّها خبيثة فلا يصعد بل تهوى بها إلى سجن تحت الصخرة التى تحت الأرضين .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «إن الميت ليحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة ، وأبشرى بروح من الله وريحان ورب غير غضبان فيقولون ذلك حتّى تخرج ثمّ تعرج بها إلى السماء فينفتح لها فيقال : من هذا فيقال : فلان فيقولون : مرحبًا بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، فيقال ذلك لها حتّى يعرج بها إلى السماء السابعة .

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتّى يخرج، ثمّ يعرج بها إلى السماء فتفتح لها فيقال: من هذا فيقولون فلان، فيقولون: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة التى كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء فيُرسل من السماء والأرض فيصير فى القبر.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾: يعنى: يدخل البعير فى ثقب الإبرة وهذا مثل والسمّ هو الإبرة.

وقرأ عكرمة وسعيد بن جبير: الجمل بضم الجيم وبتشديد الميم. وهو حبل السفينة ويقال لها الفلس قال عكرمة: هو الحبل الذى يصعد به إلى النخل ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ۝ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾: فراش من نار ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾: وهى جمع غاشية وذلك ما غشاهم وغطاهم وقال القرظى ومجاهد: هى اللحف ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾: قال البراء: قال رسول الله ﷺ: «يكسى الكافر لوحين من نار فى قبره»، وذلك قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: أى طاقتها وما يسعها ويحلّ لها فلا تخرج منه ولا تضيق عليه ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَنَزَعْنَا﴾: أخرجنا وأذهبنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾: قلوبهم ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾: وحقد وعداوة كان من بعضهم على بعض فى الدنيا فجعلناهم إخوانًا على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضًا على شىء خص الله به بعضهم وفضلهم به، روى الحسن بن علىّ (رضى الله عنه) قال: فينا والله أهل البيت نزلت ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: ٤٧).

وقال علىّ - كرّم الله وجهه - أيضًا: «إنّى لا أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم﴾ الآية».

وقال السدى فى هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنّة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما، فينزع ما فى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأُخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يتسخوا بعدها أبدًا.

وروى الجزائرى عن أبى نضرة قال: يحتبس أهل الجنّة حتّى يقتص بعضهم من بعض حتى يدخلوا الجنّة حين يدخلونها، ولا يطلب أحد منهم أحدًا علاقة ظفر ظلمها إياه ويحبس أهل النار دون النار حتّى يقتص لبعضهم من بعض حتى يدخلوا النار حين يدخلونها، ولا يطلب

أحد منهم أحدًا بعلاقة ظفر ظلمها إياه ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾: وفقنا وأرشدنا إلى هذا يعني طريق الجنة وقال سفيان الثوري: معناه الحمد الله الذي هدانا لعمل هذا ثوابه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ﴾: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزلة مَنْ بالجنّة فيقولون: لو هدانا الله نكون من المؤمنين وكل أهل الجنّة ترى منزلة من بالنار ويقولون: لولا أنّه هدانا الله فهذا شكرهم قال: وليس هناك من كافر ولا مؤمن إلاّ وله في الجنّة أو النار منزل فإذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار فدخلوا منازلهم رفعت الجنّة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل لهم هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله، ثمّ يقال: «يا أهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون فيقسم بين أهل الجنّة منازلهم، ونودوا أن صحوا فلا تسقموا واخلدوا فلا تموتوا وانعموا فلا تيأسوا وشبّوا فلا تهرموا».

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾: من الثواب ﴿حَقًّا﴾: صدقًا ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾: من العذاب ﴿حَقًّا﴾: هذا قول محمد بن جرير ﴿قَالُوا۟ نَعَمْ﴾: قال الكسائي: «نعم» بكسر العين وتجوز بإسكانها وهما لغتان ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾: فنادى مناد منهم ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾: يصرفون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دين الله

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ : يطلبونها زيغًا وميلاً ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۝ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ : يعنى بين الجنة والنار حجاب حاجز وهو السور الذى ذكر الله عزّ وجلّ فى قوله : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ (الحديد: ١٣).

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ : يعنى على ذلك الحجاب. والأعراف سور بين الجنّة والنار وهى جمع عرف وهو كلّ تل مرتفع ومنه عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده.

وقال الشماخ:

وظلت بأعراف تعالى كأنها رماح نحاها وجهة الريح راكز

ويروى: بأعراف قفالاً، أى قفالى أى قفلى بعضهم بعضًا، بمشغرة نصف حمير، وشبّه قوامها بالرماح نحاها قصد بها وجهة الريح، أى جهة الريح، وقوله: بأعراف أى نشوز من الأرض.

وقال آخر:

كل كناز لحمها نياف كالعلم الموفى على الأعراف

يعنى كل كناز نياف لحمها والكناز الصلب.

قال السدى: سمى أعرافًا لأن أصحابه يعرفون الناس. وقال الحسين بن الفضل: هو الصراط، واختلفوا فى الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف من هم وما السبب الذى من أجله صاروا هناك؟ فقال حذيفة وابن عباس: أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم مع سيّئاتهم وقصرت به سيّئاتهم عن الجنّة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتّى يقضى الله فيهم ما يشاء ثمّ يدخلهم الجنّة بفضل رحمته وهم آخر مَنْ يدخل الجنّة قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا أراد الله أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه من الذهب مكلّلاً باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتّى يصلح ألوانهم ويبدو فى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بهم فأتى بهم فقال الله لهم: تمنوا ما شئتم فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذى تمنيتم ومثله سبعون ضعفًا فيدخلون الجنّة وفى نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنّة.

قال ابن مسعود: يحاسب الله عز وجلّ الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيّئاته بواحدة دخل الجنّة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثمّ قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣)، ثمّ قال: الميزان يخفف بمثقال حبّة فيرجح.

ومَن استوت حسناته وسيّئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ولم ينزع منهم النور الذى كان فى أيديهم. وروى يحيى بن شبل أنّ رجلاً من بنى النضير أخبره عن رجل من بنى هلال أن أباه أخبره أنّه سأل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: «هم رجال غزوا فى سبيل الله عصاة لآبائهم فقتلوا فأعفوا من النار لقتلهم فى سبيل الله وحبسوا عن الجنّة بمعصية آبائهم فهم آخر من يدخل الجنّة».

قال شرحبيل بن سعيد: هم قوم خرجوا فى الغزو بغير إذن آبائهم، وقال مجاهد: هم قوم صالحون فقهاء علماء، وقال التميمى وأبو مجلز: هم ملائكة يعرفون أهل الجنّة وأهل النار فقيل لأبى مجلز يقول الله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ وتزعم أنت أنهم ملائكة، فقال: إنهم ذكور ليسوا بإناث، قال ابن عباس: هم رجال كانت لهم ذنوب كثيرة، وكان حبسهم أمر الله يقومون على الأعراف ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

وروى صالح مولى الكوفة أنّ ابن عباس قال: أصحاب الأعراف أولاد الزنا. وقال أبو العالية: هم قوم يطمعون أن يدخلوا الجنّة وما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلاّ كرامة يريدها بهم.

وقال عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه قال: هم قوم رضى عنهم آباؤهم دون أُمهاتهم أو أُمهاتهم دون آبائهم فلم يدخلهم الله الجنّة، لأن آباءهم وأُمهاتهم غير راضين عنهم ولم يدخلهم النار لرضا آبائهم أو أمهاتهم عنهم فيحبسون على الأعراف إلى أن يقضى الله عزّ وجلّ بين الخلق ثمّ يدخلهم الجنّة، وقال عبد العزيز بن يحيى الكنانى: هم الذين ماتوا بالفقر ولم يبدلوا دينهم، وفى تفسير المنجونى: إنهم أولاد المشركين.

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: سمعت محمد بن محمد بن الأشعب يحكى عن بعضهم أنهم أُناس عملوا لله عزّ وجلّ ولكنهم راءوا فى أعمالهم فلا يدخلون النار لأنّهم عملوا أعمالهم لله ولا يدخلون الجنّة لأنّهم طلبوا الثواب من غير الله فيوقفون على الأعراف إلى أن يقضى الله بين الخلق قوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

وروى جويبر بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾: قال: «الأعراف موضع عال من الصراط عليه العباس وحمزة، وعلىّ بن أبى طالب وجعفر ذو الجناحين يَعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسواد الوجوه».

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ يعنى يعرفون أهل الجنّة ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم

ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وزرقة عيونهم.

﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ : يعنى أهل الأعراف.

قال سعيد بن جبير: والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم لأن الله تعالى . . . .[1]، ويود المنافقون وهم على الصراط لو بقى أحدهم ولم . . . .[1].

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ﴾ : وجوه أهل النار ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ : وحيالهم تعوذوا بالله ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ : الكافرين فى النار ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ : كانوا عظماء أهل النار جبّارين ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ : فى الدنيا من المال والأولاد ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ : عن الإيمان.

وقال الكلبى: إنهم ينادون وهم على السور يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل بن هشام ويا فلان: ثمّ ينظرون إلى الجنّة فيرون فيها الضعفاء والفقراء والمساكين ممن كانوا يستهزئون بهم مثل سلمان وصهيب وخبّاب وأتباعهم فينادون ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ : حلفتم وأنتم فى الدنيا ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ : يعنى الجنّة ثمّ يقال لأصحاب الأعراف ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وقال مقاتل أقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنّة بل يدخلون النار معهم.

فقالت الملائكة الذين حبسوا أصحاب الصراط ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ﴾ يعنى أصحاب الأعراف ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ يا أهل النار لا يكلّمهم الله برحمة، ثمّ قالت الملائكة لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنّة.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ﴾ : صبّوا وأوسعوا ﴿عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ : من طعام الجنّة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ : يعنى الماء والطعام ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ : قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس: أى الصدقة أفضل قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء ألا رأيت أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنّة قالوا أفيضوا علينا من الماء».

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ : وهو ما زيّن لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الرديئة الدنيئة التى كانوا يفعلونها فى جاهليتهم، والدين كل ما أطيع به والتزم من حق أو باطل، وقال أبو روق: دينهم أو عقيدتهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ : نتركهم فى النار ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ : من القرآن ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ : بيّناه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ : منّا بذلك ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ : نصبها على القطع ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ﴾ : ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ : أى ما يؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار.

قال قتادة: تأويله ثوابه. وقال مجاهد: جزاؤه. وقال السدى: عاقبة. وقال ابن زيد: حقيقته ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا﴾ اليوم ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ﴾ : إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ : قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ﴾ : زال وبطل ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ : قال سعيد بن جبير: قدّر الله على مَنْ فى السموات والأرض فى لمحة ولحظة وإنما خلقهن فى ستة أيام تنظيمًا لخلقه بالرفق والتثبيت فى الاسم ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ : قال الكلبى ومقاتل: يعنى استقر وقال أبو عبيد فصعد وقال بعضهم: استولى وغلب.

وقيل: ملك وغلب، وكلّها تأويلات مدخولة لا يخفى بعدها وأمّا الصحيح والصواب فهو ما قاله الفراء وجماعة من أهل المعانى (إن أول ما) خلق العرش وعهد إلى خلقه يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ (البقرة: ٢٩) أى إلى خلق السماء.

وقال أهل الحق من المتكلمين: أحدث الله فعلاً سماه استواء، وهو كالإتيان والمجيء والنزول وهى صفات أفعاله.

روى الحسن عن أم سلمة فى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥) قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والنزول به إيمان والجحود به كفر.

عن محمد بن شجاع البلخى قال: سئل مالك بن أنس عن قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ قال: الكيف مجهول والاستواء غير معقول والإيمان واجب فالسؤال عنه بدعة.

وروى محمد بن شعيب بن شابور عن أبيه أن رجلاً سأل الأوزاعى فى قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾: فقال: هو على العرش كما وصف نفسه، وإنى لأراك رجلاً ضالاً.

وبلغنى أن رجلاً سأل إسحاق بن الهيثم الحنظلى فقال: كيف استوى على العرش أقائم هو أم قاعد؟

فقال: يا هذا إنما يقعد من يمل القيام ويقوم من يمل القعود وغير هذا أولى لك ألاّ تسأل عنه.

والعرش فى اللغة السرير.

وقال آخرون: هو ما علا وأظل، ومنه عرش الكرم، وقيل: العرش الملك.

قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

﴿يُغْشِى﴾: يطمس ﴿ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: مسرعًا ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾: أى مذلّلات ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾: وقرأ أهل الشام بالرفع على الابتداء والخبر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾: سمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا عبد الله محمد بن نافع التاجر بهرات الشجرى يقول: سمعت أبا زيد حاتم بن محجوب السامى يقول: سمعت عبد الجبار ابن العلاء العطّار يقول: سألت سفيان بن عيينة عن قوله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾: فقال: فرق الله بين الخلق والأمر ومَنْ جمع بينهما فقد كفر.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم يحمد الله على ما عمل من صالح وحمد نفسه فقد قل شكره وحبط عمله، ومَنْ زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئًا فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

وأنشدنا أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنا أبو الحسن عيسى بن زيد العقيلى، أنشدنا أبو المثنّى معاذ بن المثنى العنبرى عن أبيه محمود بن الحسن الورّاق قال: إن لله كل الأمر فى كل خلقه ليس إلى المخلوق شىء من الأمر ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ قال الضحاك: تبارك تعظم، الخليل ابن أحمد: تبارك تمجد، القتيبى: تفاعل من البركة، الحسين بن الفضل: تبارك فى ذاته وبارك فيمن شاء من خلقه ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾: تذلّلا واستكانة ﴿وَخُفْيَةً﴾: سرًّا.

وروى عاصم الأحول عن ابن عثمان الهندى عن أبى موسى قال: كان النبى ﷺ فى غزاة فأشرفوا على واد فجعل ناس يكبّرون ويهلّلون ويرفعون أصواتهم فقال النبى ﷺ: «أيُّها الناس أربعوا على أنفسكم إنّكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنّكم تدعون سميعًا قريبًا إنّه معكم».

وقال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا ثمّ قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما شعر به جاره والرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيت وعنده الدور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السرّ فيكون علانية أبدًا.

ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ولا يسمع لهم صوتًا كأن كان إلا همسًا بينهم وبين دينهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وأن الله ذكر عبدًا صالحًا ورَضى فعله فقال عزّ مَنْ قائل: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٣).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: فى الدعاء، قال أبو مجلز: هم الذين يسألون منازل الأنبياء، وقال عطيّة العوفى: هم الذين يدعونه فيما لا يحل على المؤمنين فيقولون: اللّهمّ أخزهم اللّهمّ العنهم، قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصفح وكانوا يؤمرون بالتضرّع والاستكانة ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بالشرك والمعصية والدعاء إلى غير عبادة الله ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾: بعد إصلاح الله إيّاها يبعث الرسل، والأمر بالحلال والنهى عن المنكر والحرام وكل أرض قبل أن يبعث لها نبى فاسدة حتّى يبعث الرسل إليها فيصلح الأرض بالطاعة.

وقال عطية: معناه لا تعصوا فى الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: قال الكلبى: خوفًا منه ومن عذابه وطمعًا فيما عنده من مغفرته وثوابه، الربيع بن أنس: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: كقوله ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (الأنبياء: ٩٠). وقيل: خوف العاقبة وطمع الرحمة، ابن جريج: خوف العدل وطمع الفضل. عطاء: خوفًا من النيران وطمعًا فى الجنان. ذو النون المصرى: خوفًا من الفراق وطمعًا فى التلاق ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ

﴿مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: وكان حقه قربته. واختلف النحاة فيه وأكثروا وأنا ذاكر نصوص ما قالوا.

قال سعيد بن جبير: الرحمة ههنا الثواب. وقال الأخفش: هى المطر فيكون القريب نعتًا للمعنى دون اللفظ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ (النساء: ٨) ولم يقل: منها، لأنه أراد بالقسمة الميراث والمال. وقال: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ (يوسف: ٧٦) والصواع مذكّر لأنّه أراد به القسمة، والميراث كالمنشريّة والسقاية.

وقال الخليل بن أحمد: القريب والبعيد يستوى فيهما المذكر والمؤنث والجمع يذكر ويؤنث يقول الشاعر:

كفى حُزنًا أنّى مقيم ببلدة أخلائى عنها نازحون بعيد

وقال آخر:

كانوا بعيدًا فكنت آملهم حتى إذا ما تقربوا هجروا

وقال آخر:

فالدار منّى غير نازحة لكن نفسى ما كادت مواتاتى

وقال سيبويه: لمّا أضاف المؤنث إلى المذكّر. أخرجه على مخرج المذكر، وقال الكسائى: إن رحمة الله قريب مكانها قريب كقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب: ٦٣) أى إتيانها قريب.

قال النضر بن شميل: الرحمة مصدر وحق المصادر التذكير كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (البقرة: ٢٧٥) وقال الشاعر:

إنّ السماحة والمروءة ضُمّنا قبرًا بمروَ على الطريق الواضح

ولم يقل: ضمنتا لأنّها مصدر. وقال أبو عمرو بن العلاء: القريب فى اللغة على ضربين قريب قرب مقربه أبوابه كقول العرب: هذه المرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة وهذه المرأة قريب منك إذا كانت بمعنى المسافة والمكان. قال امرؤ القيس:

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكر

وقال أبو عبيدة: القريب والبعيد يكونان للتأنيث والتذكير واحتج بقول عروة بن الورد:

خشيته لا عفراء منك قريبة فتدنوه ولا عفراء منك بعيد

وقال أبو عبيدة: القريب والبعيد إذا كانا اسمين استوى فيهما المذكر والمؤنث وإن بنيتهما على قَرُبت وبعدت فهى قريبة وبعيدة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا﴾ : قرأ عاصم بُشراً بالباء المضمومة والشين المجزومة يعنى أنّها تبشّر بالمطر يدلّ عليه قوله : ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ (الروم: ٤٦).

وروى عنه بُشُراً بضم الباء والشين على جمع البشير مثل نذير ونذار.

وهى قراءة ابن عباس. وقرأ غيره من أهل الكوفة نشراً بفتح النون وجزم الشين وهو الريح الطيبة اللينة. قال امرؤ القيس:

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر

وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وزر بن حبيش، واختاره أبو عبيد لقوله: ﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ (المرسلات: ٣) وقرأ أهل الحجاز والبصرة نشراً بضم النون والشين واختاره أبو حاتم فقال: هى جمع نشور مثل صبور وصابر، وشكور وشاكر. وهى الرياح التى تهب من كل ناحية وتجىء من كل وجه وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن وابن عامر نشراً بضم النون وجزم الشين على التخفيف.

وقرأ مسروق (نشراً) بفتحتين أراد منشوراً كالمقبض والقبض ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ : يعنى قدّام المطر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ : حملت ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ : المطر ﴿سُقْنَـٰهُ﴾ : رد الكناية إلى لفظ السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ : يعنى إلى بلد.

وقيل: معناه لأجل بلد لا نبات له ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ : أى السحاب وقيل: بالبلد ﴿ٱلْمَآءَ﴾ : يعنى المطر، وقال أبو بكر بن عيّاش: لا تقطر من السماء قطرة حتّى يعمل فيها أربع: رياح الصبا تهيّجه والشمال تجمعه والجنوب تدرّه والدبور تفرّقه ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ : أحياء قال أبو هريرة وابن عباس: إذا مات الناس كلّهم فى النفخة الأولى أمطر عليهم أربعين عاماً يسقى الرجال من ماء تحت العرش يُدعى ماء الحيوان فينبتون فى قبورهم بذلك المطر كما ينبتون فى بطون أُمهاتهم، وكما ينبت الزرع من الماء حتّى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثمّ يلقى عليهم نومة فينامون فى قبورهم، فإذا نفخ فى الصور الثانية عاشوا وهم يجدون طعم النوم فى رءوسهم وأعينهم كما يجد النائم إذا استيقظ من نومه فعند ذلك يقولون ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (يس: ٥٢) فيناديهم المنادى ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر فمثل المؤمن مثل البلد الطيب الزاكى يخرج نباته ريعة بإذن الله، ومثل الكافر كمثل الأرض الصبخة الخبيثة التى لا يُخرج نباتها وغلّتها ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ : أى عسيراً قليلاً بعناء ومشقّة وقرأ أبو جعفر: (نكداً) بفتح الكاف أى النكد ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ بينهما ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: وهو نوح بن ملك بن متوشلح بن أخنوخ، وهو إدريس بن مهلائيل بن يزد بن قيثان بن أنوش بن شيث بن آدم عليهم السلام، وهو أول نبى بعد إدريس وكان نجارًا بعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه وهو ابن خمسين سنة ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قرأ محمد بن السميقع (غيره) بالنصب.

قال الفراء: بعض بنى أسد وقضاعة أجاز نصب «غير» فى كل موضع يحسن فيه «إلا» تمّ الكلام قبلها أو لم يتم فيقولون: ما جاءنى مشرك وما أتانى أحد غيرك. فأنشد الفضل:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى ذات أو قال

وقال الزجاج: قد يكون النصب من وجهين: أحدهما الاستثناء من غير جنسه.

والثانى الحال من قوله ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: لأن «غيره» نكرة، وإن أضيف إلى المعارف. وقرأ أبو جعفر ويحيى بن وثّاب والأعمش والكسائى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ بكسر الراء على نعت الإله، واختاره أبو عبيد ليكون كلامًا واحدًا.

وقرأ الباقون (غيره) بالرفع على وجهين: أحدهما: التقديم وإن كان مؤخرًا فى اللفظ تقديره: ما لكم غيره من إله غيره.

والثانى: أن يجعله نعت التأويل الإله لأن المعنى ما لكم إله غيره ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: إن لم تؤمنوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾: يعنى الأشراف والسادة، وقال الفراء: هم الرجال ليست فيهم امرأة ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾: خطال وزوال عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾: يعنى ظاهر ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل: ليست لأن معنى الضلالة الضال، وقد يكون على معنى تقديم الفعل ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ﴾: قرأ أبو عمرو: وأُبلّغكم خفيفة فى جميع القرآن لقوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾، ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾. ولأن

جميع كتب الأنبياء نزلت دفعة واحدة منها القرآن، وقرأ الباقون: أُبلّغكم بالتشديد واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لأنّها أجزل اللغتين، قال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧).

﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾: يقال بتخفيفه ونصحت له وشكرته وشكرت له ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: من عقابه لا يرد عن القوم المجرمين ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾: الألف للاستفهام دخلت على واو العطف كأنه قال: إن أضعتم كذا وكذا ﴿أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: يعنى نبوّة الرسالة، وقيل: معجزة وبيان.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾: عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾: ولكى يتقّوا الله ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ لكى تُرحموا ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: يعنى نوحًا ﴿فَأَنجَيۡنَـٰهُ﴾: من الطوفان ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾: قال ابن إسحاق: يعنى بنيه الثلاثة، سام وحام ويافث وأزواجهم وستة أناس ممن كان آمن به وحملهم ﴿فِى ٱلۡفُلۡكِ﴾ وهو السفينة.

وقال الكلبى: كانوا ثمانين إنسانًا أربعون ذكورًا وأربعون امرأة ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾: عن الحق جاهلين بأمر الله، وقال الضحاك: ﴿عَمِينَ﴾ كفّارًا.

وقال الحسين بن الفضل: ﴿عَمِينَ﴾ فى البصائر يقال: رجل عَمٍ عن الحق وأعمى فى البصر. وقيل: العمى والأعمى واحد كالخضر والأخضر. وقال مقاتل: عموا عن نزول العذاب بهم وهو الحرث.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۚ قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥
قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ
يَـٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠
لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ
وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٍ وَزَادَكُمۡ فِى ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةًۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ
ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٌ وَغَضَبٌۖ
أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسۡمَآءٍ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَـٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى

مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ : يعنى وأرسلنا إلى عاد فلذلك نصب ﴿أَخَاهُمْ﴾ : وهو علاء بن عوص بن آدم ابن سام بن نوح وهو عاد الأولى ﴿أَخَاهُمْ﴾ : فى النسب لا فى الدين ﴿هُودًا﴾ : وهو هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن آدم بن سام بن نوح وقال ابن إسحاق : هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ﴿قَالَ﴾ : لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ : الله فتوحدونه وتعبدونه ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ : جهالة وضلالة بتركك ديننا ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ : إنّك رسول الله إلينا وأن العذاب نازل بنا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ : أدعوكم إلى التوبة ﴿أَمِينٌ﴾ : قال الضحاك : أمين على الرسالة، وقال الكلبى : قد كنت فيكم قبل ذلك اليوم أمينًا ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ : يعنى نفسه ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ : يعنى أهلكهما بشركاء منهم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ : أى طولا وشدّة وقوّة.

قال مقاتل : طول كل رجل اثنا عشر ذراعًا، ابن عباس : تمثّل ذراعًا وقال الكلبى : كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستّين ذراعًا. أبو حمزة الثمالى سبعون ذراعًا. ابن عباس : ثمانون، وهب : كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة وكان عين الرجل يفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ : نعم الله واحدها (إل وإلى وإلو)(١) ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ : وندع ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ : يعنى العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ :

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وجب ونزل ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ : أى عذاب، والسين مبدأ من الزاى و﴿وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ : وضعتموها على الأصنام . . . .(٢) يعبد نارًا ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ : قبلكم ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ : حجّة وبيان وبرهان ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزول العذاب.

﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ : يعنى هودًا عند نزول العذاب.

---

(١) سقط بالأصل تم استدراكه من تفسير القرطبى (٧/ ٢٣٧).

(٢) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾: أى استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾: وكانت قصّة عاد وهلاكهم على ما ذكره محمد بن إسحاق والسدى وغيرهما من الرواة والمفسّرين: إن عاداً كانوا ينزلون اليمن وكان مساكنهم منها بالشجرة والأحقاف، وهى رمال يقال لها رمل عالج (ودمما وبيرين) ما بين عمان إلى حضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله عزّ وجلّ وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله صنم يقال له: صنا، وصنم يقال له: صمود، وصنم يقال له: الهبار.

فبعث الله عزّ وجلّ إليهم هوداً نبيّا وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم حسبًا وأمرهم أن يوحدوا الله ولا يشركوا معه إلهًا غيره، وأن يكفّوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك.

فأبوا عليه وكذّبوه وقالوا: مَنْ أشد منّا قوّة، وبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبارين كما ذكر الله تعالى فلما فعلوا ذلك أمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين حتّى جهدهم ذلك.

وكانت الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو حرب دعوا إلى الله الفرج وطلبتهم إلى الله عند البيت الحرام بمكّة مسلمهم ومشركهم فتجتمع بمكّة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم وكلّهم معظّم لمكّة عارف بحرمتها ومكانها من الله عزّ وجلّ. وأهل مكّة يومئذ العماليق وإنّما سمُّوا العماليق لأن أباهم عمليق بن لاود بن سام بن نوح وكان سيّد العماليق إذ ذاك بمكة رجل يقال له: معاوية بن بكر وكانت أم معاوية جلهمة بنت الخبيرى رجل من عاد الأكبر فلمّا قحط المطر عن عاد وجمدوا قال: جهزوا وفداً إلى أن يستسقوا لكم فبعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزال وعتيل بن صد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عقير.

وكان مسلمًا يكتم إسلامه وجلهمة بن الخبيرى، قال معاوية بن بكرة: ثمّ بعثوا لقمان ابن عاد بن صد بن عاد الأكبر، فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه رهط من قومه حتّى بلغ عدّة فعدّهم سبعين رجلاً فلمّا قدموا مكّة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكّة خارجًا من الحرم. فأنزلهم وأكرمهم وكانوا إخوانه وأصهاره فأقاموا عنده شهراً، فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوّثون من البلاء الذى أصابهم أشفق ذلك عليه وقال: هلك إخوانى وأصهارى وهؤلاء يقيمون عندى وهم ضيفى والله ما أدرى كيف أصنع بهم إنّى لأستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنون أنّه ضيق منّى ببقائهم عندى، وقد هلك من ورائهم من قومهم جدبًا وعطشًا، فشكى ذلك من أمرهم إلى قينيتيه الجرادتين فقالتا: اصنع

شعرًا نغنى به لا يدرون من قاله لعلّ ذلك يحرّكهم .

فقال معاوية بن بكر :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم	لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادا	قد أمسوا لا يبينون كلاما
من العطش الشديد فليس نرجو	به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير	فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش يأتيهم جهاراً	ولا يخشى لعاد سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم	نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم	ولا لقوا التحيّة والسلاما

فلما قال الشعر غنتهم به الجرادتان فلما سمع القوم قال بعضهم لبعض : إنّما بعثكم قومكم يتغوّثون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد أطلتم عليهم فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم ، وقال مرثد بن سعد بن عفير : إنكم والله ما تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيّكم وأنبتم إليه سقيتم ، فأظهر إسلامه عند ذلك فقال جلهمة بن الخبيرى خال معاوية حين سمع قوله وعرف أنّه اتبع دين هود (عليه السلام) :

أيا سعد فإنّك من قبيل	ذوى كرم وأمك من ثمود
فإنا لا نطيعك ما بقينا	ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين رفد	ورمل والصداء مع الصمود
ونترك دين آباء كرام	ذوى رأى ونتبع دين هود

ثم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر وكان شيخًا كبيرًا : احبسا عنّا مرثدًا بن سعد فلا يدخل معنا مكّة فإنّه اتبع دين هود وترك ديننا .

ثمّ خرجوا إلى مكّة يستسقون بها لعاد فلمّا ولّوا إلى مكّة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتّى أدركهم بها فقال : لا أدعو الله عزّ وجلّ بشىء مما خرجوا له ، فلما انتهى إليهم قام يدعو الله وهم قد اجتمعوا يدعون الله ويقول : اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شىء مما يدعونك ، وكان قيل بن عنز على رأس وفد عاد ، وقال وفد عاد : اللّهم أعطه ما سألك واجعل سؤالنا مع سؤاله ، وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا لقمان بن عاد وكان سيّد عاد حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال : اللّهم إنّى جئتك وحدى فى حاجتى فأعطنى سؤلى وسأل الله عزّ وجلّ طول العمر . فعمّر عمر سبعة أنسر . وقال : قيل بن عنز : يا إلهنا إن

كان هود صادقًا فاسقنا فإنّا قد هلكنا.

وقال: اللّهمّ إنّى لم أجئ لمريض فأُداويه ولا لأسير فأُناديه، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه فأنشأ الله عزّ وجلّ له سحائب ثلاثًا بيضاء وحمراء وسوداء ثمّ نادى مناد من السماء: يا قيل اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب ما شئت، فقال قيل: اخترتُ السحابة السوداء فإنّها أكبر السحب، فناداه مناد قد اخترت رمادًا رمددا، لا تبقى من عاد أحدا، لا والدًا ولا ولدا، إلا جعلتهم همدا، إلا بنى اللوذية المهدا.

وبنو اللوذية هم بنو لقيم بن هزال بن هزيلة بن بكر فكانوا سكان بمكّة مع أخوالهم ولم يكونوا مع عاد بأرضهم وعاد الآخر كان من نسل الذى بقوا من عاد.

ونادى الله عزّ وجلّ السحابة السوداء التى اختارها قيل: فيها من النقمة من عاد حتّى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٤، ٢٥).

وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنّها ريح امرأة من عاد يقال لها: مهدر، فلمّا أتت عليهم صاحت وصعقت. فلما أفاقت قالوا: ماذا رأيت؟ قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (الحاقة: ٧) أى دائمة فلم يدع من عاد أحدًا إلاّ هلك.

فاعتزل هود (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبها من ريح إلاّ ما تلين عليه الجلود وتلتذ الأنفس. وإنها لترتفع بعاد والظعن إلى ما بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة.

وخرج وفد عاد من مكّة حتّى مرّوا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة له فى ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر. فقالوا له: فأين فارقت هودًا وأصحابه؟ قال: فارقتهم بساحل البحر وكأنّهم شكوا فيما حدّثهم به فقالت هذيلة بنت بكر: صدق ورب مكّة.

وذكروا أنّ مراد بن سعد ولقمان بن عاد، وقيل بن عنز حين دعوا بمكّة قيل لهم قد أعطيتهم مناكم فاختاروا لأنفسكم إلاّ أنّه لا سبيل إلى الخلود ولابد من الموت فقال مهد: اللهم أعطنى برًا وصدقًا فأعطى ذلك. وقال لقمان: أعطنى يا رب عمرًا، فقيل له: اختر لنفسك بقاء سبع بعرات سمر من أظب عفر فى جبل وَعَر لا يمسها القطر، أو بقاء سبعة أنسر إذا مضى نسر

خلف بعده نسر واختار سبعة أنسر فعمر لقمان عمر سبعة أنسر يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضة ويأخذ الذكر منها لقوته حتّى إذا مات أخذ غيره، ولم يزل يفعل ذلك حتّى على السابع، وكان كل نسر يعيش مائتى سنة وكان آخرها لبد، فلما مات لبد مات لقمان معه.

وأما قيل: فإنّه اختار أن يصيبه ما أصاب قومه فقيل له: إنّه الهلاك فقال: لا أُبالى لا حاجة لى فى البقاء بعدهم فأصابه الذى أصاب عاداً من العذاب فهلك.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: أوحى الله إلى الريح العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم، فخرجت بغير كيل على قدر منخر ثور حتّى رجفت الأرض ما بين المشرق والمغرب فقال الخزان يارب لن نطيقها، ولو خرجت على حالها لأهلكت ما بين مشارق الأرض ومغاربها فأوحى الله إليها أن ارجعى فاخرجى على قدر خرق الخاتم فرجعت فخرجت على قدر خرق الخاتم وهى الحلقة.

عن عاصم بن عمرو البجلى عن أبى أُمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ: «يبيت قوم من هذه الأُمة على طعام وشراب ولهو فيصبحون قردةً وخنازير وليصيبنّهم خسف وقذف فيقولون: لقد خسف الليلة ببنى فلان وخسف الليلة بدار فلان وليرسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عاداً بشربهم الخمور وأكلهم الربا واتخاذهم القينات ولبسهم الحرير وقطعهم الأرحام».

وفى الخبر: أنّه أُرسل عليهم من الريح قدر ما تجرى فى خاتم، قال السدى: بعث الله إلى عاد الريح العقيم فلمّا دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح من السماء والأرض فلمّا رأوها بادروا إلى البيوت فلمّا دخلوا البيوت دخلت عليهم وأهلكتهم فيها ثمّ أخرجتهم من البيوت، فلمّا أهلكهم الله أرسل عليهم طيراً سوداً فلقطتهم إلى البحر وألقتهم فيه ولم تخرج ريح قط إلاّ مكيال إلاّ يومئذ فإنّها عتت على الخزنة فقلبتهم فلم يعلموا كم مكيالها.

وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة: سمعت علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء وسدر كثير بناحية كذا وكذا من حضرموت، قال: نعم يا أمير المؤمنين، والله إنّك لتنعته نعت رجل قد رآه، وقال: ولكنّى قد حُدثت عنه، فقال الحضرمى: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود ـ صلوات الله عليه ـ.

عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أنّه قال: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيًّا وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل فى تلك البقعة.

وفى رواية أُخرى: وكان النبىّ من الأنبياء إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه إلى مكّة بمن معه فيعبدون الله فيها حتّى يموتوا.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾: قرأ يحيى بن وثّاب: إلى هود بالصرف والتنوين. والباقون بغير الصرف وإنّما يعنى: وإلى بنى ثمود، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس وأراد ههنا القبيلة.

قال أبو عمرو بن العلاء: سُمّيت ثمود لقلّة مائها والثمد الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: وهو صالح بن عبيد بن أسف ابن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: حجّة ودلالة من ربّكم على صدقى ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ﴾: أضافها إليه على التفضيل والتخصيص كما يقال: بيت الله.

وقيل: أُضيفت إلى الله لأنّها كانت بالتكوين من غير اجتماع ذكر وأُنثى ولم يكن فى صلب ولا رحم ولم يكن للخلق فيها سعى ﴿ءَايَةً﴾: نصب على الحال أى انظروا إلى هذه الناقة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾: العشب ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾: ولا تصيبوها بعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾: أسكنكم وأنزلكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ﴾: قرأ الحسن وتنحتون بفتح الحاء وهي لغة من ﴿ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾: وكانوا ينقبون في الجبال البيوت ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾: يعني الأشراف والقادة الذين تعظّموا عن الإيمان بصالح عليه السلام ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾: يعني الأتباع ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: جاحدون ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾: نحروها ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: يعني العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أي من الصادقين ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: يعني الصيحة والزلزلة وأصلها الحركة مع الصوت. قال الله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ (النازعات: ٦).

قال الشاعر:

ولمّا رأيت الحج قد آن وقته وظلّت جمال القوم بالقوم ترجفُ

وقال الأخطل:

أما تريني حناني الشيب من كبر كالنسر أرجف الإنسان مهدود

﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ﴾: أي في أرضهم وبلدتهم ولذلك وحد الدار. وقيل: أراد به الديار فوحد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ (العصر: ٢) ومعنى ﴿جَٰثِمِينَ﴾: جامدين مبتلين صرعى هلكوا، وأصل الجاثم البارك على الركبة.

قال جرير:

عرفت المنتأى وعرفت منها مطايا القدر كالحدإ الجثوم

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أعرض صالح عنهم وقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: وكانت قصّة صالح وثمود وعقرهم الناقة سبب هلاكهم على ما ذكره ابن إسحاق والسدي ووهب وكعب وغيرهم من أهل الكتب قالوا: إن عاداً لمّا هلكت وانتهى أمرها عمّرت أعمارهم واستخلفوا في الأرض فربوا فيها وعمّروا، حتّى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل منهم حي. فلما رأوا ذلك اتخذوا الجبال بيوتًا فنحتوها وجابوها وخرقوها وكانوا في سعة من معائشهم فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله، فبعث الله إليهم صالحًا وكانوا فيها عربًا كان صالح من أوسطهم نسبًا وأفضلهم موضعًا.

فبعثه الله تعالى إليهم شابًا فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ حتّى شمط وكبر لا يتبعه منهم إلاّ قليل مستضعفون فلمّا ألحّ عليهم صالحٌ بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن

يريهم آية تكون مصداقًا لقوله، قال: أي آية تريدون؟ قالوا: نُريد أن تخرج معنا إلى عيدنا هذا وكان اسم عيد يخرجون إليه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلهك وندعو وإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا.

فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به. ثمّ قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيّد ثمود: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة. لصخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها: الكاثبة. ناقة مخترجة جوفاء وبراء. فالمخترجة ما شاكلت البخت من الإبل، فإن فعلت صدّقناك وآمنّا بك، فأخذ صالح عليهم مواثيقهم إن فعلت لتصدقنني ولتؤمنن به، قالوا: نعم.

فصلّى صالح ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ثمّ تحرّكت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراً وجوفاء وبراء كما سألوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله عزّ وجلّ عظمًا وهم ينظرون ثمّ نتجت ثقبًا مثلها في العظم. فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويُصدقوه فنهاهم ذوءاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمعر وكانوا من أشراف ثمود. وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد فأراد أن يسلم فنهاه أُولئك الرهط فأطاعهم فقال رجل من آل ثمود:

وكانت عصبة من آل عمرو إلى دين النبيّ دعوا شهابا
عزيز ثمود كلّهم جميعًا فهمَّ بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزًا وما عدلوا بصاحبهم ذؤابًا
ولكن الغواة من آل حجر تولّوا بعد رشدهم ذئابا

فلما خرجت الناقة قال صالح (عليه السلام): ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الشعراء: ١٥٥)، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء سبتًا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر من الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفعها حتّى تشرب كلّ ما فيها لا تدع قطرة ماء فيها ثم ترفع رأسها فتفسح يعني تفجج لهم فيحتلبون ما شاءوا من لبن فيشربون ويدخرون حتّى يملئوا أوانيهم كلهم ثمّ تصدر من غير الفج الذي وردت لا تقدر على أن تصدر من حيث وردت لضيقه عنها فلا يرجع منه ثمّ ترفع رأسها.

قال أبو موسى الأشعرى : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعًا، حتى إذا كان الغد كان يومهم فيشربون ما شاءوا من الماء ويدخرون ما شاءوا ليوم الناقة، فهم من ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منها أغنامهم وأبقارهم وإبلهم فتهبط إلى بطن الوادى فى حرّه وجدبه.

والمواشى تنفر منها إذا رأتها تشتو فى بطن الوادى إذا كان الشتاء، فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد والجدب. فأضرّ ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار وكانت مراتعها فيما يزعمون الجناب وحسمى، كل ذلك ترعى مع واد الحجر.

فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربّهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها.

وكانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مجلز تكنّى أُم غنم وهى من بنى عبيد ابن المهل، وكانت امرأة ذوءاب بن عمر، وكانت عجوزًا مسنّة وكانت ذات بنات حسان، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم، وامرأة أُخرى يقال لها: صدوف بنت المحيا بن زهير ابن المحيا سيد بنى عبيد وصاحب أوثانهم فى الزمن الأول، وكان الوادى يقال له: وادى المحيا الأكبر جد المحيا الأصغر أبى صدوف، وكانت صدوف من أحسن الناس وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح (عليه السلام) وأعظمهم به كفرًا، وكانتا تحبان أن يعقرا الناقة مع كفرهما به لما أضرت به من مواشيهما وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له: صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف من بنى هليل فأسلم وحسن إسلامه، وكانت صدوف قد فوّضت إليه مالها فأنفقه على مَنْ أسلم له من أصحاب صالح حتّى رق المال فاطلعت على ذلك من إسلام صدوف وحاسبته على ذلك. فأظهر لها دينه فدعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبت عليه وأخذت بنيها وبناتها منه فغيبتهم فى عبيد بطنها الذى هى منه وكان صنتم زوجها من بنى هليل، وكان ابن خالها فقال لها: ردى علىَّ ولدى، فقالت: حتّى أُنافرك إلى بنى صنعان بن عبيد أو إلى بنى جندع بن عبيد، فقال لها صنيم: بل أنافرك إلى بنى مرداس بن عبيد. وذلك أن بنى مرداس كانوا مسلمين.

فقالت: لا أُنافرك إلاّ إلى مَنْ دعوتك إليه. فقالت بنو مرداس: والله لتعطينه ولده كارهة أو طائعة فلما رأت ذلك أعطته إياهم.

ثم إنّ صدوف وعنيزة تحيّلا فى عقر الناقة للشقاء الذى نزل بهم فدعت صدوف رجلاً من ثمود يقال له الحبّاب لعقر الناقة وعرضت نفسها إن هو فعل ذلك فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له: مصدح بن مهرج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة، وكانت من أحسن

الناس وجهًا وأكثرهم مالاً فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم قدار ابن سالف بن جندع رجلاً من أهل قرح وذكره رسول الله ﷺ وقال: «انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى رهطه مثل أبى زمعة» واسم أُمّه قدير. وكان رجلاً أحمر أزرق قصيرًا يزعمون أنّه كان لزنية من رجل يقال له: صبيان ولم يكن لسالف الذى يدعى السر، ولكنه قد ولد على فراش سالف فقالت: أعطيك أىّ بناتى شئت على أن تعقر الناقة، وكان قدار عزيزًا منيعًا فى قومه فانطلق قدار بن سالف هو ومصدع بن مهرج فاستنفرا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر، وكانوا تسعة رهط أحدهم هويل بن مسطح خال عزيز من أهل حجر ودعيت بن غنم بن ذاغر ذؤاب بن مهرج بن مصدع وخمسة لم يذكر لنا أسماؤهم فأجمعوا على عقر الناقة.

وقال السدى وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح (عليه السلام) أن قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم ذلك.

فقالوا: ما كنّا لنفعل ذلك. فقال صالح: إنّه يولد فى قومكم غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه، فقالوا: لا يولد لنا ابن فى هذا الشهر إلاّ قتلناه.

قال: فولد لهم تسعة فى ذلك الشهر. فدعوا أبناءهم ثمّ ولد العاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك ابن وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتًا سريعًا، وكان إذا مرّ بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا، فغضب التسعة على صالح، لأنّه كان سبب قتلهم أبنائهم فتقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله قالوا: نخرج فنرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفرنا فنأتى الغار فنكون فيه حتّى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثمّ رجعنا إلى الغار فكنّا فيه ثمّ رجعنا فقلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنّا لصادقون يصدّقوننا يعلمون أنّا قد خرجنا إلى سفرنا، وكان صالح عليه السلام لا ينام معهم فى القرية. وكان فى مسجد يقال له مسجد صالح فيه يبيت الليل. فإذا أصبح أتاهم فوعظهم ويذكرهم، وإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه فانطلقوا فلمّا دخلوا الغار وأرادوا أن يخرجوا من الجبل سقط عليهم الغار فقتلهم فانطلق رجل ممّن قد اطلع على ذلك منهم فإذا هم رطخ فرجعوا وجعلوا يصيحون فى القرية أى عباد الله أما رضى صالح بأن أمرهم بقتل أولادهم حتّى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة.

وقال ابن إسحاق: إنّما كان تقاسم التسعة على قتل صالح عليه السلام بعد عقرهم الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب. ذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا: هلم فلنقتل صالحًا، إن كان صادقًا عجّلنا قتله، وإن كان كاذبًا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلاً ليبيتوه فى أهله فدفعتهم

الملائكة بالحجارة فلمّا أبطئوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم مشتدخين قد رُضخوا بالحجارة فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثمّ همّوا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح. وقالوا لهم: والله لاتقتلونه أبدًا وقد وعدكم أنّ العذاب نازل بكم فى ثلاث فإن كان صادقًا لم تزيدوا ربّكم إلاّ غضبًا وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك.

قال السدى وغيره: فكان شر مولود - يعنى قدار - وكان يشبّ فى اليوم شباب غيره فى الجمعة. ويشبّ فى الشهر شباب غيره فى السنة فلمّا كبر جلس مع أُناس يصيبون من الشراب فأرادوا ما يمزجون به شرابهم وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة. فاشتد ذلك عليهم وقالوا فى شأن الناقة وشدّتها عليهم ونحن ما نصنع باللبن لو كنّا نأخذ من هذا الماء الذى تشربه هذه الناقة نسقيه أنعامنا وحروثنا كان خيرًا لنا، فقال ابن العاشر هل لكم فى أن أعقرها لكم؟.

قالوا: نعم.

وقال كعب: كان سبب عقرهم الناقة أنّ امرأة يقال لها ملكا كانت قد ملكت ثمود فلمّا أقبل الناس على صالح وصارت الرئاسة إليه حسدته فقالت لامرأة يقال لها قطام وكانت معشوقة قدّار بن سالف ولامرأة أُخرى يقال لها قبال كانت معشوقة مصدح بن وعد ويقال ابن مهرج، وكان قدار ومصدع يجتمعان كل ليلة معهما ويشربون الخمر فقالت لهما ملكا. إن أتاكم الليلة قدار ومصدع فلا تطيعاهما وقولا لهما: إن الملكة حزينة لأجل الناقة ولأجل صالح فنحن لا نطيعكما حتّى تعقرا الناقة فإن عقرتماها أطعناكما، فلمّا أتياهما قالتا لهما هذه المقالة فقالا: يكون من وراء عقرهما.

وقال ابن إسحاق وغيره: فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار فى أصل حفرة على طريقها، وكمن لها مصدع فى طريق آخر فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم وعنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس فاستقرّت لقدار ثمّ دمرته فشد على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فحدر سقبها ثمّ طعن فى لبّتها فنحرها.

وخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه فلمّا رأى سقبها ذلك انطلق حتّى أتى جبلاً منيعًا يقال له صور، وقيل: اسمه قارة، وأتى صالح فقال له: أدرك الناقة قد عُقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه يا نبى الله إنّما عقرها فلان وفلان ولا ذنب لنا. فقال صالح (عليه السلام): انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه عسى أن يُرفع عنكم العذاب.

فخرجوا يطلبونه فلمّا رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله عزّ وجلّ إلى الجبل فتطاول فى السماء حتّى لا تناله الطير. وجاءَ صالح (عليه السلام) فلمّا رآه الفصيل بكى حتّى سالت دموعه ثمّ استقبل صالحًا فرغا رغوة ثم رغا أُخرى ثم رغا أُخرى.

فقال صالح (عليه السلام): لكل رغاة أجل يومكم تمتّعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب.

وقال ابن إسحاق: أتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع ابن مهرج وأخوه داب بن مهرج فرمى مصدع بسهم فانتظم قلبه ثمّ جر برجله وأنزله وألقوا لحمه مع لحم أُمّه. فقال لهم صالح: انتهكتم حرمة الله تعالى فأبشروا بعذاب الله ونقمته، فقالوا له وهم يهزءون به: ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك؟ وكان يسمّون الأيام فيهم الأحد الأوّل والاثنين أُميون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة غروبة والسبت شيار. وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح (عليه السلام) حين قالوا ذلك: تصبحون غداة يوم مؤنس ووجوهكم مصفرّة، ثمّ تصبحون يوم غروبة ووجوهكم محمرّة ثمّ تصبحون يوم شيّار ووجوهكم مسودّة، ثمّ يصبحكم العذاب يوم الأوّل، فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرّة كأنّما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكورهم وإناثهم، فأيقنوا العذاب وعرفوا أن صالحًا قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه، وخرج صالح هاربًا حتّى لجأ إلى بطن من ثمود، يقال له: بنو غنم، فنزل على سيّدهم رجل منهم يقال له: نفيل ويكنّى أبا هدب وهو مشرك فغيّبه فلم يقدروا عليه، وقعدوا على أصحاب صالح يعذّبونهم ليدلّوهم عليه.

فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم: يا نبى الله إنّهم ليعذبونا لندلهم عليك أفندلهم؟ قال: نعم، فدلّهم عليه ميدع فأتوا أبا هدب وكلّموه فى ذلك، فقال: نعم عندى صالح وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله عزّ وجلّ فيهم من عذابه فجعل بعضهم يخبّر بعضًا بما يرون فى وجوههم فلما أصبحوا صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل، فلمّا أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرّة كأنّما خُضّبت بالدماء فصاحوا وضجّوا وبكوا وعرفوا آية العذاب، فلمّا أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب. فلما كان اليوم الثالث إذا وجوههم مسودّة كأنّما طُليت بالنار فصاحوا جميعًا ألا قد حضركم العذاب.

فلمّا كان ليلة الأحد خرج صالح (عليه السلام) من بين أظهرهم ومَنْ أسلم معه إلى الشام فنزلوا رملة فلسطين فلمّا أصبح القوم تكفّنوا وتحنّطوا وكان حنوطهم الصبر والمقر وكان

أكفانهم الإنطاع ثمّ ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلّبون به أبصارهم فينظرون إلى السماء مرّة وإلى الأرض مرّة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب.

فلمّا اشتد الضحى يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كلّ صاعقة وصوت كل شيء له صوت فى الأرض فتقطّعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلاّ هلك كما قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ (هود: ٦٧): إلاّ جارية منهم مقعدة يقال لها: ذريعة بنت سلق وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح (عليه السلام) فأطلق الله عزّ وجلّ لها رجلها بعدما عاينت العذاب أجمع، فخرجت كأسرع ما يُرى شيء قط حتّى أتت قزح وهى وادى القرى فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود ثمّ استسقت من الماء فسُقيت فلمّا شربت ماتت.

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال: لمّا أُمر النبى ﷺ بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخلن أحدكم القرية ولا تشربوا من مائهم ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلاّ أن تكونوا باكين خائفين فإن لم تكونوا فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

ثمّ قال: «أمّا بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية فبعث الله عزّ وجلّ لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فتشرب ماءهم يومًا فيردها وراءهم مرتقى الفصيل حين ارتقى فى الغار فعتوا عن أمر ربّهم وعقروها فأهلك الله مَنْ تحت أديم السماء منهم إلاّ رجلاً واحدًا كان فى حرم الله». قيل: من هو؟ قال: «أبو رغال». فلمّا خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ههنا ودُفن معه غصن من ذهب وأراهم قبر أبى رغال فول القوم فابتدروه بأسيافهم وبحثوا عليه فاستخرجوا ذلك الغصن، ثمّ قبع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتّى جاز الوادى.

قال أهل العلم: توفى صالح (عليه السلام) بمكّة وهو ابن ثمان وخمسين سنة فلبث فى قومه عشرين سنة.

عن الضحاك بن مزاحم قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علىّ أتدرى مَنْ أشقى الأوّلين؟».

قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «عاقر الناقة».

قال: «أتدرى مَنْ أشقى الآخرين؟».

قال: الله ورسوله أعلم.

قال: «قاتلك».

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾: يعني وأرسلنا لوطًا وقيل معناه: واذكر لوطًا، وهو لوط بن هاران بن تارخ أخي إبراهيم (عليه السلام) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: وهم أهل سدوم، وذلك أنّ لوطًا شخص من أرض بابل مع عمّه إبراهيم (على السلام) مؤمنًا به مهاجراً معه إلى الشام فنزل إبراهيم (عليه السلام) فلسطين وأنزل ابن أخيه لوطًا الأردن فأرسل الله إلى أهل سدوم فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ يعني إتيان الذكران ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: قال عمرو بن دينار: ما كان يزني ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾: في أدبارهم ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾: يعني أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: مشركون تبدّلون الحلال إلى الحرام.

قال محمد بن إسحاق: كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم إبليس في صورة شيخ قال: إن عضلتم بهم كلهم أنجوتكم منهم فأبوا، فلما ألحّ الناس عليهم فعبدوهم فأصابوا غلمانًا صباحًا فأخبثوا واستحكم فيهم ذلك.

وقال الحسن: كانوا لا ينكحون إلاّ الرجال وقال الكلبي: أوّل مَنْ عمل عمل قوم لوط إبليس الخبيث لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان فتمثّل لهم إبليس في صورة شاب ثمّ دعا في دبره فنُكح في دبره ثمّ عتوا بذلك العمل فأكثر فيهم ذلك فعجّت الأرض إلى ربّها فسمعت السماء فعجّت إلى ربّها فسمع العرش فعجّ إلى ربّه فأمر الله السماء أن تحصبهم وأمر الأرض أن تخسف بهم ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: إذ قال لهم ذلك ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾: قال بعضهم لبعض ﴿أَخْرِجُوهُم﴾: لوطًا وأهل دينه ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: يتنزّهون ويتحرّجون عن إتيان أدبار الرجال والنساء ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾: يعني لوطًا ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾: المؤمنين به، وقيل: ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ بنتاه: نعوذا وديثا.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾: فاعلة فإنّها ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾: يعني الباقين في العذاب وقيل: معناه: كانت من الباقين والمعمّرين قبل الهلاك الذين قد أتى عليهم عمرت دهراً طويلاً فهرمت فيمن هرم من الناس. فهلكت مع مَن هلك من قوم لوط حين أتاهم العذاب. وإنّما قال: ﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾

ولم يقل: الغابرات لأنه أراد أنّها ممّن بقى مع الرجال فلمّا ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: الغابرين. وقيل: له غبر يغبر غبوراً، وغبر إذا بقى. قال الشاعر:

وأبى الذى فتح البلاد بسيفه فأذلّها لبنى أبان الغابر

يعنى الباقى.

وقال أبو ذؤيب:

وغبرت بعدهم بعيش ناصب وإدخال أنّى لاحق مستتبع

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: يعنى حجارة من سجّيل ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾: وسنذكر القصّة بتمامها فى موضعها إن شاء الله.

وروى أبو اليمان بن الحكم بن نافع الحمّصى عن صفوان بن عمر قال: كتب عبد الملك ابن مروان إلى ابن حبيب قاضى حمص سأله كم عقوبة اللوطى فكتب أن عليه أن يُرمى بالحجارة كما رجُم قوم لوط فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الحجر: ٧٤) فقبل عبد الملك ذلك منه واستحسنه.

وروى عكرمة عن النبىّ ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وقال محمد بن المنكدر: كتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر أنّه وجد رجلاً فى بعض قوافل العرب يُنكح كما تُنكح المرأة فشاور أصحاب النبى ﷺ وأشهدهم فى ذلك عليه، فاجتمع عليهم على أن يُحرقوه فأحرقوه.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا

قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا
وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا
ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ
ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ
كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ : يعنى وأرسلنا إلى بنى مدين بن إبراهيم خليل الله وهم أصحاب الأيكة .

وقال قتادة : أرسل مرّتين إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ : قال قتادة : هو شعيب بن نويب وقال عطاء : هو شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم ، وقال ابن إسحاق : هو شعيب بن ميكيل بن إسحاق بن مدين بن إبراهيم واسمه بالسريانية يثروب وأُمّه ميكيل بنت لوط وكان شعيب أعمى .

ويقال : إنّه خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر يكفرون بالله ويبخسون المكيال والميزان فقال لهم ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ : يعنى مجىء شعيب ﴿فَأَوْفُوا۟﴾ فأتموا ﴿ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ : ولا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوها إياهم ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ : كانت الأرض قبل أن يُبعث إليها شعيبًا رسولاً يُعمل فيها بالمعاصى ويُستحلّ فيها المحارم ويُسفك فيها الدماء بغير حقّها فذلك فسادها ، فلمّا بُعث إليها شعيبًا ودعاهم إلى الله صلحت الأرض وكلّ نبىّ بُعث إلى قومه فهو يدعوهم لإصلاحهم الذى ذكرت لكم وأمرتكم به .

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ : مصدّقين بما أقول ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ : يعنى فى هذا الطريق كقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ (الفجر : ١٤) .

﴿تُوعِدُونَ﴾ : تُهددون ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ : زيغًا وذلك أنّهم كانوا يجلسون على الطرق فيُخبرون مَنْ قصد شعيبًا ليُؤمن به إنّ شعيبًا كذّاب . فلا يفتننك عن ذلك وكانوا يتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوّفونهم .

قال السدى وأبو روق : كانوا جبّارين . قال عبد الرحمن بن زيد : كانوا يقطعون الطريق .

وقال النبى ﷺ: «رأيت ليلة أُسرى بى خشبة على الطريق لا يمرّ بها ثوب إلاّ شقّته ولا شىء إلاّ خرقته فقلت ما هذا يا جبرائيل؟

قال: هذا مثل أقوام من أُمّتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثمّ تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾: فكثّر بينكم ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: يعنى آخر قوم لوط ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾: يعنى الرؤساء الذين تعالوا عن الإيمان به ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: لترجعن إلى ديننا الذى نحن عليه وتدعون دينكم.

قال شعيب: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾: لذلك يعنى ولو كنّا كارهين لذلك تجبروننا عليه فأدخلت ألف الاستفهام على ولو ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾: نرجع إليها بعد إذ أنقذنا الله منها ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾: تقول إلاّ أن يكون سبق لنا فى علم الله ومشيئته أن نعود فيها فيمضى حينئذ قضاء الله فينا وينفذ حكمه وعلمه علينا ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: أحاط علمه بكل شىء فلا يخفى عليه شىء كان ولا شىء هو كائن ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: فيما تتوعدوننا به.

واختلف العلماء فى معنى قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾: فقال بعضهم: معناه أو لتدخلن فيها ولن ندخل إلاّ أن يشاء الله ربّنا فيضلنا بعد إذ هدانا.

وسمعت أبا القاسم الحسين بن محمد الحبيبى يقول: سمعت علىّ بن مهدى الطبرى بها يقول: إن عدنا فى ملّتكم أى صرنا، لا أن نعود، يكون ابتداء ورجوعًا.

قال أُمية بن أبى الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

أى صار الآن اللبن، كأن لم تكن قط بولاً.

وسمعت الحسين بن الحبيبى قال: سمعت أبا زكريا العنبرى يقول: معناه: إذ نجّانا الله منها فى سابق علمه وعنده اللوح والقلم.

وقال بعضهم: كان شعيب ومَنْ آمن معه فى بدء أمرهم مستخفين ثمّ أظهروا أمرهم وإنما قال لهم قومهم ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: حسبوا أنهم على ملّتهم ـ قيل: من هو معه ـ على أصحاب شعيب دون شعيب لأنّهم كانوا كفّاراً ثمّ آمنوا بالخطاب لهم وجواب شعيب عنهم لا عن نفسه، لأن شعيبًا لم يكن كافراً قط وإنّما تناوله الخطاب فى أصناف مَنْ فارق دينهم إليه.

ورأيت فى بعض التفاسير أن الملّة ههنا الشريعة وكان عليها قبل نبوّته فلمّا نُبِّئ فارقهم.

ثمّ دعا شعيب على قومه إذ لمس ما فيهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أى اقض.

وقال المؤرخ: افصل.

وقال ابن عباس: ما كنت أدرى ما قوله ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾: حتّى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك. أى أقاضيك.

وقال الفراء: أهل عمان يسمّون القاضى الفاتح والفتّاح. وذكره غيره أنّه لغة مهاد. فأنشد لبعضهم:

ألا أبلغ بنى عصم رسولاً   بأنّى عن فتاحتكم غنىّ

أى حكمكم. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: يعنى الحاكمين ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾: وتركتم دينكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: قال ابن عباس: مغبونون. قال عطاء: جاهلون. قال الضحاك: فجرة. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: قال الكلبى: الزلزلة.

قال ابن عباس وغيره من المفسّرين: فتح الله عليهم بابًا من أبواب جهنم فأرسل عليهم ريحًا وحرًا شديدًا، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر فبعث الله عزّ وجلّ سحابة فيها ريح طيّبة فوجدوا برد الريح بطيبها وظل السحابة فتنادوا عليكم بها فخرجوا إلى البريّة فلمّا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارًا ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المعلّى وصاروا رمادًا وهو عذاب يوم الظلّة، وذلك قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: ميتين قال أبو العالية: ديارهم منازلهم، وقال محمد بن مروان: كل شىء فى القرآن (دارهم) فهو مرغمهم وكلّ شىء (ديارهم) فهو عساكرهم.

قال ابن إسحاق: بلغنى أن رجلاً من أهل مدين يُقال له عمر بن جلهاء لمّا رأى الظلّة فيها الغضب. قال: يا قوم إن شُعيبًا مُرسلٌ فذروا عنكم سُميرًا أو عمران بن شداد إنى أرى غيمة يا قوم طلعت دعوا بصوت على صمانة الوادى، فإنّكم إن تروا فيها ضحاة غد إلاّ الرقيم يمشى بين أنجاد وسُمير وعمران: كاهناهم راعيين، والرقيم كلبًا لهما.

قال أبو عبد الله البجلى: أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت: أسماء ملوك وكان ملكهم يوم الظلة فى زمان شعيب. فقالت أخت كلمون تبكيه:

كلمون هدّ ركنى هلكه وسط المحلة   سيّد القوم أتاه الحتف نارًا وسط ظلة

جعلت نار عليهم دارهم كالمضمحلة

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾: أى لم يعيشوا ولم ينزلوا ولم يقيموا ولم ينعموا، وأصله من قولهم غنيت بالمكان إذا أقمت به والمغانى المنازل واحدها مغنى قال لبيد:

وغنيت ستًا قبل مجرى داهس لو كان للنفس اللجوج خلود

وقال حاتم:

غنينا زمانًا للتصعلك والغنى فكلا سقانا بكأسيهما الدهر

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: لا المؤمنون كما زعموا ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: أعرض ﴿عَنۡهُمۡ﴾: شعيب بن شامخ من أظهرهم حين أتاهم العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾: أحزن ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾: حين يُعذَّبون، يقال: آسيت آسى وأسًى. قال الشاعر:

❖ آسيت على زيد ولم أدر ما فعل ❖

والأسى الحزن والأسى الصبر.

❖ ❖ ❖

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾: فيه إضمار واختصار يعنى فكذبوه ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ﴾: عاقبنا ﴿أَهۡلَهَا﴾: حين لم يؤمنوا ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: يعنى بالبؤس الشدّة وضيق العيش ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: تعنى الضر وهو الحال. وقيل: المرض والزمناء قال السدى: البأساء يعنى الفقر والجوع ﴿لَعَلَّهُمۡ

يَضَّرَّعُونَ﴾: لكى يتضرعوا فينيبوا ويتوبوا ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾: وهى البأساء والجواب والجوع ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾: يعنى النعمة والسعة والرخاء والخصب ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾: أى كثروا وأثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، قال ابن عباس: ﴿عَفَواْ﴾ يعنى جهدوا، وقال ابن زيد: يعنى كثروا كما يكثر النبات والريش.

قال قتادة: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾: سروا بذلك، وقال مقاتل بن حيان: ﴿عَفَواْ﴾ حتى كثروا وتركوا ولم يستكثروا وأصله من الكثرة.

وقال النبى ﷺ: «أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى».

وقال الشاعر:

يقول من بعد أُولاك أولات ... أتوا زمانًا ليس عندهم بعيد

وقال آخر:

ولكنا نعض السيف منها ... بأسوق عافيات الشحم كوم

﴿وَقَالُواْ﴾: من جهلهم وغفلتهم ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾: فنحن مثلهم فقال الله تعالى ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾: فجأة عبرة لمن بعدهم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: بنزول العذاب ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾: يعنى وحدوا الله وأطاعوه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: يعنى المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: يعنى النبات، وأصل البركة المواظبة على الشىء تقول: برك فلان على فلان إذا أجابه، وبركات الأرض أى تابعنا عليهم بالمطر والنبات والخصب ورفعنا الحرث والقحط ﴿وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم﴾ فجعلنا لهم العقوبات ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾: من الكفر والمعصية والأعمال الخبيثة.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: الذين كفروا وكذّبوا ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: آمنون.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾: نهارًا ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: لاهون.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾: ومعنى (مكر) استدراج القوم بما أراهم فى دنياهم.

قال قتادة: مكر الله استدراجه بطول الصحة وتظاهر النعم، وقال عطيّة: يعنى أخذه وعذابه، وحكى الشبلى أنه سئل عن مكر الله فأجاب بقول:

محبتك لا ببعضى بل بكلى ... وإن لم يبق حبك لى حراكا
ويقبح من سواك الفعل عندي ... وتفعله فيحسن منك ذاك

فقال السائل: أسأله عن آية من كتاب الله ويجيبنى من الشعر فعلم الشبلى أنه لم يفطن لما

قال، فقال: يا هذا . . . .[1] إياهم على ما هم فيه.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾: قرأ أبو عبد الرحمن وقتادة ويعقوب فى رواية زيد (نهد) بالنون على التعظيم والباقون بالياء على التفريد ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾: يستخلفون فى ﴿الْأَرْضَ﴾: بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا بسيرتهم . . . .[1] ربهم ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم﴾: أهلكناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: بما أهلكنا من قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ﴾: نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: الهدى ولا يقبلون الموعظة ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾: هذه القرى التي ذكرت لك وأهلكناهم وهى قرى نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾: نخبرك أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالآيات والعلامات والدلالات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾: اختلف فى تأويله.

قال أُبى بن كعب: معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق فى علم الله أنّهم يكذبون به يوم أقرّوا له بالميثاق حين أخرجهم من صلب آدم.

وقال ابن عباس والسدى: يعنى فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حتّى أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرهًا وأقروا باللسان وأظهروا التكذيب.

وقال مجاهد: معناه فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ورددناهم إلى الدنيا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم كقوله ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (الأنعام: ٢٨) وقال يمان بن رئاب: هذا معنى أنّ كلّ نبى أخذ قومه بالعذاب ما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأُمم الكفار بل كذّبوا كما كذبوا نظير قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ (الذاريات: ٥٢، ٥٣).

وقيل: معناه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: يعنى بالمعجزات والعجائب التى سألوهم فما كانوا ليؤمنوا بعدما رأوا الآيات والعجائب بما كذبوا به من قبل رؤيتهم تلك العجائب نظيره قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (المائدة: ١٠٢) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩).

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾: الذين كتب عليهم أن لا يؤمنوا من قومك ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾: يعنى وفاء بالعهد، والعهد الوصية ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾: أى ما وجدنا أكثرهم إلاّ فاسقين ناقضين العهد.

❖ ❖ ❖

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾: أى من بعد قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: بحجّتنا وأدلّتنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟﴾: فجحدوا وكفروا ﴿بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: وكيف فعلنا بهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: لمّا دخل على فرعون واسمه قابوس فى قول أهل الكتاب.

قال وهب: كان اسمه الوليد بن مصعب بن الريان وكان من القبط وعمّرَ أكثر من أربعمائة عام وقال موسى: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: إليك فقال فرعون كذبت فقال موسى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾: يعنى أنا خليق بأن لا أقول على الله إلاّ الحق، فعلى بمعنى الباء، كما يقال: رميت بالقوس على القوس وجاءنى على حال حسنة وبحالة حسنة يدل عليه، قول الفراء والأعمش: حقيق بأن لا أقول. وقال أبو عبيدة: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلاّ الحق، وقرأ شيبة ونافع: حقيق علىّ تشديد الياء يعنى حق واجب علىّ ترك القول على الله عزّ وجلّ إلاّ الحق.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: يعنى العصا وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت علىّ بن مهدى الطبرى يقول: إنّه تعريض يقول: لحقيق مصرف الخطاب ﴿حَقِيقٌ﴾ فعيل من الحق يكون بمعنى القائل ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أى اطلق عنهم وخلهم يرجعون إلى الأرض المقدسة.

قال وهب: وكان سبب استعباد فرعون بنى إسرائيل أنّ فرعون حاجّ موسى وكان أشد من فرعون يوسف . . . . [(١)] فى يوسف، وانقرضت الأسباط وعليهم فرعون فاستعبدهم فأنقذهم الله بموسى.

قال: وكان بين اليوم الذى دخل يوسف مصر واليوم الذى دخل موسى رسولاً أربعمائة عام ﴿قَالَ﴾: فرعون مجيبًا لموسى ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾: من يده ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

قال ابن عباس والسدى: كانت عظيمة ذكرًا من الحيات، إذا فتحت فاها صار شدقها ثمانين وقد ملأت ما بين سماطى فرعون واضعة لحييها ذراعًا واضع لحيه الأسفل فى الأرض الأعلى على سور القصر، حتى رأى بعض من كان خارج مدينة مصر رأسه.

ثمّ توجهت نحو فرعون لتبتلعه فوثب فرعون من سريره وهرب منها فأحدث ولم يكن حدث قبل ذلك وهرب الناس وصاحوا وحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا، ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى خذها وأنا مؤمن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت.

ثمّ قال له فرعون: هل معك آية آخرى، قال: نعم، فأدخل يده فى جيبه ثمّ نزعها فأخرجها بيضاء مثل الثلج لها شعاع غلب على نور الشمس، وكان موسى أدمًا ثمّ أدخلها جيبه فصارت يدًا كما كانت.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾: يعنون أنّه يأخذ بأعين الناس بخداعه إيّاهم حتّى تخيّل إليهم العصا حيّة والأدم أبيض يرى الشىء بخلاف ما هو به، كما قيل سحر المطر الأرض إذا جاءها فقطع نباتها من أصلها وقلب الأرض على البطن فهو يسحرها سحرًا والأرض مسحورة فشبه سحر الساحر به لتخيله إلى من سحره أنّه يرى الشىء بخلاف ما هو به، ومنه قول بنى الرمة فى صفة السراب

وساحرة العيون من الموامى ترقص فى نواشزها الأروم

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾: من القبط ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾: مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: هذا من قول فرعون للملأ ولم يذكر فرعون فيه كقوله ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥١، ٥٢) هذا من كلام يوسف ولم يذكر ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ﴾: احبسه ﴿وَأَخَاهُ﴾: هارون ولا تقتلهما ولا يؤمن بهما، وقال عطاء: احبسه وهذا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أعجب إليّ لأنّه قد علم أنه لا يقدر على حبسه بعدما رأى الآيات من العصا واليد.

﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾: يعنى الشرطة وكانت له مدائن فيها السحرة عدة للأشياء إذا حزّ به أمر أرسل.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾: قرأها أهل الكوفة على التكثير وقرأ العامّة (كل ساحر). والفرق بين الساحر والسحّار أن الساحر الذى لا يعلم والسحار الذى يعلم ولا يعلم. وقال المؤرج: الساحر من سحره فى وقت دون وقت، والسحار من قديم السحر.

قال: فإن غلبهم موسى صدقناه على ذلك وعلمت أنه ساحر.

قال ابن عباس وابن إسحاق والسدى: قال فرعون لمّا رأى من سلطان الله فى العصا ما رأى: إنا لا نغالب موسى إلاّ بمَنْ هو مثله فأخذ غلمان بنى إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الفرقاء يعلمونهم السحر كما يعلّم الصبيان الكتابة فى المكتب فعلّموهم سحرًا كثيرًا وواعد فرعون موسى موعدًا، فبعث فرعون إلى السحرة فجاء بهم ومعهم معلمهم فقال له ماذا صنعت؟ قال: قد علمتهم سحرًا لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلاّ أن يكون أمر من السماء فإنّه لا طاقة لهم به، ثم بعث فرعون الشرطى فى مملكته فلم يترك فى سلطانه ساحرًا إلا أتى به واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون.

فقال مقاتل: كان السحرة اثنين وسبعين ساحرًا اثنان فيهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بنى إسرائيل.

وقال الكلبى: كانوا سبعين ساحرًا غير رئيسهم وكان الذين يعلّمونهم السحر رجلين مجوسيين من أهل نينوى، وقال كعب: كانوا اثنى عشر ألفًا. قال السدى: كانوا بضعة وثلاثين. عكرمة: سبعين ألفًا، ابن المنكدر: ثمانين ألفًا فاختار منهم سبعة آلاف ليس منهم إلا ساحر ماهر ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين من كبرائهم وعلمائهم، وقاله ابن جريج، فلمّا اجتمع السحرة ﴿قَالُوا﴾: لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾: أى جعلاً وثوابًا.

﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ﴾: فرعون ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: فى المنزلة عندى.

قال الكلبى: أوّل مَنْ يدخل علىّ وآخر مَنْ يخرج ﴿قَالُوا﴾: يعنى السحرة.

﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾: بعصيّنا وحبالنا.

﴿قَالَ﴾: موسى ﴿أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى أرعبوهم وأفزعوهم ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾: وذلك أنّهم ألقوا حبالاً وعظامًا وخشبًا طوالاً فإذا هى حيّات كالجبال قد ملأت الوادى يأكل بعضهم بعضًا.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ
هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ
إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن
قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ
وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ
ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ
بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا
جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ
عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ
لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ
مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ : **فألقاها** ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ : **تبتلع، ومَنْ قرأ تلقف ساكنة اللام خفيفة القاف فهو من لقف يلقف، ودليله قراءة سعيد بن جبير: تلقم من لقم يلقم.**

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ : **يُكذبون، وقيل: يقلبون ويزوّرون على الناس فأكلت سحرهم كله فقالت**

السحرة: لو كان هذا سحراً لبقت حبالنا وعصينا. فذلك قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أى ظهر.

قال النضير بن شميل: فوقع الحق أى فزعهم وصدّعهم كوقع الميقعة ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: من السحر ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾: وبطل ما كانوا يعملون ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾: ذليلين ومقهورين.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾: لله حيث عرفوا أنّ ذلك أمر سماوى وليس سحراً، وقيل: ألهمهم الله ذلك، وقال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: فقال فرعون: إياى تعنون فقالوا ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

قال عطاء: فكان رئيس السحرة بأقصى مدائن مصر وكانا أخوين فلمّا جاءهما رسول فرعون قالا لأُمّهما دلّينا على قبر أبينا فدلتهما عليه فأتياه فصاحا باسمه فأجابهما فقالا: إن الملك وجه إلينا رسولاً أن نقدم عليه، لأنّه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح ولهما عزّ ومنعة وقد ضاق الملك ذرعًا من عزّهما، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لهما شيء تبلع الحديد والحجر والخشب. فأجابهما أبوهما: انظرا إذا هما ناما فإن قدرتما أن تسلا العصا فسلاّها فإنّ الساحر لا يعمل سحره إذا نام، وإن عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر ربّ العالمين، ولا طاقة لكما به ولا الملك ولا جميع أهل الدنيا، فأتاهما فى خفية وهما نائمان ليأخذا العصا فقصدتهما العصا قاله مقاتل.

قال موسى للساحر الأكبر: تؤمن بىّ إن غلبتك فقال لآتينَ بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لأؤمن بك وفرعون ينظر ﴿قَالَ﴾: لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ حين آمنوا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ﴾: صنيع وخديعة ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾: صنعتموه أنتم وموسى ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: فى مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع.

﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾: بسحركم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: ما أفعل بكم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: وهو أن يقطع من شق طرفًا قال سعيد بن جبير: أوّل مَنْ قطع من خلاف فرعون ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: على شاطئ نهر مصر ﴿قَالُوٓاْ﴾: يعنى السحرة لفرعون ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: راجعون فى الآخرة ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾: قرأ العامّة بكسر القاف.

وقرأ الحسن وابن المحيصن بفتح القاف وهما لغتان نقَم ينقَم ونقَم ينقِم.

قال الشاعر:

وما نقموا من بنى أميّة إلا أنّهم يحلمون إن غضبوا

وقال الضحاك وغيره : يعنى وما يطعن علينا . قال عطاء : ما لنا عندك من ذنب وما ارتكبنا منك مكروهًا تعذّبنا عليه ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾ : ثمّ فزعوا إلى الله عزّ وجلّ فقالوا ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ﴾ : أصبب ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرًا﴾ : أُصبب علينا الصبر عند القطع والصلب حتى لا نرجع كفاراً ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ : واقبضنا إليك على دين موسى ، فكانوا أول النهار كفارًا سحرة وآخره شهداء بررة .

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ﴾ : أتدع ﴿مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ﴾ : كى يفسدوا عليك ملكك وعبيدك ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ : فى أرض مصر ﴿وَيَذَرَكَ﴾ : يعنى وليذرك .

وروى سليمان التيمى عن أنس بن مالك أنّه قرأ ويذرك بالرفع والنون ، أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حيًا فيصرفهم عنّا .

وقرأ الحسن ويذرك بالرفع على تقدير المبتدأ ، أو وهو يذرك ، ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ : فلا نعبدك ولا نعبدها . قال ابن عباس : كان لفرعون بقرة يعبدها وكانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها ، ولذلك أخرج السامرى لهم عجلاً .

وروى عمرو بن الحسين قال : كان لفرعون حنانة معلقة فى نحره يعبدها ويسجد عليها كأنه صنم كان عابده يحن إليه .

وروى عن ابن عباس أيضًا أنه قال : كان فرعون يصنع لقومه أصنامًا صغارًا ويأمرهم بعبادتها ويقول لهم أنا رب هذه الأصنام ، وذلك قوله : ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ (النازعات : ٢٤) .

قال أبو عبيد : وبلغنى عن الحسن أنه قيل له : هل كان فرعون يعبد شيئًا؟ قال : نعم كان يعبد تيسًا .

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وبكر بن عبد الله الشعبى والضحاك وابن أبى إسحاق : إلهتك بكسر الألف أى إلهك فلا يعبدك كما تعبد . قالوا لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد .

وقيل أراد بالآلهة الشمس وكانوا يعبدونها .

قال عيينة بن شهاب :

تروحنا من الأعيان عصراً ... فأمحلنا الآلهة أن تؤوبا

بمعنى الشمس ﴿قَالَ﴾ : يعنى فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ بالتشديد على التكثير ، وقرأ أهل الحجاز بالتخفيف ﴿وَنَسۡتَحۡىِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ : غالبون .

قال ابن عباس : كان فرعون يقتل بنى إسرائيل فى العام الذى قيل له إنّه يولد مولود يذهب بملكك فلم يزل يقتلهم حتّى أتاهم موسى (عليه السلام) بالرسالة فلما كان من أمر موسى ما

كان أمر بإعادة القتل عليهم فشكت بنو إسرائيل إلى موسى (عليه السلام) فعند ذلك ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ : يعنى أرض مصر ﴿يُورِثُهَا﴾ : يُعطيها ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ : وقرأ الحسن يورثها بالتشديد والاختيار والتخفيف لقوله تعالى : ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ (الزمر: ٧٤)، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ : يعنى النصر والظفر، وقيل : السعادة والشهادة، وقيل : الجنة.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بنى إسرائيل ﴿قَالُوٓاْ﴾ : يعنى قوم موسى ﴿أُوذِينَا﴾ : بقتل الأبناء واستخدام النساء والتسخير. ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ : بالرسالة ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ : بالرسالة وإعادة القتل والتعذيب وأخذ الأموال والاتعاب فى العمل.

قال وهب : كانوا أصنافًا فى أعمال فرعون فأما ذوو القوة منهم فيسلخون السوابى من الجبال وقد . . . .[1] أعناقهم وعواتقهم وأيديهم ودبرت ظهورهم من قطع ذلك وقتله.

وطائفة أخرى قد قرحوا من ثقل الحجارة وسير الليل له، وطائفة يلبنون اللبن ويطينون الآجر، وطائفة نجارون وحدادون، والضعفاء بينهم عليهم الخراج ضريبة يودون كانت ضربت عليه الشمس، قيل : وإن يردى ضريبته غلت يده إلى عنقه شهرًا، وأما النساء فيقرن أختان وينسجنه فقال موسى (عليه السلام) لهم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ : فرعون ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : ويسكنكم مصر من بعدهم بالتسخير والاستعباد وهم بنو إسرائيل . . . . .[1]

❖ ❖ ❖

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾: يعنى مصر والشام ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾: بالماء والأشجار والثمار وإنما ذكر بلفظ . . . . .(١).

فأورثهم ذلك بمهلك أهلها من العمالقة والفراعنة. ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: يعنى تمت كلمة الله وهى وعده إياهم بالنصر والتمكين فى الأرض. وذلك قوله عزّ وعلا ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ (القصص: ٥، ٦).

وقيل: معناه رحبت نعمة ربّك الحسنى ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: يعنى أنهم مجزون الحسنى يوم القيامة ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾: على دينهم ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾: أهلكنا فدمرنا ﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾: فى أرض مصر من المغارات ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾.

قال الحسن: وما كانوا يعرشون من الثمار والأعشاب.

وقال مجاهد: يعنى يبنون البيوت، والقصور ومساكن وكان غنيّهم غير معروش.

وقرأ ابن عامر وابن عباس: بضم الراء وهما لغتان فصيحتان عرش يعرش.

وقرأ إبراهيم بن أبى علية: يعرِّشون بالتشديد على الكسرة ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: قطعنا ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾: بعد الآيات التى رأوها والعبر التى عاينوها.

قال الكلبى: عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد هلاك فرعون وقومه وصام يومئذ شكراً لله عزّ وجلّ ﴿فَأَتَوۡاْ﴾: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ﴾: يصلّون، قرأ حمزة والكسائى: يعكفون بكسر الكاف والباقون بالضم وهما لغتان ﴿عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ﴾: أوثان ﴿لَّهُمۡۚ﴾: أوثان لهم كانوا يعبدونها من دون الله عزّ وجلّ.

قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر وذلك أوّل شأن العجل.

قال قتادة: كانوا أُولئك القوم من لخم وكانوا هؤلاء بالرمة، وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم فقالت بنو إسرائيل له عندما رأوا ذلك: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾: تمثالاً نعبده ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ﴾: موسى ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾: عظمة الله ونعمته وحرمته.

وروى معمر عن الزهرى عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بشجرة خضراء عظيمة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفّار ذات أنواط. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى (عليه السلام) اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة والذى نفسى بيده لتركبنّ سنن مَنْ كان قبلكم».

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وروى عنه (عليه السلام) أنه قال: «لا تقوم الساعة حتّى تأخذ أُمّتى أخذ الأُمم قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع كما قالت فارس والروم».

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾: مهلك ومفسد ومخسر ﴿مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ﴾: مضمحل زائل ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾: أطلب وأبغى لكم فحذف حرف الصفة لقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ (الأعراف: ١٥٥)، ﴿إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: على أهل زمانكم ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾: قرأ أهل المدينة ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾، وقرأ أهل الشام (وإذ أنجاكم) وكذلك فى مصاحفهم بغير نون.

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

قرأ نافع: (يقتلون) خفيفة من القتل على القليل، وقرأ الباقون بالتشديد على الكثير من القتل ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝﴾

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾: ذا القعدة ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾: من ذى الحجّة ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ﴾: عند انطلاقه ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى﴾: كن خليفتى ﴿فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾:

وأصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ : ولا تسلك طريق العاصين ولا تكن مرنًا للظالمين، وذلك أن موسى وعد بنى إسرائيل وهم بمصر إذا أهلك الله عدوّهم واستنقذهم من أيديهم أتاهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون، فلما فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربه الكتاب فأمره الله عزّ وجلّ صوم ثلاثين يومًا وهو شهر ذى القعدة فلما تمت ثلاثون ليلة أنكر خلوق فمه فتسوك بعود ضرنوب فقالت له الملائكة: كنّا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك.

وقال أبو العالية: إنّه أكل من لحاء الشجرة فأمره الله عزّ وجلّ بصوم عشرة أيام من ذى الحجّة. وقال: أما علمت أن خلوق فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك، فكان فتنتهم فى العشر التى زادها الله عز وجل ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾ : أى الوقت سأله أن يكلمه فيه والميقات مفعال من الوقت كالميعاد والبلاد انقلبت الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها.

قال المفسّرون: إنّ موسى (عليه السلام) تطهّر وطهّر ثيابه لميعاد ربه فلما أتى بطور سيناء ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ : وناجاه وأدناه حتّى سمع حروف القلم فاستجلى كلامه واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ : قال ابن عباس: أعطنى أنظر إليك ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ : وليس بشرًا لا يطيق النظر إلىّ فى الدنيا، من نظر إلىّ مات، فقال له: سمعت كلامك واشتقت إلى النظر إليك فلئن أنظر إليك وأموت أحب إلىّ من أن أعيش ولا أراك فقال الله تعالى ﴿وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ : فهو أعظم جبل بمدين يُقال له: زبير فلمّا سمعت الجبال ذلك تعاظمت رجاء أن يتجلّى منها الله لها وجعل زبير يتواضع من تبيان فلمّا رأى الله تعالى تواضعه رفعه من بينهما وخصّه بالتجلّى.

قال السدى: لمّا كلّم موسى خاض الخبيث إبليس فى الأرض حتّى خرج بين قدمى موسى فوسوس إليه وقال: إن مكلمك الشيطان فعند ذلك سأل الرؤية فقال الله تعالى: لن ترانى .... (١) تعلّقت .... (١) الرؤية بهذه الآية، ولا دليل لهم فيها لأنّ لن ههنا لا توجب التأبيد وإنما هى للتوقيت لقوله تعالى حكاية عن اليهود ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ﴾ (البقرة: ٩٥) يعنى الموت ثمّ حكى عنهم أنهم يقولون لمالك ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (الزخرف: ٧٧). و﴿يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ (الحاقة: ٢٧) يعنى الموت، وقال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ : يعنى الجنّة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢) وقد يدخل الجنّة مَنْ لا يُنفق ممّا علمت فمعنى الآية لن ترانى فى الدنيا وإنما ترانى فى العقبى.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال عبد العزيز بن يحيى: قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ جواب قول موسى ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ولا تقع على الآخرة، لأن موسى لم يقل أرنى أنظر إليك فى الآخرة إنما سأله الرؤية فى الدنيا فأُجيب عما سأل ولا حجّة فيه لمَنْ أنكر الرؤية.

وقيل: معنى ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾: أى لا تقدر أن ترانى، وقيل: معناه لن ترانى بعين فانية وإنما ترانى بعين باقية، وقيل: لن ترانى قبل محمد وأُمته وإنما ترانى بعد محمد وأُمته، وقيل: معناه لن ترانى بالسؤال والدعاء وإنما ترانى بالنوال والعطاء إنّه لو أعطاه إياه بسؤاله لكانت الرؤية مكافأة السؤال، ويجوز أن يكون فعله مكافأة فعل عبده ولا يجوز أن يكون هو مكافأة فعل عبده.

وقيل: معناه لن ترانى بالعين التى رأيت بها عدوى وذلك أنّ الشيطان تراءى له فوسوس إليه، فقال الله تعالى: يا موسى أما تعلم أنّ رؤية الخبيث والله لا يجتمعان فى حال واحد ومكان واحد وزمان واحد.

وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت علىّ بن مهدى الطبرى يقول: لو كان سؤال موسى مستحيلاً لما أقدم عليه نبى الله موسى (عليه السلام) مع علمه ومعرفته بالله عن اسمه كما لم تجز أن يسأله لنفسه صاحبة ولا ولدًا.

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾: واستقراره بكونه وثباته.

قال المتكلّمون من أهل الشام: لما علق الله الرؤية باستقراره دلّ على جواز الرؤية لأن استقراره غير محال فدلّ على أن ما علق عليه ـ من كون الرؤية ـ غير محال أيضًا ألا ترى أن دخول الكفار الجنّة لما كان مستحيلاً علقه بشىء مستحيل. وهو قوله: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ (الأعراف: ٤٠).

وقال أهل الحكمة والإشارة: إن الكليم لما أراد الخروج إلى الميقات جعل بين قومه وبين ربه واسطة يقول لأخيه هارون: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾: فلما سأل الرؤية جعل الله تعالى بينه وبينها واسطة وهو الجبل لقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ فقال: وكأنّه يقول إن لم أصلح لخلافتك دون أخيك فأنت أيضًا لأنه لم ترونى دون استقرار الجبل ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾.

قال وهب: لما سأل موسى الرؤية أرسل إليه الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الذى عليه موسى فأمر الله ملائكة السموات أن يعترضوا على موسى أربعة

فراسخ من كل ناحية فمرت به ملائكة سماء الدنيا كثير، إن البقر تتبع أفواههم بالتقديس والتسبيح بأصوات عظيمة كأصوات الرعد الشديد، ثمّ أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فهبطوا عليه مثل الأسد لهم لجبّ بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع واقشعر كل شعرة فى رأسه وجسده.

ثمّ قال: ندمت على مسألتى فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه؟

فقال له حبر الملائكة ورأسهم: يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثمّ هبطت ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد أفواههم تتبع بالتسبيح، وبالتقديس كجلب الجيش العظيم ولهب النار.

ثمّ هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شىء من الذين مروا به قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شىء من أصوات الذين مروا به من قبلهم.

ثمّ هبطت عليهم ملائكة السماء الخامسة سبعة ألوان فلم يستطع أن يتبعهم طرفه ولم يرَ مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفًا واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له حبر الملائكة ورأسهم: يا بن عمران مكانك حتّى ترى ما لا تصبر عليه ثمّ أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدى أراد أن يرانى فاعترفوا عليه فهبطوا عليه فى يد كل ملك مثل النخلة العظيمة الطويلة نار أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهيب النار، إذا سبحوا وقدّسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات كلهم يقولون بشدة أصواتهم: سبوح قدوس رب العزّة أبدًا لا يموت، فى رأس كل ملك منهم أربعة أوجه، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم حين سبحوا وهو يبكى ويقول: رب اذكرنى ولا تنسَ عبدك لا أدرى أنقلب مما أنا فيه أم لا؟ إن خرجت أُحرقت وإن مكثت متّ، فقال له رأس الملائكة ورئيسهم: قد أوشكت يا بن عمران أن يمتلئ جوفك وينخلع قلبك فاصبر للذى جلست.

ثمّ أمر الله تعالى أن يحمل عرشه فى ملائكة السماء السابعة وقال: أروه، فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب ورفعت ملائكة السموات أصواتهم جميعًا فارتج الجبل واندكت كل شجرة كانت فيه ﴿وَخَرَّ﴾: العبد الضعيف ﴿مُوسَىٰ صَعِقًا﴾: على وجهه ليس معه روحه فقلب الله الحجر الذى كان عليه موسى وجعله كالمعدة كهيئة القبّة لئلاّ يحترق موسى، فأرسل الله تعالى إليه روح الحياة فقام موسى يسبح الله تعالى ويقول: آمنت بأنك ربّى وصدقت بأنه لا يراك أحد فيحيا. ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم

ملائكتك أنت رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك، لا يعدلك شىء ولا يقوم لك شىء رب تبت إليك الحمد لله لا شريك لك رب العالمين.

وقال السدى: حفّت حول الجبل بالملائكة وحفّت حول الملائكة بنار وحفّ حول النار بالملائكة وحف حول الملائكة بنار ثمّ تجلّى ربّك للجبل.

وقال ابن عباس: ظهر نور ربه للجبل جبل زبير، وقال الضحاك أخرج الله تعالى له من نور الحجب مثل منخر الثور.

وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار: ما تجلّى من عظمة الله للجبل إلاّ مثل سمّ الخياط، يعنى صار دكًا.

وقال السدى: ما تجلّى منه إلاّ قدر الخنصر، يدلّ عليه ما روى عن ثابت عن أنس عن النبىّ ﷺ أنّه قرأ هذه الآية فقال: هكذا، ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل.

وقال سفيان: ساخ الجبل فى الأرض حتّى وقع فى البحر فهو يذهب معه.

وقال أبو بكر الهذلى: انقعر فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة.

وقال عطيّة العوفى: جعله دكًا أى رملاً هائلا، وقال الكلبى: جعله دكًا أى كسر جبالاً صغيراً. قال الحسن: جعله دكًا أى ذاهبًا أصلاً. وقال مسروق: صار صغيراً كالرابية.

الحسن: أوحى الله تعالى إلى الجبل هل تطيق رؤيتى فغار الجبل وساخ فى الأرض وموسى ينظر حتّى ذهب أجمع.

وقال قطرب: فلمّا تجلى ربّه أى: أمر ربّه للجبل كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ (يوسف: ٨٢).

وقال المبرد: معناه فلمّا تجلى ربّه آية للجبل جعله فعلاً متعدّيًا كالتخلّص والتبدّل والتوعد.

وقال أبو بكر محمد بن عمر الورّاق: حكى لى عن سهل بن سعد الساعدى أن الله تعالى أظهر من وراء سبعين ألف حجاب ضوءاً قدر الدرهم فجعل الجبل دكًا.

وقال أبو بكر: فَعَذُب إذ ذاك كل ماء وأفاق كل مجنون وبرأ كل مريض. وزالت الأشواك عن الأشجار وخصبت الأرض وأزهرت وخمدت نيران المجوس. وخرت الأصنام لوجهها ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾: مستويًا بالأرض. وقال ابن عباس: جعله ترابًا.

عن معونة بن قرّة عن أنس بن مالك قال: قال النبى ﷺ فى قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾: «طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة: أحد وورقان، ورضوى. ووقع

ثلاثة بمكّة ثور وثبيرة وحراء».

واختلفت القراءة فى هذا الحرف، وقرأ عاصم ﴿دَكًّا﴾: بالقصر والتنوين. والتى فى الكهف بالمد، وقرأ غيره من أهل الكوفة وحمير (دكاء) ممدودة غير مجراه فى التنوين.

وقرأ الباقون مقصورة الرفع منونة. وهو اختيار أبى حاتم وأبى عبيد، فمن قصره فمعناه جعله مدكوكًا. والدك والدق بمعنى واحد لأن الكاف والقاف يتعاقبان، لقولهم: كلام رقيق وركيك، ويجوز أن يكون معناه: دكه الله دكًا أى فتّه الله أغبارًا لقوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (الفجر: ٢١)، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (الحاقة: ١٤). قال حميد:

يدك أركان الجبال هزمه تخطر بالبيض الرقاق بهمه

ومن مده فهو من قول العرب ناقة دكاء إذا لم يكن لها سنام. وحينئذ يكون معناه: جعله أيضًا دكاء، أى مستوية لا شىء فيها، لأن الجبل مذكر، هذا قول أهل الكوفة.

وقال نحاة البصرة: معناه فجعله مثل دكًا وحذف مثل فأجرى مجرى ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢). : قال الأخفش: من مدّ قال فى الجمع: دكاوات، وذلك مثل حمراوات وحمرة، ومن قال: أرض دك، قال فى الجمع، دكوك، ﴿وَخَرَّ﴾: أى وقع ﴿مُوسَىٰ صَعِقًا﴾: قال ابن عباس: فغشى عليه، وقال قتادة: ميتًا.

وقال الكلبى: خرّ موسى صعقًا يوم الخميس يوم عرفة وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر.

وقال الواقدى: لما خرَّ موسى صعقًا قالت ملائكة السموات: ما لابن عمران وسؤاله الرؤية؟!

وفى بعض الكتب أنّ ملائكة السموات أتوا موسى وهو مغشى عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون: يا بن النساء الحيض أطمعت فى رؤية ربّ العزّة.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾: من صعقته وعقله عرف أنّه قد فعل أمرًا لا ينبغى فعله ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: من سؤالى الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنك لا تُرى فى الدنيا قال السدى ومجاهد: وأنا أوّل مَنْ آمن بك من بنى إسرائيل.

وسمعت أبا القاسم الحبيبى قال: سمعت أبا القاسم النصر آبادى يحكى عن الجنيد أنه قال: جئت إليك من الأسباط فى شىء لا تعقله نيتى، فأنا أوّل المؤمنين بأنّك لا تُرى فى الدنيا لأن أول من سألك الرؤية . . . .[1].

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال ابن عباس: لمّا سار موسى إلى طور سيناء للميقات قال له ربه: ما تبتغى؟ قال: جئت أبتغى الهدى. قال قد وجدته يا موسى، فقال موسى: يارب أى عبادك أحب إليك؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى. قال: أى عبادك أقضى؟ قال: الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أى عبادك أعلم؟ قال: الذى يبتغى علم الناس إلى علمه فيسمع الكلمة تهديه إلى الهُدى ويرد سنن ردىء.

وقال عبد الله بن مسعود: لمّا قرب الله موسى بطور سيناء رأى عبداً فى ظلّ العرش جالسًا فقال: ما هذا، قال: هذا عبد لا يحسد الناس على ما أتاهم الله من فضله وبرّ بوالديه ولا يمشى بالنميمة.

فقال موسى: يا رب اغفر لى ما مضى من ذنبى وما مضى وما بين ذلك وما أنت أعلم به منى، أعوذ بك من وسوسة نفسى وأعوذ بك من شر عملى. فقال: قد كفيت ذلك يا موسى، قال: يا رب أى العمل أحب إليك أن أعمل به؟ قال: تذكرنى ولا تنسانى، قال: أى عبادك خير عملاً؟ قال: مَنْ لا يُكذّب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه وهو ذو خلق حسن، قال: فأى عبادك شر عملاً؟ قال: فاجر فى خلق سيئ جيفة ليل بطال النهار. ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾: أعطيتك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾: لله سبحانه على نعمه.

أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أحمد بن حمدون الفراتى. أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن بكير الرازى، حدثنا الحسن بن علىّ بن يحيى بن سلام الإمام، حدثنا أحمد بن حسان بن موسى البلخى. حدثنا أبو عاصم إسماعيل بن عطاء بن قيس الأموى عن أبى حازم المدنى عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أعطى الله تعالى موسى الألواح فنظر فيه قال: يا رب لقد أكرمتنى بكرامة لم تكرمها أحداً قبلى قال: يا موسى إنّى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، بجد ومحافظة وموت على حب محمد ﷺ.

قال موسى: يا رب ومن محمد؟ قال: أحمد النبى الذى أُثبت اسمه على عرشى من قبل أن أخلق السموات بألفى عام، إنّه نبيى وصفيى وحبيبى وخيرتى من خلقى وهو أحب إلى من جميع خلقى وجميع ملائكتى.

قال موسى: يا رب إن كان محمد أحب إليك من جميع خلقك فهل خلقت أمته أكرم عليك من أمتى؟ قال: يا موسى إنّ فضل أمة محمد على سائر الخلق كفضلى على جميع خلقى. قال: يا رب ليتنى رأيتهم، قال: يا موسى إنّك لن تراهم، لو أردت أن تسمع كلامهم

أسمعتك، قال: يا رب فإنى أُريد أن أسمع كلامهم، قال الله تعالى: يا أُمة أحمد، فأجبنا كلنا من أصلاب آبائنا وأرحام أُمهاتنا لبيك اللهم لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك. قال الله تعالى: يا أُمة أحمد إن رحمتى سبقت غضبى وعفوى سبق حسابى قد أعطيتكم من قبل أن تسألونى وقد أجبتكم من قبل أن تدعونى وقد غفرت لكم قبل أن تعصونى. من جاءنى يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبدى ورسولى دخل الجنّة ولو كانت ذنوبه أكثر من زيد البحر. وهذا قوله عزّ وجلّ».

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ (القصص: ٤٦)، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ (القصص: ٤٤).

قال الثعلبى: وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علىّ بن نصير المزكى، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج حدّثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا رشد بن سعيد عن سعيد بن عبد الرحمن المعافرى عن أبيه أن كعب الأحبار رأى حبر اليهود يبكى قال: ما يبكيك؟

قال: ذكرت بعض الأمور.

فقال له كعب: أنشدك الله لئن أخبرتك ما أبكاك تصدقنى؟

قال: نعم.

قال: أنشدك الله تجد فى الكتاب المنزل أنّ موسى (عليه السلام) نظر فى التوراة فقال: إنى أجد أُمة خير أمم أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله والرسول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتّى يقاتلوا الأعور الدجال، فقال موسى: ربّ اجعلهم أُمّتى، قال: هم أُمّة محمد يا موسى، قال الحبر: نعم.

قال: أنشدك الله تجد فى كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر فى التوراة فقال: رب إنى أجد أُمةً يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم، وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار غير أن موسى كان يجمع صدقات بنى إسرائيل فلا يجد عبداً مملوكًا ولا أمةً إلاّ اشتراه ثمّ أعتقه من تلك الصدقات فما فضل حفر له بئر عميقة القعر فألقاه فيها ثمّ دفنه كيلا يرجعوا فيه، وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون والمشفوع لهم.

قال موسى: اجعلهم أُمّتى؟ قال: هى أُمة أحمد يا موسى. قال الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله تجد فى كتاب الله المنزل أنّ موسى (عليه السلام) نظر فى التوراة، فقال: إنى أجد أُمة إذا أشرف أحدهم على نشر كبر الله وإذا هبط واديًا حمد الله، الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا، يتطهرون من الجنابة، طهورهم بالصعيد كطهورهم

بالماء حيث لا يجدون الماء، غير محجلين من آثار الوضوء، فاجعلهم أُمتى؟ قال: هى أمة أحمد يا موسى، قال الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال: ربِ إنى أجد أُمةً إذا همَّ أحدهم بحسنة لم يعملها كتبت له حسنة مثلها، وإن عملها ضعف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فإذا هَمّ بسيئة ولم يعملها لم يكتب عليه وإن عملها كتبت سيئة مثلها.

قال: اجعلهم أُمتى؟ قال: هى أُمة أحمد يا موسى، قال الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة وقال: ربِ إنّى أجد أُمّة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيناهم، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد منهم أحدًا إلاّ مرحومًا. اجعلهم أُمّتى؟ قال: هى أُمة أحمد يا موسى، قال الحبر: نعم.

قال كعب: أنشدك الله تجد فى كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر فى التوراة قال: ربِ إنّى أجد فى التوراة أُمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنّة، يصفون فى صلواتهم صفوف الملائكة أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل، لا يدخل النار منهم أحد أبدًا إلا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء الشجر، قال موسى: فاجعلهم أُمتى؟ قال: هى أمة أحمد يا موسى. قال الحبر: نعم.

فلما عجب موسى من الخير الذى أعطى الله تبارك وتعالى محمدًا ﷺ قال: يا ليتنى من أصحاب محمد فأوحى الله عزّ وجلّ ثلاث آيات يرضيه بها هى: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٩): قال: فرضى موسى كل الرضا.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾ يعنى لموسى ﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾.

قال الربيع بن أنس: كانت ألواح موسى (عليه السلام) من برد، وقال ابن جريج: كانت من زمرّد أمر الله تعالى جبرئيل حتّى جاء بها من عدن يكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر فاستمد من بحر النور فكتب له الألواح.

وقال الكلبى: كانت الألواح زبرجدًا خضراء وياقوتة حمراء كتب الله فيها ثمانى عشرة آية من بنى إسرائيل وهى عشر آيات فى التوراة. قال وهب: أمره الله تعالى بقطع الألواح من صخرة صماء ليّنها الله له فقطعها بيده ثمّ شقها بإصابعه وسمع موسى صرير القلم بالكلمات

العشر، وكان ذلك أول يوم من ذى القعدة وكانت الألوح عشرة على طول موسى (عليه السلام).

وقال مقاتل وكعب ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ : كنقش الخاتم وكتب فيها: إنى أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بى شيئًا من أهل السماء ولا من أهل الأرض فإنّ كل ذلك خلقى ولا تقطعوا السبل ولا تحلفوا باسمى كاذبًا فإن منْ حلف باسمى كاذبًا فلا أُزكّيه ولا تقتلوا ولا تزنوا ولا تعقّوا الوالدين.

وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير. يقرأ منها الجزء فى سنة لم يقرأها إلاّ أربعة نفر: موسى ويوشع وعزير وعيسى (عليهم السلام)، وقال: هذه الآية ألف آية يعنى قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ وتبيانًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ : من الأمر والنهى الحلال والحرام والحدود والأحكام.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ : قال مقاتل: بجد ومواظبة. قال الضحاك: بطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ : قال ابن عباس فى رواية الكلبى: بأحسن ما أُمروا فى الأرض فيحلوا حلالها ويحرموا حرامها، وكان موسى أشد عداوة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به. وقال ابن كيسان وابن جرير: أحسنها الفرائض لأنه قد كان فيها أمر ونهى، فأمرهم الله تعالى أن يعملوا بما أمرهم به ويتركوا ما نهاهم عنه فالعمل بالمأمور به أحسن من العمل بالمنهى عنه.

وقيل: معناه أخذوا بها وأحسن عمله. وقال قطرب: يأخذوا بأحسنها أى بحسنها وكلّها حسن كقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥) وقال الحسين بن الفضل: معنى قوله (أحسنها) أن يتخيل للكلمة معنيين أو ثلاثة فيصرفوا إلى الشبهة بالحق. وقيل: كان فيها فرائض لا مبركٌ لها وفضائل مندوبًا إليها والأفضل أن يجمع بين الفرائض والفضائل.

﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ : قال أهل المعانى: هذا كقول القائل لمن يخاطبه سأُريك غدًا إلى بصير فيه قال مَنْ يخالف أمرى على وجه الوعيد والتهديد.

وقال مجاهد: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: مصيرهم فى الآخرة. قال الحسن: جهنم، وقال قتادة وغيره: سأُدخلكم النار فأُريكم منازل الكافرين الذين هم سكانها من الجبابرة والعمالقة.

وقال عطيّة العوفى: معناه سأُريكم دار فرعون وقومه وهى مصر يدلّ عليه.

قرأ ابن عباس وقسامة بن زهير: سأُورّثكم دار الفاسقين. وقال الكلبى: دار الفاسقين ما مرّوا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا.

وقال ابن كيسان: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ ما يصير قرارهم فى الأرض.

وقال ابن زيد: يعنى سنن الأولين، وقيل: الدار الهلاك وجمعه أدوار. وذلك لأن الله تعالى لما أغرق فرعون أوحى إلى البحر أن يقذف أجسادهم إلى الساحل ففعل فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين.

وقال يمان: يعنى مسكن فرعون.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: قال قوم: حكم الآية لأهل مصر خاصة يعنى بقوله: ﴿ءَايَـٰتِىَ﴾: يعنى الآيات التسع التى أعطاها الله سبحانه موسى (عليه السلام).

وقال آخرون: هى عامة، وقال ابن جريج وابن زيد: يعنى عن خلق السموات والأرض وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والبحور والشجر والنبات وغيرها أصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها، وقال الفراء أى الغرباني: إنّى أمنع قلوبهم عن التفكر فى أمرى.

وسمعت أبا القاسم الحبيبى قال: سمعت أبا سعيد محمد بن نافع السجزى بهراة يقول: سمعت أبا يزيد حاتم بن محبوب الشامى قال: سمعت عبد الجبار بن العلاء العطار قال: سمعت سفيان بن عيينة وسئل عن هذه الآية: أُحرمهم فَهم القرآن.

سمعت أبا القاسم الحبيبى قال: سمعت أبا جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازى قال: سمعت العباس بن حمزة قال: سمعت ذا النون المصرى يقول: أبى الله أن يكرّم قلوب الظالمين مكتوب حكمة القرآن ﴿وَإِن يَرَوْا﴾: يعنى هؤلاء المتكبّرين.

قرأ مالك بن دينار فإن يروا بضم الياء أى يفعل بهم ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾: طريق الهدى والسداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾: لأنفسهم ﴿سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾: يعنى الضلال والهلاك ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾: وقرأ مجاهد وحميد وطلحة والأعمش وحمزة ويحيى والكسائى: الرشد، بفتح الراء والشين وهما لغتان كالسَّقَم والسُّقم والحَزَن والحُزن والبَخَل و البُخل، وكان أبو عمرو يفرق بينهما فيقول: الرشد بالضم والصلاح فى الأمر كقوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ (النساء:٦) والرشد بفتحتين الاستقامة فى الدين، وقرأ أبو عبد الرحمن الرشاد بالألف وهو مصدر كالعفاف والصلاح.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾: لاهين ساهين لا يتفكرون فيها ولا يتعظون بها ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: ورؤية القيامة، وقيل: العالية فى الآخرة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ﴾: فى العقبى ﴿إِلَّا مَا كَانُوا﴾: أى جزاء ما كانوا ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فى الدنيا.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ : أى من بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ : التى استعاروها من قوم فرعون.

وكانت بنو إسرائيل فى القبط بمنزلة أهل الجزية فى الإسلام، وكان لهم يوم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلى فزامن ذلك عيدهم فاستعادوا الحلى للقبط فلما أخرجهم الله من مصر وغرق فرعون بقيت تلك الحلى فى أيديهم فاتخذ السامرى منها عجلاً وهو ولد البقر ﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ : مجسّد لا روح فيه.

وقال وهب: جسداً لحمًا ودمًا ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ : وهو صوت البقر خار خورة واحدة ثمّ لم تعد. وقال وهب: كان يسمع منه الخوار إلاّ أنّه لا يتحرك. وقرأ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: خوار بالجيم والهمزة وهو الصوت أيضًا واختلفت القراء فى قوله ﴿حُلِيِّهِمۡ﴾، فقرأ يعقوب بفتح الحاء وجزم اللام وتخفيف الياء على الواحد.

وقرأ حمزة والكسائى: حليّهم بكسر الحاء وتشديد الياء، الباقون بضم الحاء وهما لغتان مثل صلى وجثى وبكى وعتى يجوز فيها الكسر والضم ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ : يعنى الذين عبدوا العجل من دون الله ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ﴾ : قال الله ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ : عبدوه واتخذوه إلهًا ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ : كافرين ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ : أى ندموا على عبادة العجل وهذا من فصيحات القرآن.

والعرب تقول لكل نادم أو عاجز عن شىء: سقط فى يديه وأسقط، هما لغتان وأصله من الاستئسار وذلك أن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه فيرمى به من يديه إلى الأرض ليأسره

فيكتفه ، والمرمى فيه مسقوط فى يد الساقط .

﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ : يتب علينا ربنا ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ : ويتجاوز عنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ : بالعقوبة ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ : قال أبو الدرداء : الأسف منزلة وراء الغضب أشد منه ، وقال ابن عباس والسدى : رجع حزينًا من صنيع قومه . قال الحسن بن غضبان : حزينًا ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ : أى بئس الفعل فعلتم بعد ذهابى ، يقال : منه خلفه بخير أو شر إذا ألاه فى أهله أو قومه بعد شخوصه عليهم خيرًا أو شرًا .

﴿أَعَجِلۡتُمۡ﴾ : أسبقتم ﴿أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ : غضبًا على قومه حين عبدوا العجل ، وقال قتادة : إنّما ألقاها حين سمع من فضائل أُمة محمد ﷺ وفى الألواح : قال : يا رب اجعلنى من أُمّة محمد قال رسول الله ﷺ : «يرحم الله أخى موسى ما المخبر كالمعاين لقد أخبره الله بفتنة قومه فعرف أنّ ما أخبره الله حق وأنه على ذلك لمتمسّك بمّا فى يديه ، فرجع إلى قومه ورآهم فغضب وألقى الألواح» .

قالت الرواة : كانت التوراة سبعة أسباع فلمّا ألقى الألواح تكسرت فوقع منها ستة أسباع وبقى سبع وكان فيها رُقع موسى وفيما بقى الهدى والرحمة ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾ : أى لحيته وذقنه ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ : وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين وأحبّ إلى بنى إسرائيل من موسى ، لأنه كان لين الغضب ﴿قَالَ﴾ : هارون عند ذلك يا ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ : قرأ أهل الكوفة بكسر الميم ههنا وفى «طه» أراد يا بن أُمى فحذف ياء الإضافة ، لأنه مبنى النداء على الحذف وأبقى الكسرة فى الميم لتدل على الإضافة كقوله : (يا عباد) : يدل عليه ، قراءة ابن السميقع : يا بن أُمى بإثبات الياء على الأصل ، وقرأ الباقون بفتح الميم فهما على معنى يابن أُماه جعل أصله اسمًا واحدًا وبناه على الفتح كقولهم : حضرموت وخمسة عشر ونحوهما .

﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ : باتخاذهم العجل ﴿وَكَادُواْ﴾ : يعنى همّوا وقاربوا ﴿يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ﴾ : بضم التاء وكسر الميم ونصب الأعداء قرأه العامّة وقرأ مالك بن دينار فلا تشمت ﴿بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ : بفتح التاء والميم الأعداء رفع ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي﴾ : فى موعدتك علىّ وعقوبتك لى ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعنى أصحاب العجل ﴿قَالَ﴾ : موسى لمّا تبين له عذر أخيه ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ : ما صنعت إلى ﴿وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا﴾ : جميعًا أنا وأخى ﴿فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ : فى الآخرة ﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ : قال أبو العالية : هو ما أُمروا به من قتل أنفسهم .

وقال عطيّة العوفى : أراد سينالهم أولادهم الكبير كابرًا على عهد رسول الله ﷺ غضب

وذلّة فى الحياة الدنيا، وهو ما أصاب بنى قريظة والنضير من القتل والجلاء لتوليتهم متخذى العجل ورضاهم به، وقال ابن عباس: هو الجزية.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾: الكاذبين قال أبو قلابة: هى والله جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة، قال يذله الله عزّ وجلّ.

وسمعت أبا عمرو الفراتى سمعت أبا سعيد بكر بن أبى عثمان الخيرى سمعت السراج سمعت سوار بن عبد الله الغزّى سمعت أبى يقول: قال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلاّ وتجد فوق رأسه ذلّة ثمّ قرأ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾: الآية يعنى المبتدعين.

❖ ❖ ❖

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟﴾ إلى قوله ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى﴾: يعنى سكن عن موسى ﴿ٱلْغَضَبُ﴾ يدلّ عليه قراءة معاوية بن مغيرة: ولمّا سكن، بالنون.

قال أبو النجم:

وهمت الأفعى بأن تسيحا   وسكت المكاء أن يصيحا

وأصله الكف عن الشىء، ومنه الساكت عن الكلام.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾: التى ألقاها وذهب منه ستة أسباعها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾: أى فما نسخ منها.

قال عطاء: يعنى فيما بقى منها، ولم يذهب من الحدود والأحكام شىء فقال ابن عباس وعمرو بن دينار: صام موسى أربعين يومًا فلمّا ألقى الألواح فتكسّرت صام مثلها فردّت عليه وأُعيدت له فى لوحين مكان الذى انكسر ولم يفقد منها شيئًا ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

قال ابن عباس: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: يخافون

وقال الراجز:

❖ يصنع الجزع فيها أو استحيوا ❖

للماء فى أجوافها خريرًا أى من أصل الجزع ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾: أى من قومه فلمّا نزع حرف الصفة نصب كقول الفرزدق:

ومنّا الذى اختير الرجال سماحة وبرًا إذا هبّ الرياح الزعازع

وقال آخر:

اخترتك للناس إذا رثت خلائقهم واعتل مَنْ كان يُرجى عند السؤل

أى من الناس، واختلفوا فى سبب اختيار موسى السبعين.

وقال السدى: أمر الله أن سيأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعد موعدًا، واختار موسى من قومه ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾: ثمّ ذهب إليه ليعتذر فلمّا أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وإنّك قد كلّمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا.

وقال ابن إسحاق: اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوه ويسألوه التوبة على من تركوا وراءهم من قومهم.

وقال مجاهد: اختارهم لتمام الموعد.

وقال وهب: قالت بنو إسرائيل لموسى (عليه السلام): إن طائفة يزعمون أنّ الله لا يكلمك ولو كلمك فأقمت لكلامه ألم ترَ أنّ طائفة منّا سألوه النظر إليه فماتوا فلا تسأله أن ينزل طائفة منّا حتّى يكلمك فيسمعوا كلامه فيؤمنوا وتذهب التهمة، فأوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام) أن اختر من خيارهم سبعين رجلاً، ثمّ ارتق بهم إلى الجبل أنت وهارون. واستخلف على بنى إسرائيل يوشع بن نون يقول كما أمر الله تعالى واختار سبعين رجلاً.

روى المنهال عن الربيع بن حبيب قال: سمعنا أبا سعيد الرقاشى وقرأ هذه الآية قال: كان السبعون ابنًا ما عدا عشرين. ولم يتجاوز الأربعين. وذلك أن ابن عشرين قد ذهب جماله وصباه وأنّ من لم يتجاوز الأربعين لم يعد من عقله شىءٌ. وقال الآخرون: كانوا شيوخًا.

قال الكلبى: اختار موسى سبعين رجلاً لينطلقوا إلى الجبل فلم يصب إلاّ ستين شيخًا وأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشباب عشرة فاختار وأصبحوا شيوخًا فاختار من كل سبط ستّة رهط فصاروا اثنين وسبعين.

فقال موسى: إنّما أمرت سبعين رجلاً فاستخلف منكم رجلان فتشاجروا على ذلك.

فقـال : إن لمن قعد مثل أجر من خرج ، فقعد رجلان أحـدهما كالب بن يوقيا والآخر يوشع بن نون .

فأمر مـوسى السبعـين أن تصوموا وتطهروا ، وتطهّروا ثيابكم ثمّ خرج بهم إلى طور سيناء لميقات ربّه وكان لا يأتيه إلاّ بإذن منه وذلك قوله تعالى : ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ اختلفوا فى كيفية هذه الرجفة وسبب أخذها إياهم .

فقال ابن إسحاق والسدى : إنّهم لمّا أتوا ذلك المكان قالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربّنا فقـال : أفعل ، فلمّـا دنا مـوسى (عليه السلام) من الجبل وقع عليه عـمود الغمـام حتّى يغـشى الجبل كـله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم : ادنـوا وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى إسرائيل أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتّى إذا دخلوا فى الغمام وهـو عمود فسمعوه وهو يكلّم موسـى يأمره فيها : افعل لا تفعل فلما فرغ انـكشف عن موسـى الغمام فـأقبل إليهم فقـالوا : يا موسـى لن نؤمن لك حتّـى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعًا .

وقـال ابن عبـاس : إن السبعـين الذين قـالوا : لـن نؤمن لـك حتّى نـرى الله جهرة فـأخذتهم الصاعـقة كانـوا قبل السبـعين الذين أخـذتهم الرجفـة ، وإنما أمر الله مـوسى أن يختـار من قومه سبعـين رجلاً فاختارهـم وبرزهم ليدعـوا ربهم ، فكان فـيما دعوا أن قـالوا : اللهم أعطـنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة .

قال علـيّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه : إنّما أخذتهـم الرجفة من أجل دعواهم على موسـى قبـل هارون ، وذلك أن موسـى وهارون وشبـر وشبير (علـيهم السلام) انطلقـوا إلى سفح جبل فنام هارون على سرير فتـوفّاه الله فلمّا مات دفنه موسى فلمّا رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له : أين هارون؟ قال : توفّاه الله ، فقالوا : بل أنت قتلته عمداً على خُلُقه ولَينه ، قال : فاختاروا من شئتم ، فاختاروا سبعـين رجلاً وذهب بهم ، فلمـا انتهوا إلـى القبر قـالَ موَسـى : يا هارون أقتلتَ أم تُوفّيت؟

فقال هارون : ما قتلنى أحد . ولكن الله توفانى إليه .

فقالوا : يا موسـى لن تقصّ بعد اليوم فـأخذتهم الرجفـة وصعقوا وماتـوا ، وقال موسى : يا رب مـا أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم ، يقـولون : أنت قتلتهم فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلّهم .

وقـال ابن عباس : إنّما أخذتـهم الرجفة لأنهم لم يرضوا ولـم ينهوا عن العجل ، وقال قتادة

وابن جريج ومحمد بن كعب: أخذتهم الرجفة لأنّهم لم يزايلوا قومهم حين عبدوا العجل ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر.

وقال وهب: لم تكن تلك الرجفة موتًا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرجفة وخلقوا فرجفوا حتّى كادت أن تبيّن مفاصلهم وتنقص ظهورهم فلمّا رأى ذلك موسى (عليه السلام) رحمهم وخاف عليهم الموت واشتدّ عليه فقدهم وكانوا له ولدًا على الخير سامعين مطيعين فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربّه فكشف الله عنهم تلك الرجفة والرعدة فسكنوا واطمأنوا وسمعوا كلام ربهم فذلك قوله ﴿قَالَ﴾: يعنى موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾: بقتل القبطى ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾: يعنى عبدة العجل. وظن موسى أنّهم عوقبوا باتخاد بنى إسرائيل العجل.

وقال السدى: أوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل وكان موسى لا يعلم ذلك فقال موسى: يا رب كيف أرجع إلى بنى إسرائيل وقد أهلكت أخيارهم وليس معى رجلٌ واحدٌ فما الذى يصدقوننى به ويأمنوننى عليه بعد هذا، فأحياهم الله، وقال المبرّد: قوله ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ استعلام واستعطاف أى لا تهلكنا قد علم موسى أن الله أعدل من أن يؤاخذ بجريرة الجانى غيره ولكنّه كقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ (المائدة: ١١٨) الآية.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: أى اختبارك.

قال سعيد بن جبير وأبو العالية والربيع: محنتك، وقال ابن عباس: عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عن من تشاء ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: ناصرنا ومولانا وحافظنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا﴾: أى حقق ووفقنا للأعمال الصالحة يقال: كتب الله عليك السلامة ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: يعنى الأعمال الصالحة ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: يعنى المغفرة والجنّة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: قرأ أبو رجزة السعدى: وكان مصححًا من القراء شاعرًا هدنا بكسر الهاء يقال: هاد يهيد ويهود إذا رجع وتحرك فأدله الميل قال الشاعر:

قد علمت سلمى رجلاً   أنى من الناس لها هايد

﴿قَالَ﴾: الله تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾: من خلقى وقال الحسن وابن السميقع: مَنْ أشاء . . . .(١) من الإشاءة ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ﴾: عمّت ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾: قال الحسن وقتادة: إن رحمته فى الدنيا وسعت البر والفاجر وهى يوم القيامة للمتّقين خاصة.

وقال عطيّة العوفى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ولكن لا تجب إلاّ للذين يتقون، وذلك أنّ الكافر

(١) بياض بالأصل المخطوط.

يرزق ويدفع عنه بالمؤمن لسعة رحمة الله للمؤمن يعيش فيها، فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة كالمسير فى كالمستضىء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه، قال أبو روق: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعنى الرحمة التى قسمها بين الخلائق يعطفه بها بعضهم على بعض، وقال ابن زيد: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هو التوبة، وقال آخرون: لفظه عام ومعناه خاص لهذه الأمّة.

وقال ابن عباس وقتادة وابن جرير وأبو بكر الهذلى: لما نزلت هذه الآية ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: قال إبليس: أنا من ذلك الشىء ونزعها الله من إبليس فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾: فقالت اليهود والنصارى نحن نتّقى ونؤتى الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله منهم وجعلها لهذه الأُمة.

❖ ❖ ❖

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية قال نوف البكالى الحميرى: لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربه قال الله تعالى لموسى أجعل لكم فى الأرض مسجدًا وطهورًا تصلّون حيث أدركتكم الصلاة إلاّ عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة فى قلوبكم وأجعلكم تقرأون التوراة عن ظهور قلوبكم، يقرأها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير.

فقال ذلك موسى لقومه فقالوا: لا نريد أن نصلى فى الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة فى قلوبنا، ونريد أن تكون كما كانت فى التابوت، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلاّ نظرًا، فقال الله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ فجعلها الله لهذه الأمة، فقال موسى: رب اجعلنى نبيهم، فقال: نبيهم منهم، قال: رب

اجعلني منهم، قال: إنك لن تدركهم، فقال موسى: يا رب أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرها فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ﴾ أنفسهم ﴿بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾: فرضي موسى، قال نوف: ألا تحمدون ربًا حفظ غيّكم وأجزل لكم سهمكم وجعل وفادة بنى إسرائيل لكم.

واختلف العلماء في معنى الأُمّي.

فقال ابن عباس: هو منكم كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحاسب قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ (العنكبوت: ٤٨) وقال ﷺ: «إنا أُمة أمية لا نكتب ولا نحاسب».

وقيل: هو منسوب إلى أُمته كأن أصله أُمتى فسقطت التاء من النسبة كما سقطت من اليكى والمدى.

وقيل: منسوب إلى أُم القرى وهى مكّة أُم القرى ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ﴾: أى صفته ونبوّته ونعته وأمره ﴿مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ قال عطاء بن يسار: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله فى التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (الأحزاب: ٤٥): وحرزًا للأُميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتّى يقيم الملّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلاّ الله فيفتح به قلوبًا غلفًا وآذانًا صمًّا وأعينًا عميًا.

قال عطاء: ثمّ لقى كعبًا فسأله عن ذلك فما اختلفا حرفًا إلاّ أن كعبًا قال بلغته: قلوبًا غلوفيًا وآذانًا صمويًا وأعينًا عمويًا.

وروى كعب فى صفة رسول الله ﷺ فقال: مولده مكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام وأمته الحمادون يحمدون الله على كل حال وفى كل منزلة، يُوضئون أطرافهم ويتورّون إلى الجهاد وفيهم وعاة الشمس ويصلون الصلاة حيث أدركتهم ولو على ظهر الكناسة، صفهم فى القول مثل صفهم فى الصلاة ثمّ قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ (الصف: ٤).

وقال الواقدى: حدّثنى عثمان بن الضحاك عن يزيد بن الهادى عن ثعلبة بن مالك أن عمر ابن الخطاب أنه سأل أبا مالك عن صفة النبىّ ﷺ فى التوراة وكان من علماء اليهود، فقال: صفته فى كتاب بنى هارون الذى لم يغير ولم يبدّل أحد من ولد إسماعيل بن إبراهيم ومن آخر الأنبياء وهو النبى العربى الذى يأتى بدين إبراهيم الحنيف، يأتزر على وسطه ويغسل أطرافه فى

عينيه حمرة وبين كتفيه خاتم النبوة مثل زر الحجلة، ليس بالقصير ولا بالطويل، يلبس الشملة ويجرى بالبلغة ويركب الحمار ويمشى فى الأسواق، معه حرب وقتل وسبى سيفه على عاتقه لا يبالى مَن لقى من الناس، معه صلاة لو كانت فى قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ولو كانت فى عاد ما أهلكوا بالريح ولو كانت فى ثمود ما أهلكوا بالصيحة.

مولده بمكة ومنشأه بها وبدء نبوّته بها ودار هجرته يثرب بين جرّة ونخل وسبخة وهو أُمى لا يكتب بيده، هو بجهاد، يحمد الله على كل شدة ورخاء، سلطانه الشام، صاحبه من الملائكة جبرئيل يلقى من قومه أذًى شديدًا. ويحبّونه حبًا شديدًا ثمّ يدال على قومه يحصرهم حصر الجرين، يكون له وقعات فى يثرب، منها له ومنها عليه، ثمّ يكون له العاقبة يعدّ معه أقوام هم إلى الموت أسرع من الماء من رأس الجبل إلى أسفله، صدورهم أناجيلهم قربانهم دماؤهم ليوث بالنهار ورهبان بالليل يرعب منه عدوه بمسيرة شهر، يباشر القتال بنفسه حتّى يخرج ويكلم لا شرطة معه ولا حرس يحرسه.

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: أى بالإيمان ﴿وَيَنْهَٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: يعنى الشرك، وقيل: المعروف والشريعة والسنة والمنكر ما لا يعرف فى شريعة ولا سنّة.

وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف وبخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام ينهاهم عن المنكر عن عبادة الأصنام وقطع الأرحام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: يعنى الحلالات التى كانت أهل الجاهلية تحرمها: البحائر والسوائب والوصائل والحوامى ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: يعنى لحم الخنزير والدم والميتة والربا وغيرها من المحرمات. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾: ابن عباس والحسن والضحاك والسدى ومجاهد يعنى: جهدهم الذى كان يأخذ على بنى إسرائيل بالعمل بما فى التوراة. وقال ابن زيد وقتادة: يعنى الشدائد الذى كان عليهم فى الدين ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾: يعنى الأثقال ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾: بما أُمروا به من قتل الأنفس فى التوراة وقطع الأبهاء، شبّه ذلك بالأغلال كما قال الشاعر:

فليس لعهد الدار يا أم مالك ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئًا واستراح العواذل

فشبه حدود الإسلام وموانعه عن التخطّى إلى المحذورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾: أعانوه ووقّروه ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾: يعنى القرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

قال قتادة: وآياته. وقال مقاتل والسدى: يعنى عيسى ابن مريم ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾: يعنى بنى إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾: أى يرشدون إلى الحق، وقيل: خلفاء يهتدون ويستقيمون عليه ويعملون به ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾: أى ينصفون من أنفسهم ويحمدون.

وقال السدى: هم قوم بينكم وبينهم قوم من سهل.

وقال ابن جريج: بلغنى أن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطًا تبرأ سبط منهم ممّا صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينه ففتح الله عليهم نفقًا فى الأرض فساروا فيه سنة ونصفًا حتّى خرجوا من وراء الصين، فهم هناك حقًا مسلمون يستقبلون قبلتنا.

قال الكلبى والربيع والضحاك وعطاء: هم قوم من قبل المغرب خلف الصين على نهر من الرمل يسمى نهر أودق وليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصبحون بالنهار ويزرعون لا يصل إليهم منّا أحدٌ ولا منهم إلينا أحد وهم على الحق وذكر عن النبىّ ﷺ أن جبرئيل ذهب إليهم ليلة أُسرى به فكلّمهم فقال لهم جبرئيل: هل تعرفون مَنْ تُكلّمون؟ قالوا: لا. قال: هذا محمدٌ النبىّ فآمنوا به، وقالوا: يا رسول الله إنّ موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منّى السلام.

فردّ محمد ﷺ على موسى: فعليه السلام، ثمّ أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم يكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة فأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يُقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا وأن يتركوا السبت.

❖ ❖ ❖

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝﴾

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾: يعني بني إسرائيل ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ روى أبان بن يزيد العطار عن عاصم: وقطعناهم بالتخفيف وأراد بالأسباط القبائل والفرق ولذلك أنشأ العدد والأسباط جمع مذكر.

قال الشاعر:

وإن قريشًا كلّها عشر أبطن وأنت بريءٌ من قبائلها العشر

فذهب بالبطن إلى القبيلة والفصيلة فلذلك كان البطن مذكرًا وإنما قال: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ بالجمع ولا يقال: أتاني اثنا عشر رجالاً، لأنه أراد الأعداد والجموع فأقام كل عدد مقام واحد، وقيل: معناه وقطعناهم أسباطًا أممًا اثني عشر.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾: في التيه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾: قال عطاء: كان الحجر أربعة وجوه لكل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين لا يُخالطهم سواه ﴿فَانبَجَسَتْ﴾: أخصبت وانفجرت.

قال أهل التفسير: انبجست وانفجرت واحد، وكان أبو عمرو بن العلاء يفرق بينهما فيقول انبجست عرفت وانفجرت سالت.

قال عطاء: كان يظهر على كل موضع من الحجر يضربه موسى (عليه السلام) مثل ثدي المرأة فيعرق أوّلاً ثمّ يسيل ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾: من كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: لا يدخل سبط على غيره في شربه وكل سبط من أب واحد. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾: في التيه يقيهم من الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ وقرأ أهل المدينة يغفر بياء مضمومة وخطاياكم بالرفع، وقرأ ابن عامر بتاء مضمومة.

❖ ❖ ❖

﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ : واسأل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال تقرير وتوبيخ ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ : أى بقربه وعلى شاطئه، واختلفوا فيها فروى عكرمة عن ابن عباس قال: هى قرية يقال لها أيلديس مدين والطور.

وروى علىّ بن أبى طلحة عنه فقال: هى قرية على شاطئ البحر من مصر والمدينة يقال لها: أيلة وقال ابن زيد: هى قرية يقال لها: مقنى بين مدين وعينونا، وقيل: هى الطبريّة ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ : أى يتجاوزون أمر الله وقرأ أبو نهيك إذ تعدون بضم الياء وكسر العين بتثقيل الدال من الإعداد يريد يهيبون الآلة لأخذها.

وقرأ ابن السميقع: فى الأسبات، على جمع السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ : قرأ ابن عبد العزيز يوم إسباتهم شرعًا إلى شراع ظاهرة على الماء كثيرة، وقال الضحاك: متتابعة ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ : أى لا يفعلون السبت. يقال سبت يسبت سبتًا وسبوتًا إذا أعظم السبت.

وقرأ الحسن: يُسبتون بضم الياء أى يدخلون فى السبت كما يقال أجمعنا وأشهرنا أى دخلنا فى الجمعة والشهر ﴿لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ : نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ : وسمعت الحسن ابن محمد بن الحسن سمعت إبراهيم بن محارب بن إبراهيم سمعت أبى يقول: سألت الحسين ابن الفضل هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلاّ قوتًا والحرام يأتيك جزفًا جزفًا؟ قال: نعم، فى قصّة داود وتأويله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ .

قال عكرمة: جئت ابن عباس يومًا فإذا هو يبكى ووضع المصحف فى حجره فقلت: ما يُبكيك جعلنى الله فداك. قال: هؤلاء الورقات فإذا هو فى سورة الأعراف، فقال: تعرف الآية؟ قلت: نعم، قال: فإنّه كان بها حى من اليهود فى زمن داود حرم عليهم الحيتان فى السبت، وذلك أن اليهود أمروا باليوم الذى أمرتهم به يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به وحرّم عليهم فيه الصيد فأمروا بتعظيمه إن أطاعوا لم يؤجروا وإن عصوا عذبوا، وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعًا بيضاء سمانًا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم حتى لا يرى الماء من كثرتها ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فكانوا كذلك برهة من الدهر.

ثمّ إنّ الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتّخذوا الحياض وكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتسقى فيها ولا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد.

وقال ابن زيد: كانوا قد قرّبوا بحب الحيتان وكان فى غير يوم السبت لا يأتيهم حوت واحد فأخذ رجل منهم حوتًا فربط فى ذنبه خيطًا فأخذه وشواه فوجد جار له ريح الحوت. فقال له:

يا فلان أنا أجد فى بيتك ريح نون، قال: لا فتطلع فى تنوره فإذا هو فيه فقال: إنى أرى الله سيعذّبك، فلما لم يره عذب ولم يعجل عليهم بالعذاب أخذ فى السبت الأُخرى حوتين اثنين.

فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم أكلوا وملحوا وباعوا وأثروا وكثر مالهم، وكانوا نحواً من سبعين ألفًا، فصارت أهل القرية ثلاثًا: ثلث نهُوا. وكانوا نحواً من اثنى عشر ألفًا. وثلث قالوا: لـمَ تعظون قومًا الله مهلكهم، وثلث أصحاب الخطيئة، فلما لم ينتهوا قال المسلمون: لا نسألهمَ فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود (عليه السلام) فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس شأنًا لعل الخمر غلبتهم فعلوا على الجدار فنظروا فإذا بهم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم وعرفت القردة أنسابها من الإنس. ولا تعرف الإنس أنسابهم من القرود. فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس وتشم ثيابه وتبكى فيقول: ألم ننهكم؟ فتقول برأسها: نعم.

قال قتادة: صار الشبان قردة والشيوخ خنازير فما نجا إلاّ الذين نهوا وهلك سائرهم.

واختلف العلماء فى الفرقة الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ كانت من الناجية أو من الهالكة؟ فقال بعضهم: كانت من الناجية لأنّها كانت من الناهية.

وقال آخرون: كانت من الفرقة الهالكة، لأنّهم كانوا من الخاطئة وذلك أنهم لما نهوا وقالوا لهم انتهوا عن هذا العمل قبل أن ينزل بكم العذاب فإنّا قد علمنا أن الله تعالى منزل عليكم بأسه إن لم تنتهوا قالوا لهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾: إذ علمتم أنّ الله معذبهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: أى هذه معذرة، وقرأ حفص: معذرة أى يفعل ذلك معذرة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: صيد الحيتان والصواب أنها كانت من الفرقة الناجية وأن هذا الكلام من قول المؤمنين بعضهم لبعض لأنّه لو كان الخطاب للمعتدين لقالوا: ولعلكم تتّقون يدلّ عليه قول يمان بن رئاب نحن الطائفتان اللذان قالوا ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾: والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فأهلك الله أهل المعصية الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة وخنازير.

وقال ابن عباس: ليت شعرى ما فعل هؤلاء الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾: قال عكرمة: فقلت له: جعلنى الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾: فلم أزل به حتّى عرّفته أنهم قد نجوا فكسانى حلّة.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾: تركوا ما وعظوا به ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾: أى المعصية ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أى عاقبنا باعتدائهم فى السبت واستحلالهم ما حرم الله ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾: شديد وجيع من البأس وهو الشدة والفعل منه بَؤس يبؤسُ، فاختلف القراء فيها فقرأ

أهل المدينة بِيْس بكسر الباء وجزم الياء من غير همزة على وزن فعل، وقرأ ابن عامر كذلك على وزن فِعْل إلاّ أنّه الهمزة.

وقرأ عاصم: فى رواية أبى بكر: بَيْئس بفتح الباء وجزم الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل صيقل ويثرب.

كما قال الشاعر:

كلاهما كان رئيسًا بيئسا يضرب فى الهيجاء منه القونسا

وقرأ بعضهم: بَيِئس بفتح الباء وكسر الهمزة على وزن فعل مثل حذر كقول ابن قيس الرقيات:

ليتنى ألقى رقيّة فى خلوة من غير ما بيئس

وقرأ الحسن: بكسر الباء وفتح السين على معنى بيئس العذاب.

وقرأ مجاهد: بايئس على وزن فاعل وقرأ أبو أياس بفتح الباء والياء من غير همزة.

وقرأ نصر بن عاصم: بيئس بفتح الباء وكسر الياء مشدداً من غير همزة.

وقرأ بعض أهل مكة بئيس بكسر الياء والهمزة كما يقال: بعر للبعير. وقال أهل اللغة: كل فعل ثانيه أحد حروف الحلق فإنه يجوز كسر أوّله مثل بعير وصغير ورحيم وحميم وبخيل، وقرأ الباقون بئيس على وزن فعيل وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم لأن فعيلاً أشبهه بصفات التعريف كقول ذى الأصبع العدوانى:

لقد رأيت بنى أبيك محمجين إليك شوسًا

حنقًا علىّ ولن ترى لى فيهم أثرًا بئيسًا

وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾: قال ابن عباس: أبوا أن يرجعوا عن المعصية ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾: صاغرين. قال سعيد بن جبير: رأى موسى (عليه السلام) رجلاً يحمل قصبًا يوم السبت فضرب عنقه، أبو روق: الخاسئون الذين لا يتكلّمون.

وقال المؤرخ مبعدين كما بَعُد الكلاب. قال ابن عباس: مكثوا ثلاثة أيام ينظر إليهم الناس ثمّ هلكوا ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيام.

قال مقاتل: عاشوا سبعة أيام يعرف الكبير بكبره والصغير بصغره، ثمّ ماتوا.

وروى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: إن الله لم يمسخ شيئًا فجعل له نسلاً وعاقبة.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: أذّن وأعلم ربّك مثل قولهم تعلم بمعنى اعلم. وأنشد المبرّد:

تعلم أن خير الناس حى ينادى فى شعارهم يسار

وقال زهير:

فقلت تعلم أن للصيد غرّة فإن لا تضيعها فإنّك قاتله

وقال ابن عباس: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ قال ربّك، وقال مجاهد: أمر ربّك، وقال عطاء: حتم، وقال أبو عبيد: أخبر، وقال قطرب: وعد.

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: هم اليهود بعث الله عليهم محمداً وأمته يقاتلونهم حتّى يسلموا أو يعطوا الجزية، وقال سعيد بن جبير: هم أهل الكتاب بعث الله عليهم العرب يجبونهم الخراج إلى يوم القيامة فهو سوء العذاب ولم يجب نبى قط الخراج إلا موسى (عليه السلام) فهو أول من وضع الخراج فجباه ثلاث عشرة سنة ثمّ أمسك ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أى حضر وجاء وتبدل من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف.

قال أبو حاتم: الخلف بسكون اللام الأولاد والواحد والجميع فيه سواء والخلف بفتح اللام البدل ولدًا كان أو غريبًا، وقال الآخرون: هم خلف سوء.

وقال ابن الأعرابى: الخلف بالفتح الصالح وبالجزم الصالح. قال لبيد:

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ومنه قيل للردىء من الكلام: خلف، ومنه المثل السائر: سكت ألفًا وبطن خلفًا.

وقال النضر بن شميل: الخلف بجزم اللام وإسكانها فى غير القرآن السوء واحد، فأمّا فى

القرآن الصالح بفتح اللام لا غير، وأنشد:

إنا وجــدنا خلفًا بئس الخلف عبدًا إذا ما ناء بالحمل خضف

وقال محمد بن جرير الطبرى: أكثر ما جاء فى المدح بفتح اللام وفى الذم بتسكينها وقد تحرك فى الذم وتسكن فى المدح ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

لنا القدم الأولى وإليك وخلفنا لأولنا فى طاعـــة الله تابع

قال: وأحسب أنّه إذا وجه إلى الفساد مأخوذ من قولهم: خلف اللبن وحمض من طول تركه فى السقاء حتى تفسد، ومن قولهم: خلف فم الصائم إذا تغير ريحه وفسد، فكان الرجل الفاسد مشبهًا به.

﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾: والعرض متاع الدنيا أجمع. والعرض بسكون الراء ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير.

قال المفسّرون: إن اليهود ورثوا كتاب الله فقرءوه وعلموه وضيعوا العمل به وخالفوا حكمه يرتشون فى حكم الله وتبديل كتاب الله وتغيير صفة رسول الله ﷺ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: ذنوبنا ما عملناه بالليل كُفّر عنا بالنهار، وما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل تمنيًا على الله الأباطل.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾. قال سعيد بن جبير: وإن عرض لهم ذنب آخر عملوه.

وقال مجاهد: ما أشرف لهم فى اليوم من شىء من الدنيا الحلال أو حرام يشتهونه أخذوه. وكلما وهف لهم شىء من الدنيا أكلوه وأخذوا من الدنيا، ما وهف أى ما سهل، لا يبالون حلالاً كان أو حرامًا ويبتغون فى المغفرة فإن يجدوا الغد مثله يأخذوه.

قال السدى: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلاّ ارتشى فى الحكم. وإن خيارهم اجتمعوا فأخذوا منهم بعض العهود أن لا يفعلوا فجعل الرجل منهم إذا استقضى وارتشى يقال له: ما لك ترتشى فى الحكم، فيقول: سيُغفر لى، فيطعن عليه البقية عَرَض من بنى إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجلاً ممن كان يطعن فيرتشى فيقول وإن يأتى الآخرين عرض مثله يأخذوه ومعناه: وإن يأت يهود يثرب الذين كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ عرض مثله يأخذوه كما أخذ أسلافهم. والأدنى تذكير الدنيا وعرض هذه الدار الدنيا فلما ترك الاسم المؤنث ذكر النعت لتذكير اللفظ.

سمعت أبا القاسم الحبيبى قال: سمعت أبا بكر محمد بن عبد . . . .[1] يقول فيه تقديم وتأخير أى: يأخذون هذا العرض الأدنى ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ : وقرءوا ما فيه، وقرأ السلمى : ادّارسوا أى تدارسوا مثل إذا زكّوا أى قارأ بعضهم بعضًا.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ : الشرك والحرام ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ : بالياء قرأ أكثر القراء على الخبر.

وقرأ الحسن وابن الأشهب بالتاء على الخطاب ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ قرأ عمر بن الخطاب وأبو العالية وعاصم ورواية أبى بكر بسكون خفيفة : وقرأ الباقون بسكون التشديد.

قال أبو عبيد وأبو حاتم : لأنه يقال تمسكت بالشىء ولا يقال أمسكت بالشىء : إنما يقال أمسكته ويدل عليه قراءة أُبى بن كعب (والذين مسكوا الكتاب) على الماضى وهو جيد لقوله : (وأقاموا الصلاة) إذ قال ما يعطف (من) على مستقبل إلاّ فى المعنى.

وقرأ الأعمش : (والذين استمسكوا بالكتاب) ومعنى الآية : وأن يعملوا بما فى كتاب الله قال مجاهد وابن زيد : هم من اليهود والنصارى الذين يمسكون بالكتاب الذى جاء به موسى فلا يحرفونه ولا يكتمونه أحلّوا حلاله وحرموا حرامه ولم يتخذوه ما كُلهُ نَزَل فى عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال عطية : فيهم أنّه محمد ﷺ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ .

﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾ : أى قلعنا الجبل.

قال مجاهد : كما ينتق الزبد. وقال المؤرخ : قطعنا.

وقال أبو عبيدة : زعزعنا. وقال الفراء : خلقنا. وقال بعضهم : رفعناه واحتج بقول العجاج :

❖ ينتقن أقتاد الشليل نتقا ❖

يعنى يرفعه عن ظهره.

وقال آخر :

❖ ونتّقوا أحلامنا الأثاقلا ❖

وقال بعضهم : أصل النتق والنتوق أن يقلع الشىء من موضعه فيرمى. قال أبان بن تغلب : سمعت رجلاً من العرب يقول لغلامه : فخذ الحجر ألقه فانتقه أى نكسه وانثره.

ويقال للمرأة الكثيرة الولد : ناتق ومنتاق لأنها ترمى صدرها رميًا قال النابغة :

لم يحرموا حسن الغذاء وأُمهم حقت عليك بناتق مذكار

وقال بعضهم : هو من التحريك فقال : ينتقى السير أى حرّكنى، يقال : ينتق برجله ويركض إذا حركت رجله على الدابة حين تعدو به. ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ : الظلة ما أظلك ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ

وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: نازل بهم ﴿خُذُواْ﴾: أى قلنا خذوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾: فاعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: وذلك حين أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة ويعملوا بها لتغليظها وكانت شريعة ثقيلة فرفع الله عزّ وجلّ جبلاً على رءوسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخًا فى فرسخ.

وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها ليقعن عليكم. قال الحسن البصرى: فلما نظروا للجبل خرّ كل رجل ساجدًا على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى على الجبل خوفًا من أن يسقط عليهم فلذلك ليس اليوم فى الأرض يهودى يسجد إلاّ على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التى رفعت عنا بها العقوبة.

نشر موسى الألواح فيها كتاب الله كتب بيده لم يبقَ على وجه الأرض جبل، ولا بحر ولا حجر إلاّ اهتزّ فليس اليوم يهودى على الأرض صغير ولا كبير يقرأ عليه التوراة إلاّ اهتزّ وتعفّر لها رأسه.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

قال المفسّرون: لّما خلق الله عزّ وجلّ آدم مسح ظهره وأخرج منه ذريته كلهم وهى الذرية واختلفوا فى موضع الميثاق.

فقال ابن عباس: يسكن نعمان واديًا إلى جنب عرفة، وروى فيه أيضًا أنّ ذلك برهبا أرض بالهند وهو الموضع الذى أهبط الله فيه آدم عليه السلام.

وقال الكلبى: بين مكّة والطائف. وقال السدى: أخرج الله آدم من الجنّة ولم يهبط من السماء ثمّ مسح ظهره وأخرج ذريته. قالوا: فأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية سوداء فقال لهم: ادخلوا النار ولا أبالى فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. وأصحاب المنامة.

وقال لهم جميعًا: اعلموا أن لا إله غيرى وأنا ربكم لا رب لكم غيرى فلا تشركوا بى شيئًا فإنّى مرسل إليكم رجالاً يذكرونكم بعهدى وميثاقى ومنزل عليكم كتبًا فتكلّموا وقالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ولا رب لنا غيرك، فأقروا يومئذ كلهم طائفة طائعين. وطائفة على وجه التقدير تقيّة، فأخذوا بذلك مواثيقهم وسُمّيت آجالهم وأرزاقهم وحسابهم فنظر إليهم آدم، ورأى منهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، رب لولا سويت بينهم، فقال: إنّى أحببت أن أشكر.

قالوا: وفيهم الأنبياء يومئذ أمثال السرج فرأى آدم نورًا ساطعًا فقال: من هذا؟ فقال: هذا داود نبى من ذريتك قال: كم عمره؟ قال: ستّون سنة قال: رب زده.

قال: جرى القلم بآجال بنى آدم، قال: رب زده من عمرى أربعين سنة، فأثبت لداود أربعين وكان عمر آدم ألف سنة، فلما استكمل آدم تسعمائة وستين سنة جاء ملك الموت، فلما رآه آدم قال: ما لك؟ قال: استوفيت أجلك، قال له آدم: بقى من عمرى أربعون سنة، قال: أليس قد وهبتها لداود؟ قال: لا فجحد آدم، فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطأ فخطئت ذريته، فرجع الملك إلى ربه فقال: إن آدم يدعى أنه بقى من عمره أربعون سنة، قال: أخبر آدم أنه وهبها لابنه داود (عليه السلام) والأقلام بطيئة فأثبتت لداود، فلما قررهم بتوحيده وآثر بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتّى يولد كل من أخذ ميثاقه ولا يزداد فيهم ولا ينقص عنهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ونظم الآية: وإذا أخذ ربّك من ظهر بنى آدم ذريتهم، ولم يذكر أمر آدم فإنما أعرجوا يوم الميثاق فى ظهره، لأن الله عزّ وجلّ أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما لا يتوالد الأبناء من الآباء، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم بقوله: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فلما علم أنهم كلهم بنوه وخرجوا من ظهره ترك ذكر ظهر آدم وذكر ظهور بنيه.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ أهل مكة والكوفة: ذريتهم بغير ألف على الواحد، وقرأ الباقون على

الجمع بالألف ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ : سؤال تقرير ﴿قَالُواْ﴾ : جميعًا ﴿بَلَىٰ﴾ : أنت ربّنا ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ﴾ : قرأ ابن عباس وابن محيصن وأبو عمرو : (يقولوا) بالياء، والباقون بالتاء كقوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ، واختلفوا فى قوله : ﴿شَهِدْنَآ﴾ فقال السدى : خبر من قوله تعالى عن نفسه وعن ملائكته أنهم شهدوا على إقرار بنى آدم ، وقال الآخرون : بل ذلك على إقرار بنى آدم حين أشهد بعضهم على بعض على أن يقولوا يعنى أن لا يقولوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ : الميثاق والإقرار ﴿غَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ : فاتبعناهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ : يعنى المشركين وإنما اقتدينا بهم وكنا فى غفلة عن التوحيد ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ : لقومك يا محمد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ : عن كفرهم ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ : اختلفوا فيه .

فقال عبد الله بن مسعود : هو بلعم بن أبرة . وقال ابن عباس : هو بلعم بن باعورة . وقال مجاهد : هو بلعام بن باعر . وقال مقاتل : هو بلعام بن باعور بن ماث بن لوط . عطية عن ابن عباس : هو من بنى إسرائيل .

وقال علىّ بن أبى طلحة : هو من الكنعانيين من مدينة الجبارين ، وقال مقاتل : هو من مدينة بلقا ، وسميت بلقا لأن ملكها كان رجلاً يقال له : بالق وكانت وصيته على ما ذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدى وغيرهم : إن موسى (عليه السلام) لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم إلى بلعم وكان عنده اسم الله الأعظم .

فقالوا : إن موسى رجل شديد ومعه جنود كثيرة وإنّه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وإنا قومك وبنو عمك وليس لنا قول وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله تعالى أن يرد عنا موسى وقومه فقال : ويلكم نبى الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت هذا ذهبت دنياى وآخرتى . وقالوا ما لنا من نزل وراجعوه فى ذلك قال : حتى أُؤامر ربّى ، وكان لا يدعو حتّى ينظر ما يؤمر فى المنام فيأمرنى الدعاء عليهم .

فقيل له فى المنام : لا تدع عليهم ، فقال لقومه : إنى قد آمرت ربّى فى الدعاء عليهم وإنّى قد نُهيت ، فهدوا له هدية ، فقبلها ثمّ راجعوه وقالوا : ادع عليهم ، فقال : حتى أؤامر فلما آمر لم يجئ إليه شىء . فقال : قد آمرت فلم يجئ إلىّ شىء ، فقالوا : لو كره ربّك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك فى المرة الأولى . فلم يزالوا به يروقونه ويتضرعون إليه حتّى فتنوه فافتتن فركب أتانًا له متوجهًا إلى جبل يطلعه على عسكر بنى إسرائيل يقال له جسبان .

فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتّى إذا أذاقها قامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتّى ربضت، ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتّى ربضت فضربها حتى إذا أذاقها أذن الله لها بالكلام فتكلمت حجة عليه فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب ألا ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا لنذهب إلى نبى الله والمؤمنين تدعو عليهم، فلم ينزع عنها فخلّى الله سبيلها فانطلقت حتّى إذا أشرفت به على جبل جسبان جعل يدعو عليهم فلا يدعو عليهم بشىء إلاّ صرف به لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلاّ صرف مسألته إلى بنى إسرائيل.

فقال له قومه: أتدرى يا بلعم ما تصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك هذا شىء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم: قد ذهبت الآن منى الدنيا والآخرة، فلم يبقَ إلاّ المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال، أجملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثمّ أرسلوهن إلى العسكر يتعدوا فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنه إن زنا رجل واحد منهم يفتنوهم ففعلوا.

فلمّا دخل النساء العسكر مرَّت امرأة بين الكنعانيين اسمها بشتى بنت صور برجل من عظماء بنى إسرائيل يُقال له زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليه السلام) فقام إليها فأخذ بيدها حين أَفْتنه جمالها ثمّ أقبل حتّى وقف على موسى فقال: إنى أظنك ستقول هذه حرام عليك قال: أجل هى حرام عليك لا تقربها قال: فوالله لا نطيعك فى هذا ثمّ دخل بها قبته فوقع عليها فأرسل الله الطاعون على بنى إسرائيل فى الوقت.

وكان لفنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى رجلٌ قد أعطى بسطة فى الخلق وقوة فى البطش وكان غائبًا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يمجّس فى بنى إسرائيل وأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلّها ثمّ دخل عليه القبة وهما متضاجعان فاستقبلها بحربته ثمّ خرج بهما رافعًا بهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته.

وكان يكره العيزار وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك فرفع الطاعون: فحسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفًا فى ساعة من نهار، فمن هنالك يعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص كل ذبيحة ذبحوها الفشة والذراع واللحى، لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وبإسناده إياها إلى لحيته، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم لأنّه كان بكرًا لعيزار

ابن هارون وفى بلعم أنزل الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية.

وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام: ادعُ على موسى، فقال: إنه من أهل دينى لا أدعو عليه فنصبت خشبة ليصلب فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليهم، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها فقالت: لم تضربنى إنى مأمورة فلا تظلمنى وهذه نار أمامى قد منعتنى أن أمشى فرجع وأخبر الملك، فقال: لتدعون عليه أو لأصلبنك فدعا على موسى بالاسم الأعظم ألا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى وبنو إسرائيل فى التيه بدعائه فقال موسى: يا رب بأى ذنب وقعنا فى التيه قال: بدعاء العالم، قال: فكما سمعت دعاءه علىّ فاسمع دعائى عليه فدعا موسى عليه أن ينزع منه الاسم الأعظم والإيمان فسلخه الله تعالى مما كان عليه ونزع منه المعرفة فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبو روق: نزلت هذه الآية فى أُمية بن أبى الصلت الثقفى وكانت قصّته أنّه كان فى ابتداء أمره قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً فى ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول.

فلما أرسل محمد عليه السلام حسده وكان قصد بعض الملوك فلما رجع مرَّ على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل قتلهم محمد فقال: لو كان نبيًا ما قتل أقرباءه. فلمّا مات أميّة أتت أخته فارعة رسول الله ﷺ فسأله رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها فقالت: بينا هو قد أتانا فنام على سريرى فأقبل طائران ونزلا فقعد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه فقال الذى عند رجله للذى عند رأسه: أَدُعى؟ قال: دُعى، قال: أزكّى؟ قال: أبى، قالت: فسألته عن ذلك. قال: خيرًا زيدى، فصرف عنى ثمّ غشى عليه فلما أفاق قال:

كل عيش وإن تطاول دهرا ... صائرًا أمره إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما بدا لى ... فى قلال الجبال أرعى الوعولا
يوم الحساب يوم عظيم ... شاب فيه الصغير نومًا ثقيلا

ثمّ قال لها رسول الله ﷺ أنشدينى شعر أخيك. فأنشدته:

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا ... ولا شىء أعلى منك جدًا وأمجد
مليك على عرش السماء مهيمن ... لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهى قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها. وأنشدته قصيدته:

وقف الناس للحساب جميعا ... فشقى معذب وسعيد

ثمّ أنشدته قصيدته التى فيها:

عند ذى العرش يعرضون عليه — يعلم الجهر والسرار الخفيا
يوم يأتى الرحمن وهو رحيم — إنّه كان وعده مأتيا
يوم يأتيه مثل ما قال فرد — ثم لا بد راشدًا أو غويا
أو سعيدًا سعادة أنا أرجو — أو مهانًا لما اكتسبت شقيا
إن أؤاخذ بما أجرمت فإنى — سوف ألقى فى العذاب قويا
ورب إن تعفو فالمعافاة ظنّى — أو تعاقب فلم تعاقب بريا

قال رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه».

وأنزل الله عز وجلّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية.

ومنهم مَنْ قال: إنها نزلت فى البسوس.

وكان رجلاً قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات. وكانت له امرأة وكان له منها ولد فقالت له: اجعل منها دعوة واحدة لى. فقال: لك منها واحدة، فما تريدين؟ فقالت: ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل، فدعا لها فجعلت أجمل امرأة فى بنى إسرائيل. فلما علمت أنّه ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الرجل. ودعا عليها فصارت كلبة نبّاحة فذهبت فيها دعوتان، فجاء بنوها فقالوا: ليس لنا على هذا قرار دعوت على أمّنا فصارت كلبة نبّاحة والناس يُعيروننا ادع الله أن يردها على الحال التى كانت عليها، فدعا الله عزّ وجلّ فعادت كما كانت فذهبت الدعوات.

وقال سعيد بن المسيب: نزلت فى أبى عامر بن النعمان بن صيفى الراهب الذى سمّاه النبى ﷺ الفاسق.

وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوخ فقدم المدينة وقال للنبىّ ﷺ: ما هذا الذى جئت به.

قال: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم»، فقال: أنا جئتها، وقال للنبى ﷺ: «لست عليها ولكنك أدخلت إبليس فيها»، فقال أبو عامر: أمات الله كاذبًا منا طريداً وحيداً فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا القوّة والسلاح وابنوا لى مسجداً ثمّ أتى الراهب قيصر وأتى بجند ليُخرج النبى ﷺ وأصحابه من المدينة فذلك قوله: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (التوبة: ١٠٧) يعنى انتظاراً لمجيئه فمات بالشام طريداً وحيداً.

وقال عبادة بن الصامت: نزلت فى قريش آتاهم الله الآيات فانسلخوا منها فلم يقبلوها،

فقال الحسن وابن كيسان: نزلت فى منافقى أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم.

وقال عمرو بن دينار: سُئل عكرمة عن هذه الآية فقال: هذا وهذا ليست فى خاصة.

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله فذلك قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾.

وقال ابن عباس والسدى: هى اسم الله الأعظم. وقال ابن زيد: كان لا يسأل الله شيئًا إلاّ أعطاه.

وقال ابن عباس فى رواية أُخرى: أعظم أنها كتابًا من كتب الله. مجاهد: هو نبى من بنى إسرائيل يقال له بلعم أوتى النبوّة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه.

﴿فَٱنسَلَخَ﴾ خرج ﴿مِنۡهَا﴾: كما تنسلخ الحية من جلدها ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: أى لحقه وأدركه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾: أى فضلناه وشرفناه ورفعنا منزلته بالآيات.

وقال ابن عباس: رفعناه بها.

وقال مجاهد وعطاء يعنى لرفعنا عنه الكفر بالآيات وعصمناه.

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض. مجاهد: سكن مقاتل: رضى بالدنيا. أبو عبيدة: لزمها وأبطأ، والمخلد من الرجال هو الذى يبطئ شيبه ومن الدواب التى تبقى ثناياه حتّى تخرج رباعيتاه.

قال الزجاج: خلد وأخلد واحد وأجعله من الخلود وهو الدوام والمقام يقال خلد فلان بالمقام إذا أقام به. ومنه قول زهير:

لمن الديار غشيتها بالغرقــد ... كالوحى قد حجر المسيل المخلد

يعنى: المقيم.

وقال مالك بن نويرة:

فمــا نبأ حىّ من قبائل مــالك ... وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾: قال الكلبى: يتبع خسيس الأمور ويترك معاليها.

وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة. وقال ابن يزيد: كان هواه مع القدم قال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه، وقال يمان: واتبع هواه أى امرأته لأنّها حملته على الخيانة.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ قال مجاهد: هو مثل الذى يقرأ الكتاب ولا يعمل به، وقال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له إن تحمل عليه يلهث أو

تتركه يلهث وهو مثل الذى يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع .

وروى معمر عن بعضهم قال : هو الكافر ضال إن وعظته أو لم تعظه .

قال ابن عباس : معناه إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها وإن تتركه لم يهتدِ بخير كالكلب إن كان رابضًا لهث وإن طرد لهث .

وقال الحسن : هو المنافق لا ينيب إلى الحق دعى أو لم يدع وعظ أو لم يوعظ كالكلب يلهث طرد أو ترك ، قال عطاء : ينبح إن يحمل عليه وإن لم يحمل ، وقال القتيبى : كل شىء يلهث من إعياء أو عطش إلاّ الكلب ، فإنّه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة ، وحال الصحة وحال المرض ، وحال الجوع وحال العطش فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته .

فقال : إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث وإن تركته لهث ونظيره قوله : ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ (الأعراف : ١٩٣) ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ روى محمد بن إسحاق عن سالم أبى الخضر قال : يعنى مثل بنى إسرائيل أى إن جئتهم بخبر ما كان فيه ما غاب عنك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

فيعرفون أنه لم يأت بهذا الخبر عما مضى فيه إلاّ نبى يأتيهم خبر السماء ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ أى بئس المثل مثلاً حال من المثل المضمر .

كما قال جرير :

❖ فنعم الزاد زاد أبيك زادا ❖

هذا إذا جعلت ﴿سَآءَ﴾ من فعل المثل ورفعت القوم بدلاً من الضمير فيه . وإن حولت فعله إلى القوم ورفعتهم به كان انتهاء به على التمييز ، يريد سأمثل القوم فلما حولته إليهم خرج المثل مفسرًا كما يقال : قر به عينًا وضاق ذرعًا ، متى ما سقط التنوين عن المميز المخفض بالإضافة دليله قراءة الجحدرى والأعمش سأمثل القوم بالإضافة ، وقال أبو حاتم : يريد بها (مثلا) مثل القوم فحذف مثل .

وأقام القوم به أُمّة فرفعهم كقوله : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف : ٨٢) .

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وإنما قال ذلك لنفاد علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربهم ويُسمّى بعض أهل المعانى هذه اللام لام الصيرورة فيه كقوله : ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص : ٨) . وأنشدوا :

أموالنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال الآخر:

فللموت تغدو الوالدات سخالها كما لخراب الدهر تبنى المساكن

وروى عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ فى هذه الآية قال: «إن الله تعالى كما ذرأ لجهنم ما ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم» ثمّ وصفهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ولا يعلمون الخير والهدى ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ طريق الحق والرشاد ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ مواعظ الله والقرآن فيفكرون ويعتبرون بها فيعرفون بذلك توحيد الله ثمّ يعملون بتحقيق النبوّة فآتينا بهم ثمّ ضرب لهم مثلاً فى الجهل والاقتصاد على الشرب والأكل وبعدهم عن موجبات العمل. وقال عز من قائل: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تعرف ربها وتذكره ويطيعونه والكافرون لا يعرفون ربهم ولا يطيعونه وفى الخبر: «كل شىء أطوع لله من ابن آدم».

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾: قال مقاتل: وذلك أن رجلاً دعا الله فى صلاته ودعا الرحمن، فقال رجل من مشركى مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًا واحدًا فما بال هذا يدعو ربين اثنين، فأنزل الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهو تأنيث الأحسن كالكبرى والأكبر والصغرى والأصغر، والأسماء الحسنى هى الرحمن الرحيم. الملك القدوس السلام ونحوها.

الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسمًا، مائة غير واحدة، من أحصاها كلّها دخل الجنّة».

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾: قال ابن عباس: يكذبون، وقال قتادة: يشركون، وقال

عطاء: ظامئون، زيد بن أسلم: يميلون عن الحق. ابن عباس ومجاهد: هم المشركون. وإلحادهم فى أسماء الله عزّ وجلّ أنهم عدلوا بها عمّا هى عليه فسموا بها أوثانهم وزادوا فيها ونقصوا منها فاشتقوا اللات من الله تعالى والعزّى من العزيز ومنات من المنّان.

وقال أهل المعانى: الإلحاد فى أسماء الله تعالى يسميه بما لم يسم به ولا ينطق به كتاب ولا دعا إليه رسول، وأصل الإلحاد الميل والعدول عن القصد ومنه لحد القبر. فيقال: ألحد يلحد إلحاداً ولحد يلحد لحداً ولحوداً إذا مال.

وقد قرئ بهما جميعًا فقرأ يحيى بن رئاب والأعمش وحمزة: بفتح الياء والحاء ههنا وفى النحل رحم. وقرأ الباقون: بضم الياء وكسر الحاء وهما لغتان صحيحتان.

وأمّا الكسائى فإنّه قرأ التى فى النحل بفتح الياء والحاء وفى الأعراف (رحم) بالضم وكل يفرق بين الإلحاد واللحود فيقول: الإلحاد العدول عن القصد واللحد واللحود الركون، ويزعم أن التى فى النحل يعنى الركون ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فى الآخرة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ عصبة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ قال قتادة وابن جريج: بلغنا أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية فقال: «هى أحق بالحق يأخذون ويقضون ويعطون وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون».

قال الربيع بن أنس: قرأ النبى ﷺ هذه الآية فقال: «إن من أمتى قومًا على الحق حتّى ينزل عيسى» (عليه السلام).

عن عمير بن هانئ قال: سمعت معاوية على هذا المنبر يقول: سمعت النبى ﷺ قال: «لا يزال من أُمّتى أُمّة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من غالطهم حتّى يأتى أمر الله عزّ وجلّ، وهم ظاهرون على الناس».

وقال ابن حيان: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقال عطاء: هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان قد سماهم الله تعالى فى سورة براءة. وقال الكلبى: هم من جميع الخلق ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: سنأخذهم بالعذاب، وقال الكلبى: نزيّن لهم أعمالهم فنهلكهم. وقال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة، وقال الخليل بن أحمد: سنطوى وإن أعمارهم فى اغترار منهم.

وقال أبو عبيدة والمؤرج: الاستدراج أن يأتيه من حيث لا يعلم.

وقال أهل المعانى: الاستدراج أن ندرج إلى الشىء فى خفيّة قليلاً قليلاً ولا يباغت ولا يجاهر. يقال: استدرج فلانًا حتّى تعرف ما صنع أى لا يجاهر ولا يهجم عليه، قال: ولكن

استخرج ما عنده قليلاً قليلاً وأصله من الدرج وذلك أن الراقى والنازل يرقى وينزل مرقاة فاستعير هذا عنه. ومنه الكتاب إذا طوى شيئًا بعد شيء، ودرج القوم إذا مات بعضهم فى دار بعض، ودرج الصبى إذا قارب من خطاه فى المشى ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ يعنى أمهلهم وأطيل من الملاوة وهو الدهر، ومنه مليت أى غشيت دهراً ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾: أى أخذى قوى مديد قلت: فى المستهزئين، فقتلهم الله فى ليلة واحدة ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، قتادة: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قام على الصفا ليلاً فجعل يدعو قريشًا فخذًا فخذًا يا بنى فلان يا بنى فلان يحذرهم بأس الله عزّ وجلّ، ووقائعه فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا المجنون بات يصوت حتى الصباح فأنزل الله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾. ما بمحمد من جنون.

﴿إِنْ هُوَ﴾: ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: مخوف ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ﴾: ملك ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾: فيهما ﴿مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ﴾: وهى أن لعل ﴿أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾: فيهلكوا على الكفر ويصيروا إلى العذاب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾: بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: ثمّ بيّن العلّة فى إعراضهم عن القرآن وتركهم الإيمان فقال عز من قائل: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ﴾ فلا مرشد ﴿لَهُ وَيَذَرُهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بالياء، لأن ذكر الله سبحانه قد مرّ من قبل. والباقون بالنون، لأنّه كلام مستأنف ومن جزم الراء فهو مردود على يضلل.

❖ ❖ ❖

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ قال ابن عباس: قال وجيل بن أبى فشير وسموأل بن زيد وهما من اليهود: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا كما تقول فلنعلم متى هى؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأشهر إلينا متى الساعة فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾: يعنى القيامة ﴿أَيَّانَ﴾: متى، ومنه قول الراجز:

أيان تقضى حاجتى أيانا أما ترى لنجحها إبانا

﴿مُرْسَىٰهَا﴾ : قال ابن عباس : ومنتهاها ، وقال قتادة : قيامها . وأصل الكلمة الثبات والحبس ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ : استأثر بعلمها ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ : لا يجلبها ولا يكشفها ولا يظهرها .

وقال مجاهد : لا يأتى بها ، وقال السدى : لا يرسلها لوقتها إلاّ هو ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : يعنى ثقل علمها على أهل السموات والأرض لخفائها فلا يعرفون مجيئها ووقتها فلم يعلم قيامها مَلَك مقرّب ولا نبى مرسل .

وقال الحسن : يقول إذا جاءت ثقلت على السموات والأرض وأهلها وكبرت وعظمت وذلك أنها إذا جاءت انشقت السموات وانتثرت النجوم وكورت الشمس وسيرت الجبال . وليس من الخلق شىء إلاّ ويصيبه ضرر الساعة وثقلها ومشقتها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ : فجأة على غفلة منكم .

سعيد عن قتادة قال : إن رسول الله ﷺ كان يقول : «إن الساعة تهيج الناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق ويخفض ميزانه ويرفعه» .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : «قال جبرائيل : تقوم الساعة عند ثلاثة مواطن : إذا كثر القول وقلّ العمل وعند قلّة المواشى حتّى يمضى كل رجل ممّا عنده ، وإذا قال الناس من يذكر الله فيها بدعة» .

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ : قال أهل التفسير فى الآية تقديم وتأخير تقديرها . يسألونك عنها كأنّك حفى أى بار فيهم صديق لهم قريب ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقال مجاهد والضحاك : كأنّك عالم بها وقد يوضع عن موضع مع الياء ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ .

فقال ابن عباس : إن أهل مكة قالوا : يا محمد ألا يخبرك بالسعر الرخيص قبل أن يغلى فتشتريه فتربح فيه ، والأرض التى تريد أن تجدب فترتحل منها إلى ما قد أخصبت فأنزل الله تعالى : ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ : أى اجتناب نفع ولا دفع ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ : أى أملكه بتمليكه إياى ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ : يعنى المال وتهيأت لسنة القحط ما يكفيها ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ : وما مسّنى الله بسوء .

وقال ابن جريج : ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يعنى الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب متى أموت لاستكثرت من الخير من العمل الصالح وما مسّنى السوء .

قال ابن زيد : فاجتنبت ما يكون من الشر وأتقيه . قال بعض أهل المعانى : ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ

ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ﴾ من معرفته حتى لا يخفى عليّ شيء ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾: يعنى التكذيب.

وقال مقاتل: هذا متصل بالكلام الأول معناه: لا أقدر أن أسوق لنفسى خيرًا أو أدفع عنها شرًا حتّى ينزل بى فكيف أعلم وأملك علم الساعة؟ وتمام الكلام قوله: لاستكثرت من الخير، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ يعنى الجنون.

وقيل يعنى لم يلحقنى تكذيب ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يصدقون.

❖ ❖ ❖

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ
حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠
أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢
وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤
أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ
بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾: يعنى آدم (عليه السلام) ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾: خلق منها حواء ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾: يستأنس إليها ويأوى إليها لقضاء حاجته ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: واقعها وجامعها ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾: وهو ماء الرجل خفيف عليها ﴿فَمَرَّتۡ﴾: أى استمرت ﴿بِهِۦۖ﴾: وقامت وقعدت ولم تكترث بحملها، يدل عليه قراءة ابن عباس: فاستمرت به.

وقال قتادة: (فمرّت به) أى استبان حملها. وقرأ يحيى بن يعمر (فمرت) خفيفة الراء من المرية أى: شكّت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾: أى كبر الولد فى بطنها وتحرك وصارت ذات ثقل بحملها كما يقال: أثمر إذا صار ذا ثمر ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾: يعنى آدم وحواء ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا﴾: يا ربنا ﴿صَٰلِحٗا﴾.

قال الحسن: غلامًا ذكرًا. وقال الآخرون: بشرًا سويًّا مثلنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: وذلك أنهما أشفقا أن يكون بهما أو شيئًا سوى آدمى أو غير سوى.

قال الكلبى: إن إبليس أتى حواء فى صورة رجل لما أثقلت فى أول ما حملت فقال: ما هذا

الذي في بطنك قالت: ما أدري، قال: إني أخاف أن يكون بهيمة، فقالت ذلك لآدم، فلم يزالا في نعَم من ذلك ثمّ عاد إليها فقال: إني من الله منزّل فإن دعوت الله فولدت إنسانًا أتسمينّه فيّ قالت: نعم، قال: فإنّي أدعو الله فأتاها وقد ولدت فقال: سميه باسمي، فقالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، ولو سمّى نفسه لعرفته فسمته عبد الحارث.

وقال سعيد بن جبير: لما هبط آدم وحواء (عليهما السلام) الأرض أُلقيت الشهوة في نفس آدم فأصابها فحملت فلما تحرك ولدها في بطنها جاءها إبليس فقال ما هذا ما ترين في الأرض إلاّ ناقة أو بقرة أو ضاينة أو كاجزة أو نحوها فما يدريك ما في بطنك لعله كلب أو خنزير أو حمار وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك فيقتلك أو أذنك أو عينيك أو فيك أو يشق بطنك فيقتلك، فخافت حواء من ذلك قال: فأطيعيني وسميه عبد الحارث. وكان اسمه في الملائكة الحارث، تلدين شبيهكما مثلكما، فذكرت ذلك لآدم فقال: لعلّه صاحبنا الذي قد علمت، فعاودها إبليس فلم يزل بهما حتّى غرهما فسمّياه عبد الحارث.

قال السدي: ولدت حواء غلامًا فأتاها إبليس فقال سموه بي وإلاّ قتلته، قال له آدم: قد أطعتك فأخرجتني من الجنّة، فأبى أن يطيعه فمات الغلام، فحملت بآخر فلما ولدته قال لهما مثل ذلك فأبيا أن يطيعاه، فمات الولد، فحملت بآخر فأتاهما وقال لهما: إذا غلبتماني فسمياه عبد الحارث، وكان اسم إبليس الحارث.

ولم يشعروا به فوالله لا أزال أقتلهم حتّى تسمياه عبد الحارث. كما قتلت الأول والثاني فسمياه عبد الحارث فعاش.

وقال ابن عباس: كانت حواء تلد لآدم فتسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال: إن وعدتكما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فولدت ابنًا فسمياه عبد الحارث ففيهما أنزل الله عز وجلّ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ : أي ولدًا بشرًا سويًا حيًا آدميًا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ .

قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وأبان بن ثعلب وعاصم وعكرمة وأهل المدينة (شركاء) بكسر الشين والتنوين أي شركه.

قال أبو عبيدة: ﴿شُرَكَآءَ﴾ أي حظًا ونصيبًا من غيره، وقرأ الباقون (شركاء) مضمومة الشين ممدودة على جمع شريك أخبر عن الواحد بلفظ الجمع، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٧٣) مفردًا، تم الكلام ههنا ثمّ قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني أهل مكة.

واختلف العلماء فى تأويل الشرك أمضاف إلى آدم وحواء فقال المفسرون: كانا شركاء فى التسمية والصفة لا فى العبادة والربوبية.

وقال أهل المعانى: إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث لكنهما قصدا إلى أن الحارث سبب نجاة الولد وسلامة أُمّه فسمياه، كما يُسمى ربّ المنزل، وكما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له لا على أن الضيف ربّه.

كما قال حاتم:

وإنّى لعبد الضيف ما دام ثاويًا   وما فىّ إلاّ تلك من شيمة العبد

وقال قوم من أهل العلم: إن هذا راجع إلى المشركين من ذرية آدم وإن معناه جعل أولادهما له شركاء فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾(يوسف: ٨٢) وكما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء فى تفريقهم بفعل آبائهم، فقال لليهود الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ: ثمّ اتخذتم العجل من بعده. وقال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧٢). وقال سبحانه: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٩١) ونحوها، ويدل عليه ما روى معمر عن الحسن قال: عنى بهذا من أشرك من ذرية آدم ولم يكن عنى آدم.

وروى قتادة عنه قال: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصّروا.

وقال ابن كيسان: هم الكفار جعلوا لله شركاء عبد العزى وعبد مناة.

وقال عكرمة: لم يخص بها آدم ولكن جعلها عامة لجميع بنى آدم من بعد آدم.

قال الحسين بن الفضل: وهذا حجب إلى أهل النظر لما فى القول الأول من إلصاق العظائم بنبى الله آدم (عليه السلام) ويدل عليه جمعه فى الخطاب حيث قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، ثمّ قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ انصرف من ذلك الخطاب إلى الخبر يعنى فلما تغشى الرجل منكم امرأته.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ يعنى كفار مكة ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعنى الأصنام.

قال ابن زيد: ولد لآدم ولد فسمياه عبد الله فأتاهما إبليس فقال: ما سميتما ابنكما هذا؟.

قال: وكان ولد لهما قبل ذلك ولد سمياه عبد الله فمات فقالا: سميناه عبد الله، فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما لا والله ليذهبن كما ذهب الآخر، ولكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمياه عبد شمس.

فذلك قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. الشمس لا تخلق شيئًا حتّى يكون لها عبد إنّما هى مخلوقة قال: وقال رسول الله ﷺ: «خدعهما مرتين خدعهما فى الجنة وخدعهما

فى الأرض».

والذى يؤيد القول الأول قراءة السلمى: أتشركون بالتاء.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: يعنى الأصنام ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾: لأنها غير عاقلة ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾: ساكتون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ﴾: مخلوقة مملوكة مقدرة مسخرة ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾: أشباهكم ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أنها آلهة.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ يأخذون بها ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ يا معشر المشركين ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهم ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: يعنى الذى يحفانى ويمنعنى منكم الله ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ﴾: يا محمد يعنى الأصنام ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: وهذا كما يقول العرب: دارى ينظر إلى دارك أى يقابلها.

ويقول العرب: إذا أتيت مكان كذا فنظر إليك الجمل فخذ يمينًا وشمالاً أى: استقبلك.

وحدث أبو عبيدة عن الكسائى قال: الحائط ينظر إليك إذا كان قريبًا منك حيث تراه. ومنه قول الشاعر:

إذا نظرت بلاد بنى تميم ... بعين أو بلاد بنى صباح

وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا زكريا العنبرى يقول: معناه: وتراهم كأنهم ينظرون إليك كقوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ (الحج: ٢) أى كأنهم سكارى وإنّما أُخبر عنهم بالهاء والميم، لأنّها مصوّرة على صورة بنى آدم مخبرة عنها بأفعالهم.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: قال مجاهد: يعنى العفو من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تخميس.

قال ابن الزبير: ما أنزل الله تعالى هذه الآية إلاّ فى أخلاق الناس.

وقال ابن عباس والسدى والضحاك والكلبى: يعنى ما عفا لك من أموالهم وهو الفضل من العيال والكل فما أتوك به عفوًا فخذه ولا تسألهم ما ذرأ ذلك.

وهذا قبل أن ينزل فريضة الصدقات. ولما نزلت آية الصدقات نسخت هذه الآية وأمر بأخذها منهم طوعًا وكرهًا ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾: أى بالمعروف. قرأ عيسى بن عمر: العُرُف ضمتين مثل الحُلُم وهما لغتان والعرف المعروف والعارفة كل خصلة حميدة فرضتها العقول وتطمئن إليها النفوس. قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

قال عطاء: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ يعنى لا إله إلاّ الله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أبى جهل وأصحابه نسختها آية السيف. ويقال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما هذه؟ قال: لا أدرى حتّى أسأل، ثمّ رجع فقال: يا محمد إن ربّك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». فنظم الشاعر فقال:

مكارم الأخلاق فى ثلاث ... من كملت فيه فذاك الفتى
إعطاء من يحرمه ووصل من ... يقطعه والعفو عمن عليه اعتدى

قال جعفر الصادق: «أمر الله تعالى نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية».

قال النبى ﷺ: (رحمهما الله).

وقالت عائشة: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث. وصدق البأس فى طاعة الله. وإعطاء السائل. ومكافأة الصنيع. وصلة الرحم. وأداء الأمانة. والتذمم للصاحب. والتذمم للجار وقرى الضيف ورأسهن الحياء.

أنشدنا أبو القاسم الحسن بن محمد المذكور أنشدنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار، أنشدنا ابن أبى الدنيا أنشدنى أبو جعفر القرشى:

كل الأمور تزول عنك وتنقضى ... إلاّ الثناء فإنه لك باق

لو أننى خُيِّرتُ كل فضيلة ... ما اخترت غير مكارم الأخلاق

قال عبد الرحمن بن زيد: لما نزلت هذه الآية قال النبىّ ﷺ: «كيف يا رب والغضب» فنزل ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: يعنى يصيبنك ويفتننك ويغرنك ويعرض لك من الشيطان ﴿نَزْغٌ﴾: وأصله الولوع بالفساد والشر.

يقال نزغ عرقه إذا جُنَّ وهاج، وفيه لغتان: نزغ ونغز، يقال: إياك والنزاغ والنغاز وهم المورشون.

وقال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون من الإنسان ومن الشيطان أدنى وسوسة، وقال سعيد بن المسيب: شهدت عثمان وعليًا وكان بينهما نزغ من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئًا ثمّ لم يبرحا حتّى استغفر كل واحد منهما لصاحبه ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾: فاستجر بالله ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ : يعنى المؤمنين ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾: أصابهم ﴿طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾: قرأ النخعى وابن كثير وأبو عمرو والأعمش وابن يزيد والجحدرى وطلحة: (طيف)، وقرأ الباقون: ﴿طَـٰٓئِفٌ﴾، وهما لغتان كالميت والمائت، ومعناهما الشىء الذى بكم بك وفرق قوم بينهما.

فقال أبو عمرو: الطائف ما يطوف حول الشىء والطيف اللمة والوسوسة الخطرة. وقال بعض المكيين: الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللحم والمس، ويجوز أن يكون الطيف مخففًا عن طيّف مثل هيّن وليّن. يدل عليه قراءة سعيد بن جبير: طيّف بالتثقيل.

وقال ابن عباس: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أى نزغ من الشيطان.

وقال الكلبى: ذنب. وقال مجاهد: هو الغضب.

﴿تَذَكَّرُوا۟﴾: وتفكروا وعرفوا، وقال أبو روق: ابتهلوا، وفى قراءة عبد الله بن الزبير: إذا مسهم طائف من الشيطان فأملوا.

قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ، ليث عن مجاهد: هو الرجل هم بالذنب فيذكر الله فيدعه. وقال السدى: معناه إذا زلوا تابوا. وقال مقاتل: إن المتقى إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنها معصية فأبصرها ونزغ من مخالفة الله ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾: ينظرون مواضع خطيئتهم بالتفكر والتدبر يمرون فيقصرون، فإنّ المتّقى مَنْ

يشتهى . . . .[١] ويبصر فيقصر، ثم ذكر الكفار فقال: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ يعنى إخوان الشيطان وهم الكفار يمدهم الشياطين فى الغى حتى يطيلوا لهم ويزيدوهم فى الضلالة.

وقرأ أهل المدينة: (يمدونهم) بضم الياء وكسر الميم وهما لغتان بمعنى واحد. وقرأ الجحدرى (يمادونهم) على يفاعلونهم.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾: أى لا يشكون ولا ينزغون. وقال ابن زيد: لا يسأمون ولا يفترون.

قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات ولا الجن ممسك عنهم.

وقرأ عيسى بن عمر: (يَقصُرون) بفتح الياء وضم الصاد وقصَر وأقصر واحد ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾: يا محمد يعنى المشركين ﴿بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾: أى هلاّ أقلعتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك، قاله قتادة، وقال مجاهد: لولا اقتضيتها وأخرجتها من نفسك.

وقال ابن زيد: لولا يقبلها لجئت بها من عندك.

وقال ابن عباس: لولا تلقيتها من عندك، أيضًا لولا حدثتها فأنشأتها. قال العوفى عن ابن عباس: فنسيتها وقلتها من ربّك.

وقال الضحاك: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، قال الفراء: تقول العرب: جئت الكلام وأخلقته وارتجلته وانتحلته إذا افتعلته من قبل نفسك.

قال ابن زيد: إنّما يقول العرب ذلك الكلام بتهدئة الرجل ولم يكن قبل ذلك أعده لنفسه ﴿قُلْ﴾: يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾: ثمّ قال ﴿هَـٰذَا﴾: يعنى القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾: حجج وبيان وبرهان ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: واحدتها بصيرة. وقال الزجاج: طرق من ربكم، والبصائر طرق الدم.

قال الجعفى:

راحوا بصائرهم على أكتافهم وبصيرتى يعدو بها عتد وآى

تعدّوا عداوى وأصلها ظهور الشىء وقيامه واستحكامه حتّى يبصر الإنسان فيهتدى إليها وينتفع بها، ومنه قيل: . . . .[١] من بصيرة ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾: قال عبد الله بن مسعود: كنا نسلم بعضنا على بعض فى الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ يعنى فى الصلاة وقال أبو هريرة: كانوا يتكلّمون فى الصلاة فأتت هذه الآية وأُمروا بالإنصات.

وقال الزهرى: نزلت هذه الآية فى فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئًا قرأه،

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فنزلت هذه الآية.

وروى داود بن أبى هند عن بشير بن جابر قال: صلّى ابن مسعود فسمع ناسًا يقرءون مع الإمام فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفقهوا، أما آن لكم أن تعقلوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾: كما أمركم الله.

وروى الحريرى عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح يتحدّثان والقارئ يقرأ فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوحيان الموعود، قال: فنظرا إلى ثمّ أقبلا على حديثهما، قال: فأعدت الثانية فنظرا لى فقالا: إنّما ذلك فى الصلاة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى هريرة قال: نزلت هذه الآية فى رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ فى الصلاة.

وقال الكلبى: وكانوا يرفعون أصواتهم فى الصلاة حتّى يسمعون ذكر الجنّة والنار فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال قتادة: كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فى أول ما فرضت عليهم، وكان الرجل يأتى وهم فى الصلاة فيسألهم كم صليتم؟ كم بقى؟ فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال ابن عباس: إنّ رسول الله ﷺ قرأ فى الصلاة المكتوبة وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم فخلطوا عليه فنزلت هذه الآية.

وقال سعيد بن المسيب: كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلّى فيقول بعضهم لبعض بمكّة: لا تستمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فأنزل الله جوابًا لهم ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

قال سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعمرو بن دينار، وزيد بن أسلم، والقاسم بن يسار، وشهر بن حوشب: هذا فى الخطبة أمر بالإنصات للإمام يوم الجمعة.

قال عبد الله بن المبارك: والدليل على حكم الآية فى الجمعة أنّك لا ترى خطيبًا على المنبر يوم الجمعة يخطب، فأراد أن يقرأ فى الخطبة آية من القرآن إلاّ قرأ هذه الآية قبل فوات قراءة القرآن.

قال الحسن: هذا فى الصلاة المكتوبة وعند الذكر. وقال مجاهد وعطاء: وجب الإنصات فى اثنين عند الرجل يقرأ القرآن وهو يصلّى وعند الإمام وهو يخطب.

وقال عمر بن عبد العزيز: الإنصات لقول كل واعظ والإنصات الإصغاء والمراعاة.

قال الشاعر:

قال الإمام عليكم أمر سيّدكم   فلم نخالف وأنصتنا كما قالا

وقال سعيد بن جبير: هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون معنى قوله ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾: اعملوا بما فيه لا تجاوزوه، لأن معنى قول القائل: سمع الله: أجاب الله دعاءك.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾: قال ابن عباس: يعنى بالذكر القراءة فى الصلاة ﴿تَضَرُّعًا﴾: جهراً ﴿وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾: دون رفع القول فى خفض وسكوت يسمع من خلفك.

وقال أهل المعانى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ اتعظ بالقرآن وآمن بآياته واذكر ربّك بالطاعة فيما يأمرك ﴿تَضَرُّعًا﴾ تواضعًا وتخشعًا ﴿وَخِيفَةً﴾ خوفًا من عقابه، فإذا قرأت دعوت بالله أى دون الجهر خفاء لا جهار.

وقال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه فى الصدور. ويؤمر بالتضرع فى الدعاء والاستكانة.

ويكره رفع الصوت والبداء بالدعاء وأمّا قوله ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾: فإنه يعنى بالبكر والعشيات، واحد الآصال أصيل، مثل أيمان ويمين، وقال أهل اللغة: هو ما بين العصر إلى المغرب ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: يعنى الملائكة والمراد هو عند قربهم من الفضل والرحمة لا من حيث المكان والمعاقبة.

وقال الحسين بن الفضل: قد يعبد الله غير الملائكة فى المعنى من عند ربّك جاءهم التوفيق والعصمة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: لا يتكبرون ولا يتعظمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: وينزهونه ويذكرونه ويقولون سبحان الله ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾: يُصلّون.

مغيرة عن إبراهيم: إن شاء ركع وإن شاء سجد.

❖ ❖ ❖

سورة الأنفال

مدنيّة، وهى خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفًا،
وألف ومائتان وإحدى وثلاثون كلمة، وخمس وسبعون آية

زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى أُمامة عن أُبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له وشاهد يوم القيامة أنّه برىء من النفاق وأُعطى من الأجر بعدد كل منافق ومنافقة فى دار الدنيا عشر حسنات ومُحى عنه عشر سيئات ورُفع له عشر درجات وكان العرش وحملته يصلّون عليه أيام حياته فى الدنيا»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾: الآية قال ابن عباس: إن النبى ﷺ قال يوم بدر: «مَنْ أتى مكان كذا وكذا فله من الفضل كذا، ومَنْ قتل قتيلاً فله كذا، ومَنْ أسر أسيرًا فله كذا»، فلمّا التقوا سارع إليه الشبّان والفتيان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات، فلمّا فتح الله على المسلمين جاءوا يطلبون ما جعل النبى ﷺ فقال لهم الأشياخ: كنّا ردءًا لكم ولو انهزمتم فلا تستأثروا علينا، ولا تذهبوا بالغنائم دوننا.

وقام أبو اليسر بن عمرو الأنصارى أخو بنى سلمة فقال: يا رسول الله إنّك وعدت مَن قتل قتيلاً فله كذا ومَنْ أسر أسيرًا فله كذا وإنّا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين. فقام سعد بن معاذ فقال: والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادةً فى الآخرة، ولا جبن عن العدو لكن كرهنا أن يعرّى مصافك فيعطف عليه خيل من خيل المشركين فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله

ﷺ ثمّ عاد أبو اليسر بمثل مقالته، وقام سعد بمثل كلامه وقال: يا رسول الله إن النّاس كثير وإن الغنيمة دون ذلك وإن تعط هؤلاء التى ذكرت لا يبقَ لأصحابك كثير شىء فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية. فقسّم رسول الله ﷺ بينهم بالسويّة.

وروى مكحول عن أبى أُمامة الباهلى قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا معاشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى الفعل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسّمه بين المسلمين عن سواء على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله صلاح ذات البين.

وقال سعد بن أبى وقاص: نزلت فى هذه الآية ذلك أنّه لمّا كان يوم بدر وقتل أخى عمير وقتلت سعيد بن العاص بن أميّة وأخذت سيفه وكان يُسمّى ذا الكثيفة فأعجبنى فجئت به النبىّ ﷺ فقلت: يا رسول الله إن الله قد شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال ليس هذا لى ولا لك اذهب فاطرحه فى القبض فطرحته ورجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ من قتل أخى وأخذ ما بيدى قلت: عسى أن يعطى من لم يُبل بلائى فما جاوزت إلاّ قليلاً حتّى جاءنى الرسول ﷺ وقد أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ فخفت أن يكون قد نزل فىّ شىء، فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قال: «يا سعد إنّك سألتنى السيف وليس لى وإنّه قد صار لىّ فاذهب فخذه فهو لك».

وقال أبو أُمية مالك بن ربيعة: أُصبت سيف ابن زيد يوم بدر وكان السيف يُدعى المرزبان فلمّا نزلت هذه الآية أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردّوا ما فى أيديهم من النفل فأقبلت به وألقيته فى النفل وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئًا يسأله فرآه الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إيّاه.

وقال ابن جريج: نزلت فى المهاجرين والأنصار ممن شهدر بدراً فاختلفوا فكانوا أثلاثًا فنزلت هذه الآية وملّكها الله رسوله يقسّمها كما أراه الله.

علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: كانت المغانم لرسول الله ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شىء وما أصاب سرايا المسلمين من شىء أتوه به فمن حبس منه إبرة أو ملكًا فهو غلول فسألوا رسول الله أن يعطيهم منها فأنزل الله عزّ وجلّ يسألونك يا محمد عن الأنفال أى حكم الأنفال وعلمها وقسمها.

وقيل: معناه يسألونك عن الأنفال ﴿عَنِ﴾: بمعنى (من).

وقيل: «عن» صلة أى يسألونك الأنفال. وهكذا قرأ ابن مسعود بحذف ﴿عَنِ﴾: وهو قول

الضحاك وعكرمة.

والأنفال الغنائم واحدها نفل. قال لبيد:

إن تقــوى ربّنا خير نفل وبإذن الله ريثى والعجل

وأصله الزيادة يقال: نفلتك وأنفلتك أى: زدتّك.

واختلفوا فى معناها:

فقال أكثر المفسّرين: معنى الآية يسألونك عن غنائم بدر لمن هى.

وقال علىّ بن صالح بن حيى: هى أنفال السرايا.

وقال عطاء: فأنشد من المشركين إلى المسلمين بغير قبال من عبد أو أمة أو سلاح فهو للنبى ﷺ يصنع به ما يشاء.

وقال ابن عباس: هى ما يسقط من المتاع بعد ما يقسم من الغنائم فهى نفل لله ولرسوله.

وقال مجاهد: هى الخمس وذلك أنّ المهاجرين سألوا النبى ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس وقالوا: لمَ يرفع منّا هذا الخمس، لمَ يخرج منّا فقال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يقسّمانها كما شاءا أو ينفلان فيها ما شاءا أو يرضخان منها ما شاءا.

واختلفوا فى هذه الآية أهى محكمة أم منسوخة:

فقال مجاهد وعكرمة والسدى: هى منسوخة نسخها قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ (الأنفال: ٤١) الآية.

وكانت الغنائم يومئذ للنبى ﷺ خاصّة فنسخها الله بالخمس.

وقال عبد الرحمن بن أيد: هى ثابتة وليست منسوخة وإنّما معنى ذلك قل الأنفال لله. وهى لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخرة. وللرسول يضعها فى مواضعها التى أمره الله بوضعها فيها ثمّ أنزل حكم الغنائم بعد أربعين آية ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ ولكم أربعة أخماس.

وقال النبى ﷺ: «هذا الخمس مردود على فقرائكم»، وكذلك يقول فى تنفيل الأيام بعض القوم واقتفائه إياه ليلاً، وعلى هذه يفرق بين الأنفال والغنائم بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وذلك حين اختلفوا فى الغنيمة أمرهم بالطاعة والجماعة ونهاهم عن المفارقة والمخالفة.

قال قتادة وابن جريج: كان نبىّ الله ﷺ ينفل الرجل من المؤمنين سلب الرجل من الكفّار إذا قتله وكان ينفل على قدر عنائه وبلائه حتّى إذا كان يوم بدر ملأ الناس أيديهم غنائم، فقال أهل الضعف: ذهب أهل القوّة بالغنائم فنزلت: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ

﴿بَيْنِكُمْ﴾ ليرد أهل القوّة على أهل الضعف فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرد بعضهم على بعض فأمرهم الله بالطاعة فيها فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ واختلفوا فى تأنيث ذات البين فقال أهل البصرة أضاف ذات البين وجعله ذات لأن بعض الأشياء يوضع عليه اسم المؤنث وبعضها يُذكر نحو الدار والحائط أنّث الدار وذكّر الحائط.

وقال أهل الكوفة: إنّما أراد بقوله ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: الحال التى للبين فكذلك ذات العشاء يريد الساعة التى فيها العشاء.

قالوا: ولم يضعوا مذكّرًا لمؤنّث ولا مؤنثًا لمذكر إلاّ لمعنى به وقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية يقول الله تعالى ليس المؤمن من الذى يخالف الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون فى إيمانهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فرقّت به قلوبهم وهكذا هو فى مصحف عبد الله.

وقال السدى: هو الرجل يريد أن يهم بمعصية فينزع عنه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ﴾: قُرئت ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: وقال ابن عباس: تصديقًا، وقال الضحاك: يقينًا. وقال الربيع بن أنس: خشية وقال عمير بن حبيب وكانت له صحبة: إن للإيمان زيادة ونقصان، قيل: فما زيادته؟

قال: إذا ذكرنا الله وجدناه فذلك زيادته وإذا سهونا وقصّرنا وغفلنا فذلك نقصان.

وقال عدى بن عدى: كُتب إلى عمر بن عبد العزيز أن للإيمان سننًا وفرائض وشرائع فمن استكملها استكمل الإيمان، ومَنْ لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، قال عمر بن عبد العزيز: فإن أعش فسأُبينها لكم، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أى يفوّضون إليه أُمورهم ويثقون به فلا يرجون غيره ولا يخافون سواه والتوكل الفعل من الوكول ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: أى حقّوا حقًا يعنى يقينًا صدقًا. وقال ابن عباس: يقول برءوا من الكفر. وقال مقاتل: حقًا لا شك فى إيمانهم كشك المنافقين.

وقال قتادة: استحقّوا الإيمان بحق فأحقّه الله لهم. وقال ابن عباس: مَنْ لم يكن منافقًا فهو مؤمن حقًا.

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله الرازى، قال: أخبرنا علىّ بن محمد بن عمير قال: إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا هشام بن عبيد الله قال: حدّثنا عبيد الله هشام بن حاتم عن عمرو بن درّ عن إبراهيم قال: إذا قيل لأحدكم أمؤمن أنت حقًا، فليقل: إنّى مؤمن حقًا فإن كان صادقًا فإنّ الله لا يعذّب على الصدق ولكن يثيب عليه.

فإن كان كاذبًا فما فيه من الكفر أشد عليه من قوله له: إنّى مؤمن حقًا، وقال ابن أبى نجيح: سأل رجل الحسن فقال: أمؤمن أنت؟

فقال: الإيمان إيمانان فإنّ كنت تسأل عن الإيمان بالله وملائكته وكُتبه ورُسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن، وإن كنت تسألنى عن قوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: فوالله ما أدرى أمنهم أنا أم لا.

وقال علقمة: كنّا فى سفر فلقينا قومًا فقلنا: من القوم؟ فقالوا: نحن المؤمنون حقًا، فلم ندرِ ما نجيبهم حتّى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا فقال: فما رددتم عليهم؟ قلنا: لم نرد عليهم شيئًا.

قال: أفلا قلتم أَمِنْ أهل الجنّة أنتم؟ إن المؤمنين من أهل الجنّة.

وقال سفيان الثورى: مَنْ زعم أنه مؤمن حقًا أمن عند الله ثمّ وجد أنّه فى الجنّة بعد إيمانه بنصف الآية دون النصف، ووقف بعضهم على قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقال: تم الكلام ههنا.

ثمّ قال: ﴿حَقًّا﴾ له درجات فجعل قوله حقًا تأكيدًا لقوله ﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقال مجاهد: أعمال رفيعة. وقال عطاء: يعنى درجات الجنّة يرقونها بأعمالهم.

هشام بن عروة: يعنى ما أعدّ لهم فى الجنّة من لذيذ المأكل والمشارب وهنى العيش. وقال ابن محيريز: لهم درجات سبعون درجة كلّ درجة لحافر الفرس الجواد المغير سبعين عامًا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: أى حسن وعظيم وهو الجنة.

❖ ❖ ❖

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ

وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ
ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ﴾: اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: كما، فأما الذي شبه بإخراج الله نبيّه من بيته ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: قال عكرمة: معنى ذلك فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما كان إخراج الله تعالى محمد من بيته بالحق خيراً لكم وإن كره فريق منكم.

وقال مجاهد: كما أخرجك ربك يا محمد من بيتك بالحق على كره فريق من المؤمنين كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه، أي أنّهم يكرهون القتال ويجادلونك فيه كما فعلوا ببدر.

وقال بعضهم: أمر الله تعالى رسوله عليه السلام أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون.

وقيل: معناه يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجت العير ولم تعلمنا قتالاً فنسخطه.

وقيل: معناه أُولئك هم المؤمنون حقًا كما أخرجك ربّك من بيتك بالحق.

وقال بعضهم: الكاف بمعنى (على) تقديره: أمض على الذي أخرجك ربّك.

قال ابن حيّان: عن الكلبي وقال أبو عبيدة: هي بمعنى القسم مجازها: والذي أخرجك من بيتك بالحق. وقيل: الكاف بمعنى (إذ) تقديره: وإذ أخرجك ربّك من بيتك بالمدينة إلى بدر بالحق.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾: لطلب المشركين ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾: أي في القتال وذلك أن المؤمنين لمّا أيقنوا الشوكة والحرب يوم بدر وعرفوا أنّه القتال كرهوا ذلك وقالوا: يا رسول الله إنّه لم تعلمنا أنّا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وإنّما خرجنا للعير فذلك جدالهم ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾: أنّك لا تصنع إلا ما أمر الله به.

وقال ابن زيد: هؤلاء المشركون يجادلونه في الحق ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾: يعني من يدعون للإسلام لكراهتهم إيّاه.

﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ۝ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ الآية. قال ابن عباس وابن الزبير وابن يسار والسدى: أغار كرز بن جابر القرشى على سرح المدينة حتّى بلغ الصفراء فبلغ النبى ﷺ فركب فى أثره فسبقه كرز فرجع النبى ﷺ فأقام سنة وكان أبو سفيان أقبل من الشام فى عير لقريش فيها عمرو بن العاص وعمرو بن هشام ومخرمة بن نوفل الزهرى فى أربعين راكبًا من كبار قريش وفيها تجارة عظيمة. وهى اللطيمة. حتّى إذا كان قريبًا من بدر بلغ النبى ﷺ فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلّة الجنود فقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله عزّ وجلّ ينفلكموها» فخرجوا لا يُريدون إلاّ أبا سفيان والركب لا يرونها إلاّ غنيمة لهم وخفّ بعضهم وثقل بعض.

وذلك أنّهم كانوا لم يظنّوا أن رسول الله ﷺ يُلقى حربًا فلمّا سمع أبو سفيان بمسير النبى ﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وبعثه إلى مكّة وأمره أن يأتى قريشًا فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لعيرهم وأصحابه.

فخرج ضمضم سريعًا إلى مكة وخرج الشيطان معه فى سورة سراقة بن خشعم فأتى مكّة فقال: إنّ محمداً وأصحابه قد عرضوا لعيركم فلا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم، فغضب أهل مكّة وانتدبوا وتنادوا لا يتخلف عنا أحد إلاّ هدمنا داره واستبحناه، وخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه حتّى بلغ واديًا يقال له: وفران، فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم، فخرج رسول الله عليه السلام حتّى إذا كانوا بالروحاء أخذ عينًا للقوم فأخبره بهم وبعث رسول الله ﷺ أيضًا عينًا له من جهينة حليفًا للأنصار يدعى ابن الأريقط فأتاه بخبر القوم، وسبقت العير رسول الله ﷺ فنزل جبرئيل فقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إمّا العير وإمّا قريش، وكان العير أحب إليه فاستشار النبى ﷺ أصحابه فى طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال: وأحسن وقام عمر وقال وأحسن، ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله ونحن معك والله ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤)، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكم مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك العماد لجالدنا معك من دونه حتّى نبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثمّ قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علىّ أيُّها الناس».

وإنّما يُريد الأنصار، وذلك أنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنّا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلى دارنا فأنت فى ذمامنا فنمنعك ممّا نمنع عنه أبناءنا

ونساءنا ، وكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن تكون الأنصار لا ترى عليها نصرته إلاّ على مَنْ داهمه بالمدينة من عدوه فإن ليس عليهم أن يسيّرهم إلى عدوّهم من بلادهم ، فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ فقال له سعد بن معاذ : والله كأنك تُريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ : «أجل».

قال : فقد آمنّا بكَ وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله ما أردت فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضت لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن يلقانا بنا عدوّنا غداً إنّا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء لعل الله عزّ وجلّ يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، ففرح بذلك النبى ﷺ ونشّطه قول سعد ثمّ قال : سيروا على بركة الله وأبشروا فإنّ الله قد وعدكم إحدى الطائفتين . والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم وذلك قوله ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ : أى الفريقين أحدهما أبو سفيان مع العير والأُخرى أبو جهل مع النفير ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ : تُريدون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ : يعنى العير التى ليس فيها قتال والشوكة الشدة والقوة وأصلها من الشوك ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ : أى يحققه ويعلنه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ : بأمره إيّاكم بقتال الكفّار ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ : فيستأصلهم ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ : الإسلام ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ : الكفر.

وقيل : الحق القرآن والباطل الشيطان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ : أى المشركون.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ : أى تستجيرون به من عدوكم وتسألونه النصر عليهم ، قال عمر بن الخطاب . رضى الله عنه : لمّا كان يوم بدر ونظر رسول الله ﷺ إلى كثرة المشركين وقلّة المسلمين دخل العرش هو وأبو بكر واستقبل القبلة وجعل يدعو ويقول : اللّهمّ أنجز لى ما وعدتنى اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض ، فلم يزل كذلك حتّى سقط رداؤه وأخذ أبو بكر رداءه وألقاه على منكبيه ثمّ التزمه من ورائه وقال : يا نبى الله كفا مناشدتك ربّك فإن الله سينجز لك ما وعدك ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى﴾ : أى بأنّى . وقرأ عيسى : إنّى بكسر الألف وقال إنّى ﴿مُمِدُّكُم﴾ : وزائدكم ومرسل إليكم مدداً ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ : قرأ أهل المدينة : مردفين بفتح الدال والباقون بكسره ، لغتان متتابعين بعضهم فى أثر بعض يقال : أردفه وردَفته بمعنى تبعته قال الشاعر :

إذا الجوزاء أردفت الثريّا ظننت بآل فاطمة الظنونا

أراد ردفت جاءت بعدها ، لأن الجوزاء تطلع بعد الثريا ومن فتح فعلى المفعول ، أى أردف الله المسلمين وجاءهم به فأمدّهم الله بالملائكة ونزل جبريل فى خمسمائة مَلك مجنبة على

الميمنة فيها أبو بكر. رضى الله عنه. ونزل ميكائيل فى خمسمائة على الميسرة وفيها علىّ. كرّم الله وجهه. وهى فى صورة الرجال عليهم ثياب بيض، وعمائم بيض أرخوا ما بين أكتافهم، فقاتلت الملائكة يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ولا يوم حنين ولا تقاتل أبدًا إنّما يكونون حددًا أو مددًا.

وقال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يشتدّ فى أثر رجل من المشركين إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت لفارس يقول قدم حيزوم ونظر إلى المشرك أمامه خرّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد حُطم وشُق وجهه كضربة السوط فجاء الرجل فحدّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء» فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.

قال مجاهد: ما مُدّ النبىّ ﷺ فيما ذكر الله تعالى غير الألف من الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾: التى ذكر الله فى الأنفال وأمّا الثلاثة والخمسة فكانت بُشرى ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾: يعنى الأمداد.

الفراء: يعنى الأرداف.

﴿إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾: قرأ مجاهد وابن كثير وأبو عمرو: يغشيكم بفتح الياء النعاس رفع على أن الفعل له واحتجّوا بقوله فى سورة آل عمران ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٤) فجعل الفعل له.

وقرأ أهل المدينة يغشيكم بضم الياء مخففة على أن الفعل لله عزّ وجلّ ليكون موافقا لقوله (وينزل وليطهركم) واحتجوا بقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ (يونس: ٢٧).

وقرأ عروة بن الزبير والحسن وأبو رجاء وعكرمة والجحدرى وعيسى وأهل الكوفة: يُغشّيكم بضمّ الراء مشدّدًا.

فاختاره أبو عبيد وأبو حاتم: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ (النجم: ٥٤) والنعاس النوم الخفيف. وقال أبو عبيدة: هو ابتداء النوم: أمنة بفتح الميم قراءة العامّة، وقرأ أبو حياة وابن محيصن: أمنة بسكون الميم وهو مصدر قولك: أمنت من كذا أمنًا وأمنة وأمانة وكلّها بمعنى واحد فلذلك نصب.

قال عبد الله بن مسعود: النعاس فى القتال أمنة من الله عزّ وجلّ وفى الصلاة من الشيطان ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: وذلك أن المسلمين نزلوا كثيبًا أخضر ببدر يسوخ فيه الأقدم وحوافر الدواب وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليه وأصبح المسلمون بعضهم محدثين وبعضهم مجنبين وأصابهم الظمأ ووسوس لهم الشيطان فقال تزعمون أن

فيكم نبى الله وأنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تُصلّون مجنبين ومحدثين فكيف ترجون أن يظفركم عليهم.

قال: فأرسل الله عزّ وجلّ مطرًا سال منه الوادى فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضّئوا وسقوا الركاب وملئوا الأسقية وأطفى الغبار ولبّد الأرض حتّى ثبت عليه الأقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم فذلك قوله ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ : من الأحداث والجنابة.

وقرأ سعيد بن المسيب: ليُطهركم بطاء ساكنة من أطهره الله ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ : أى وسوسة الشيطان.

وقرأ ابن محيصن: رجز بضم الراء. وقرأ أبو العالية: رجس بالسين والعرب تعاقب بين السين والزاى فيقول بزق وبسق.

والسراط والزراط والأسد والأزد ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ : اليقين والصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ : حتّى لا يسرح فى الرمل بتلبيد الأرض.

وقيل: بالصبر وقوة القلب ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ : للذين أمدّ بهم المؤمنين ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ : بالعون والنصر ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ : أى نوّروا قلوبهم وصحّحوا عزائمهم وثباتهم فى الجهاد، فقيل: إنّ ذلك المثبت بحضورهم الحرب معهم.

وقيل: معونتهم إياهم فى قتال عدوهم، وقال أبو روق: هو أن الملك كان يشبّه بالرجل الذى يعرفون وجهه فيأتى الرجل من أصحاب النبى ﷺ فيقول: إنّى قد دنوت من المشركين فسمعتهم يقولون والله لئن حملوا علينا لنكشفنّ.

فتحدث بذلك المسلمون بعضهم بعضًا فيقوّى أنفسهم ويزدادون جرأة، قال ابن إسحاق والمبرد: فثبتّوا الذى آمنوا أى وآزروهم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ : ثمّ علّمهم كيف الضرب والقتل فقال: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ قال بعضهم: هذا الأمر متّصل بقوله: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وقال آخرون: هو أمر من الله عزّ وجلّ للمؤمنين واختلفوا فى قوله ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ فقال عطيّة والضحاك: معناه فاضربوا الأعناق لقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ (محمد: ٤).

وقال رسول الله ﷺ: «لم أبعث لأعذب بعذاب الله وإنّما بُعثت لضرب الرقاب وشدّ الوثاق».

وقال بعضهم: معناه: فاضربوا على الأعناق، (فوق) بمعنى على. وقال عكرمة: معناه فاضربوا الرءوس فوق الأعناق. وقال ابن عباس: معناه واضربوا فوق الأعناق أى على الأعناق، نظيره قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ (النساء: ١١) أى اثنتين فما فوقهما.

﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: قال عطيّة: يعنى كل مفصل.

وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك: يعنى الأطراف والبنان جمع بنانة، وهى أطراف أصابع اليدين والرجلين واشتقاقه من أبن بالمقام إذا قام به.

قال الشاعر:

ألا ليتنى قطعت منه بنانه ولاقيته فى البيت يقظان حاذراً

وقال يمان بن رئاب: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ يعنى الصناديد ﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: يعنى السفلة، والصحيح: القول الأوّل. قال أبو داود المازنى وكان شهد بدراً: اتّبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل سيفى فعرفت أنّه قتله غيرى.

وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لقد رأيت يوم بدر وأن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وقال ابن عباس: حدثنى رجل عن بنى غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتّى صعدنا فى جبل ليشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننتظر الواقعة على مَنْ يكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب.

قال: فبينما نحن فى الجبل إذ دنت منّا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل. فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم قال فأما ابن عمّى فانكشف قناع قلبه فمات أما أنا فكدت أهلك ثمّ تماسكت.

وقال عكرمة: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمتْ أم الفضل وأسلمتُ وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلّف عن بدر فقد بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك صنعوا لم يتخلّف رجل إلاّ بعث مكانه رجلا فلمّا جاء الخبر عمّا أصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ووجدنا فى أنفسنا قوّة وحزمًا فكان رجلاً ضعيفًا قال: وكنت أعمل الأقداح أنحتها فى حجرة زمزم فوالله إنّى لجالس فيها أنحت الأقداح وعندى أم الفضل جالسة وقد سرّنا ما جاء من الخبر إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتّى جلس على طنب الحجرة وكان ظهره إلى ظهرى

فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلم إلى يا بن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس، قال: لا شىء والله كأن الآن لقينا فمنحناهم أكتافًا يقتلون ويأسرون كيف شاءوا وايم الله مع تلك ما لمت الناس:

لقينا رجالا بيضًا على خيل معلّق بين السماء والأرض ما تليق شيئًا ولا يقوم لها شىء.

قال أبو رافع: فرفعت طرف الحجرة بيدى ثمّ قلت: تلك الملائكة، فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة فناورته فأحملنى فضرب بى الأرض، ثمّ برك علىّ فضربنى وكنت رجلاً ضعيفًا فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد البيت فأخذته فضربته ضربة فلقت رأسه شجة منكرة وقالت: تستضعفه أن غاب عنه سيّده، فقام موليًا ذليلاً فوالله ما عاش إلاّ سبع ليال حتّى رماه الله بالعدسة فقتله.

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثًا ما يدفنانه حتى أنتن فى بيته، وكانت قريش تتقى العدسة كما تتّقى الناسُ الطاعون حتّى قال لهما رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان أنَّ أباكما قد أنتن فى بيته لا تغسّلانه فقالا: إنّا نخشى هذه القرحة، قال: فانطلقا فإنّا معكما فما غسلوه إلاّ قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يمسونه ثمّ حملوه فدفنوه بأعلى مكّة إلى جدار وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه.

وروى مقسّم عن ابن عباس قال: كان الذى أسر العباس أبا اليسر كعب بن عمرو أخا بنى سلمة وكان أبو اليسر رجلا مجموعًا وكان العباس رجلاً جسيمًا، فقال رسول الله ﷺ لأبى اليسر: «يا أبا اليسر كيف أسرت العباس؟»

فقال: يا رسول الله لقد أعاننى عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا، قال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه مَلَك كريم».

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ﴾: خالفوا الله ﴿وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: أى هذا العذاب الذى أعجلته لكم أيها الكفّار ﴿فَذُوقُوهُ﴾: عاجلاً ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾: فى المعاد ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾: وفى فتح (أن) وجهان من الإعراب أحدهما الرفع والآخر النصب:

فأما الرفع فعلى تقدير ذلكم تقديره: ذلكم يذوقوه، وذلك أن للكافرين عذاب النار.

وأمّا النصب فعلى وجهين: أحدهما: بمعنى فعل مضمر: ذلكم فذوقوه وأعلموا وأيقنوا أن للكافرين.

والآخر بمعنى: وما للكافرين فلما حذف الياء نصب.

❖ ❖ ❖

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ : أى مخفقين متزاحفين بعضكم إلى بعض والتزاحف التدانى والتقارب.

قال الأعشى:

لمن الضعائن سيرهن زحيف ... عرم السفين إذا تقاذف مقذف

والزحف مصدر ولذلك لم يجمع كقولهم: قوم عدل ورضى ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ يقول: فلا تولّوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم ولكن اثبتوا لهم ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ : ظهره وقرأ الحسن ساكنة ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ : أى متعطّفًا مستطردًا لقتال عدوّه بطلب عورة له تمكنه إصابتها فيكرّ عليه.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ : منضمًا صابرًا ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ : جماعة من المؤمنين يفيئون به بسهم إلى القتال ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ : واختلف العلماء فى حكم قوله ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ الآية هل هو خاص فى أهل بدر أم هو فى المؤمنين جميعًا.

فقال أبو سعيد الخدرى: إنّما كان ذلك يوم بدر خاصة لم يكن لهم أن ينحازوا ولو انحازوا إلى المشركين، ولم يكن يومئذ فى الأرض مسلم غيرهم ولا للمسلمين فيه غير النبى ﷺ فأمّا بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض ممثّلة، قاله الحسن والضحاك وقتادة.

قال يزيد بن أبى حبيب: أوجب الله لمن فرّ قوم يوم بدر النار.

فقال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ الآية. فلمّا كان يوم أُحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٥) ثمّ كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين. قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ (التوبة: ٢٥- ٢٧). وقال

عطاء بن أبى رباح: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ (الأنفال:٦٦) الآية فليس لقوم أن يفروا من مثليهم فنسخت تلك الآية إلاّ هذه العدّة.

وقال الكلبى: من قبل اليوم مقبلاً أو مدبراً فهو شهيد ولكن سبق المقبل المدبر إلى الجنة.

وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال: انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر. فقال: يا أمير المؤمنين هلكت فررت من الزحف، فقال عمر. رضى الله عنه: أنا فئتك.

وقال محمد بن سيرين: لمّا قُتل أبو عبيد جاء الخبر إلى عمر. رضى الله عنه. فقال: لو انحاز إلىّ فكنت له فئة فأنا فئة كل مسلم.

عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عبد الله بن عمر قال: كنّا فى مُصيل بعثنا رسول الله ﷺ فخاض الناس خيضة فانهزمنا وكنّا نفر، قلنا نهرب فى الأرض حياءً ممّا صنعنا فدخلنا البيوت. ثم قلنا: يا رسول الله نحن الفارون. قال رسول الله ﷺ: «بل أنتم الكرارون وإنّا فئة المسلمين».

وقال بعضهم: بل حكمها عام فى كل من ولى عن العدو وفيهم مَنْ روى ما قال رسول الله ﷺ لبعض أهله: «إياك والفرار من الزحف فإن هلكوا فاثبتوا . . . .[1] فما إلاّ على ارتكاب الكبائر وإلاّ الشرك بالله والفرار من الزحف لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ » الآية.

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ : الآية فقال أهل التفسير والمغازى لمّا ورد رسول الله ﷺ بدراً قال: «هذه مصارع القوم إن شاء الله»، فلمّا طلعوا عليه قال رسول الله ﷺ: «هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللّهمّ إنّى أسألك ما وعدتّنى فأتاه جبرئيل وقال خذ حفنة من تراب فارمهم بها».

فقال رسول الله ﷺ لمّا التقى الجمعان لعلّى رضى الله عنه: «أعطنى قبضة من حصا الوادى» فناوله من حصى عليه تراب فرمى رسول الله ﷺ به فى وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه».

فلم يبق مشرك إلاّ دخل فى عينه وفمه ومنخريه منها شىء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وكانت تلك الرمية سبب الهزيمة.

وقال حكيم بن حزام: لمّا كان يوم بدر سمعنا صوتًا وقع من السماء كأنّه صوت حصاة وقعت فى طست ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا.

وقال قتادة وابن زيد: ذكر له أنّ رسول الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى حصاة

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فى ميمنة القوم وحصاة فى ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم.

وقال: «شاهت الوجوه» فانهزموا.

الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: نزلت هذه الآية فى قتل أُبى بن خلف الجمحى. وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ بعظم حائل وهو يفتّه فقال: يا محمد الله يُحيى هذا وهو رميم؟

فقال النبى ﷺ: «يحيه الله ثمّ يميتك ثمّ يدخلك النار فلمّا كان يوم بدر أسره ثمّ فدى، فلمّا افتدى قال لرسول الله ﷺ: إن لى فرسًا أعلفها كل يوم فرق ذرة لكى أقتلك عليها، فقال رسول الله ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلمّا كان يوم أُحُد أقبل أُبىّ بن خلف يركض بفرسه ذلك حتّى دنا من رسول الله ﷺ فاعترض له رجال المسلمين ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «استأخروا»، فاستأخروا فقام رسول الله ﷺ بحربة فى يده فرمى بها أُبى بن خلف فكسرت الحربة ضلعًا من أضلاعه فرجع أُبى إلى أصحابه ثقيلا فاحتملوه وطفقوا يقولون: لا بأس، فقال أُبى: والله لو كانت الناس لقتلهم، ألم يقل إنى أقتلك إن شاء الله، فانطلق به أصحابه ينعونه حتّى مات ببعض الطريق فدفنوه ففى ذلك أنزل الله هذه الآية ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الآية.

وروى صفوان بن عمرو عن عبد العزيز بن جبير أنّ رسول الله ﷺ يوم خيبر دعا بقوس فأُتى بقوس طويلة فقال: جيئونى بغيرها، فجاءوا بقوس كبداء فرمى النبى ﷺ الحصن فأقبل السهم يهوى حتّى قتل كنانة بن أبى الحقيق وهو على فرسه فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فهذا سبب نزول الآية.

فأما معناها فإن الله تعالى أضاف القتل والرمى إلى نفسه لأنّه كان منه تعالى التسبيب والتسديد ومن رسوله والمؤمنين الضرب والحذف. وكذلك سائر أفعال الخلق المكتسبة من الله تعالى الإنشاء والإيجاد بالقدرة القديمة التامّة ومن الخلق الاكتساب بالقوى المحدثة، وفى هذا القول دليل على ثبوت مذهب أهل الحق وبطلان قول القدريّة.

وقيل: إنّما أضافها إلى نفسه لئلاّ يعجب القوم.

قال مجاهد: قال هذا: قتلت، وقال هذا: قتلت، فأنزل الله هذه الآية.

وقال الحسن: أراد فلم تُميتوهم ولكن الله أماتهم وأنتم جرحتموهم لأن إخراج الروح إليه لا إلى غيره.

قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أى قتل يبلغ إلى المشركين بها وملأ عيونهم منها.

وقال ابن إسحاق: ولكن الله رمى أى لم يكن ذلك رميتك لولا الذى جعل الله فيها من نصرك وما ألقى فى صدور عدوك منها حتّى هزمهم.

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: رمى الله لك، أى نصرك. قال الأعمش: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أى وفّقك وسدد رميتك.

﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾: أى ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والأجر والثواب.

وقال ابن إسحاق: ليعرف المؤمنين نعمة نصرهم وإظهارهم على عدوهم مع قلّة عددهم وكثرة عدوّهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا نعمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾: بأفعالهم سميع بأسرارهم عليم بإضمارهم ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾: يعنى: ذكرت من القتل والرمى والأجل الحسن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أى: واعلموا أن الله، وفى فتح ﴿أَنَّ﴾: من الوجوه ما فى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (الأنفال: ١٤) . . . . [١].

﴿مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قرأ الحجازى والشامى والبصرى: موهّن بالتشديد والتنوين ﴿كَيۡدِ﴾ نصبًا وقرأ أكثر أهل الكوفة ﴿مُوهِنُ﴾ بالتخفيف والتنوين ﴿كَيۡدِ﴾ نصبًا واختاره أبو عبيد وأبو حاتم.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن محيصن والأعمش وحفص: موهن كيد، مخفّفة مضافة بالجر فمن نوّن معناه: وهن، ومَنْ خفّف وأضاف قصر الخفّة كقوله: ﴿مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ (القمر: ٢٧) و﴿كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾ (الدخان: ١٥) ووهن وأوهن لغتان صحيحتان فصيحتان ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾: وذلك أنّ أبا جهل قال يوم بدر: اللّهمّ أينا كان أفجر وأقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فانصرنا عليه، فاستجاب الله دعاءه وجاء بالفتح وضربه ابنا عفراء: عوف ومعوذ، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود.

وقال السدى والكلبى: كان المشركون حين خرجوا إلى النبى ﷺ من مكّة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللّهمّ انصرنا على الحزبين وأهدى القبتين وأكرم الجندين وأفضل الدينين فأنزل الله هذه الآية.

وقال عكرمة: قال المشركون اللّهمّ لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ أى إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء.

وقال أُبى بن كعب وعطاء الخراسانى: هذا خطاب أصحاب رسول الله قال الله للمسلمين:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ أى تستنصروا الله وتسألوه الفتح فقد جاءكم الفتح أى بالنصرة.

وقال خبّاب بن الأرت: شكونا إلى رسول الله عليه السلام فقلنا: ألا تستنصر لنا، فاحمر وجهه وقال: «كان الرجل قبلكم يؤخذ ويحفر له فى الأرض، ثمّ يجاء بالمنشار فيقطع بنصفين ما يصرفه عن دينه شيء، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ولا يخشى إلاّ الله عزّ وجلّ والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون».

ثمّ قال للكفّار ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾: عن الكفر بالله وقتال نبيّه ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ﴾ لقتاله وحربه ﴿نَعُدْ﴾ بمثل الواقعة التى أوقعت لكم يوم بدر.

وقيل: وإن تعودوا إلى هذا القول وقتال محمد ﷺ ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ أهل المدينة والشام: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بفتح الألف، والمعنى: ولأن الله، وقيل: هو عطف على قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ (الأنفال: ١٤).

وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف، واختلفوا فيه.

وقراءة أبى حاتم (لأن) فى قراءة عبد الله: (والله مع المؤمنين).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾: ولا تدبروا عن رسول الله ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾: أمره وليّه.

قال ابن عباس: وأنتم تسمعون القرآن ومواعظه ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾: يعنى المنافقين والمشركين الذى سمعوا كتاب الله بآذانهم فقالوا سمعنا ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: يعنى لا يتعظون بالقرآن ولا ينتفعون بسماعهم وكأنهم لم يسمعوا الحقيقة.

❖ ❖ ❖

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ : يعنى أن شرّ الدواب على وجه الأرض من خلق الله ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ : فقال الأخفش: كل محتاج إلى غذاء فهو دابة.

﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ : عن الحق كأنهم لا يسمعون ولا ينطقون.

قال ابن زيد: هم صم القلوب وبكمها وعميها. وقرأ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

وقال ابن عباس وعكرمة: هم بنو عبد الدار بن قصى كانوا يقولون نحن صُمٌّ بكم عُمى عن مخاطبة محمد لا نسمعه ولا نجيبه، فكانوا جميعًا بأُحد، وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلاّ رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ : أمر الله ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ : صدقًا وإسلامًا ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ : لرزقهم الفهم والعلم بالقرآن ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟﴾ : عن القرآن ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ : عن الإيمان بالقرآن لعلم الله فيهم وحكمه عليهم بالكفر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. اختلفوا فى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ : فقال السدى: هو الإيمان يحييهم بعد موتهم أى كفرهم. وقال مجاهد: للحق. وقال قتادة هو هذا القرآن فيه الحياة والفقه والنجاة والعصمة فى الدنيا والآخرة.

وقال ابن إسحاق: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعنى الحرب والجهاد التى أعزكم الله بها بعد الذل. وقوّاكم بها بعد الضعف ومنعكم بها عن عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وقال القتيبى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ : لما يُتقيكم، يعنى الشهادة. وقرأ قوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩) فاللام فى قوله ﴿لِمَا﴾ بمعنى إلى ومعنى الاستجابة فى هذه الآية الطاعة يدلُّ عليه ما روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: مرّ رسول الله ﷺ على أُبى بن كعب وهو قائم يصلى فصاح له فقال: «تعال إلى»، فعجل أُبى فى صلاته ثمّ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «ما منعك يا أُبى أن تُجيبنى إذا دعوتك؟ أليس الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾».

قال: لا جرم يا رسول الله لا تدعونى إلاّ أجبتك وإن كنت مصليًا.

قال: «تحب أن أُعلمك سورة لم تنزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها»؟

قال أُبى: نعم يا رسول الله.

قال: «لا تخرج من باب المسجد حتّى تعلمها» والنبى ﷺ يمشى يريد أن يخرج من المسجد فلما بلغ الباب ليخرج قال له أُبى: يا رسول الله، فوقف فقال: «نعم كيف تقرأ فى صلاتك»

فقرأ أُبى أُمّ القرآن فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ما أُنزلت فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها وإنّها لهى السبع المثانى التى أتانى الله عزّ وجلّ.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ : قال سعيد بن جبير: معناه يحول بين الكافر أن يؤمن وبين المؤمن أن يكفر.

ابن عباس: بين الكافر وبين طاعته ويحول بين المؤمن وبين معصيته.

وقال مجاهد: يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدرى ما يفعل، وروى خصيف عنه قال: يحول بين قلب الكافر وبين أن يعمل خيراً.

وقال السدى: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلاّ بإذنه.

وقال قتادة: معنى ذلك أنّه قريب من قلبه ولا يخفى عليه شىء أظهره أو أسره. وهى كقوله عزّ وجلّ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (ق:١٦).

وقيل: هو أن القوم لما دعوا إلى القتال فى الحال الصعبة جاءت ظنونهم واختلجت صدورهم فقيل فيهم ﴿قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١٦٧) وأعلموا أن الله يحول بين المرء وبين ما فى قلبه فيبدل الخوف أمنًا والجُبن جُرأة.

وقيل: يحول بينه وبين مراده، لأن الأجل حال دون الأمل. والتقدير منع من التدبير.

وقرأ الحسن: بين المرء، وبتشديد الراء من غير همزة.

وقرأ الزهرى: بضم الميم والهمزة وهى لغات صحيحة.

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ : ويجزيكم بأعمالكم.

قال أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبى على دينك، قلنا: يا رسول الله آمنّا بك فهل تخاف علينا؟

قال: «إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف شاء إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه».

والإصبع فى اللغة الأثر الحسن، فمعنى قوله: بين إصبعين: بين أثرين من آثار الربوبية وفيها الإزاغة والإقامة.

قال الشاعر:

صلاة وتسبيح والخطأ نائل ... وذو رحم تناله منك إصبع

أى أثر حسن.

وقال آخر:

مَنْ يجعل الله عليه إصبعًا   فى الشر أو فى الخير يلقه معًا

فالإصبع أيضًا فى اللغة الإصبع .

فمعنى الحديث بين مملكتين من ممالكه ، وبين الإزاغة والإقامة والتوفيق والخذلان .

قال الشاعر :

حدّثت نفسك بالوفاء ولم تكن   للغـدر خائنـة مغل الإصبع

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ : أى اختبار وبلاء يصيبكم .

وقال ابن زيد : الفتنة الضلالة ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ : واختلفوا فى وجه قوله : ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ من الإعراب .

فقال أهل البصرة : قوله ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ ليس بجواب ولكنّه نهى بعد أمره ، ولو كان جوابًا ما دخلت النون .

وقال أهل الكوفة : أمرهم ثمّ نهاهم وفيه تأويل الجزاء فإن كان نهيًا كقوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ (النمل : ١٨) . أمرهم ثمّ نهاهم ، وفيه تأويل الجزاء وتقديره : واتقوا الله إن لم تنتهوا أصابتكم .

وقال الكسائى : وقعت النون فى الجر بمكان التحذير ، فلو قلت : قم لا أغضب عليك لم يكن فيه النون لأنّه جزاء محض .

وقال الفراء : هو جزاء فيه طرف من النهى كما تقول : انزل عن الدابة لا يطرحك . ولا يطرحنك فهذا جزاء من الأمر بلفظ النهى . ومعناه : إن تنزل عنه لا يطرحنّك .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى أصحاب النبى ﷺ خاصة . وقال : أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب .

وقال الحسن : نزلت فى علىّ وعمار وطلحة والزبير قال الزبير بن العوّام : يوم الجمل لقد قرأنا هذه الآية زمانًا وما أرنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها .

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ . فحلفنا حتّى أصابتنا خاصّة . قال السدى : هذه الآية نزلت فى أهل بدر خاصّة فأصابتهم يوم الجمل فأقبلوا .

وقال عبد الله بن مسعود ما منكم من أحد إلاّ هو مشتمل على الفتنة إنّ الله يقول : ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (الأنفال : ٢٨) فأيّكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلاّت الفتن .

حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : «يكون من ناس من أصحابى إساءة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياى يستنّ بهم فيها ناس يعذبهم فيدخلهم الله بها النار» .

يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تأتى فتنة عمياء مظلمة المضطجع فيها خير من الجالس والجالس فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى».

فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله إن أدركتنى وأنا مضطجع قال: «فامش».

قال: أفرأيت إن أدركتنى وأنا أمشى. قال: «ارقد».

قال: أفرأيت إن أدركتنى وأنا راقد. قال: «فاجلس».

قال: أفرأيت إن أدركتنى وأنا جالس. قال: «فقل هكذا بيدك ـ وضم يديه إلى جسده ـ حتّى تكون عند الله المظلوم، ولا تكون عند الله الظالم».

عن زيد بن أبى زياد بن الأصم عن حذيفة قال: أتتكم فتن كقطع الليل المظلم يهلك فيها كل شجاع بطل وكل راكب موضع وكل خطيب مشفع ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾: فى العدد ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: أرض مكّة فى عنفوان الإسلام ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾: يُذهب بكم ﴿النَّاسُ﴾: كفّار مكّة، وقال وهب: فارس والروم ﴿فَآوَاكُمْ﴾: إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾: يوم بدر أيدكم بالانتصار وأُمدّكم بالملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: يعنى الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قال قتادة: كان هذ الحى من العرب أذلّ الناس ذلا وأشقاهم عيشًا وأجوعهم بطنًا وأغراهم جلودًا وآمنهم ضلالا، من عاش منهم عاش شقيًا ومن مات منهم ردى فى النار مكعوبين على رأس الحجرين الأشدين فارس والروم.

يؤكلون ولا يأكلون وما فى بلادهم شىء عليه يحسدون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا شر منزلاً منهم حتّى جاء الله عزّ وجلّ بالإسلام فمكن فى البلاد ووسع به فى الرزق وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس.

وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعم يجب الشكر له وأجمل الشكر فى مزيد من الله تعالى.

❖ ❖ ❖

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴿٢٩﴾ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴿٣٠﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴿٣١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ قال عطاء ابن أبى رباح : حدّثنى جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكّة فأتى جبرئيل (عليه السلام) النبىّ ﷺ فقال : إنّ أبا سفيان فى مكان كذا وكذا .

فقال النبىّ ﷺ لأصحابه : «إنّ أبا سفيان فى مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا» قال : فكتب رجل من المنافقين إليه أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله تعالى الآية .

وقال السدى : كانوا يسمعون الشيء من النبى ﷺ فيفشونه حتّى بلغ المشركين .

وقال الزهرى والكلبى : نزلت هذه الآية فى أبى لبابة واسم أبى لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصارى من بنى عوف بن مالك وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم بنى النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله ﷺ إلاّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحًا لهم ، لأن عياله وماله وولده كانت عندهم فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده إلى عنقه أنّه الذبح فلا تفعلوا .

قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أن قد خنت الله والرسول فلمّا نزلت هذه الآية شد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال : والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله علىّ فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعامًا ولا شرابًا حتّى خرّ مغميًا عليه ثمّ تاب الله عليه ، فقيل له : يا أبا لبابة قد تبت عليك .

قال : لا والله لا أحلّ نفسى حتّى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده ، ثمّ قال أبو لبابة : إن منْ تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب . وأن أنخلع من مالى ، فقال رسول الله ﷺ : «يجزيك الثلث إن تصدقت» .

فقال المغيرة بن شعبة : نزلت هذه الآية فى قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

قال محمد بن إسحاق : معنى الآية لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم ثمّ تخالفونه

فى السر إلى غيره .

وقال ابن عباس : لا تخونوا الله بترك فرائضه ، والرسول بترك سنته ، وتخونوا أماناتكم .

قال السدى : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم .

وعلى هذا التأويل يكون قوله : ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ نصبًا على جواب النهى .

والعرب تنصب جواب النهى وقالوا كما ينصب بالفاء .

وقيل : هو نصب على الصرف كقول الشاعر :

لا تنهَ عن خلق وتأتى مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وقال الأخفش : هو عطف على ما قبله من النهى ، تقديره : ولا تخونوا أماناتكم .

وقرأ مجاهد : أمانتكم واحدة . واختلفوا فى هذه الآية فقال ابن عباس : هو ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله عزّ وجلّ والأعمال التى ائتمن الله عليها العباد يقول لا تنقضوها .

وقال ابن زيد : معنى الأمانات ههنا الدين وهؤلاء المنافقون ائتمنهم الله على دينه فخانوا ، إذ أظهروا الإيمان وأسروا الكفر .

قال قتادة : إنّ دين الله أمانة فأدّوا إلى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده . ومَنْ كانت عليه أمانة فليردّها إلى مَنْ ائتمنه عليها .

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ﴾ : التى عند بنى قريظة ﴿فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ : بطاعته وترك معصيته واجتناب خيانته ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ : قال مجاهد : مخرجًا فى الدنيا والآخرة .

وقال مقاتل بن حيان : مخرجًا فى الدين من الشبهات . وقال عكرمة : نجاة . وقال الضحاك : بيانًا . قال مقاتل : منقذًا .

وقال الكلبى : بصراً ، وقال ابن إسحاق : فصلاً بين الحق والباطل ، يظهر الله به حقكم ويطفئ به باطل مَنْ خالفكم .

وقال ابن زيد : فرقًا يفرق فى قلوبهم بين الحق والباطل حتّى يعرفوه ويشهدوا به .

والفرقان مصدر كالرحمان والنقصان .

تقول : فرقت بين الشىء والشىء أفرق بينهما فرقًا وفروقًا وفرقانًا ، ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ﴾ : هذه الآية معطوفة على قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ (الأنفال : ٢٦) . ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ : (الأنفال : ٣٣) لأن هذه السورة مدنية .

وهذا القول والمكر كان بمكة، ولكن الله تعالى ذكرهم ذلك بالمدينة كقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ (التوبة: ٤٠) وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من المفسّرين أن قريشًا لما أسلمت الأنصار فرقوا أن تتفاقم أُمور رسول الله ﷺ.

فاجتمع نفر من مشايخهم وكبارهم فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمر رسول الله ﷺ. وكانت رؤساؤهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبا جهل وأبا سفيان وطعمة بن عدى والنضر بن الحارث وأبو البحترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام وبنيه ومنبّه ابنا الحجاج وأُميّة بن خلف فاعترض لهم إبليس فى صورة شيخ فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: أنا شيخ من نجد سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا من رأى ونصح، قالوا: ادخل فدخل.

فقال أبو البحترى: أمّا أنا فأرى أن تأخذوه وتحبسوه فى بيته وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت فتتركوه وتقدموا إليه طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتّى يهلك فيه كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة، وإنّما هو كأحدهم.

فصرخ إبليس: الشيخ النجدى وقال: بئس الرأى رأيتم تعمدون إلى الرجل وتحبسونه فيتم أجره، وقد سمع به مَنْ حولكم، ويقاتلونكم عنه حتّى يأخذوه منكم.

قالوا: صدق الشيخ. فقال هشام بن عمرو وهو من بنى عامر بن لؤى: أمّا أنا فأرى أن تحملوه على بعير فتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما ضر من وقع إذا غاب عنكم واسترحم وكان أمره فى غيركم. فقال إبليس بئس الرأى رأيكم تعمدون إلى رجل قد أفسد سفهاءكم فتخرجوا به إلى غيركم يفسدهم كما أفسدكم، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذ القلوب ما يسمع من حديثه. والله لئن فعلتم، ثمّ استعرض العرب لتجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم فيخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم.

قالوا: صدق والله الشيخ.

فقال أبو جهل: لأشيرن عليكم برأى ما أرى غيره: إنى أرى أن نأخذ واحدًا من كل بطن من قريش غلامًا وسبطًا ثمّ يعطى كل رجل منهم سيفًا صارمًا ثمّ يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلّها، ولا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلّها، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدّى قريش ديته واسترحنا، فقال إبليس: صدق هذا الفتى وهذا أجودكم رأيًا، القول ما قاله لا أرى غيره.

فتفرقوا على قول أبى جهل، وهم مجتمعون فأتى جبرائيل النبى ﷺ وأخبره بذلك وأمره أن

لايبيت على مضجعه الذى كان يبيت فيه، وأذن الله تعالى له عند ذلك بالخروج إلى المدينة وأمر رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فنام فى مضجعه فقال: اتشح ببردى فإنّه لن يخلص إليك أمر تكرهه.

ثمّ خرج النبىّ ﷺ وأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه وجعل ينثر التراب على رءوسهم وهو يقرأ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ (يس:٨): ومضى إلى الغار من ثور فدخله هو وأبو بكر وخلف عليّا رضى الله عنه بمكّة حتّى يؤدّى عنه الودائع التى قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته وكان المشركون يتحرسون عليًّا رضى الله عنه وهو على فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنّه النبى، فلمّا أصبحوا ثاروا إليه فرأوا عليًّا رضى الله عنه.

وقد رد الله مكرهم وما ترك منهم رجلا إلاّ وضع على رأسه التراب.

فقالوا: أين صاحبك؟

قال: لا أدرى فاقتصّوا أثره وأرسلوا فى طلبه فلما بلغوا الجبل، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، وقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسيج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثة أيام ثمّ قدم المدينة فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد ومقسم والسدى: ليوثقوك. وقال قتادة: ليشدوا وثاقًا.

وقال عطاء وعبد الله بن كثير: ليسجنوك. وقال أبان بن ثعلب. وأبو حاتم: ليثخنوك بالجراحات والضرب وأنشد:

فقلت ويحك ماذا فى صحيفتكم قالوا الخليفة أمسى مثبتًا وجعًا

وقيل: معناه ليسخروك.

وروى ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عبد المطلب بن أبى وداعة أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: هل تدرى ما أضمر بك قومك؟

قال: «نعم يريدون أن يسخروا بى ويقتلونى أو يخرجونى» فقال: مَنْ أخبرك بهذا؟

قال: «ربى».

قال: نعم الرب ربّك فاستوص ربّك خيرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «أنا استوصى به بل هو يستوصى بى خيرًا».

وقرأ إبراهيم النخعى (وليثبتوك) من البيات ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ قال الحسن: فيقولون ويقول الله.

وقال الضحاك: ويصنعون ويصنع الله ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: خير من استنقذك منهم وأهلكهم ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا﴾: يعني النضر بن الحارث ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾: وذلك أنّه كان يختلف تاجرًا إلى فارس والحيرة فيسمع سجع أهلها وذكرهم أخبار العجم وغيرهم من الأمم، فمر باليهود والنصارى فرآهم يقرءون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون، فجاء مكّة فوجد محمدًا يقرأ القرآن ويصلّى. فقال النضر: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أخبار الأمم الماضية وأعمارهم، قال السدى: أساجيع أهل الحيرة.

والأساطير جمع الجمع وأصلها من قوله: سطرت أى كتبت، وواحدها سطر ثمّ تجمع أسطار أو سطور ثمّ فيجمعان أساطر وأساطير. وقيل: الأساطير واحدها أُسطورة وأسطار. والجمع القليل: أسطر.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ﴾: الآية نزلت أيضًا فى النضر بن الحارث بن علقمة بن كندة من بنى عبد الدار.

قال ابن عباس: لمّا قصّ رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين فى كتبهم.

فقال عثمان بن مظعون: اتق الله فإن محمدًا يقول الحق. قال: فأنا أقول الحق. قال: فإن محمدًا يقول: لا إله إلاّ الله. قال: فأنا أقول لا إله إلاّ الله. ولكن هذه شأن الله يعنى الأصنام. فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١) قال النضر: ألا تَرون أن محمدًا قد صدقنى فيما أقول يعنى قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾.

قال له المغيرة بن الوليد: والله ما صدّقك ولكنه يقول ما كان للرحمن ولد.

ففطن لذلك النضر فقال: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك.

﴿إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ ﴿هُوَ﴾: عماداً وتوكيداً وصلة فى الكلام، و﴿ٱلْحَقَّ﴾: نصب بخبر كان ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: كما أمطرتها على قوم لوط.

قال أبو عبيدة: ما كان من العذاب. يقال: فينا مطر من الرحمة مطر ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أى بنفس ما عذبت به الأُمم وفيه نزل: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (المعارج: ١).

قال عطاء: لقد نزل فى النضر بضع عشرة آية من كتاب الله فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر.

قال سعيد بن جبير: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «ثلاثة صبروا منكم من قريش المطعم بن عدى. وعقبة بن أبى معيط. والنضر بن الحارث».

كان النضر أسير المقداد فلمّا أمر بقتله قال المقداد: أسيرى يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه كان يقول فى كتاب الله ما يقول» قال المقداد: أسيرى يا رسول الله، قالها ثلاث مرّات. فقال رسول الله ﷺ فى الثالثة: «اللّهم اغن المقداد من فضلك».

فقال المقداد: هذا الذى أردت.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾: اختلفوا فى معنى هذه الآية فقال محمد بن إسحاق بن يسار: هذه حكاية عن المشركين، أنهم قالوا وهى متصلة بالآية الأُولى، وقيل: إن المشركين كانوا يقولون: والله إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أُمة ونبيّها معهم، وذلك من قولهم ورسول الله بين أظهرهم، فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ يذكر له جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾: وقالوا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثمّ قال ردّاً عليهم ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾: وإن كنت بين أظهرهم أن كانوا يستغفرون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وقال آخرون: هذا كلام مستأنف وهو قول الله تعالى حكاية عن نفسه ثمّ اختلفوا فى وجهها وتأويلها:

فقال ابن أبزى وأبو مالك والضحاك: تأويلها: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين أظهرهم.

قالوا: فأنزلت هذه الآية على النبى ﷺ وهو مقيم بمكّة ثمّ خرج النبىّ من بين أظهرهم. وبقيت منها بقية من المسلمين يستغفرون. فأنزل الله بعد خروجه عليه حين استغفر أُولئك بها ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

ثمّ خرج أُولئك البقية من المسلمين من بينهم فعذبوا وأذن الله بفتح مكّة، فهو العذاب الذى وعدهم.

ابن عباس: لم يعذب أُولئك حتّى يخرج النبى منها والمؤمنون. قال الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعنى المسلمين فلما خرجوا قال الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعذبهم يوم بدر.

وقال بعضهم: هذا الاستغفار راجع إلى المشركين: وما كان الله ليعذب هؤلاء المشركين ما دمتَ فيهم وما داموا يستغفرون. وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت ويقولون لبيك لبيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك، ويقولون غفرانك غفرانك. هذه رواية أبى زميل عن ابن عباس.

وروى ابن معشر عن يزيد بن روحان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. الآية فلمّا أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم. فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقال أبو موسى الأشعرى: إنّه كان فيكم أمانًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وأمّا النبىّ ﷺ فقد مضى وأمّا الاستغفار فهو كائن إلى يوم القيامة.

وقال قتادة وابن عباس وابن يزيد معنى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: أن لو استغفروا، يقول إن القوم لو كانوا يستغفرون لما عذبوا ولكنهم لم يكونوا استغفروا ولو استغفروا فأقروا بالذنوب لكانوا مؤمنين.

وقال مجاهد وعكرمة: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أى يسلمون، يقول: لو أسلموا لمّا عُذّبوا.

وقال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أى وفيهم من سبق له من الله الدخول فى الإيمان.

وروى عن ابن عباس ومجاهد والضحاك: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أى يصلّون: وقال الحسن: هذه الآية منسوخة بالآية التى تلتها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقاتلوا بمكّة فأصابوا فيها الجوع والخير.

وروى عبد الوهاب عن مجاهد ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أى فى أصلابهم من يستغفره.

قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أى: ما يمنعهم من أن يُعذّبوا.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المؤمنون من حيث كانوا ومن كانوا، يعنى النبىّ ﷺ ومن آمن معه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ﴾ : والمكاء الصفير. يقال مكاءً تمكّوا مكا ومكوا. وقال عنترة:

وحليل غانية تركت مجدّلا تمكوا فريصته كشدق الأعلم

ومنه قيل: مكت اسم الدابة مكأ إذا نفخت بالريح. ﴿وَتَصْدِيَةً ۚ﴾ يعنى التصفيق.

قال جعفر بن ربيعة: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ﴾ فجمع كفيه ثمّ نفخ فيها صفيراً.

وقال ابن عباس: كانت قريش يطفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون. وقال مجاهد: كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبى ﷺ فى الطواف يستهزئون به فيدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفرون، يخلطون عليه صلاته وطوافه.

وقال مقاتل: كان النبى ﷺ إذا صلى فى المسجد قام رجلان من المشركين عن يمينه فيصفران ويصفقان ورجلان كذلك عن يساره ليخلطوا على النبى ﷺ صلاته. وهم بنو عبد الدار فقتلهم الله ببدر.

وقال السدى: المكاء الصفير على لحن طائر أبيض يكون بالحجاز يقال له: المكا.

قال الشاعر:

إذا غرّد المكاء فى غير روضة قيل لأهل الشاء والحمرات

وقال سعيد بن جبير وابن إسحاق وابن زيد: التصدية صدهم عن بيت الله وعن دين الله، والتصدية على هذا التأويل التصديد فقلبت إحدى الدالين تاءً كما يقال تظنيت من الظن.

قال الشاعر:

❖ تفضى البازى إذا البازى كسر ❖

يريد: تظنيت وتفضض.

وقرأ الفضل عن عاصم: وما كان صلاتهم بالنصب إلا مكاء وتصدية بالرفع محل الخبر فى الصلاة كما قال القطامى:

قفى قبل التفرق يا ضباعًا ولا يك موقف منك الوداعا

وسمعت مَنْ يقول: كان المكاء أذانهم والتصفيق إقامتهم ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: يوم بدر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً
ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل
لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾
وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : ليصرفوا عن دين الله الناس.

قال سعيد بن جبير وابن أبزى : نزلت فى أبى سفيان بن حرب استأجر يوم أُحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبى ﷺ سوى من أشخاص من العرب . وفيهم يقول كعب بن مالك :

فجينا إلى موج البحر وسطه — أحابيش منهم حاسر ومقنع
وفينا رسول الله نتبع قوله — إذ قال فينا القول لا ينقطع
ثلاثة الألف ونحن نظنه ثلاث — مئين أن كثرن فأربع

وقال الحكم بن عيينة : نزلت فى أبى سفيان بن حرب حيث أنفق على المشركين يوم أُحد أربعين أوقية وكانت أوقيته اثنين وأربعين مثقالاً .

وقال ابن إسحاق عن رجاله : لما أُصيبت قريش من أصحاب القليب يوم بدر ، فرجع فَلّهم إلى مكّة ورجع أبو سفيان بعيره إلى مكّة مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أميّة فى رجال من قريش أُصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومَنْ كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال الذى أفلت على حربه أملنا أن ندرك منه ثأراً بمن أُصيب منا ، ففعلوا فأنزل الله فيهم هذه الآية .

وقال الضحاك : هم أهل بدر .

وقال مقاتل والكلبى : نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلاً : عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجّاج البحترى بن هشام والنضر بن حارث وحكم بن حزام وأبى بن خلف ، وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر ونوفل والعباس بن عبد المطلب كلهم من قريش ، وكان يطعم كل واحد منهم عشر جزر .

قال الله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ولا يظفرون ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: منهم خصّ الكفّار لأجل مَنْ أسلم منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾: بذلك الحشر ﴿الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: الكافر من المؤمن فيدخل الله المؤمن الجنان والكافر النيران.

وقال الكلبى: يعنى العمل الخبيث من العمل الطيب الصالح فيثيب على الأعمال الصالحة الجنّة ويثيب على الأعمال الخبيثة النار.

قرأ أهل الكوفة والحسن وقتادة والأعمش وعيسى: ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ﴾ بالتشديد.

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم.

وقال ابن زيد: يعنى الإنفاق الطيب فى سبيل الله من الإنفاق الخبيث فى سبيل الشيطان فجعل نفاقتهم فى قعر جهنم ثمّ يقال لهم: الحقوا بها.

وقال مرّة الهمدانى: يعنى يميز المؤمن فى علمه السابق الذى خلقه حين خلقه طيبًا من الخبيث الكافر فى علمه السابق الذى خلقه خبيثًا، وذلك أنّهم كانوا على ملة الكفر فبعث الله الرسول بالكتاب ليميّز الله الخبيث من الطيب فمن أطاع استبان أنّه طيب ومن خالفه استبان أنّه خبيث ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: بعضه فوق بعض ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾: أى يجمعه حتّى يصيّره مثل السحاب الركام وهو المجتمع الكثيف ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾: فوحد الخبر عنهم لتوحيد قول الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ ثمّ قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فجمع، رده إلى أول الخبر، يعنى قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ... أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين غبنت صفقتهم وخسرت تجارتهم لأنّهم اشتروا بأموالهم عذاب الله فى الآخرة ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أبى سفيان وأصحابه ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم﴾: إن ينتهوا من الشرك وقال محمد: يغفر لهم ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾: من عملهم قبل الإسلام ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾: لقتال محمد ﷺ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾: فى نصر الأنبياء والأولياء وهلاك الكفّار والأعداء مثل يوم بدر.

قال الأستاذ الإمام أبو إسحاق: سمعت الحسن بن محمد بن الحسن يقول: سمعت أبى يقول: سمعت علىّ بن محمد الوراق يقول: سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول: إنّى لأرجو أنّ توحيدًا لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب.

وأنشدنى أبو القاسم الحبيبى بذلك أنشدنى أبو سعيد أحمد بن محمد الزيدى:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ثمّ انتهى عمّا أتاه واقترف

لقوله سبحانه فى المعترف: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أى شرك، وقال أبو العالية: بلاء، وقال الربيع: حتّى لا

يفتن مؤمن عن دينه ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾: التوحيد خالصًا ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: عزّ وجلّ ليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال قتادة: حتّى يقال: لا إله إلاّ الله، عليها قاتل نبى الله وإليها دعا.

وقيل: حتّى تكون الطاعة والعبادة لله خالصة دون غيره ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾: عن الكفر والقتال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: عن الإيمان وعادوا إلى مقال أهله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: ناصركم ومعينكم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: الناصر.

❖ ❖ ❖

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾: حتّى الخيط والمخيط.

واختلف العلماء فى معنى الغنيمة والفىء، ففرّق قوم بينهما:

قال الحسن بن صالح: سألت عطاء بن السائب عن الفىء والغنيمة فقال: إذا ظهر المسلمون على المشركين على أرضهم فأخذوه عنوة فما أخذوا من مال ظهروا عليه فهو غنيمة. وأمّا الأرض فهو فى سواد هذا الفىء.

وقال سفيان الثورى: الغنيمة ما أصاب المسلمون عنوة بقتال، والفىء ما كان من صلح بغير قتال.

وقال قتادة: هما بمعنى واحد ومصرفهما واحد وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾.

اختلاف أهل التأويل فى ذلك فقال بعضهم قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مفتاح الكلام. ولله الدنيا والآخرة فإنّما معنى الكلام: فأنّ للرسول خُمسه وهو قول الحسن وقتادة وعطاء، فإنّهم

جعلوا سهم الله وسهم الرسول واحدًا، وهى رواية الضحاك عن ابن عباس. قالوا: كانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس فأربعة أخماس لمن قاتل عليها، وقسّم الخمس الباقى على خمسة أخماس: خمس للنبىّ ﷺ كان له ويصنع فيه ما شاء وسهم لذوى القربى، وخمس لليتامى وخمس للمساكين وخُمس لابن السبيل. فسهم رسول الله ﷺ خمس الخمس.

وقال بعضهم: معنى قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ فإن لبيت الله خمسه. وهو قول الربيع وأبى العالية قالا: كان يجاء بالغنيمة فيقسمها رسول الله ﷺ خمسة أسهم، فجعل أربعة لمن شهد القتال ويعزل أسهمًا فيضرب يده فى جميع ذلك فما قبض من شىء جعله للكعبة وهو الذى سُمى لله ثمّ يقسّم ما بقى على خمسة أسهم: سهم للنبىّ ﷺ، وسهم لذى القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل، وسهم رسول الله ﷺ خمس الخمس.

وقال ابن عباس: سهم الله وسهم رسوله جميعًا لذوى القربى وليس لله ولا لرسوله منه شىء.

وكانت الغنيمة تُقسّم على خمسة أخماس فأربعة منها لمن قاتل عليها وخمس واحد تقسّم على أربعة، فربع لله والرسول ولذى القربى. فما كان لله والرسول فهو لقرابة النبىّ ﷺ، ولم يأخذ النبىّ من الخمس شيئًا. والربع الثانى لليتامى. والربع الثالث للمساكين، والربع الرابع لابن السبيل.

وأمّا قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فهم رسول الله ﷺ لا يحل لهم الصدقة فجعل لهم خمس الخمس مكان الصدقة واختلفوا فيهم.

فقال مجاهد وعلىّ بن الحسين وعبد الله بن الحسن: هم بنو هاشم.

وقال الشافعى: هم بنو هاشم وبنو عبد المطلب خاصّة. واحتج فى ذلك بما روى الزهرى عن سعيد بن جبير بن مطعم قال: لما قسم رسول الله ﷺ سهمًا لذوى القربى من خيبر على بنى هاشم والمطلب مشيت أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخوانك بنو هاشم لا تنكر فضلهم مكانك الذى حملك الله منهم أرأيت إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وتركتنا، وإنّما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال ﷺ: «إنّهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام. إنّما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد» ثمّ أمسك رسول الله ﷺ إحدى يديه بالأُخرى.

وقال بعضهم: هم قريش كلّها.

كتب نجدة إلى ابن عباس وسأله عن ذوى القربى فكتب إليه ابن عباس: قد كنا نقول: إنا هم، فأبى ذلك علينا قومنا وقالوا: قريش كلّها ذو قربى.

واختلفوا فى حكم النبىّ ﷺ وسهم ذى القربى بعد رسول الله ﷺ. فكان ابن عباس والحسن يجعلانه فى الخيل والسلاح، والعدّة فى سبيل الله ومعونة الإسلام وأهله.

وروى الأعمش عن إبراهيم. قال: كان أبو بكر رضى الله عنه وعمر يجعلان سهم النبى ﷺ فى الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان لعلىّ رضى الله عنه قول فيه. قال: كان أشدهم فيه.

قال الزهرى: إنّ فاطمة والعباس أتيا أبا بكر الصديق يطلبان ميراثهم من فدك وخيبر. فقال لهم أبو بكر - رضى الله عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركنا صدقة» فانصرفا.

وقال قتادة: كان سهم ذى القربى طعمة لرسول الله ﷺ ما كان حيًا. فلمّا توفى جعل لولى الأمر بعده.

وقال علىّ كرم الله وجهه: يعطى كل إنسان نصيبه من الخمس لا يعطى غيره، ويلى الإمام سهم الله ورسوله.

وقال بعضهم: سهم رسول الله ﷺ مردود بعده فى الخمس. والخمس بعده مقسوم على ثلاثة أسهم: على اليتامى والمساكين وابن السبيل وهو قول جماعة من أهل العراق.

وقال عمرو عن عيينة: صلّى رسول الله ﷺ إلى بعير من المغنم فلمّا فرغ أخذ وبره من جسد البعير فقال: «إنّه لا يحلّ لى من هذا المغنم مثل هذا إلاّ الخمس، والخمس مردود فيكم».

وقال آخرون: الخمس كلّه لقرابة رسول الله ﷺ.

فقال المنهال بن عمرو: سألت عبد الله بن محمد بن علىّ وعلىّ بن الحسين عن الخمس فقالا: هو لنا، فقلت لعلى رضى الله عنه: إن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقال: يتامانا ومساكيننا.

وأمّا اليتامى فهم أطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم، والمساكين أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، وابن السبيل المسافر المنقطع.

وقال ابن عباس: هو الفتى الضعيف الذى ترك المسلمين: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: محمد ﷺ ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: يوم فرق فيه بين الحق والباطل ببدر ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾: جمع المسلمين وجمع المشركين وهو يوم بدر وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة وكان يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِذْ أَنتُم﴾: يا معشر المسلمين ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾: شفير الوادى الأدنى إلى المدينة ﴿وَهُم﴾: يعنى عدوكم من المشركين ﴿بِٱلْعُدْوَةِ

﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾ من الوادى الأقصى من المدينة ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ إلى ساحل البحر كان رسول الله ﷺ بأعلى الوادى والمشركين بأسفله والعير قد انهرم به أبو سفيان على الساحل حتّى قدم مكّة.

وفى العدوة قراءتان: كسر العين وهو قراءة أهل مكّة والبصرة.

وضم العين وهو قراءة الباقين واختيار أبى عبيد وأبى حاتم، وهما لغتان مشهورتان كالكُسوة والكِسوة. والرُّشوة والرِّشوة. وينشد بيت الراعى:

وعينان حمر مآقيهما ... كما نظر العِدوة الجؤذر

بكسر العين. وينشد بيت أوس بن حجر:

وفارس لو تحل الخيل عُدوته ... ولّوا سراعًا وما هموّا بإقبال

بالضم.

والدنيا تأنيث الأدنى، والقصوى تأنيث الأقصى.

وكان المسلمون خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها فالتقوا من غير ميعاد قال الله ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ﴾: لقلّتكم وكثرة عدوكم ﴿وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه ﴿لِّيَهْلِكَ﴾: هذه اللام مكررة على اللام فى قوله ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ويهلك ﴿مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾: أى ليموت مَنْ يموت على بينة ولَها وعبْرةً عاينها وحجّة قامت عليه، وكذلك حياة من يحيا لوعده ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥).

وقال محمد بن إسحاق: ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت معذرته ويؤمن من آمن على مثواك.

وقال قتادة: ليضل من ضل عن بينة ويهتدى من اهتدى على بيّنة.

وقال عطاء: ليهلك من هلك عن بينة عن علم بما دخل فيه من الفجور ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾: عن علم ويقين بلا إله إلاّ الله. وفى (حى) قولان، قرأ أهل المدينة: (حيى) بيائين مثل خشيى على الإيمان، وقرأ الباقون (حىّ) بياء واحدة مشددة على الإدغام، لأنّه فى الكتاب بياء واحدة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾: يا محمد يعنى المشركين ﴿فِى مَنَامِكَ﴾: أى فى نومك، وقيل: فى موضع نومك يعنى عينك ﴿قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾: لجبنتم ﴿وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ﴾: اختلفتم ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾: وذلك أن الله تعالى أراهم إياه فى منامه قليلا فأخبر ﷺ بذلك، فكان تثبيتًا لهم ونعمة من الله عليهم شجعهم بها على عدوهم فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ قال ابن عباس: سلم الله أمرهم حين أظهرهم على عدوهم ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ

﴿إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ قال مقاتل: ذلك أن النبيّ ﷺ رأى فى المنام أن العدو قليل قبل لقاء العدو فأخبر النبيّ ﷺ أصحابه بما رأى. فقالوا: رؤيا النبيّ حق، القوم قليل، فلما التقوا ببدر قلل الله المشركين فى أعين المؤمنين وأصدق رؤيا النبيّ ﷺ.

قال عبد الله بن مسعود: لقد قُللوا فى أعيننا يوم بدر حتّى قلت لرجل إلى جنبى: نراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا رجلاً فقلنا كم كنتم؟ قال: ألفًا. ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾.

قال السدى: قال أُناس من المشركين: إن العير قد انصرفت فارجعوا. فقال أبو جهل: الآن إذًا ينحدر لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتّى تستأصلوهم ولا تقتلوهم بالسلاح خذوهم أخذًا كى لا يعبد الله بعد اليوم، إنّما محمد وأصحابه أكلة جزور فاربطوهم بالجبال.

كقوله من القدرة على نفسه.

قال الكلبى: استقلّ المؤمنون المشركين والمشركون المؤمنين، البحترى: بعضهم على بعض. ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾: كائنًا فى علمه، نصر الإسلام وأهله وذل الشرك وأهله.

وقال محمد بن إسحاق: ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً بالانتقام من أعدائه والإنعام على أوليائه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ
مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ
أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ
أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ﴾ : أى جماعة كافرة ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ لقتالهم ولا تنهزموا ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ : أى ادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وقال قتادة: أمر الله بذكره أثقل ما يكون عند الضراب بالسيوف ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ : تنجحون بالنصر والظفر ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ : ولا تختلفوا ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ : أى تخسروا وتضعفوا.

وقال الحسن: (فتفشلوا) بكسر الشين ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ قال مجاهد: نصركم وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أُحد.

وقال السدى: جماعتكم وحدتكم، وقال مقاتل: حياتكم، وقال عطاء: جَلَدكم.

وقال يمان: غَلَبَتكم، وقال النضر بن شميل: قوتكم، وقال الأخفش: دولتكم، وقال ابن زيد: هو ريح النصر لم يكن نصر قط إلاّ بريح يبعثه الله فى وجوه العدو، فإذا كان كذلك لم يكن لهم قوام، ومنه قول النبى ﷺ: «نصرت بالصّبا وأهلكت عاد بالدّبور».

يقال للرجل إذا أقبلت الدنيا عليه بما يهواه: الريح اليوم لفلان.

قال عبيد بن الأبرص:

كما حميناك يوم النعف من شطب ... والفضل للقوم من ريح ومن عدد

وقال الشاعر:

يا صاحبى ألا لا حى بالوادى ... إلا عبيد وأم بين أذواد

أتنتظران قليلاً ريث غفلتهم ... أو تعدوان فإن الريح للعادى

أنشدنى أبو القاسم المذكور قال: أنشدنى أبو نصر بن منصور الكرجى الكاتب:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكلّ خافقة سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدرى السكون متى يكون

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرٗا﴾ فخرا وأشَراً ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ : معطوف على قوله: ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ومعناه ينظرون ويرون، إذ لا يعطف مستقبل على ماضى، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ : وهؤلاء أهل مكّة خرجوا يوم بدر ولهم بغىٌ وفخر فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ إن قريشًا أقبلت بفخرها وخيلائها ليحادك ورسولك».

قال ابن عباس: لمّا رأى أبو سفيان أنّه أحرز عيره أرسل إلى قريش أنّكم خرجتم لتمنعوا عليكم فقد نجاها الله فارجعوا فوافى الركب الذى فيه أبو سفيان ليأمروا قريشًا بالرجعة إلى مكّة فقال لهم: انصرفوا، فقال أبو جهل: والله لا ننصرف حتّى نرد بدراً. وكان بدر موسمًا من

مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام. فنقيم بها ثلاثًا وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمور ونعزف علينا القيان وتسمع بها العرب. فلا يزالون يهابوننا أبدًا فوافوها فسُقوا كئوس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان.

ونهى الله عباده المؤمنين بأن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاصهم النيّة والخشية فى نصرة دينه ومؤازرة نبيه ﷺ.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: وكانت الزينة لهم على ما قاله ابن عباس وابن إسحاق والسدى والكلبى وغيرهم: إن قريشًا لمّا أجمعت المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر بن عبد مناف بن كنانة من الحرب التى بينها وبين بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب، فكان ذلك أن يثبتهم، فجاء إبليس فى جند من الشياطين معه رايته فتبدّى فى صورة سراقة بن مالك بن جشعم الشاعر الكنانى: وكان من أشراف كنانة.

قال الشاعر:

يا ظالمى أنّى تروم ظلامتى والله من كل الحوادث خالى

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾: أى التقى الجمعان ورأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنّه لا طاقة له بهم ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾. قال الضحاك: ولّى مدبرًا. قال النضر بن شميل: رجع القهقرى على قفاه هاربًا، وقال قطرب وأبان بن ثعلبة: رجع من حيث جاء.

قال الشاعر:

نكصتم على أعقابكم يوم جئتمُ وتزجون أنفال الخميس العرمرم

وقال عبد الله بن رواحة: فلمّا رأيتم رسول الله نكصتم على أعقابكم هاربين.

قال الكلبى: لما التقوا كان إبليس فى صف المشركين على صورة سراقة بن كنانة آخذًا بيد الحارث بن هشام، فنكص على عقبيه وقال له الحارث: يا سراقة أين؟ أتخذلنا على هذه الحالة؟ فقال له: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ فقال: والله ما نرى إلا جواسيس يثرب. فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

قال الحارث: فهلاّ كان هذا أمس، فدفع فى صدر الحارث فانطلق وانهزم الناس، فلمّا قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال بلغنى أنكم تقولون أنى هزمت الناس، فوالله ما شعرت حتى بلغنى هزيمتكم، فقالوا أما أتيتنا فى يوم كذا فحلف لهم، فلمّا تابوا علموا أن ذلك كان الشيطان.

وقال الحسن فى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ فأتى إبليس جبرائيل معتجرًا بردة يمشى بين

يدى النبى ﷺ وفى يده اللجام يقود الفرس ما ركب.

سمعت أبا القاسم الحبيبى سمعت أبا زكريا العنبرى، سمعت أبا عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجى يقول أفخر بيت قيل فى الإسلام قولة بغيض الأنصارى يوم بدر:

وببئر بدر إذ نردّ وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد

وقال قتادة وابن إسحاق. قال إبليس: إنى أرى ما لا ترون وصدق الله فى عدوّه، وقال: إنى أخاف الله، وكذب عدوّ الله، والله ما به مخافة الله ولكن علم أنّه لا قوة له ولا منعة فأيّدهم وأسلمهم، وذلك عادة عدو الله لمن أطاعه، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرّأ منهم.

قال عطاء إنى أخاف الله أن يهلكنى فيمن هلك، وقال الكلبى: خاف أن يأخذه جبرئيل ويعرّفهم حاله فلا يطيعوه من بعد، وقال معناه: إنى أخاف الله، أى أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه على ثقة من أمره.

قال الأستاذ الإمام أبو إسحاق، رأيت فى بعض التفاسير: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ عليكم ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾. قال بعضهم هذا حكاية عن إبليس، وقال آخرون: انقطع الكلام عند قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ قال الله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

إبراهيم بن أبى عبلة عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال: «ما رئى الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدجر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة، وما ذاك إلا لمّا رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر»، وذلك أنه رأى جبرائيل وهو يزع الملائكة».

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: شك ونفاق ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾: يعنى المؤمنين هؤلاء قوم بمكة مستضعفين حبسهم آباؤهم وأقرباؤهم من الهجرة، فلمّا خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم كرهًا، فلمّا نظروا إلى حالة المسلمين ارتابوا وارتدّوا وقالوا: غر هؤلاء دينهم فقتلوا جميعًا منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان والحارث بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب، وعلى بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج والوليد بن عتبة وعمرو بن أمية، فلما قُتلوا مع المشركين ضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ تعاين يا محمد ﴿إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أى يقبضون أرواحهم ببدر ﴿يَضۡرِبُونَ﴾: حال أى ضاربين ﴿وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾: قال سعيد بن جبير، ومجاهد: يريد استاههم ولكن الله تعالى كريم يكنى.

وقال مُرّة الهمذانى وابن جريج: وجوههم ما أقبل عنهم، وأدبارهم ما أدبر عنهم، وتقديره: يضربون أجسادهم كلها، وقال ابن عباس: كانوا إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم، وقال الحسن: قال رجل: يا رسول الله رأيت بظهرانى رجل مثل الشراك، قال: ذلك ضرب الملائكة، وقال الحسين بن الفضل: ضرب الوجه عقوبة كفرهم، وضرب الأدبار عقوبة معاصيهم.

﴿وَذُوقُواْ﴾: فيه إضمار، أى ويقولون لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: فى الآخرة، ورأيت فى بعض التفاسير: كان مع الملائكة مقامع من حديد كلما ضربوا التهب النار فى الجراحات فذلك قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، ومعنى قوله ذوقوا: قاسوا واحتملوا: قال الشاعر:

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر   من الغيظ فى أكبادنا والتحوب

ويجوز ذوقوا بمعنى موضع الابتلاء والاختبار يقول العرب اركب هذا الفرس فذقه، وانظر فلانًا وذق ما عنده. قال الشماخ فى وصف قوس:

فذاق وأعطاه من اللين جانبًا   كفى ولها أن يغرق السهم حاجز

وأصله من الذوق بالفم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ﴾: كسبت وعملت ﴿أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: أخذهم من غير جزم، وفى محل «أنّ» وجهان من الإعراب: أحدهما النصب عطفًا على قوله ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ تقديره: وأن الله، والآخر: الرفع عطفًا على قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ معناه: وذلك أن الله.

❖ ❖ ❖

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ

إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝﴾

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: قال ابن عباس: كفعل آل فرعون، وقال الضحاك: كصنيعهم، وقال مجاهد، وعطاء: كسنّتهم، وقال يمان: كمثلهم يعني أن أهل بدر فعلوا كفعل آل فرعون من الكفر والذنوب، ففعل الله بهم كما فعل بآل فرعون من الهلاك والعذاب، وقال الكسائي: كما أن آل فرعون جحدوا كما جحدتم وكفروا كما كفرتم. قال الأخفش، والمؤرخ، وأبو عبيدة: كعادة آل فرعون.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾: فعاقبهم الله ﴿بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

قال الكلبي: يعني أهل مكة، أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، وبعث إليهم محمداً (عليه السلام) فغيّروا نعم الله، وتغييرها أن كفروا بها وتركوا شكرها، وقال السدي: نعمة الله محمد ﷺ أنعم به على قريش فكذبوه وكفروا به فنقله إلى الأنصار.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: من كفار الأمم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: بعضًا بالرجفة وبعضًا بالخسف وبعضًا بالمسخ وبعضًا بالحصى وبعضًا بالماء، فكذلك أهلكنا كفار مكة بالسيف والذل ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ الآية ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾.

سمعت أبا القاسم بن حبيب، سمعت أبا بكر عبدش يقول: من ههنا صلة الذين عاهدتهم، وسمعته يقول سمعت المنهل بن محمد بن محمد بن الأشعث يقول: دخلت بين لأن المعنى: الذين أخذت منهم العهد، وقيل: عاهدت منهم أي معهم ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾: وهم بنو قريظة، نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال النبي ﷺ وأصحابه، ثم قال: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالوا إلى الكفار على رسول الله يوم الخندق، وكتب كعب بن الأشرف إلى مكة يوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾: لا يخافون الله في نقض العهد.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: ترينّهم وتجدنّهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ قال ابن عباس: فنكّل بهم من ورائهم، وقال قتادة: عظ بهم مَنْ سواهم من الناس، وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم مَنْ

خلفهم، وقال ابن زيد: أخفهم بهم.

وقيل: فرِّق جمع كل ناقض مما بلغ من هؤلاء، وقال عطاء: أثخن فيهم القتل حتى يخافك غيرهم من أهل مكة وأهل اليمن، وقال ابن كيسان: اقتلهم فلا يهرب عنك مَن بعدهم.

وقال القتيبي: سمِّع بهم، وأنشد:

أُطوّف في الأباطح كل يوم مخافة أن يشرد بي حكيمُ

وأصل التشريد: التطريد والتفريق والتبديد، وقرأ ابن مسعود (وشرّذ) بالذال معجم وهو واحد قال قطرب التشريذ بالذال التنكيل، وبالدال للتفريق من خلفهم أي من ورائهم، وقيل من يأتي خلفهم، وقرأ الأعمش من (خلفهم) بكسر الميم والفاء تقديره: فشرّد بهم من خلفهم من عمل قبل عملهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: يعتبرون العهد فلا ينقضون العهد.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾: تعلمنّ يا محمد ﴿مِن قَوْمٍ﴾: معاهدين لك ﴿خِيَانَةً﴾: نكث عهد ونقض عقد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر والخيانة كما ظهر من قريظة والنضير ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾: فاطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾: وهذا من ألحان القرآن، فناجزهم الحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك فسخت العهد بينك وبينهم حتى تصير أنت وهم على سواء من العلم بأنك محارب، فيأخذوا للحرب أهبتها وتبرءوا من الغدر، وقال الوليد بن مسلم: على سواء أي على مهل وذلك قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ (التوبة: ٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۝ وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: قرأ أبو جعفر، وابن عامر بالياء على معنى لا يحسبن الذين كفروا أنهم أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ﴾: قرأ العامة بالكسر على الابتداء، وقرأ أهل الشام وفارس بالفتح ويكون لا صلة، تقديره: ولا تحسبن الذين كفروا أن سبقوا أنّهم يعجزون أي يفوتون.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: أي من الآلات يكون قوة له عليهم من الخيل والسلاح والكراع. صالح بن كيسان عن رجل عن عقبة بن مسافر الجهني أن النبي ﷺ قرأ على المنبر، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، فقال: ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، وروى ضمرة بن ربيعة عن رجاء بن أبي سلمة فقال: لقي رجل مجاهداً بمكة ومع مجاهد جوالق فقال مجاهد هذا من القوة، ومجاهد يتجهز للغزو، وقال عكرمة القوة الحصون.

﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾: الإناث ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾: تخوفون، ابن عباس: تخزون، وقرأ يعقوب:

ترهبون بتشديد الهاء وهما لغتان: أرهبته ورهّبته ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ : قال مجاهد: بنو قريظة. السدّى: أهل فارس: ابن زيد: المنافقون لا تعلمونهم لأنهم منكم يقولون: لا إله إلا الله، ويغزون معكم، وقال بعضهم: هم كفار الجن، وقال بعضهم: هم كل عدو من المسلمين غير الذى أمر النبى ﷺ أن يشرد بهم.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ : يدّخر ويوفّر لكم أجره ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ : أى فمل إليها وصالحهم، قالوا: وكانت هذه قبل (براءة) ثم مسخت بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة: ٥)، وقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٢٩) الآية، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يغدروا ويمكروا بك، قال مجاهد: يعنى قريظة ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ : كافيك الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: قال السدى: يعنى الأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: جمع بين قلوبهم. وهم الأوس والخزرج. على دينه بعد حرب سنين، فصيرهم جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداءً ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

روى ابن عفّان عن عمير بن إسحاق، قال: كنّا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الألفة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾.

. . . . [١] أبى المغيرة عن سعيد بن جبير، قال: أسلم مع النبى ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وستّ نسوة، ثم أسلم عمر (رضى الله عنه) فنزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾: قال أكثر المفسرين: محل من نصب عطفًا على الكاف فى قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾، ومعنى الآية: وحسب من اتبعك، وقال بعضهم رفع عطفًا على اسم الله وتقديره: حسبك الله ومتّبعوك ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: حثّهم ﴿عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ﴾ رجالاً ﴿صَـٰبِرُونَ﴾ محتسبون ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ من عدوهم ويقهروهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾: صابرة محتسبة تثبت عند اللقاء وقتال العدو ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾: من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير احتساب، ولا طلب ثواب، فهم لا يثبتون إذا صدقتموهم القتال خشية أن يُقتلوا، وصورة الآية خبر ومعناه أمر.

وكان هذا يوم بدر قَرَنَ على الرجل من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقلت على المؤمنين وضجّوا فخفف الله الكريم عنهم وأنزل ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: أى فى الواحد عن قتال عشرة والمائة عن قتال الألف، وقرأ أبو جعفر ضعفًا بفتح الضاد، وقرأ بعضهم: ضعفاء بالمد على جمع ضعيف مثل شركاء.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: . . . . [١] وإذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم، وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم القتال وجاز لهم أن . . . . [١] عنهم.

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾: روى الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: لما كان يوم بدر جىء بالأسرى، قال رسول الله ﷺ: ما تقولون فى هؤلاء؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم فاستعن بهم، لعلّ الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكن لنا قوة على الكفار.

وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فاضرب أعناقهم، ومكّن عليًا من عقيل يضرب عنقه، ومكّنى من فلان. نسيب لعمر. أضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم نارًا، فقال العباس، قطعتك رحمك، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم. ثم دخل فقال أُناس: يأخذ بقول أبى بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله يلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين، وأن الله يشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (إبراهيم:٣٦)، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٨)، ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح:٢٦)، ومثلك كمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (يونس:٨٨) الآية.

ثم قال رسول الله ﷺ: أنتم اليوم عالة فلا يفلتنّ أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق، قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن البيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، قال: فما رأيتنى فى يوم أخوف أن يقع علىّ الحجارة من السماء منى ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن البيضاء».

قال: فلمّا كان من الغد جئت رسول الله ﷺ وإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء ما بكيت، فقال رسول الله ﷺ: أبكى للذى عرض على أصحابك فى أخذهم الفداء، ولقد عُرض علىّ عذابكم، ودنا من هذه الشجرة شجرة، قريبة من نبى الله فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ بالتاء بصرى الباقون بالياء، أسرى: جمع أسير مثل قتيل وقتلى ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أى يبالغ فى قتل المشركين وأسرهم وقهرهم، أثخن فلان فى هذا الأمر أى بالغ، وأثخنته معرفة بمعنى قلته معرفة.

قال قتادة هذا يوم بدر، فاداهم رسول الله بأربعة آلاف بأربعة آلاف، ولعمرى ما كان أثخن رسول الله ﷺ يومئذ، وكان أول قتال قاتل المشركين.

قال ابن عباس كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلمّا كثروا واشتد سلطانهم، أنزل الله تعالى بعد هذا فى الأُسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ (محمد:٤) فجعل الله نبيه والمؤمنين فى أمر الأُسارى بالخيار إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استعبدوهم وإن شاءوا فادوهم وإن شاءوا رفقوا بهم.

﴿تُرِيدُونَ﴾: أيها المؤمنون ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾: بأخذكم الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾: ثواب ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾: بقهركم المشركين ونصركم دين الله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا
طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ
ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن
يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ
ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ : الآية ، قال ابن عباس كانت الغنائم قبل أن يُبعث النبى ﷺ حرام على الأنبياء ، والأُمم كلهم كانوا إذا أصابوا مغنمًا جعلوه للنيران وحرّم عليه أن يأخذوا منه قليلاً أو كثيرًا ، وكان الله عزّ وجلّ كتب فى أم الكتاب أن الغنائم والأسارى حلال لمحمد وأُمته ، فلمّا كان يوم بدر أسرع المؤمنون فى الغنائم ، فأنزل الله تعالى : ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر فى اللوح المحفوظ بأن الله تعالى أحل لكم الغنيمة .

وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وابن زيد : لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذّب أحدًا شهد بدرًا مع النبى ﷺ وقال : لولا كتاب سبق أن يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ، وقال ابن جريج : لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم ما يتقون ، وأنه لا يأخذ قومًا فعلوا شيئًا بجهالة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ : لنالكم وأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ : من الغنيمة والفداء قبل أن يؤمروا به ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

روى محمد بن سيرين عن عبيدة السلمانى قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه فى أسارى بدر : «إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم ، واستشهد منكم بعدّتهم» ، وكانت الأسارى

سبعين. فقالوا: بل نأخذ الفداء ونتمتع به ونقوى على عدونا ويستشهد منا بعدتهم، قال عبيدة: طلبوا الخيرتين كليهما فقتل منهم يوم أحد سبعون، قال ابن إسحاق وابن زيد: لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر إلاّ أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) جعل لا يلقى أسيراً إلا ضرب عنقه، وقال لرسول الله: ما لنا والغنائم! نحن قوم نجاهد فى دين الله حتى يُعبد الله، وأشار على رسول الله بقتل الأسرى، وسعد بن معاذ قال: يا رسول الله كان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال، فقال رسول الله ﷺ: لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ فقال الله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: همام بن منبه قال: هذا ما حدّثنا أبو هريرة عن محمد قال: قال ﷺ: «لم تحل الغنائم لمن كان قبلنا» ذلك أن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيّبها لنا.

عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أعُطيت خمسًا لم يُعطهنّ نبى قبلى من الأنبياء: جُعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً ولم يكن نبى من الأنبياء يصلى حتى بلغ محرابه وأُعطيت الرعب مسيرة شهر يكون بينى وبين المشركين شهر فيقذف الله الرعب فى قلوبهم وكان النبى يبعث إلى خاصة قومه، وبعثت إلى الجن والإنس، وكان الأنبياء يعزلون الخمس فتجىء النار فتأكله، وأمرت أن أقاسمها فى فقراء أمتى ولم يبقَ نبى إلا قد أُعطى سؤله وأُخّرت شفاعتى لأمتى».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾: نزلت فى العباس بن عبد المطلب وكان أسيراً يومئذ، وكان العباس أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر فبلغته التوبة يوم بدر، وكان خرج بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا قبل ذلك وبقيت العشرون أوقية مع العباس فأخذت منه فى الحرب، فكلم النبى ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى، وقال: أما شىء خرجت تستعين به علينا فلا أتركه لك، وكلّفه فداء بنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث فقال العباس: يا محمد تركتنى أتكفف قريشًا ما بقيت فقال رسول الله ﷺ: «فأين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل أوّل خروجك من مكة، فقلت لها: إنى لا أدرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فإن حدث بى حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله والفضل وقثم يعنى بنيه» فقال له العباس: وما يدريك؟

قال: «أخبرنى ربى» فقال العباس: فأنا أشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلا الله فذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء.

وقرأ أبو محمد وأبو جعفر: من الأُسارى وهما لغتان ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرا﴾: أى إيمانًا ﴿يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾: من الفداء ﴿ويغفر لكم﴾: ذنوبكم، قال العباس: فأبدلنى الله مكانها عشرين عبدًا كلهم يضرب بمال كثير، فأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين الأُوقية، وأعطانى زمزم، وما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربى، وقال قتادة: ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفًا، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ ساكنًا ولا حرم سائلا حتى فرّقه، فأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ، فكان العباس يقول: هذا خير مما أُخذ منا، وأرجو المغفرة.

﴿وإن يريدوا﴾: يعنى الأسرى ﴿خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم ۝ إن الذين ءامنوا وهاجروا﴾: قومهم وعشيرتهم ودورهم يعنى المهاجرين ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين ءاووا﴾: رسول الله ﷺ والمهاجرين رضى الله عنهم، أى أسكنوهم منازلهم ﴿ونصروا﴾: على أعدائهم، وهم الأنصار ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾: دون أقربائهم من الكفار، وقال ابن عباس: هذا فى الميراث، كانوا يتوارثون بالهجرة، وجعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوى الأرحام، وكان الذى آمن ولم يهاجر لا يرث لأنه لم يهاجر، ولم ينصر، وكانوا يعملون بذلك، حتى أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾: فنسخت هذا وصار الميراث لذوى الأرحام المؤمنين ولا يتوارث أهل ملّتين.

﴿والذين ءامنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء﴾: يعنى الميراث ﴿حتى يهاجروا﴾: وقال يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى بكسر الواو، والباقون بالفتح وهما واحد، وقال الكسائى: الولاية بالنصب: الفتح، والولاية بالكسر: الإمارة.

﴿وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر﴾: لأنهم مسلمون ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ عهد ﴿والله بما تعملون بصير ۝ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾: فى العون والنصرة.

قال ابن عباس: نزلت فى مواريث مشركى أهل العهد وقال السدى: قالوا نورث ذوى أرحامنا من المشركين فنزلت هذه الآية، وقال ابن زيد: كان المهاجر والمؤمن الذى لم يهاجر لا يتوارثان: وإن كانا أخوين مؤمنَين، وذلك لأن هذا الدين بهذا البلد كان قليلاً، حتى كان يوم الفتح وانقطعت الهجرة توارثوا بالأرحام حيثما كانوا، وقال النبى ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح إنّما هى الشهادة».

وقال قتادة: كان الرجل ينزل بين المسلمين والمشركين فيقول إنْ ظهر هؤلاء كنت معهم، وإنْ ظهر هؤلاء كنت معهم فأبى الله عليهم ذلك، وأنزل فيه ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾

فلا تراءى نار مسلم ونار مشرك إلا صاحب جزية مقراً بالخراج .

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ : قال عبد الرحمن بن زيد : إلاّ تتركوهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون ، وقال ابن عباس : إلاّ تأخذوه فى الميراث ما أمرتكم به ، وقال ابن جريج : إلاّ تعاونوا وتناصروا ، وقال ابن إسحاق : جعل الله سبحانه المهاجرين والأنصار أهل ولايته فى الدين دون سواهم ، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ، ثم قال : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ ، هو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن .

﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ قال ابن كيسان حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل المال فى دين الله ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ : الذى عنده وهو اللوح المحفوظ ، وقيل : كتاب الله فى قسمته التى قسمها وبيّنها فى القرآن فى سورة النساء .

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقال قتادة : كان الأعرابى لا يرث المهاجر فأنزل الله هذه الآية ، وقال ابن الزبير : كان الرجل يعاقد الرجل ويقول : ترثنى وأرثك فنزلت هذه الآية .

❖ ❖ ❖

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مدنية، وهى عشرة آلاف وأربعمائة وثمانون حرفًا
وأربعة آلاف وثمان وتسعون كلمة، ومائة وتسع وعشرون آية

هشام بن عامر عن الشعبى عن مسروق عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّه ما نزل علىّ القرآن إلا آية آية وحرفًا حرفًا خلا سورة براءة، وقل هو الله أحد، فإنّهما أُنزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة كل يقول: يا محمد استوص بنسبة الله خيرًا».

يزيد الرقاشى عن ابن عباس. قال: قلت لعثمان بن عفان رضى الله عنه: ما حملكم على أن (عمدتم) إلى الأنفال، وهى من المثانى، وإلى براءة وهى من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموهما فى السبع الطوال؟.

قال عثمان رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فلا أنزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يُذكر فيها كذا وكذا، وينزل عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يُذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال مما نزلت بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزلت، وكان قصتها شبيهة بقصتها (فظننت أنها منها)، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما فى السبع الطوال.

وسمعت أبا القاسم الحبيبى، سمعت أبا عبد الله محمد بن نافع السجزى بهراة يقول: سمعت أبا يزيد حاتم بن محبوب الشامى، سمعت عبد الجبار بن العلاء العطار يقول: سُئل سفيان بن عيينة: لِمَ لَمْ يكن فى صدر براءة: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت فى المنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين.

❖ ❖ ❖

﴿۞ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ

خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

﴿بَرَآءَةٌ﴾ رفع بخبر ابتداء مضمر أى: هذه الآيات براءة، وقيل: رفع بخبر معرَّف الصفة على التقدير تقديره يعنى ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ براءة بنقض العهد وفسخ العقد، وهى مصدر على فَعالة كالشناءة والدناءة.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى الذين عاهدهم رسول الله ﷺ، كان هو المتولى على العقود وأصحابه كلّهم بذلك راضون، فكأنهم عقدوا وعاهدوا ﴿فَسِيحُوا۟﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب أى قل لهم: سيحوا أى سيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين من أحد من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ يقال: ساح فى الأرض يسيح سياحة وسيوحًا وسياحًا ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أى غير فائتين ولا سابقين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أى مذلّهم ومورثهم العار فى الدنيا وفى الآخرة.

واختلف العلماء فى كيفية هذا التأجيل وفى هؤلاء الذين برئ الله منهم ورسوله، إليكم من العهود التى كانت بينهم وبين رسول الله من المشركين.

فقال محمد بن إسحاق وغيره من العلماء: هم صنفان من المشركين: أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأُمهل تمام أربعة أشهر، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقصر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه ثم (. . . .)[1] بحرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين، يُقتل حيث ما أُدرك، ويؤسر إلى أن يتوب وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر، وانتهاؤه إلى عشر من ربيع الآخر.

وأما من لم يكن له عهد فإنّما أجله انسلاخ الأشهر الحرم وذلك خمسون يومًا، وقال الزهرى: هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأن هذه الآية نزلت فى شوال، وقال

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الكلبى: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر، فأتمّ له الأربعة الأشهر ومن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهذا الذى أمر أن يتم له عهده، وقال: فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم، وقال مقاتل: نزلت فى ثلاثة أحياء من العرب: خزاعة وبنى مذحج وبنى خزيمة كان النبى ﷺ عاهدهم بالحديبية سنتين فجعل الله عز وجل أجلهم أربعة أشهر، ولم يعاهد النبى ﷺ بعد هذه الآية أحدًا من الناس.

وقال الحسن: بعث الله محمدًا ﷺ وأمره أن يدعو إلى التوحيد والطاعة، وفرض عليه الشرائع، وأمر بقتال من قاتله من المشركين، فقال: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠) وكان لا يقاتل إلاّ مَن قاتله، وكان كافًا عن أهل العهد الذين كانوا يعاهدونه الثلاثة والأربعة الأشهر حتى ينظروا فى أمرهم، فإما أن يسلموا وإما أن يؤذنوا بالحرب، ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر على أن يسلموا أو يؤذنوا بالحرب، ولم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر، لا مَن كان له عهد قبل البراءة، ولا مَن لم يكن له عهد، وكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر، وأحلّ دماء المشركين كلهم من أهل العهد وغيرهم بعد انقضاء الأجل.

قال عبد الرحمن بن زيد: نقض كل عهد كان أكثر من أربعة أشهر فردّه إلى الأربعة، وقال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت فى أهل مكة، وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشًا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، فدخلت خزاعة فى عهد محمد ﷺ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش، وكان مع ذا عهود من رسول الله ﷺ ومن قبائل من العرب خصائص، فعدت بنو بكر على خزاعة (فقتلوا رجلاً) منها ورفدتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهودهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال:

يا رب إنى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كُنتَ لنا أبًا وكنا ولدا ... ثمّت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرًا (عتدا) ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا ... أبيض مثل الشمس ينمو صعدا
إن سيم خسفًا وجهه تربدا ... فى فيلق فى البحر تجرى مزبدا
إن قريشًا لموافوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحدا ... وهم أذلّ وأقلّ عددا

هم (وجدونا) بالحطيم هُجّدا وقتلونا رُكّعًا وسُجّدا

فقال رسول الله ﷺ: «أنصرف إن لم أنصركم» فخرج وتجهز إلى مكة، وفتح الله مكة وهى سنة ثمان من الهجرة، ثم لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلف من تخلف من المنافقين وأرجفوا الأراجيف جعل المشركون ينقضون عهودهم، وأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم ليأذنوا بالحرب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ (الأنفال: ٥٨) الآية.

فلمّا كانت سنة تسع أراد رسول الله ﷺ الحج فقال: إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة ولم (...)[١] أن حج حتى لا يكون ذلك، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه تلك السنة أميرًا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه بأربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم، فلمّا سار دعا رسول الله ﷺ عليًا فقال: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة فأذّن بذلك فى الناس إذا اجتمعوا».

فخرج على رضى الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ الجدعاء حتى أدرك أبا بكر بذى الحليفة فأخذها منه فرجع أبو بكر رضى الله عنه إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله بأبى أنت وأمى أنزل بشأنى شىء؟

قال: «لا ولكن لا يبلّغ عنى غيرى أو رجل منى، أما ترضى يا أبا بكر أنّك كنت معى فى الغار وأنّك صاحبى على الحوض». قال: بلى يا رسول الله، وذلك أن العرب جرت عادتها فى عقد عهودها ونقضها أن يتولى ذلك عن القبيلة رجل منهم فبعث النبى ﷺ عليًا لئلاّ، يقولوا: هذا خلاف ما نعرفه فى بعض العهود.

قال جابر: كنت مع على رضى الله عنه حتى أتبعه رسول الله ﷺ أبا بكر، فلمّا كنا (بالعرج ثوب) بصلاة الصبح، فلمّا استوى أبو بكر ليكبّر سمع الرغاء فوقف وقال: هذه رغاء ناقة رسول الله ﷺ الجدعاء، لقد بدا لرسول الله فى الحج، فإذا عليها علىّ، فقال أبو بكر أمير أم مأمور؟

قال: بل أرسلنى رسول الله ﷺ ببراءة أقرأها على الناس، فكان أبو بكر أميرًا على الحج وعلى ليؤذن ببراءة، فقدما مكة، فلمّا كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم وأقام للناس بالحج، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على مناسكهم التى كانوا عليها فى الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب رضى الله عنه فأذّن فى الناس بالحج بالذى أمره به، وقرأ عليهم سورة براءة.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال الشعبى : حدّثنى محمد بن أبى هريرة عن أبيه قال : كنت مع على رضى الله عنه حين بعثه النبى ﷺ ينادى ، وكان إذا (ضحل) صوته ناديت قلت : بأىّ شىء كنتم تنادون؟ قال : بأربع لا يطف بالكعبة عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فعهده إلى مدّته ، ولا تدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، قالوا : فقال المشركون : نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب ، وطفقوا يقولون : اللهم إنا قد منعنا أن نبرّك ، فلمّا كان سنة عشر حج النبى ﷺ حجة الوداع ، ونقل إلى المدينة ، فمكث بقية ذى الحجة والمحرم وصفر وليالى من شهر ربيع الأول حتى لحق بالله عز وجل .

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عطف على قوله براءة ، ومعناه : إعلام ، ومنه الأذان بالصلاة ، يقال : أذنته فأذن أى أعلمته فعلم ، وأصله من الأُذن أى أوقعته فى أُذنه ، وقال عطية العوفى (. . .)[1] (الأذان) ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ الآية ، وذلك ثمان وعشرون آية .

﴿وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ اختلفوا فيه فقال أبو جحيفة وعطاء وطاووس ومجاهد : يوم عرفة ، وهى رواية عمرو عن ابن عباس ، يدل عليه حديث أبى الصّهباء البكرى ، قال : سألت على بن أبى طالب عن يوم الحج الأكبر فقال : إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبى قحافة يعلم الناس الحج وبعثنى معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة ، فخطب الناس يوم عرفة فلمّا قضى خطبته التفت إلىّ وقال : هلمّ يا على فأدّ رسالة رسول الله ، فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ، ثم صدرنا حتى أتينا منى ، فرميت الجمرة ونحرت البدنة وحلقت رأسى ، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا حضروا كلهم خطبة أبى بكر رضى الله عنه يوم عرفة فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم ، فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة .

وروى شهاب بن عباد القصرى عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : هذا يوم عرفة يوم الحج الأكبر فلا يصومنّه أحد . قال : فحججت بعد أبى فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا : سعيد بن المسيب ، فأتيته فقلت : أخبرنى عن صوم يوم عرفة فقال : أخبرك عمّن هو أفضل منى مائة ضعف عن عمر وابن عمر ، كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر .

وقال معقل بن داود : سمعت ابن الزبير يقول يوم عرفة : هذا يوم الحج الأكبر فلا يصمْهُ أحد ، وقال غالب بن عبيد الله : سألت عطاء عن يوم الحج الأكبر ، فقال : يوم عرفة فاقض

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

منها قبل طلوع الفجر.

وقال قيس بن مخرمة: خطب رسول الله ﷺ عشية عرفة ثم قال: أما بعد ـ وكان لا يخطب إلاّ قال أما بعد ـ فإنّ هذا يوم الحج الأكبر، وقال نافع بن جبير، وقيس بن عباد، وعبد الله ابن شراد، والشعبى والنخعى والسدى، وابن زيد هو يوم النحر وهو إحدى الروايتين عن على رضى الله عنه.

قال يحيى بن الجواد: خرج على رضى الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبّانة فجاءه رجل فأخذ بلجام دابته وسأله عن الحج الأكبر، فقال: هو يومك هذا فخلّ سبيلها.

وقال عياش العامرى: سئل عبد الله بن أبى أوفى عن يوم الحج الأكبر فقال: سبحان الله هو يوم النحر يوم يهراق فيه الدماء ويحلق فيه الشعر ويحل فيه الحرام.

وروى الأعمش عن عبد الله بن سنان. قال خطبنا المغيرة بن شعبة على ناقة له يوم الأضحى فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر.

وروى شعبة بن أبى بشر، قال: اختصم على بن عبد الله بن عباس ورجل من آل شيبة فى يوم الحج الأكبر، فقال على: هو يوم النحر، وقال الذى من آل شيبة: هو يوم عرفة فأرسلوا إلى سعيد بن جبير فسألوه فقال: هذا يوم النحر ألا ترى أنه من فاته يوم عرفة لم يفته الحج، وإذا فاته يوم النحر قد فاته الحج، يدل عليه ما روى الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن عن أبى هريرة، قال: بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى نفر بعثهم يوم النحر يؤذّنون بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأردف رسول الله ﷺ عليًا يأمره أن يؤذّن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذّن معنا على كرم الله وجهه أهل منى يوم النحر ببراءة.

صالح عن ابن شهاب أن حميد بن عبد الرحمن أخبره أن أبا بكر بعث فى الحجة التى أمره عليها ﷺ قبل حجة الوداع فى رهط يؤذّنون فى الناس: لا يحجّنّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فكان حميد يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر من أصل حديث أبى هريرة.

ابن عيينة عن ابن جريج عن مجاهد قال: يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها ومجامع المشركين بعكاظ وذى المجارة ومخشة، ويوم نادى فيه على بما نادى، وكان سفيان الثورى يقول: يوم الحج الأكبر أيامه كلّها مثل يوم صفين ويوم الجمل ويوم بُعَاث والزمان، لأن كل حرب من هذه الحروب كانت أيامًا كثيرة.

واختلفوا أيضًا فى السبب الذى لأجله قيل: هذا اليوم يوم الحج الأكبر. فقال الحسن:

يسمّى الحج الأكبر من أجل أنه اجتمع فيها حج المسلمين والمشركين، وقال عبد الله بن الحارث ابن نوفل: يوم الحج الأكبر كان لحجة الوداع، اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين، ولم يجتمع قبله ولا بعده.

وروى منصور وحماد عن مجاهد قال: يقال الحج الأكبر القران، والحج الأصغر إفراد الحج، وقال الزهرى والشعبى وعطاء: الحج الأكبر: الحج، والحج الأصغر: العمرة، وقيل لها (. . . .)[1] عملها (. . . .)[1] من الحج.

قوله عز وجل: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ قرأ عيسى (إنّ الله) بالكسر على الابتداء لأن الأذان قول: ﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ قراءة العامة بالرفع على الابتداء وخبره مضمر تقديره: ورسوله أيضًا برئ، وقرأ ابن أبى إسحاق وعيسى ويعقوب (ورسوله) بالنصب عطفًا على اسم الله، ولم يقل بريئان لأنه يرجع إلى كل واحد منهما كقول الشاعر:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإنى وقيار بها لغريب

وروى عن الحسن ورسوله بالخفض على القسم، وبلغنى أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ هذه القراءة. فقال: إن كان أمرًا من رسوله فإنى برىء منه أيضًا، فأخذ الرجل (بتلْبَته) وجرّه إلى عمر بن الخطاب، فقص الأعرابى قصته وقوله أيضًا، فعند ذلك أمر عمر بتعليم العَربية.

﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ رجعتم من كفركم وأخلصتم بالتوحيد ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الإيمان (إلى الإصرار) على الكفر ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ﴾ وأخبر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾.

وهو استثناء من قوله: براءة من الله ورسوله إلى الناس إلا من الذين عاهدتم ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من عهدكم الذى عاهدتموهم عليه ﴿وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ﴾ يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من عدوكم بأنفسهم ولا بسلاح ولا بخيل ولا برجال ولا مال.

وقرأ عطاء بن يسار (ثم لم ينقضوكم) بالضاد المعجمة من نقض العهد وقرأ العامة بالصاد.

قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ فأوفوا بعهدهم ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أجلهم الذى عاهدتموهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهم بنو ضمرة وكنانة وكان بقى لهم من مدتهم تسعة أشهر فأمر بإتمامها لهم ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ﴾ انتهى ومضى وقتها، يقال: منه سلخت أشهر كذا نسلخه سلخًا وسلوخًا بمعنى خرجنا. قال الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله ... كفى قاتلاً سلخى الشهور وإهلالى

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وفيه قيل: شاة مسلوخة المنزوعة من جلدها، وحية سالخ إذا أخرجت من جلدها ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ وهى أربعة، ثلاثة فرد، وواحد زوجى وهى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب.

وقال مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمر بن شعيب: هى شهور العهد، وقيل لها الحرم لأن الله حرّم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم إلا سبيل الخير ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ فى الحلّ والحرم، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ فأسروهم ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ وامنعوهم دخول مكة والتصرف فى بلاد الإسلام ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أى على كل طريق ومرقب، يقال: رصدت فلانًا أرصده رصدًا إذا رقبته. قال عامر بن الطفيل:

ولقد علمت وما أخالك ناسيًا ... أن المنيّة للفتى بالمرصد

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ يقول: دعوهم فى أمصارهم، ودعوهم يدخلوا مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (. . . .)(1) فى حكم هذه الآية.

قال الحسين بن الفضل: فنسخت هذه الآية كل آية فى القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء، وقال الضحاك والسدّى وعطاء: قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ (محمد: ٤)، وقال قتادة: بل هى ناسخة لقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

والصحيح أنّ حكم هذه الآية ثابت، وأنها غير منسوخة إحداهما بصاحبتها لأنّ المنّ، والقتل، والفداء لم يزل من حكم رسول الله ﷺ فهم من أول حربهم وهو يوم بدر، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ والأخذ هو الأسر، والأسر إنّما يكون للقتل أو الفداء، والدليل عليه أيضًا قول عطاء قال: أتى النبى ﷺ بأسير يقال له أبو أُمامة وهو سيد اليمامة، فقال له النبى ﷺ: «يا أبا أُمامة أيّها أحب إليك: أعتقك أو أفاديك أو أقتلك أو تسلم؟». فقال: إن تعتق تعتق عظيمًا، وإن تفاد تفاد عظيمًا، وإنْ تقتل تقتل عظيمًا، وأما أن أسلم فلا والله لا أسلم أبدًا.

قال فإنى أعتقتك. فقال: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسوله.

وكانت مادّة ميرة مكة من قبل اليمامة فقال لأهل مكة: والذى لا إله إلا هو لا تأتيكم ميرة أبدًا، ولا حبّة من قبل اليمامة حتى تؤمنوا بالله ورسوله فأضرّ إلى أهل مكة فكتبوا إلى النبى ﷺ أيّهم له حزب يشكون ذلك إليه، فكتب إلى أبى أُمامة: لا تقطع عنهم ميرة كانت من قبلك، ففعل ذلك أبو أمامة.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ معناه وإن استجارك أحد، لأن حروف الجر لا تلى غير الفعل يقول الشاعر:

❖ عاود هراة وإن معمورها خربا ❖

أى وإن خرب معمورها. وقال آخر:

أتجزع إن نفس أتاها حمامها فهلاّ التى عن بين جنبيك تدفع

ومعنى الآية: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم استجارك أى استعاذ بك واستأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأعذه وآمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ فتقيم عليه حجة الله، وتبين له دين الله عز وجل، فإن أسلم فقد نال عز الإسلام وخير الدنيا والآخرة وصار رجلاً من المسلمين، وإن أبى أن يسلم ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ دار قومه فإن قاتلك بعد ذلك فقدرت عليه فاقتله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ دين الله وتوحيده.

قال الحسن: وهذه الآية محكمة إلى يوم القيامة وليست بمنسوخة. قال سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتى محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلامه أو يأتيه لحاجته، فقال على لا لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ الآية.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ على معنى التعجب، ومعناه جحد أى لا يكون لهم عهد كما تقول فى الكلام هل أنت إلا واحد منا، أى أنت، وكيف يستيقن مثلك؟ أى لا يستيقن ومنه:

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ واختلفوا فيه فقال ابن عياش: هم قريش، وقال قتادة وابن زيد: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية، قال الله عز وجل: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ﴾ على العهد ﴿فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ قالوا: فلم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بنى بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح بأربعة أشهر يختارون من أمرهم إما أن يسلموا، وإما أن يلحقوا بأى بلاد شاءوا، فأسلموا قبل الأربعة أشهر.

قال السدى وابن إسحاق والكلبى: هم من قبائل بكر بن خزيمة وهو مدلج وبنو ضمرة وبنو الدئل، وهم الذين كانوا قد دخلوا فى عهد قريش، وعقدهم يوم الحديبية إلى المدة التى كانت بين رسول الله وبين قريش، فلم يكن نقضها إلا قريش وبنو الدئل من بنى بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض من بنى بكر إلى مدته، وهذا القول أقرب إلى الصواب، لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة، فكيف يأتى شىء قد مضى.

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ وإنما هم الذين قال الله عز وجل إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئًا كما نقصكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحدًا كما ظاهرت (من) قريش بنى بكر على خزاعة (سلفًا) رسول الله ﷺ.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ مردود على الآية الأولى تقديره: كيف يكون لهؤلاء عهودٌ وهم إن يظهروا عليكم يظفروا فيقتلوكم ﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾ قال ابن عباس: لا يحفظوا، وقال الأخفش: كيف لا يقتلونهم، وقال الضحاك: لا ينتظروا، وقال قطرب: لا يراعوا ﴿فِيكُمْ إِلًّا﴾ قال ابن عباس والضحاك: قرابة، وقال يمان: رحمًا، دليله قول حسان:

لعمرك إنّ إلّك من قريش … كإلّ السقب من رأل النعام

وقال قتادة: الإلّ: الحلف، دليله قول أوس بن حجر:

لولا بنو مالك والإلّ من فيه … ومالك فهم اللألاء والشرف

وقال السدّى وابن زيد: هو العهد، ولكنه لما اختلف اللفظان كرّر وإن كان معناهما واحدًا كقول الشاعر:

❖ وألفى قولها كذبًا ومينا ❖

وهو إحدى الروايتين عن مجاهد يدلّ عليه قول الشاعر:

وجدناهم كاذبًا إلّهم … وذو الإلّ والعهد لا يكذب

وقيل: هو اليمين والميثاق، وقال أبو مجلز ومجاهد فى سائر الروايات: الإلّ هو الله عز

وجل، وكان عبيد بن عميرة يقرأ جبرإلّ بالتشديد، يعنى عبد الله، وفى الخبر أنّ ناسًا قدموا على أبى بكر الصديق رضى الله عنه من قوم المسلمين فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرأوا، فقال أبو بكر: إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ.

والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة: لا يرقبون فى مؤمن إيلاً، بالياء يعنى بالله عز وجل مثل جبرئيل وميكائيل ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهدًا وجمعها ذم، وقيل: تذممًا ممن لا عهد له ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعطونكم ويرونكم بألسنتهم خلاف ما فى قلوبهم مثل قول المنافقين ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناكثون ناقضون كافرون.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وذلك أنّهم نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ لمّا أطعمهم أبو سفيان بن حرب، وقال مجاهد: أطعم أبو سفيان حلفًا وترك حلف محمد ﷺ ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ فمنعوا الناس عن دينه وعن الدخول فيه، قال عطاء كان أبو سفيان يعطى الناقة والطعام ليصدّ الناس بذلك عن متابعة النبى ﷺ، وقال ابن عباس: وذلك أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقوّوهم على حرب رسول الله ﷺ وعداوته.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ﴾ بئس ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يقول: لا تبقوا عليهم أيّها المؤمنون كما لا يبقون عليكم لو ظهروا عليكم.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ بنقض العهد ﴿فَإِن تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ يعنى فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس: حرّمت هذه الآية دماء أهل القبلة.

وقال ابن زيد: افترض الصلاة والزكاة جميعًا ولم يفرق بينهما، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر فكان ما أفقهه، وقال ابن مسعود: أُمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزكّ لا صلاة له.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ

وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟﴾ نقضوا يقال منه: نكث فلان قوى حبله إذا نقضه ﴿أَيْمَٰنَهُم﴾ عهودهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ عقدهم ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ ثلبوه وعابوه وذلك أنهم قالوا: ليس دين محمد بشىء ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قرأ أهل الكوفة (أأمّة الكفر) بهمزتين على التحقيق لأن أصلها أممة مثل: مثال وأمثلة وعماد وأعمدة، ثم أُدغمت الميم التى هى عن أفعلة فى الميم الثانية ونُقلت حركتها إلى الهمزة الساكنة التى هى فاء الفعل فصار أئمة، فإنّما كتبت الهمزة الثانية ياءً لما فيها من الكسرة وهى لغة تميم، وقرأ الباقون: أيمة (بهمزة واحدة) من دون الثانية طلبًا للخفّة، أئمّة الكفر: رءوس المشركين وقادتهم من أهل مكة.

قال ابن عباس: نزلت فى أبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبى جهل، وسائر رؤساء قريش يومئذ الذين نقضوا العهد، وهم الذين همّوا بإخراج النبى ﷺ وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم، وقال حذيفة بن اليمان: ما قُوتل أهل هذه الآية ولم يأت أهلها بعد ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ عهودهم، جمع يمين أى وفاء باليمين. قال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد وأنشد:

وإن حَلَفَتْ لا ينقض النّأى عهدَها فليس لمخضـــوب البنان يمين

الحسين وعطاء وابن عامر: لا إيمان لهم بكسر الهمزة، ولها وجهان: أحدهما لا تصديق لهم، يدل عليه تأويل عطية العوفى قال: لا دين لهم ولا ذمّة، فلا تؤمنوا بهم فاقتلوهم، حيث وجدتموهم فيكون مصدراً من الإيمان الذى هو ضد الإخافة قال الله عز وجل: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ (قريش: ٤)، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ لكى ينتهوا عن الطعن فى دينكم والمظاهرة عليكم، وقيل: عن الكفر.

ثم قال حاضًا المسلمين على جهاد المشركين ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ نقضوا

عهودهم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ من مكة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾ بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ يعني يوم بدر، وقال أكثر المفسرين: أراد بدءوكم بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ أتخافونهم فتتركون قتالهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ تخافوه فى ترككم قتالهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقتلهم الله ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ﴾ يذلّهم بالأسر والقهر ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ﴾ ويظهركم ﴿عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ﴾ ويبرئ قلوب ﴿قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ بما كانوا ينالونه من الأذى والمكروه منهم. قال مجاهد والسدى: أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ كربها ووجدها بمعونة قريش نكداً عليهم.

ثم قال مستأنفًا ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ يهديه للإسلام كما فعل بأبى سفيان، وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وقرأ الأعرج وعيسى وابن أبى إسحاق: ويتوب على النصب على الصرف.

قوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾ أظننتم، وإنما دخل الميم لأنه من الاستفهام المعترض بين الكلام فأُدخلت فيه أم ليفرّق بينه وبين الاستفهام والمبتدأ، واختلفوا فى المخاطبين بهذه الآية: قال الضحاك عن ابن عباس قال: يعنى بها قومًا من المنافقين كانوا يتوسلون إلى رسول الله ﷺ بالخروج معه للجهاد دفاعًا وتعذيراً والنفاق فى قلوبهم.

وقال سائر المفسرين: الخطاب للمؤمنين حين شقّ على بعضهم القتال وكرهوه فأنزل الله تعالى ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ ولا تُؤمروا بالجهاد ولا تُمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب، والمطيع من العاصى ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾ فى تقدير الله، والألف صلة ﴿جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾ بطانة وأولياء يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم، وقال قتادة وليجة: خيانة وقال الضحّاك: خديعة، وقال ابن الأنبارى: الوليجة قال: خيانة، والولجاء الدخلاء، وقال الليثى: خليطًا ورداً.

وقال عطاء: أولياء، وقال الحَسن: هى الكفر والنفاق، وقال أبو عبيدة: كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة، وأصله من الولوج ومنه سمى (الكناس) الذى يلج فيه الوحش تولجًا. قال الشاعر:

❖ من زامنها الكناس تولّجًا ❖

فوليجة الرجل من يختصه بدخلة منها دون الناس يقال: هو وليجتى وهم وليجتى للواحد وللجميع. وأنشد أبان بن تغلب:

فبئس الوليجة للهاربين والمعتدين وأهل الريب

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قراءة العامة بالتاء متعلق بالله بقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ وروى الحسن عن أبي عمرو بالياء ومثله روى عن يعقوب أيضًا.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: لمّا أُسر أبي يوم بدر أقبل عليه المسلمون فعيّروه بكفره بالله عز وجل وقطيعة الرحم وأغلظ عليٌّ له القول، فقال العباس: إنكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا: قال له علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم، إنا لنعمر المسجد ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ونفك العاني، فأنزل الله تعالى رادًا على العباس ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يقول: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا، قرأت العامة بفتح الياء وضم الميم من عمر يعمر، وقرأ ابن السميقع يُعمر بضم الياء وكسر الميم أي يعينوا على العمارة، أو يجعلوه عامرًا، ويريد: إن المساجد إنما تعمر بعبادة الله وحده، فمن كان بالله كافرًا فليس من شأنه أن يعمرها، وقال الحسن: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام.

واختلف القراء في قوله: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وابن أبي رباح وحميد بن كثير وأبو عمرو: مسجد الله بغير ألف أرادوا المسجد الحرام، واختاره أبو حاتم لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ (التوبة: ٢٨)، وقرأ الباقون (مساجد) بالألف على الجمع، واختاره أبو عبيد لأنّه أعم القراءتين.

قال الحسن: فإنّما قال: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ لأنّه قبلة المساجد كلها وإمامها، وقال أبو حاتم: إنّ عمران بن جدير قال لعكرمة: إنما يُقرأ: مساجد الله وإنّما هو مسجد واحد؟ فقال عكرمة: إن الصفا والمروة من شعائر الله، وقال الضحاك ومجاهد: حدّث العرب بالواحد إلى الجمع والجمع إلى الواحد، ألا ترى الرجل على البرذون يقول ركبت البراذين؟ ويقال للرجل: إنّه لكثير الدر والذمار، وتقول العرب: عليه أخلاق نعل وأسمال ثوب. وأنشدني أبو الجراح العقيلي:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق وشرذم يضحك مني التواق

يعني: خَلق.

وقوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ أراد وهم شاهدون، فلمّا طرحت (وهم) نصبت، وقال الحسن: يقولون: نحن كفار (نشهد) عليهم بكفرهم، وقال السدّي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هي أن النصراني يُسأل: ما أنت فيقول: نصراني، واليهودي فيقول: يهودي والصابئي، فيقول: صابئي ويقال للمشرك: ما دينك؟ فيقول: مشرك.

وقال حمزة عن الضحاك عن ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم

لأصنامهم وإقرارهم بأنّها مخلوقة، وذلك أنّ كبار قريش نصبوا أصنامهم خارجًا من بيت الله الحرام عند القواعد، وكانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لا نطوف وعلينا ثياب قد عملنا فيها بالمعاصى، وكانوا يصفقون ويصفرون ويقولون:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألمّا

(. . . .)[1] سجدوا لأصنامهم فلم يزيدوا بذلك من الله إلاّ بعدًا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿أُولَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾. ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ قرأ العامة بالألف، وقرأ الجحدرى: مسجد الله أراد المسجد الحرام ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ من الله واجب ﴿فَعَسَىٰٓ أُولَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ روى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ﴾ (أى أهل سقاية).

عن معاوية بن سلام عن زيد بن أبى سلام عن النعمان بن بشير، قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالى أن لا أعمل عملاً بعد سقى الحاج، قال الآخر: لا أبالى أن لا أعمل عملاً بعد أن أعمر المسجد الحرام، وقال الآخر: الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت دخلت واستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه فقال: فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال العباس بن عبد المطلب : لئن كنتم سبقتمونا بالهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد ونسقي الحاج ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، يعني : أن ذلك كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك ، عطية العوفي قال : إن المشركين قالوا : إعمار بيت الله والقيام على السقاية ممن آمن وكانوا يفتخرون بالحرم من أجل أنهم أهله وعماره ، فأنزل الله هذه الآية وأخبرهم أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا تنفعهم عند الله مع الشرك ، وأن الإيمان بالله والجهاد مع نبيّه خير مما هم عليه .

الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي : نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة ، وذلك أنهم افتخروا فقال طلحة : إنّ البيت بيدي مفاتيحه ولو أشاء بتُّ فيه ، وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بتُّ في المسجد ، وقال علي رضي الله عنه : لا أدري ما تقولون لقد صلّيت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال ابن سيرين ومرّة الهمداني عن ابن عباس أن عليًا قال للعباس : ألا تهاجر وتلحق بالنبي؟ فقال : ألست في أفضل من الهجرة؟ ألست أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية .

وعندما أُمروا بالهجرة قال العباس : أنا أسقي الحاج ، وقال طلحة أخو بني عبد الدار : وأنا صاحب الكعبة فلا نهاجر .

والسقاية مصدر كالرعاية والحماية ، قال الضحّاك : السقاية بضم السين وهي لغة .

وفي معنى الآية وجهان أحدهما أن يجعل الكلام مختصرًا تقديره : أجعلتم سقاية وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله وجهاد من جاهد في سبيل الله ، وهذا كما تقول : السخاء حاتم ، والشعر زهير وقال الشاعر :

لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللحى ولكنما الفتيان كل فتى ندى

والوجه الآخر أن يجعل العمارة والسقاية بمعنى العامر والساقي تقديره : أجعلتم ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام كقوله : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ، يدلّ عليه قراءة عبد الله بن الزبير وأبي وجزة السعدي : (أجعلتم سُقّاء الحاج وعُمّار المسجد الحرام) على جمع الساقي والعامر ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال العباس : ما أراني إلا تارك سقايتنا ، فقال رسول الله ﷺ : أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرًا . وقال الحسن : وكانت السقاية نبيذ زبيب .

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الذين افتخروا بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الناجون من النار ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها منزلة فى قصة العباس وعلى قبل الهجرة، قال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما أمر الله عزّ وجل المؤمنين بالهجرة وكانت قبل فتح مكة، من آمن ولم يكتمل إيمانه إلاّ بمجانبة الآباء والأقرباء إنْ كانوا كفاراً، فقال المسلمون: يا نبى الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى الدين قطعنا آباءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وخُربت دارنا، فأنزل الله هذه الآية.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، قال: لمّا أمر رسول الله ﷺ الناس بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لابنه وأخيه وامرأته وقرابته: إنّا قد أُمرنا بالهجرة إلى المدينة فاخرجوا معنا إليها فمنهم من يعجبه ذلك ويسارع إليه، ومنهم من أبى على صاحبه (وتعلق به) فيقول الرجل لهم: والله لئن ضمنى وإياكم دار الهجرة فلا أنفعكم بشىء أبداً ولا أعطيكم ولا أُنفق عليكم، ومنهم من تتعلق به زوجته وعياله وولده ويقولون: أنشدك الله أن تضيعنا فيرق (قلبه) فيجلس ويدع الهجرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مقاتل: نزلت فى التسعة الذين ارتدّوا عن الإسلام فنهى الله عز وجل عن ولايتهم فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ بطانة وأصدقاء فتفشون إليهم أسراركم، ومن المقام بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام.

﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ فهم فى صورة الإسلام وأهله و (فى) المكث معهم على الهجرة والجهاد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ العاصون الواضعون (. . . .)[1] فى غير موضعها.

❖ ❖ ❖

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمتخلّفين عن الهجرة والجهاد ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ وقرأ أبو رجاء ويعقوب (وعشيراتكم) بالألف على الجمع واختلف فيه عن عاصم ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها وقال قتادة: اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وهو ضد النفاق وأصله البقاء. قال الشاعر:

كسدن من الفقر فى قومهن وقد زادهن مقـامى كسودا

﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ (تعجبكم) قال السدى: يعنى القصور والمنازل ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال عطاء: بقضائه، وقال مجاهد ومقاتل: يعنى فتح مكة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ لا يُرشد ولا يوفّق ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين من طاعته إلى معصيته.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أى مشاهد وأماكن حرب تستوطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ يعنى وفى يوم حنين وهو واد بين مكة والطائف.

وقال عروة بن الزبير: هو واد إلى جنب ذى المجاز والحرى، ولأنه اسم لمذكر فقد يترك إجزاؤه يراد به اسم البلدة التى هو بها، ومنه قول الشاعر:

نصروا نبيهم وشدّوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

وكانت قصة حنين على ما ذكره المفسّرون بروايات كثيرة لفّقتها ونسّقتها لتكون أقرب إلى الأفهام وأحسن (. . . .)(١) أن رسول الله ﷺ افتتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان ثم خرج متوجهًا إلى حنين لقتال هوازن وثقيف فى اثنى عشر ألفًا، عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من الطائف.

قال قتادة، وقال مقاتل: كانوا أحد عشر ألفًا وخمسمائة، وقال الكلبى: كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا (. . . .)(١) وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف النضرى، وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفى،

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فلما التقى الجمعان قال رسول الله ﷺ: لن نُغلب اليوم من قلّة، ويقال: بل قال ذلك رجل من المسلمين يقال له سلمة بن سلامة (وسمع) رسول الله ﷺ كلامه، ووكلوا إلى كلمة الرجل.

قال: فاقتتلوا قتالاً شديداً. فانهزم المشركون وخلوا من الذرارى، ثم نادوا: يا حماة السوء اذكروا الفضائح، فتراجعوا وانكشف المسلمون.

وقال قتادة: وذُكر لنا أن الطلقاء (انجفلوا) يومئذ بالناس وسأل رجل البراء بن عازب: أفررتم يوم حنين؟ فقال: كانت هوازن رماة وإنّا لمّا حملنا عليهم وانكشفوا وأقبلنا على الغنائم، فاستقبلوا بالسهام فانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ، وقال الكلبى: كان حول رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس عنهم.

وقال الآخرون: لم يبق يومئذ مع النبى ﷺ غير العباس بن عبد المطلب وعلى وأيمن بن أم أيمن، وقُتل يومئذ بين يدى رسول الله ﷺ، وطفق رسول الله يركض بغلته نحو الكفار لا يألو، وكانت بغلة شهباء أهداها له فروة الجدامى.

أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا العمرى، حدّثنا أحمد بن محمد، حدّثنا الحمامى، حدّثنا شريك عن أبى إسحاق، قيل للبراء: كان النبى ﷺ فيمن ولى دبره يوم حنين قال: والذى لا إله إلاّ هو ما ولّى رسول الله دبره قط، لقد رأيناه وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالركاب والعباس آخذ لجام الدابة، وهو يقول: أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب، قالوا: قال رسول الله ﷺ للعباس: ناد يا معشر المهاجرين ويا معشر الأنصار وكان العباس رجلاً صويتًا.

ويروى من شدة صوت العباس أنه أغير يومًا على مكة فنادى: واصباحاه فأسقطت كل حامل سمعت صوته جنينها.

فجعل ينادى: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، وعطف المسلمون حين سمعوا صوته عطفة البقرة على أولادها فقالوا: يا لبيك يا لبيك يا لبيك وجاءوا عنقًا واحدًا فالتفت رسول الله ﷺ إلى عصابة من الأنصار فقال: هل معكم غيركم؟ فقالوا: يا نبى الله لو عمدت إلى برك الغماد من ذى يمن لكنّا معك، ثم أقبل المشركون فالتقوا هم والمسلمون، وتنادى الأنصار: يا معشر الأنصار أم قصرت الدعوة على بنى الحارث والخزرج، فتنادوا فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلة كالمتطاول إلى قتالهم فقال: هذا حين حمى الوطيس فأخذ بيده كفا من (الحبّ) فرماهم وقال: شاهت الوجوه، ثم قال: انهزموا ورب الكعبة، انهزموا ورب الكعبة.

قال: فوالله ما زال أمرهم مدبراً وجدّهم كليلاً حتى هزمهم الله تعالى.

قال يعلى بن عطاء: فحدثنى أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: ما بقى منا أحد يومئذ إلا وامتلأت عيناه من ذلك التراب، قال يزيد بن عامر وكان فى المشركين يومئذ: فانصرفنا ما بقى منّا أحد، وكان أعيننا عميت فأنجز الله وعده وأنزل نصره وجنده فقهر المشركين ونصر المسلمين، وقال سعيد بن جبير: أمدَّ الله (المسلمين) بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، وقال الحسن: كانوا ثمانية آلاف من الملائكة.

قال عطاء: كانوا ستة عشر ألفًا، وقال سعيد بن المسيب: حدّثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقفوا لنا حلب شاة، فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء يعنى رسول الله ﷺ فتلقّانا رجال بيض الوجوه، حسان الوجوه فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا، فرجعنا وركبوا أكتافنا فكانوا إياها، يعنى الملائكة.

وفى الخبر أن رجلاً من بنى نضر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق، والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا نراكم فيها (. . . .)[1]، وما كان قتلنا إلا بأيديهم فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ فقال: تلك الملائكة.

قال الزهرى: وبلغنى أن شيبة بن عثمان قال: استدبرت رسول الله ﷺ يوم حنين وأنا أريد أن أقتله بطلحة بن عثمان، وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلا يوم أُحد، فأطلع الله تعالى رسوله على ما فى نفسى فالتفت إلىَّ وضرب فى صدرى وقال: أعيذك بالله يا شيبة، فارتعدت فرائصى فنظرت إليه وهو أحب إلىَّ من سمعى ومن بصرى فقلت: أشهد أنك رسول الله، وأن الله أطلعك على ما فى نفسى.

فلمّا هزم الله المشركين ولّوا مدبرين وانطلقوا حتى أتوا (أوطاس) وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله إلى هناك رجلاً من الأشعريين يقال له: أبو عامر وأمّره على الناس، فسار إليهم فاقتتلوا بها، ثم إن الله تعالى هزمهم، وثبتوا قبال المشركين وهزم أميرهم مالك بن عوف النضرى، فأتى الطائف فتحصّن بها وأخذ أهله وماله فيمن أخذ، وقتل أمير المسلمين ابن عامر، ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف من فوره ذلك فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلمّا دخل ذو القعدة وهو شهر حرام لا يحلّ فيه القتال انصرف عنهم فأتى الجعرانة فأحرم فيه بعمرة، فقسم بها النبى المال وغنائم حنين وأوطاس وتألّف أُناسًا، كأبى سفيان بن حرب والحارث بن

(١) بياض بالأصل المخطوط.

هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم فجعل يعطى الرجل منهم الخمسين والمائة من الإبل، فقالت الأنصار: حنّ الرجل وآثر قومه يا للعجب إنّ أسيافنا تقطر من دمائهم وإن غنائمنا ترد عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وهو فى قبة من أدم فجمعهم فقال لهم: يا معشر الأنصار ما هذا الذى بلغنى عنكم.

فقالوا: هو الذى بلغك، وكانوا لا يكذبون، فقال: ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بى، وكنتم أذلاء فأعزكم الله بى، وكنتم وكنتم، فقال سعيد بن عبد الله: أتأذن لى أتكلم، فقال: تكلم.

قال: أما قولك: كنتم ضلالاً فهداكم الله بى، فكنّا كذلك، وأما قولك: كنتم أذلّة فأعزّكم الله فقد علمت العرب أنه ما كان حى من أحياء العرب أمنع لما وراء ظهورهم منّا. فقال عمر: يا سعيد أتدرى من تُكَلِّم؟ قال: يا عمر أُكلّم رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لو سلكت الأنصار واديًا لسلكتُ وادى الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، الأنصار كرشى وعيبتى فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، ثم قال: يا معشر الأنصار أما ترضون أن ينقلب الناس بالإبل والشاة وتنقلبون برسول الله إلى بيوتكم».

فقالت الأنصار: رضينا بالله ورسوله، والله ما قلنا ذلك إلا ضنًّا بالله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم.

فلما قدم النبى ﷺ المدينة قام خطيبًا فقال: أما إنّ خطيب الأنصار قد قال: كنت طريدًا فآويناك، وكنت خائفًا فأمّنّاك، وكنت مخذولاً فنصرناك، وكنت وكنت، فإنّه قد صدق، فبكت الأنصار، وقالت بل الله ورسوله أعظم علينا منًا.

قال قتادة: وذكر لنا أن ظئر النبى ﷺ التى أرضعته من بنى سعد أتته يوم حنين وسألته سبايا يوم حنين، فقال رسول الله ﷺ: إنى لا أملكهم إنّما لى نصيبى منهم، ولكن ائتنى غدًا فسلينى والناس عندى، فإنى إذا أعطيتك نصيبى أعطاك الناس، فجاءت فى الغد فبسط لها ثوبه فقعدت عليه ثم سألته ذلك فأعطاها نصيبه، فلما رأى الناس ذلك منه أعطوها أنصباءهم.

قال الزهرى: أخبرنى سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبى، وكان رسول الله ﷺ أمر مناديًا ينادى يوم أوطاس: ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولا غير الحبالى حتى يستبرئن بحيضة.

ثم (. . . .)[1] من هوازن أقبلوا مسلمين بعد ذلك فقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وأبرّهم وقد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا، فقال النبي ﷺ: إن عندي من ترون، وخير القول أصدقه، اختاروا إمّا ذراريكم ونساءكم، وإمّا أموالكم، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا، فقام النبي منتصبًا فقال: إن هؤلاء قد جاءوني مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئًا، فأمّا ما أصاب بنو هاشم رددناه إليهم، فمن كان بيده منهم شيء وطابت نفسه أن يردّه عليهم فذلك، ومن لا فليعطنا وليكن قرضًا علينا حتى نصيب شيئًا فنعطيه مكانه ومن لم يرد ففديته خمسون من الإبل.

فلما رأى الناس أن رسول الله ﷺ قد ردّ قالوا يا نبي الله رضينا وسلّمنا، فقال النبي: لا أدري لعلّ منكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إليه فرفعت إلينا العرفاء أن قد رضوا وسلّموا، وردوا جميعًا غير رجل واحد وهو صفوان بن أميّة لأنه وقع على امرأة أصابها فحبلت منه.

فأنزل الله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ حتى قلتم: لن نُغلب اليوم من قلّة ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ كثرتكم ﴿شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها وسعتها وهما المصدر ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بعد الهزيمة ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ يعني الأَمَنة والطمأنينة وهي فعيلة من السكون ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر وسلب الأموال ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام ولا يؤاخذه بما سلف ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده المؤمنين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

❖ ❖ ❖

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ يُرِيدُونَ

أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ قال الضحاك وأبو عبيدة: قذر، وقال ابن الأنبارى: خبيث يقال: رجل نجس وامرأة نجس ورجلان وامرأتان نجس ورجال ونساء نجس بفتح النون والجيم أو نجُس بضم الجيم ورجس فى هذه الأحوال لا يثنّى ولا يجمع لأنّه مصدر، وأما النجس بكسر النون وجزم الجيم فلا يقال إلا إذا قيل معه رجس، فإذا أُفرد قيل: نَجِس بفتح النون وكسر الجيم أو نجُس بضم الجيم.

وقرأ ابن السميقع: (إنما المشركون أنجاس) كقولك أخباث على الجمع، واختلفوا فى معنى النجس والسبب الذى من أجله سمّاهم بذلك، فروى عن ابن عباس: ما المشركون إلا رجس خنزير أو كلب، وهذا قول غير مرضٍ لمعنيين أحدهما أنه روى عنه من وجه غير حميد فلا يصح عنه، والآخر أن هذه نجاسة الحكمٌ لا نجاسة العين؛ لأن أعيانهم لو كانت نجسة كالكلب والخنزير لما طهرهم الإسلام، ولا يستوى فى النهى عن دخول المشركين المسجد الحرام وغيره من المساجد واحتج من قال أعيانهم نجسة بما روى أن عمر بن عبد العزيز كتب أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾.

وكما روى عن الحسن أنه قال: لا تصافحوا المشركين. فمن صافحهم فليتوضّأ، وقال قتادة: سمّاهم نجسًا لأنهم يجنبون ولا يغتسلون، ويحدثون ولا يتوضئون، فمنعوا من دخول المسجد لأن الجنب لا ينبغى أن يدخل المسجد.

وقال الحسين بن الفضل: هذه نجاسة الحكم لا نجاسة العين فسموا نجسًا على الذّم، يدلّ عليها ما روى أن النبى ﷺ لقى حذيفة فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فقال حذيفة: يا رسول الله إنّى جنب، فقال: «إن المؤمن لا ينجس».

﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ قال أهل المعانى: أراد بهذا منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا المسجد الحرام، قال عطاء الحرم كلّه قبلة ومسجد وتلا هذه الآية.

جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: لا يدخل الحرم إلا أهل الجزية أو عبد لرجل من المسلمين، ونساؤهم حل لكم، وقرأ: بعد عامهم هذا يعنى العام الذى حج فيه أبو بكر رضى الله عنه بالناس، ونادى على كرم الله وجهه ببراءة وهو سنة تسع فى الهجرة ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾ الآية.

قال المفسرون: وكان المشركون يجلبون إلى البيت الطعام ويتّجرون ويتبايعون، فلمّا منعوا من دخول الحرم شقّ ذلك على المسلمين، وألقى الشيطان فى قلوبهم الخوف وقال لهم: من أين تأكلون وتعيشون وقد بقى المشركون وانقطعت عنهم العير.

فقال المؤمنون: يا رسول الله قد كنّا نصيب من تجارتهم وبياعاتهم فالآن تنقطع عنّا الأسواق ويملك التجارة، ويذهب ما كنّا نصيب منها من المرافق، فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾.

وقال عمرو بن فايد: معناه وإذا خفتم؛ لأن القوم كانوا قد خافوا، وذلك هو قول القائل: إن كنت أبى فأكرمنى يعنى (إن خفت) عيلة فقرًا وفاقة. يقال عال يعيل عيلة وعيولاً. قال الشاعر:

فلا يدرى الفقير متى غناه ولا يدرى الغنى متى يعيل

وفى مصحف عبد الله: وإن خفتم عايلة أى (حصلة) يعول عليكم أى يشق ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وذلك أنه أنزل عليهم مطرًا مدرارًا فكثر خيرهم حين ذهب المشركون.

وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وطهوا الطعام إلى مكة على ظهور الإبل والدواب، وكفاهم الله عز وجل ما كانوا يتخوّفون.

قال الكلبى: أخصبت (. . . .)[1]، وكفاهم الله ما أهمّهم، وقال الضحاك وقتادة: قسم الله منها ما هو خير لهم وهو الجزية فأغناهم الله وذلك قوله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله ﷺ بحرب الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك.

وقال الكلبى: نزلت فى قريظة والنضير من اليهود وأراد رسول الله ﷺ (. . . .)[1] عز وجل: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أراد الدين الحق فأضاف الاسم إلى الصفة. قال قتادة: الحق هو الله عز وجل، ودينه الإسلام، وقال أبو عبيدة معناه: طاعة أهل الإسلام، وكل من أطاع ملكًا أو ذا سلطان فقد دان له دينًا. قال زهير:

لئن حللت بجو فى بنى أسد فى دين عمرو وحالت بيننا فدك

أى فى طاعة عمرو.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعنى اليهود والنصارى يؤخذ منهم الجزية وألاّ يقاتلوا، ويؤخذ الجزية أيضًا من الصابئين والسامرة، لأن سبيلهم فى أهل الكتاب سبيل أهل البدع فيها، ويؤخذ الجزية أيضًا من المجوس، وقد قيل: إنهم كانوا من أهل الكتاب فرفع كتابهم.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد الوزان، أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين، حدّثنا محمد بن يحيى و (. . . .)[1] قالا: حدّثنا عثمان بن صالح، حدّثنا ابن وهب، أخبرنا يوسف عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وأن عمر أخذها من مجوس السواد وأن عثمان بن عفان أخذها من بربر.

ابن حامد أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين، حدّثنا محمد بن يحيى وأحمد بن يوسف قالا: حدّثنا أبو عاصم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا أدرى كيف أصنع بالمجوس؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنّوا بهم سنة أهل الكتاب».

قال أبو عاصم: مشيت ميلاً وهرولت ميلاً حتى سمعت من جعفر بن محمد، حدّثنا، يعنى هذا الحديث، وإنما منعنا من نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم (وإتيان) الفروج والأطعمة على الخطر، ولا يجوز الإقدام عليها بالشك.

قال الحسن: قاتل رسول الله ﷺ أهل هذه الجزيرة على الإسلام لا يقبل منهم غيره، وكان أفضل الجهاد، وكان بعده جهاد آخر على هذه الطعمة فى شأن أهل الكتاب.

﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ ألاّ يتبعوا ما سواهما بدعة وضلالة، ولا يؤخذ الجزية من الأوثان ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ وهو ما يعطى المعاهد على عهده من الجزية، وهى فعلة من جزى يجزى إذا قضى عليه، والجزية مثل القعدة والجلسة ومعنى الكلام: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم الذى يبذلونه للمسلمين دفعًا عنها.

وأما قدرها: فقال أنس: قسّم النبى على كل محتلم دينارًا، وقسم عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الفقراء من أهل الذمة كل واحد منهم درهمًا، وعلى الأوساط أربعة وعشرين، وعلى أهل الثروة ثمانية وأربعين درهمًا، ولم يجاوز به خمسين درهمًا، وليس شىء موقت ولكن على ما صولحوا عليه.

﴿عَن يَدٍ﴾ أى بالنقل من يده إلى يد من يدفعه إليه، كما يقال كلّمته فمًا لفم.

وقال أبو عبيدة: يقال: أكلّ من (. . . .)[1] من غير طيب نفس منه أعطاه عن يد، وقال القتيبى: يقال: أعطاه عن يد وعن ظهر يد إذا أعطاه مبتدئًا غير مكلف.

وقال ابن عباس: هو أنها يعطونها بأيديهم، يمشون بها كارهين ولا يجيئون بها ركبانًا ولا يرسلون ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أذلاّء مقهورون، قال ابن عباس يتلتلون بها تلتلة وقال عكرمة:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

معنى الصغار هو أن تأخذها وأنت جالس وهو قائم. قال الكلبي: إنه إذا (جاء يعطى) صفع في قفاه، وقيل: إعطاؤه إياها هو الصغار، وقيل: إنّه لا يقبل فيها رسالة ولا وكالة، وقيل: إنه يجرى عليهم أحكام الإسلام وهو الصغَار.

أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا محمد بن جعفر، حدّثنا على بن حرب، حدّثنا السباط، حدّثنا عبد العزيز بن (. . . .)[1] عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاء إلى ابن عباس رجل فقال: الأرض من أرض الخراج يعجز عنها أهلها أفأعمرها وأزرعها وأؤدى خراجها؟ قال: لا، وجاء آخر فقال له ذلك قال: لا وتلا قوله: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾، أيعمد أحدكم إلى الصغار فى عنق أحدهم فينزعه فيجعله فى عنقه؟

وقال كليب بن وائل: قلت لابن عمر: اشتريت أرضًا، قال: الشراء حسن. قال: فإنّي أعطى من كل جريب أرض درهمًا وقفيز طعام؟ قال: ولا تجعل فى عنقك صغارًا.

وروى ميمون بن مهران عن ابن عمر قال: ما يسرّنى أن لى الأرض كلها بجزية خمسة دراهم أقر فيها الصغار على نفسى.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية، روى سعيد بن جبير، وعكرمة عن ابن عباس. قال أتى رسول الله ﷺ سلام بن مسلم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف قالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله. فأنزل الله فى قلوبهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وقرأ ابن محيصن وعاصم والكسائى: عزير بالتنوين، وهو قول أبى عبيد وأبى حاتم.

وقرأ الباقون بغير تنوين، فمن نوّن قال: لأنه اسم خفيف فوجهه أن ينصرف وإن كان أعجميًا مثل نوح ولوط وهود، وقال أبو حاتم والمبرّد: الاختيار التنوين لأنه ليس بمنسوب، والكلام ناقص وفى موضع الخبر وليس بنصب، وإنما جاز التنوين فى النعت إذا كان الاسم يستغنى عن الابن أو ينسب إلى اسم معروف أو لقب غلب عليه، مثل محمد بن عبد الله ويزيد ابن عبد الله، لأن النعت والمنعوت كالشيء الواحد فينوّن فى الخبر ويحذف فى الصفة، وربما أثبتوا التنوين فى الصفة، ويقول الشاعر، أنشده الفرّاء:

وإلاّ تكن مال هناك فإنّه سيأتى ثنائى زيدًا بن مهلهل

وأنشد الكسائى (. . . .)[1] مذهبه. وقال أبو عبيدة: هذا ليس بمنسوب إلى أبيه إنما هو كقولك: زيد ابن الأمير، وزيد بن عبد الله، فعزير يكون بعده خبر.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ومن ترك التنوين قال: لأنه اسم أعجمى ويشبه اسمًا مصغرًا.

وقال الفرّاء: لما كانت النون من عزير ساكنة (وهى نون التنوين) والباء من الابن ساكنة والتقى ساكنان حذف الأول منهما استثقالاً لتحريكه، كما قال:

لتجـــدنى بالأمير برًا وبالقنـاة مـدعًا مكرا

إذا غطيف السلمىّ فرّا

فحذف النون الساكن الذى استقبلها، وقال الزجّاج: يجوز أن يكون الخبر محذوفًا تقديره: عزير ابن الله معبودنا.

قال عبيدة بن عمير: إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازورا وهو الذى قال: إن الله فقير يستقرض.

عطية العوفى عن ابن عباس قال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فإنما قالوا ذلك من أجل أن عزيرًا كان فى أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم ما شاء الله أن يعلموا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التابوت فيهم، فلمّا رأى الله عز وجل أنهم أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء وأذهبوا التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فأرسل الله عزّ وجل عليهم مرضًا فاستطالت بطونهم حتى جعل الرجل يمسّ كبده، حتى نسوا التوراة ونسخت من صدورهم، وفيهم عزير فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعدما نسخت التوراة من صدورهم، وكان عزير قبل من علمائهم فدعا عزير (الله) وابتَهل إليه أن يرد إليه الذى نسخ من صدورهم، فبينما هو يصلى مبتهلاً إلى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه، فعاد إليه الذى كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذّن فى قومه فقال: يا قوم قد آتانى الله التوراة وردّها إلىَّ فعلق يعلّمهم فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا وهو يعلمهم، ثم إن التابوت ترك بعد ذلك، وبعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذى كان عزير يعلّمهم فوجدوه مثله، فقالوا: والله ما أوتى عُزير هذا إلا إنّه ابن الله.

وقال السدّى وابن عباس فى رواية عمار بن عمار: إنما قالت اليهود عزير ابن الله لأنهم ظهرت عليهم العمالقة فقتلوهم وأخذوا التوراة وهرب علماؤهم الذين بقوا ودفنوا كتب التوراة فى الجبال وغيرها، فلحق عزير بالجبال والوحوش، وجعل يتعبّد فى الجبال، ولا يخالَط ولا يُخالط الناس ولا ينزل إلا يوم عيد، وجعل يبكى ويقول: يا رب تركت بنى إسرائيل بغير عالم فجعل يبكى حتى سقطت أشفار عينيه، فنزل مرة إلى العيد فلمّا رجع إذا هو بامرأة قد خلت له عند قبر من تلك القبور تبكى وتقول: يا مطعماه يا كاسياه.

فقال لها عزير: يا هذه اتقى الله واصبرى واحتسبى، أما علمت أنّ الموت سبيل الناس، وقال: ويحك من كان يطعمك ويكسوك قبل هذا الرجل - يعنى زوجها الذى كانت تندبه - قالت: الله، قال: فإن الله حىَ لم يمت، قالت: يا عزير فمن كان يعلّم العلماء قبل بنى إسرائيل؟ قال: الله، قالت: فلم تبكى عليهم، وقد علمت أن الموت حق وأن الله حى لا يموت، فلمّا عرف عزير أنه قد خُصم ولّى مدبراً.

فقالت له: يا عزير إنّى لست بامرأة ولكنى الدنيا، أما إنّه ينبع ماء فى مصلاك عين، وتنبت شجرة فكلْ من ثمرة تلك الشجرة واشرب من ماء تلك العين واغتسل وصلِّ ركعتين فإنه يأتيك شيخ فما أعطاك فخذ منه، فلمّا أصبح نبعت من مصلاّه عين، ونبتت شجرة ففعل ما أمرته به، فجاء شيخ فقال له: افتح، قال: ففتح فاه وألقى فيه شيئًا كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعًا كهيئة القوارير ثلاث مرات، ثم قال له: ادخل هذه العين فامش فيها حتى تبلغ قومك، قال: فدخلها فجعل لا يرفع قدمه إلا زيد فى علمه حتى انتهى إلى قومه، فرجع إليهم وهو من أعلم الناس بالتوراة. فقال: يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة.

قالوا: يا عزير ما كنت كاذبًا، فربط على كل إصبع له قلمًا وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراة على ظهر قلبه، فأحيا لهم التوراة، وأحيا لهم السنّة، فلمّا رجع العلماء استخرجوا كتبهم التى دفنوها من توراة عزير فوجودها مثلها، فقالوا: ما أعطاه الله ذلك إلا لأنه ابنه.

وقال الكلبى: إن بختنصر لما ظهر على بنى إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل من قرأ التوراة كان عزير إذ ذاك غلامًا صغيراً فاستضعفوه، فلم يقبله ولم يدرِ أنه قرأ التوراة، فلمّا توفى مائة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس منهم من يقرأ التوراة، فبعث الله عز وجل عزيراً ليجدد لهم التوراة ويكون آية لهم، فأتاهم عزير وقال: أنا عزير فكذّبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم عزير فاتلُ علينا التوراة، فكتبها وقال: هذه التوراة.

ثم إن رجلاً قال: إن أبى حدّثنى عن جدى أن التوراة جعلت (لنبى) ثم دفنت فى كوم فانطلقوا معه حتى احتفرها وأخرجوا التوراة وعارضوا بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر منه حرفًا ولا آية فعجبوا وقالوا: ابن الله، ما جعل التوراة فى قلب رجل واحد بعدما ذهبت من قلوبنا إلا أنه ابنه، فعند ذلك قالت اليهود: عزير ابن الله.

وأما النصارى (فقيل): إنّهم كانوا على (دين واحد) سنة بعدما رُفع عيسى، يصلّون القبلة ويصومون رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له: يونس قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال لليهود: إن كان الحق مع

عيسى فكفرنا وجحدنا والنار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، إنى أحتال فأضلّهم حتى يدخلوا النار، وكان له فرس يقال له: العقاب يقاتل عليها فعرقت فرسه وأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب.

فقال له النصارى: مَن أنت؟ قال يونس: عدوكم (سمعت) من السماء: ليس لك توبة إلا أن تتنصّر وقد تبت، فأدخلوه الكنيسة ودخل بيتًا سنة لا يخرج منه ليلاً ولا نهارًا حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال (. . . .)[1] إن الله قبل توبتك، فصدّقوه وأحبوه ثم مضى إلى بيت المقدس، واستخلف عليهم نسطور وعلّمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، ثم توجه إلى الروم وعلّمهم اللاهوت والناسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس فتأنّس ولا بجسم فتجسّم ولكنّه ابن الله، وعلّم ذلك رجلاً يقال له: يعقوب.

ثم دعا رجلاً يقال له: ملكًا وقال له: إن الله لم يزل ولا يزال عيسى رضى الله عنه، فلمّا استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحدًا واحدًا، وقال لكل واحد منهم: أنت خليفتى، ولقد رأيت عيسى فى المنام فرضى عنى، وقال لكل واحد منهم: إنى غدًا أذبح نفسى فادع الناس للمذبحة، ثم دخل المذبحة فذبح نفسه، وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى، فلمّا كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى (نحلته) فتبع كل واحد طائفة من الناس واقتتلوا واختلفوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعنى قول النصارى: إن المسيح ابن الله ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يقولون بألسنتهم من غير علم.

قال أهل المعانى: إن الله عز وجل لا يذكر قولاً مقرونًا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان ذلك القول زورًا كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٧)، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (الفتح: ١١)، وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: ٥)، ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ قال ابن عباس: يُشبهون وعنه أيضًا: يحكون، وقال مجاهد: يواطئون.

وقال ذو النون: وفيه لفظان يضاهئون بالهمزة وهى قراءة عاصم، ويضاهون بغير همزة وهى قراءة العامة، يقال: ضاهيته وضاهأته بمعنى واحد ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة والسدى: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقال النصارى: المسيح ابن الله كما قال اليهود: عزير ابن الله، وقال مجاهد: يضاهئون قول المشركين حين قالوا اللات والعزى ومناة

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

بنات الله، وقال الحسن: شبّه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأُمم الكافرة، وقال لمشركى العرب حين حكى عنهم، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وقال القتيبى: يريد أن مَن كان فى عهد النبى ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أوّلوهم.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله، وكل شىء فى القرآن قتل هو لعن، ومثله قال أبان بن تغلب:

قاتلها الله تلحانى وقد علمت أنى لنفسى إفسادى وإصلاحى

وقال ابن جريج: قاتلهم الله وهو بمعنى التعجب ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى يكذبون، ويصرفون عن الحق بعد قيام الدلالة عليه ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ قال الضحاك: علماءهم، وقرأ: رهبان، وأحبار العلماء: واحدهم حَبر وحِبر بكسر الحاء وفتحها والكسر أجود، وكان يونس الجرمى يزعم أنه لم يسمع فيه إلا بكسر الحَاء، ويحتج فيه بقول الناس: هذا محبر يريدون مداد عالم، والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع وأهل الأصفاد فى دينهم، يقال: راهب ورهبان مثل فارس وفرسان، وأصله من الرّهبة وهى الخوف كأنهم يخافون الله ﴿أَرْبَابًا﴾ سادة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يطيعونهم فى معاصى الله.

مصعب بن سعد عن عدى بن حاتم قال: أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب. فقال: يا عدى اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته ثم انتصب وهو يقرأ سورة براءة فقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حتى فرغ منها فقلت له: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرّمون حلال الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه، قال: فقلت: بلى.

قال أبو الأحوص عن عطاء بن أبى البخترى فى قول الله عز وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ قال: أما (لو أمروهم) أن يعبُدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنّهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية.

وقال الربيع: قلت لأبى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل؟ قال: إنهم وجدوا فى كتاب الله عز وجل ما أمروا به ونهوا عنه، فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشىء فما أمرونا بشىء ائتمرنا وما نُهينا عنه فانتهينا، الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

وقال أهل المعانى: معناه اتخذوا أحبارهم ورهبانهم كالأذناب حيث أطاعوهم فى كل شىء، كقوله: قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً أى كالنار، وقال عبد الله بن المبارك:

وهل بدّل الدين إلا الملوك وأحبار ســـوء ورهبانها

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ نزّه نفسه ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ القراءة بالياء وقرأ ابن أبى إسحاق بالتاء ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أى يبطلوا دين الله بألسنتهم، بتكذيبهم إياه وإعراضهم عنه.

وقال الكلبى: يعنى يردون القرآن بألسنتهم تكذيبًا له، وقال ابن عباس: يريد اليهود والنصارى أن يلزموا توحيد الرحمن بالمخلوقين الذين لا تليق بهم الربوبية، وقال الضحاك: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه ولا يعبد الله بالإسلام.

﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أى يُعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذى بعث به رسوله ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وإنما أدخلت إلا لأن فى أبت طرفًا من الجحد، ألا ترى أنّ قولك يثبت أن أفعل ولما فيه من الحذف تقديره: ويأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره، كما قال:

وهل لى أُمّ غيرها إن تركتها أبى الله إلاّ أن أكون لها ابنا

هو الذى يعنى يأبى إلاّ إتمام دينه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعنى محمداً ﷺ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ قال ابن عباس: بالقرآن، وقيل: تبيان فرائضه على خلقه، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ ليعليه وينصره ويظفره ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على سائر الملل كلها ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

واختلف العلماء بمعنى هذه الآية، فقال ابن عباس: الهاء عائدة على الرسول ﷺ يعنى ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء، وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق.

قال أبو هريرة والضحاك: ذلك عند خروج عيسى عليه السلام إذا خرج اتبعه كل دين وتصير الملل كلها واحدة، فلا يبقى أهل دين إلا دخل فى الإسلام أو أدى الجزية إلى المسلمين.

قال السدّى: وذلك عند خروج المهدى لا يبقى أحد إلا دخل فى الإسلام أو أدّى الخراج.

وقال الكلبى: لا يبقى دين إلا ظهر عليه الإسلام وسيكون ذلك، ولم يكن بعد، ولا تقوم الساعة حتى يكون ذلك.

قال المقداد بن الأسود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام إما يعز عزيز وإما يذل ذليل، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهله فيعزّوا، وإما يذلّهم فيدينون له».

عن الأسود أو سويد بن العلاء عن أبى سلمة عن عائشة قالت: قال ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى».

قالت: قلت: يا رسول الله ما كنت أظن أن يكون ذلك بعدما أنزل الله على رسوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾. قال: يكون ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث ريحًا فيقبض كل من كان فى قلبه مثقال ذرة من خير، ثم يبقى من لا خير فيه ويرجع الناس إلى دين آبائهم.

وقال الحسين بن الفضل: معناه: ليظهره على الأديان كلها بالحجج الواضحة والبراهين اللامعة فيكون حجة هذا الدين أقوى، وقال بعضهم: قد فعل الله ذلك ونُجزت هذه العدة لقوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣).

وقال بعضهم: هو أن يظهر الإسلام فى كل موضع كان يجرى على أهلها صَغار فى أى موضع كانوا، لا يؤخذ منهم جزية كما يؤخذ من أهل الذمة.

وقيل: معناه: ليظهره على الأديان كلها التى فى جزيرة العرب فيظهره على دينهم ويغلبهم فى ذلك المكان.

وقيل: هو جريان حكمته عليهم والله أعلم.

❖ ❖ ❖

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ يعنى العلماء والقرّاء من أهل الكتاب ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أى يأخذون الرشوة فى أحكامهم ويحرّفون كتاب الله ويكتبون بأيديهم كتبًا يقولون: هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمنًا قليلاً من سفلتهم، وهى المآكل التى كانوا يصيبونها منهم على تكذيبهم محمد ﷺ ولو آمنوا به لذهبت عنهم تلك المآكل

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس ويمنعونهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ يعنى ويأكلون أيضًا بالباطل الذين يكنزون الذهب والفضة.

سمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا الحسن المظفر بن محمد بن غالب الهمذانى يقول: سمعت إبراهيم بن محمد بن عرفة الأيجى بن نفطويه يقول: سمّى ذهبًا لأنه يذهب فلا يبقى، وسمّيت فضة لأنها تنفض أى تتفرق ولا تبقى، وحسبك الاسمان دلالة على فنائهما، والله أعلم فيها.

واختلف العلماء فى معنى الكنز: فروى نافع عن ابن عمر قال: كل مال آتى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مال لم يؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض.

ومثله قال ابن عباس والضحاك والسدّى، ويدلّ عليه ما روى عن ابن الزبير أنه سمع جابر ابن عبد الله يقول: إذا أخرجت الصدقة من مالك فقد أذهبت شره وليس بكنز.

وقال سعيد بن المسيب: سأل عمر رجلاً عن أرض باعها فقال: أحسن موضع هذا المال؟ فقال: أين أضعه؟ قال: احفر تحت فراش امرأتك. فقال: يا أمير المؤمنين أليس بكنز، قال: ما أدّى زكاته فليس بكنز.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: كل ما زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز، أدّيت منه الزكاة أم لم تؤدِّ، وما دونها نفقة.

وقال عن الوليد بن زيد: كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه إليه فهو كنز.

منصور عن عمر بن مرة عن سالم بن أبى الجعد عن ثوبان قال لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ قال النبى ﷺ: «تبًا للذهب وتبًا للفضة» يقولها ثلاثًا: فشقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقال المهاجرون: فأى المال نتّخذ؟ فقال عمر: فإنّى أسأل النبى ﷺ عن ذلك، قال: فأدركته فقلت: يا رسول الله إن المهاجرين قالوا: أى المال نتّخذ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه».

وأخبرنا عبد الله بن حامد الوزان أخبر طليحة بن عبدان، حدّثنا محمد بن يحيى، حدّثنا محمد بن عبدل، حدّثنا الأعمش عن (المعرور) بن سويد عن أبى ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو فى قبال الكعبة فلمّا رآنى قد أقبلت قال: هم الأخسرون وربّ الكعبة، هم الأخسرون وربّ الكعبة، هم الأخسرون وربّ الكعبة.

قال: فدخلنى غمّ وما أقدر أن أتنفس قلت: هذا شيء حدث فىّ، قلت: مَن هم فداك أبى وأمى؟ قال: المكثرون إلا من مال بالمال فى عباد الله هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن

فوقه وبين يديه وعن (. . . .)[1] كل صفراء وبيضاء أولى عليها صاحبها فهو كنز (. . . .)[1] من ترك خير الشىء فهى له يوم القيامة.

وروى طلحة بن عبد الله بن كريز الخزاعى عن أبى الضيف عن أبى هريرة قال: من ترك عشرة آلاف درهم جعل صفائح يعذّب بها صاحبها يوم القيامة قبل القضاء، وعن سلمان بن ثروان قال: سمعت عمار بن ياسر يقول: إن أهل المائدة سألوا المائدة ثم نزلت فكفروا بها، وإن قوم صالح سألوا الناقة فلمّا أعطوها كفروا بها، وإنكم قد نهيتم عن كنز الذهب والفضة فستكنزونها، فقال رجل نكنزها (وقد سمعنا) قوله؟ قال: نعم، ويقتل عليه بعضكم بعضًا، وقال شعبة: كان فصّ سيف أبى هريرة من فضة فنهاه عنها أبو ذر، وقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «من ترك صفراء وبيضاء كوى بها».

وروى قتادة عن شهر بن حوشب عن أبى أمامة صدىّ بن عجلان قال: إن رجلاً توفى من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى ﷺ: «كيّة» ثم توفى رجل آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال عليه السلام: «كيّتان».

وأولى الأقاويل بالصواب القول الأول لأن الوعيد وارد فى منع الزكاة لا فى جمع المال الحلال. يدل عليه قول النبى ﷺ: «من أدى زكاة ماله فقد أدى الحق الذى عليه، ومن زاد فهو خير له».

وقال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

وقال ابن عمر وسئل عن هذه الآية فقال: من كنزها ولم يؤدّ زكاتها فويل له. ثم قال: لا أبالى لو كان لى مثل أحد ذهبًا أعلم عدده أزكّيه وأعمل بطاعة الله عز وجل.

أما أصل الكنز فى كلام العرب: كل شىء مجموع بعضه على بعض، على ظهر الأرض كان أو فى بطنها. يدلّ على ذلك قول الشاعر:

لا درّى إن أطعمت نازلهم (قرف الحتى) وعندى التبر مكنوز

أراد: مجموع بعضه إلى بعض والحتى: مذر المقل، وكذلك يقول العرب للشىء المجتمع: مكتنز لانضمام بعضه إلى بعض.

قرأ يحيى بن عمر يكنزون بضم النون، وقراءة العامة بالكسر، وهما لغتان مثل يعكُفون ويعكفون، ويعرُشون ويعرشون ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل ينفقونهما، اختلف النحاة فيه، قال قطرب: أراد الزكاة أو الكنوز أو (. . . .)[1] الذهب والفضة، وقال الفرّاء: استغنى

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

بالخبر عن أحدهما فى عائد الذكر عن الآخر لدلالة الكلام على أن الخبر على الآخر مثل الخبر عنه، وذلك موجود فى كلام العرب وأخبارهم، قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقال ابن الأنبارى: قصد الأغلب والأعم لأن الفضة أعم والذهب (أخص) مثل قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ (البقرة: ٤٥) ردّ الكناية إلى الصلاة لأنّها أعم، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: ١١) ردّ الكناية إلى التجارة لأنها أعم وأفضل.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾ فأخبرهم وأنذرهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أى يدخل النار مرتديًا بعض الكنوز، ومنه يقال: حميت الحديدة فى النار ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ فتحرق ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ جباه كانزيها ﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

قال عبد الله بن مسعود: والذى لا إله غيره ما من رجل يكوى، يكنز موضع دينار على دينار ودرهم على درهم، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على خدّيه.

وسئل أبو بكر الوراق: لم خص الجباه والجنوب والظهور بالكى؟ فقال: لأن الغنى صاحب الكنز إذا رأى الفقير انقبض، فإذا ضمّه وإياه مجلس ازورّ عنه وولّى ظهره عليه، وقال محمد بن على الترمذى: ذلك لأنّه يبذخ ويستكبر بماله ويقع على كنزه بجنبيه ويتساند إليه.

وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة، فبينما أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل خشن الثياب، خشن الجسد، خشن الوجه فقام عليهم، فقال: بشّر الكنّازين برضف يحمى عليه فى نار جهنم، فيوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثدييه، ويزلزل ويكوى الجباه والجنوب والظهور حتى تلتقى الحمة فى أجوافهم.

قال: فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحدًا منهم رجع إليه شيئًا، قال: فأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئًا.

﴿هَـٰذَا﴾ أى يقال لهم: ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦) أى تجحدون حقوق الله فى أموالكم وتمنعونها.

واختلف العلماء فى حكم هذه الآية، وفيمن نزلت منهم، فروى ابن شهاب عن خالد بن

زيد بن أسلم عن ابن عمر وسئل عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ فقال ابن عمر: إنّما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة فلمّا نزلت جعلها الله لتطهير الأموال.

مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا يبقى لولده مالاً يبقى بعده، فقال عمر رضى الله عنه: أنا أُفرّج عنكم فانطلقوا، وانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله إنّه قد كبر على أصحابك هذه فقال: «إن الله عز وجل لم يفرض الزكاة إلا ليطيّب بها ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث فى أموال تبقى بعدكم» ثم قال: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء، المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، فإذا غاب عنها حفظته».

وقال بعض الصحابة: هى فى أهل الكتاب خاصة، وقال السدّى: هى فى أهل القبلة، وقال الضحاك: هى عامة فى أهل الكتاب وفى المسلمين، مَن كسب مالاً حلالاً فلم يعط حق الله منه كان كنزاً وإن قلّ وكان على وجه الأرض، وما أُعطى حق الله منه لم يكن كنزاً وإن كان كثيراً ودفنه فى الأرض.

عن زيد بن وهب قال: مررت بالربذة فإذا أنا بأبى ذر فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ الآية، فقال معاوية: نزلت فى أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، وكان بينى وبينهم كلام فى ذلك فكتب إلى عثمان رضى الله عنه يشكونى، فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها فكثر الناس على حتى كأنّهم لم يرونى قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال: إن شئت تنحّيت فكنت قريباً، فذلك الذى أنزلنى هذه المنزل، ولو أمّروا علىَّ جيشًا لسمعت وأطعت.

وقال بعضهم: نزلت فى مانعى الزكاة خاصة، وهو أولى الأقاويل بالصحة، يدلّ عليه ما روى سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلاّ حُمى عليه فى نار جهنم، فجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرسله إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار، وما من صاحب غنم لا يؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت فتطأه بأظلافها وتنطحه بقرونها ليس فيها عقصاء ولا جلحاء كلّما مضى عليه أخراها ردّت عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرسله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت (. . . .)[1] كلّما مضى عليها أخراها ردّت

(١) بياض بالأصل المخطوط.

عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرسله إما إلى الجنة وإما إلى النار». قال سهيل: فلا أدرى أذكر البقر أو لا؟

وروى ثوبان أن النبى ﷺ كان يقول: «من ترك بعده كنزًا مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يتبعه، يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذى تركته بعدك، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها، ثم يلقمه سائر جسده».

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ يعنى عدد شهور السنة ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ قراءة العامة بفتح العين والشين، وقرأ أبو جعفر بجزم الشين، وقرأ طلحة بن سليمان بسكون الشين، شهرًا نصب على التمييز.

وهى المحرم وصفر وشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة.

وأما المحرم فسمى بذلك لتحريم القتال فيه، وسمى صفر لأن مكة تصفر من الناس فيه أى تخلو منهم، وقيل: وقع فيه وباء فاصفرّت وجوههم، وقال أبو عبيدة: سمّى صفر لأنه صفرت فيه وطابهم من اللبن، وشهرا الربيع سمّيا بذلك لجمود الماء فيهما، وسمّى رجب لأنهم كانوا يرجبونه أى يعظمونه، رجبته ورجّبته بالتخفيف والتشديد إذا عظمته، قال الكميت:

ولا غيرهم أبغى لنفسى جنّة ولا غيرهم ممن أُجلّ وأرجب

وقيل: سمى بذلك لترك القتال فيه من قول العرب: رجل أرجب إذ كان أقطع لا يمكنه العمل، وروى عن النبى ﷺ أنّه قال: إن فى الجنة نهرًا يقال له رجب ماؤه أشد بياضًا من الثلج وأحلى من العسل، من صام يومًا من رجب شرب منه، وقال عمر: سمّى شعبان لتشعب القبائل فيه.

وروى زياد بن ميمون أن النبى ﷺ قال: «سُمّى شعبان لأنه يتشعب فيه خير كثير لرمضان».

وقد مضى القول فى رمضان، وسمّى شوال لشولان النوق اللقاح بأذنابها فيه.

قال أبو زيد البلخى: سمّى بذلك لأن القبائل تشول فيه أى تبرح عن أماكنها، وسمّى ذو القعدة لقعودهم عن القتال، وذو الحجة لقضاء حجهم فيه، والله أعلم.

قال بعض البلغاء: إذا رأت العرب السادات تركوا العادات وحرموا الغارات قالوا: محرم، وإذا ضعضعت أركانهم ومرضت أبدانهم، واصفرت ألوانهم قالوا: صفر، وإذا ظهرت

الرياحين وزهرت البساتين قالوا: ربيعان، وإذا قل الثمار وجمد الماء قالوا: جماديان، فإذا هاجت البحار وحمت الأنهار وترجبت الأشجار قالوا: رجب، وإذا بانت الفضائل وتشعبت القبائل قالوا: شعبان، وإذا حمى الفضا، ونفى جمر الغضاء قالوا: رمضان، وإذا انكشف السحاب، وكثرت الذباب وشالت الناقة إلا ذبحوها قالوا: شوال، وإذا قعد التجار عن الأسفار قالوا: ذو القعدة، وإذا قصدوا الحج من كل فج، وأظهروا النج والعج قالوا: ذو الحجة.

﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يعنى اللوح المحفوظ وقيل فى قضائه الذى قضى ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ﴾ من الشهور ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ كانت العرب تعظمها وتحرم القتال فيها حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وهى رجب، وذو القعدة، وذو الحجة ومحرم، واحد فرد وثلاثة سرد.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الحساب المستقيم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أى فى الأشهر الحرم بالعمل بمعصية الله عز وجل وترك طاعته، وقال ابن عباس: استحلال القتال والغارة فيهن، وقال محمد بن إسحاق عن يسار: لا تجعلوا حلالها حرامًا ولا حرامها حلالاً كما فعل أهل الشرك، وقال قتادة: إن العمل الصالح والأجر أعظم فى الأشهر الحرم، والذنب والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهنّ، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظم من أمره ما شاء كما يصطفى من خلقه صفايا.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ جميعًا عامًا مؤتلفين غير مخلّفين ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ نصب على الحال ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

واختلف العلماء فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم فقال قوم: إنه منسوخ، وقال قتادة وعطاء الخراسانى: كان القتال كثيراً فى الأشهر الحرم ثم نسخ وأُحل القتال فيه بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ يقول: فيهن وفى غيرهنّ.

قال الزهرى: كان رسول الله ﷺ يحرّم القتال فى الأشهر الحرم بما أنزل الله سبحانه من تحريم ذلك حتى نزلت براءة فأحل قتال المشركين، وقال أبو إسحاق: سألت سفيان الثورى عن القتال فى الشهر الحرام فقال: هذا منسوخ، وقد مضى، ولا بأس بالقتال فيه وفى غيره، قالوا: لأن النبى ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفًا بالطائف فى شوال وبعض ذى القعدة فيدل على أنه منسوخ، وقال آخرون: إنه غير منسوخ، وقال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبى رباح ما يحلّ للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يُقاتَلوا فيها وما نسخت، وقال ابن

حيان نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ قرأ الحسن، وعلقمة وقتادة ومجاهد ونافع غير ورش وأبو عامر وعيسى والأعمش وعاصم وحمزة والكسائى وابن عامر: النسىء ممدود مهموز، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم، وهو مصدر كالخرير والسعير والحريق ونحوها، ويجوز أن يكون مفعولاً مصروفًا إلى فعيل مثل الجريح والقتيل والغريق، تقديره: إنما الشهر المؤخَّر، وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة والأشهب وشبل: (إنما النسىء) ساكنة: السين مهموزة على المصدر لا غير، وقرأ أبو عمرو وورش النسىّ بالتشديد من غير همزة.

وروى ذلك عن ابن كثير على معنى النسىّ أى المتروك قال الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧) من النسيان، ويحتمل أن يكون أصله الهمز مخفف، واختلفوا فى أصل الكلمة، فقال الأخفش: هو من التأخير ومنه النسيئة فى البيع، ويقال: أنسأ الله أجله، ونسأ فى أجله آى أخّره، وقال قطرب: هو من الزيادة، وكل زيادة حدثت فى شىء فهو نسىء، وكذلك قيل للبن إذ كثر بالماء نسئ، ونسؤ، وللمرأة الحبلى نسؤتْ، لزيادة الواو فيها، وقد نسأتُ الناقة وأنسأتها إذا زجرتها ليزداد سيرها، وقال قتادة: عهد ناس من أهل الضلالة فزادوا صفرًا فى الأشهر الحرم، وكان يقوم قائمة فى الموسم ويقول: ألا إن آلهتكم قد حرمت المحرم فيحرمونه ذلك العام، ثم يقول فى العام المقبل فيقول: ألا إن آلهتكم قد حرّمت صفرًا فيحرمونه ذلك العام وكان يقال لهما: صفران.

وأما معنى النسىء وبدوّ أمره على ما ذكره العلماء بألفاظ مختلفة ومعنى متفق، فهو أن العرب كانت تحرّم الشهور الأربعة وكان ذلك مما تمسّكت به من ملّة إبْراهيم الخليل وابنه إسماعيل، وكان العرب أصحاب حروب وغارات فشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها، وقالوا: لئن توالت علينا ثلاثة أشهر حرم لا نصيب فيها شيئًا لنجوعنّ، وإنما نصيب على ظهر دوابنا فربما احتاجوا مع ذلك إلى تحليل المحرم أو غيره من الأشهر الحرم لحرب تكون بينهم فيكرهون استحلاله ويستحلون المحرم.

وكانوا يمكثون بذلك زمانًا يحرّمون صفرًا، وهم يريدون به المحرم ويقولون: هو أحد الصفرين، وقد تأوّل بعض الناس قول النبى ﷺ: ولا صفر، على هذا ثم يحتاجون أيضًا إلى تأخير الصفر إلى الشهر الذى بعده كحاجتهم إلى تأخير المحرم، فيؤخّرون تحريمه إلى ربيع، ثم يمكثون بذلك ما شاء الله، ثم يحتاجون إلى مثله، ثم كذلك فكذلك يتدافع شهرًا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلّها، فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى وضعه الذى وضعه

الله عز وجل وذلك بعد عمر طويل .

وقال مجاهد : كان المشركون يحجّون فى كل شهر عامين ، فحجّوا فى ذى الحجة عامين ، ثم حجّوا فى المحرم عامين ، ثم حجوا فى صفر عامين ، وكذلك فى الشهور التى وافقت حجة أبى بكر التى حجها قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذى القعدة ، ثم حج النبى ﷺ فى العام القابل حجة الوداع فوافقت ذى الحجة ، فذلك حين قال النبى ﷺ فى خطبته : «ألا إن الزمان قد ابتدأ فدعيت يوم خلق السموات والأرض إن السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم : ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان» .

أراد ﷺ أنّ الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحج إلى ذى الحجة وبطل النسىء .

واختلفوا فى أول من نسأ ، فقال ابن عباس وقتادة والضحاك : أوّل من نسأ بنو مالك بن كنانة وكان (يليه) أبو ثمامة عبادة بن عوف بن أمية الكنانى ، كان يوافى الموسم كل عام على حمار فيقول : أيّها الناس إنى أُحدّث ولا أخاف ولا مردّ لما أقول . إنّا قد حرمنا المحرم ، وأخّرنا صفراً ، ثم يجىء العام المقبل فيقول : إنّا قد حرّمنا صفراً وأخّرنا المحرم .

وقال الكلبى : أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له : نعيم بن ثعلبة ، وكان يكون قبل الناس بالموسم ، وإذا همّ الناس بالصّدر قام فخطب الناس فقال : لا مردّ لما قضيت ، أنا الذى لا أغاب ولا أخاب فيقول له المشركون : لبيك ، ثم يسألهم أن ينسئهم شهراً يغيّرون فيه ، فيقول : إن القتال العام حرام ، وإذا قال ذلك حلّوا الأوتار وقرعوا الأسنّة والأزجّة ، وإن قال : حلال عقدوا الأوتار وشددوا الأزجّة وأغاروا على الناس .

(وقيل بعد) نعيم بن ثعلبة رجل يقال له : جنادة بن عوف وهو الذى أدركه رسول الله ﷺ .

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن أوّل من نسأ النسىء عمرو بن لحى بن بلتعة بن خندف ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو رجل من بنى كنانة يقال له القملّس فى الجاهلية ، وكان أهل الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الأشهر الحرم ، يلقى الرجل قاتل أبيه وأخيه فلا يتعرض له فيقول قائلهم : اخرجوا بنا فيقال له : هذا المحرم ، فيقول القملّس : إنى قد نسأته العام صفران ، فإذا كان العام المقبل قضينا فجعلناهما محرمين ، وقال (. . . .)[1]

وقال الكميت :

ألسنا الناسئين على معدٍّ شهور الحلّ نجعلها حرامًا

فهو النسىء الذى قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم

(١) بياض بالأصل المخطوط .

وأبو عمرو يَضل بفتح الياء وكسر الضاد، واختاره أبو حاتم لأنه ضمّ الضالون لقوله: ﴿بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو عبد الرحمن وقتادة ومجاهد وابن محيصن: يضل مكسورة الضاد، ولها وجهان: أحدهما أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فى محل النصب أى يضل الله به الذين كفروا.

والوجه الثانى أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فى محل رفع على معنى يُضل به الذين كفروا الناس المفسدين منهم، وقرأ أهل الكوفة: يُضل بضم الياء وفتح الضاد وهى قراءة ابن مسعود واختيار أبى عبيدة لقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ و ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ يعنى النسىء ﴿عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ليوافقوا، قال ابن عباس: ليشبهوا، قال المؤرّخ: هو أنهم لم يحلّوا شهراً من الحرم إلاّ حرموا مكانهم شهراً من الحلال ولم يحرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرم لئلاّ تكون الحرم أكثر من أربعة أشهر ممّا حرم الله فيكون موافقًا للعدد، فذلك المراد.

﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ﴾ الآية فيها حثٌّ من الله سبحانه لأصحاب رسول الله ﷺ على غزوة تبوك، وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك فى زمان عسرة من الناس وجدب من البلاد وشدة من الحر (حين) فأحرقت النخل وطابت الثمار وعظم على الناس غزو الروم، وأحبّوا الظلال والمقام فى المسكن والمال، فشقّ عليهم الخروج إلى القتال، وكان رسول الله ﷺ قلّ ما خرج فى غزوة إلاّ كنى عنها وورّى بغيرها إلا غزوة تبوك لبُعد شقتها وكثرة العدو ليتأهب الناس وأمرهم بالجهاد، وأخبرهم بالذى يريد، فلمّا

علم الله تثاقل الناس، أنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ﴾ أى شىء أمركم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ إذا قال لكم رسول الله ﴿ٱنفِرُواْ﴾ اخرجوا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأصل النفر مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمر هاج على ذلك، فقالت نفر فلان إلى ثغر كذا، ينفر نفرًا ونفورًا، ومنه نفور الدابة ونفارها ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم.

قال المبرّد: أخلدتم ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ومعناه: لزمتم أرضكم ومساكنكم، وأصله تثاقلتم فأُدغمت التاء فى الثاء وأخرجت لها ألف يوصل إلى الكلام بها حين الابتداء بها، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ (الأعراف: ٣٨) وقالوا: اطّيرنا وأرجفت، العلاء والكسائى.

تولى الضجيج إذا ما اشتاقها خضرا عذب المذاق إذا ما اتابع القبل

أى إذا تتابع.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أى أرضيتم الدنيا ودعتها عوضًا من نعيم الآخرة وثوابها ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ثم أوعدهم على ترك الجهاد ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ وقرأ عبيد ابن عمير تنفروا بضم الفاء وهما لغتان ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الآخرة، وقيل: هو احتباس القطر عنهم، سُئل نجدة بن نفيع عن ابن عباس عن هذه الآية فقال: إنّ رسول الله ﷺ استنفر حيًا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك عنهم المطر فكذلك كان عذابهم ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خيرًا منكم وأطوع، قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس، وقال أبو صلاح، هم أهل اليمن ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ بترك النفير ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ هذا إعلام من الله أنه هو المتكفّل بنصر رسوله وإظهار دينه أعانوه أو لم يعينوه، وأنه قد نصره حين كان أولياؤه قليلاً وأعداؤه كثيرًا، فكيف به اليوم وهو فى كثرة من العدد والعدّة فقال عزّ من قائل: إلاّ تنفروا أيها المؤمنون إذا استنفركم، ولا تنصروه إذا استنصركم فالله يعينه يعوّضه عنكم كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وقيل: (معناه): إن لم تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا من مكة حين مكروا به وأرادوا (إخراجه) وهموا بقتله ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ نصب على الحال، وهو أحد الاثنين، والاثنين رسول الله وأبو بكر الصديق ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ وهو نقب فى جبل مكة يقال له ثور ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ﴾ أبى بكر رضى الله عنه ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ للعون والنصرة، ولم يكن حزن أبى بكر رضى الله عنه جبنًا منه ولا سوء ظن وإنما كان إشفاقًا على رسول الله ﷺ، يدلّ عليه أنه قال: يا رسول الله إن قتلتُ فأنا رجل واحد، وإن قتلتَ هلكت الأُمة.

همام عن ثابت عن أنس أن أبا بكر حدّثه قال: قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار: لو أن أحدًا

نظر إلى تحت قدميه لأبصرنا فقال: يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما. قال مجاهد مكث رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثًا.

قال عروة: كان لأبى بكر منيحة من غنم فكان عامر بن فهيرة يروح بتلك الغنم على النبى ﷺ فى الغار.

وقال قتادة: كان عبد الرحمن بن أبى بكر يختلف إليهما، فلمّا أراد رسول الله ﷺ الخروج دعاهم وكانوا أربعة: النبى ﷺ، وأبو بكر وعامر بن فهيرة وعبد الله بن أُريقط الليثى.

قال الزهرى: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله زوجًا من حمام حتى باضا أسفل النقب، والعنكبوت حتى نسج بيتًا، فلمّا جاء سراقة بن مالك فى طلبهما فرأى بيض الحمام وبيت العنكبوت، قال لو دخلاه لتكسر البيض، وتفسخ بيت العنكبوت، فانصرف.

وقال النبى: «اللهم اعم أبصارهم» فعميت أبصارهم عن دخوله، وجعلوا يضربون يمينًا وشمالاً حول الغار.

روى السرى بن يحيى عن محمد بن سيرين قال: ذكر رجال على عهد عمر بن الخطاب فكأنّهم فضّلوا عمر على أبى بكر، قال: فبلغ ذلك عمر فقال: والله لَليلة من أبى بكر خير من آل عمر، ولَيوم من أبى بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى وصل، فقال: يا أبا بكر ما لك تمشى ساعة بين يدى وساعة خلفى؟ فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك، فقال: يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دونى؟ قال: نعم والذى بعثك بالحق.

فلما أتيا إلى الغار قال أبو بكر رضى الله عنه: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الغار، فدخل فاستبرأ حتى إذا كان فى أعلاه ذكر أنّه لم يستبرئ الحجر، فقال مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الحجر فدخل فاستبرأ ثم قال: انزل يا رسول الله فنزل، فقال عمر: والذى نفسى بيده لَتلك الليلة خير من آل عمر.

أبو عوانة عن فراس عن الشعبى قال: لقد عاتب الله أهل الأرض جميعًا غير أبى بكر رضى الله عنه فى هذه الآية، وقال أبو بكر:

قال النبى ولم يجزع يوقّرنى ... ونحن فى شدة من ظلمة الغار
لا تخشَ شيئًا فإن الله ثالثنا ... وقد توكل لى منه بإظهار
وإنما كيد من تخشى بوادره ... كيد الشياطين كادته لكفّار

والله مهلكهم طرًا بما كسبوا   وجاعل المنتهى منها إلى النار

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ سكونه وطمأنينته ﴿عَلَيۡهِ﴾ أى على رسول الله ﷺ، وقال ابن عباس: على أبى بكر، فأمّا النبى ﷺ فكانت السكينة عليه قبل ذلك ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ قرأ مجاهد: وأيده بالمد ﴿بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ وهم الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰ﴾ أى المقهورة المغلوبة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ رفع على مبتدأ وقرأ يعقوب: (وكلمةَ الله) على النصب على العطف ﴿هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ العالية.

قال ابن عباس: الكلمة السفلى: كلمة الشرك، والعليا: لا إله إلاّ الله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ قال أبو الضحى: أول آية نزلت من براءة هذه الآية وقال مقاتل: قالوا: فينا الثقيل وذو الحاجة والضيعة، والشغل والمنتشر أمره، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، وأبى أن يعذرهم.

واختلفوا فى معنى الخفاف والثقال، فقال أنس والحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة وشمر بن عطية ومقاتل بن حيان: مشاغيل، وقال الحكم: مشاغيل وغير مشاغيل. الحسن: مشاغيل، وقال أبو صالح: خفافًا من المال، أى فقراء وثقالاً منه أى أغنياء، وقال ابن زيد: الثقيل الذى له الضيعة فهو ثقيل يكبره بأن يضع ضيعته من الخفيف الذى لا ضيعة له. قال نشاط وغير نشاط، وقال عطية العوفى: ركبانًا ومشاة، وقال مرة الهمذانى: أصحّاء ومرضى، وقال يمان بن رباب: عزّابًا ومتأهلين.

وقيل: خفافًا مسرعين غير خارجين ساعة اتباع النفير. قال: خفّ الرجل خفوفًا إذا مشى مسرعًا، وثقالاً أى بعد التروية فيه والاستعداد له. وقيل: خفافًا من السلاح أى مقلّين منه وثقالاً مستكثرين منه، فالعرب تسمى الأعزل مخفًا.

وقيل: خفافًا من ماشيتكم وأبنائكم وثقالاً متكثّرين بهم ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ على بن زيد عن أنس: أن أبا طلحة قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ فقال: أى بنى جهّزونى جهّزونى. فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع النبى ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حتى ماتا، فنحن نغزو عنك، فقال: جهزونى، فغزا البحر فمات فى البحر فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلاّ بعد سبعة أيام فدفنوه فيها فلم يتغير.

وقال الزهرى: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزوة وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنّك عليل، صاحب ضرّ فقال استنفر له الخفيف والثقيل، فإن لم يمكننى الحرب كثّرت السواد وحفظت المتاع.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ
أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا
الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ
خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ
سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ
الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ثم نزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين ﴿لَوْ كَانَ﴾ اسمه مضمر أي لو كان ما يدعوهم إليه ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ غنيمة حاضرة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وموضعًا قريبًا.

قال المبرّد: قاصداً أي ذا قصد نحو تامر ولابن، وقيل: هو طريق مقصود فجعلت صفته على (فاعلة بمعنى مفعولة) كقوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٢١) أي مرضية. ﴿لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ يعني المسافة وقال الكسائي: هي الغزاة التي يخرجون إليها، وقال قطرب: هي السفر البعيد سمّيت شقة لأنها تشقّ على الإنسان، والقراءة بضم الشين وهي اللغة الغالبة، وقرأ عبيد ابن عمير بكسر الشين وهي لغة قيس.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ قرأ الأعمش بضم الواو لأن أصل الواو الضمة، وقرأ الحسن بفتح الواو لأن الفتح أخفّ الحركات، وقرأ الباقون بالكسر لأن الجزم يحرّك بالكسر ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالحلف الكاذب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في أيمانهم (واعتلالهم) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ قدّم العفو على القتل.

قال قتادة وعمرو بن ميمون: شيئان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه من الأُسارة الفدية فعاتبه الله كما تسمعون.

وقال بعضهم: إنّ الله عز وجل وقّره ورفع محله (فهو افتتاح) الكلام بالدعاء له، كما

يقول الرجل لمخاطبه إن كان كريمًا عنده: عفا الله عنك ما صنعت فى حاجتى ورضى الله عنك إلاّ زرتنى، وقيل: معناه: أدام الله لك العفو.

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فى أعذارهم ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيها ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكّت ونافقت قلوبهم ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ متحيّرين، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ إلى الغزو ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا﴾ لهيّئوا ﴿لَهُ عُدَّةً﴾ وهى المتاع والكراع ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ﴾ لم يرد الله ﴿انبِعَاثَهُمْ﴾ (خروجهم) ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فمنعهم وحبسهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ فى بيوتكم ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ يعنى المرضى والزمنى، وقيل: النساء والصبيان.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس بالجهاد لغزوة تبوك، فلمّا خرج رسول ﷺ هو وعسكره على ثنيّة الوداع، ولم يكن بأقلّ العسكرين، فلمّا سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبىّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، فأنزل الله تعالى (يعزى) نبيه ﷺ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم﴾ يعنى المنافقين ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فسادًا، وقال الكلبى: شرًا وقيل: غدرًا ومكرًا ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ يعنى ولأوضعوا ركابهم بينكم، يقال: وضعت الناقة تضع وضعًا ووضوعًا إذا أسرعت السير، وأوضعها إيضاعًا أى جدّ بها فأسرع، قال الراجز:

يا ليتنى فيها جذع ... أخبّ فيها وأضعْ

وقال:

أقصرْ فإنك طالما ... أوضعت فى إعجالها

قال محمد بن إسحاق يعنى: أسرع الفرار فى أوساطكم وأصل الخلال من الخلل وهو الفرجة بين الشيئين وبين القوم فى الصفوف وغيرها، ومنه قول النبى ﷺ: «تراصّوا فى الصفوف لا يخللكم الشيطان كأولاد الحذف».

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أى يبغون لكم، يقول: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جمع (العدو) لكم فعل وفعل، يخبلونكم. وقال الكلبى: يبغونكم الفتنة يعنى الغيب والسر، وقال الضحاك: يعنى الكفر، يقال فيه: بغيته أبغيه بغاء إذا التمسته بمعنى بغيت له، ومثله عكمتك إن عكمت لك فيها، وإذا أرادوا أعنتك عليه قالوا: أبغيتك وأحلبتك وأعكمتك.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ قال مجاهد وابن زيد بينكم عيون لهم عليكم (يوصلون) ما يسمعون منكم، وقال قتادة وابن يسار: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أى عملوا بها لصد أصحابك عن الدين وردهم إلى الكفر

بتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله بن أبى يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أجالوا فيك وفى إبطال دينك الرأى بالتخذيل عنك وتشتّت أصحابك.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أى النصر والظفر ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ الآية.

نزلت فى جد بن قيس المنافق وذلك أن رسول الله ﷺ لمّا تجهّز لغزوة تبوك، قال له: يا أبا وهب، هل لك فى جلاد بنى الأصفر تتخذ منهم وصفاء، قيل: وإنما أمر بذلك لأن الحبش غلبت على ناحية الروم فولدت لهم بنات قد أنجبت من بياض الروم وسواد الحبشة فكنّ صفر اللعس، فلمّا قال له ذلك رسول الله ﷺ قال جد: يا رسول الله لقد عرفت قومى أنى رجل مغرم بالنساء وإنى أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر عنهن فلا تفتنّى بهن وائذنْ لى فى القعود وأُعينك بمالى، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك، فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم﴾ يعنى ومن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ فى التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ ببنات الأصفر، قال قتادة: ولا تأثمنى ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ ألا فى الإثم والشرك وقعوا بخياناتكم وخلافهم أمر الله ورسوله ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مطيقة بهم وجامعتهم فيها، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لبنى سلمة وكان منهم: من سيّدكم قالوا: جد بن قيس غير أنه بخيل جبان، فقال النبى ﷺ: وأى داء أدوى من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور فقال فيه حسّان:

وقال رسول الله والقول لاحق ... بمن قال منّا من تعدّون سيّدا
فقلنا له جدّ بن قيس على الذى ... نبخّله فينا وإن كان أنكدا
فقال وأى الداء أدوى من الذى ... رميتم به جدا وعالى بها يدا
وسوّد بشر بن البراء لجوده ... وحق لبشر ذى الندى أن يُسوّدا
إذا ما أتاه الوفد أنهب ماله ... وقال خذوه إنه عائد غدا

❖❖❖

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ

أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝﴾

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ نصر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ (يعنى) بهم المنافقين ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ عُذرنا وأخذنا الجزم فى القعود وترك الغزو ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذه المصيبة.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ وفى مصحف عبد الله: (قل هل يصيبنا)، وبه قرأ طلحة بن مصرف ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ فى اللوح المحفوظ، ثم قضاه علينا ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ وليّنا وناصرنا وحافظنا، وقال الكلبى: هو أولى بنا من أنفسنا فى الموت والحياة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ تنتظرون ﴿بِنَآ﴾ أيها المنافقون ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إما النصر والفتح مع الأجر الكبير، وإمّا القتل والشهادة وفيه الفوز الكبير.

أخبرنا أبو القاسم الحبيبى قال: حدّثنا جعفر بن محمد العدل، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدى، حدّثنا أبو بكر أُمية بن بسطام، أخبرنا يزيد بن بزيع عن بكر بن القاسم عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يضمن الله لمن خرج فى سبيله ألاّ يخرج إيمانًا بالله وتصديقًا برسوله أن (يرزقه) الشهادة، أو يردّه إلى أهله مغفورًا له مع ما نال من أجر وغنيمة.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى الحسنيين ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ فيهلكهم الله كما أهلك الأمم الخالية. قال ابن عباس: يعنى الصواعق، قال ابن جريج يعنى الموت (والعقوبة) بالقتل بأيدينا كما أصاب الأمم الخالية من قبلنا ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ هلاكنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ وقال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان إنّا معكم متربّصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه، وكان الشيطان يمنّى لهم بموت النبى ﷺ.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ نزلت فى منجد بن قيس حين استأذن النبى ﷺ فى القعود عن الغزوة، وقال: هذا مالى أُعينك به، وظاهر الآية أمر معناه خبر وجزاء تقديره: إن أنفقتم طوعًا أو كرهًا فليس بمقبول منكم كقول الله عز وجل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠) الآية. قال الشاعر:

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملامة لدينا ولا مقلية إن تفلت

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ منافقين ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ﴾ قرأ نافع وعاصم ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى: (أن يقبل) بالياء لنعتهم الفعل، الباقون بالتاء ﴿نَفَقَٰتُهُمْ﴾ صدقاتهم ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ الأولى فى موضع نصب، و «أن» الثانية فى محل رفع تقديره: وما منعهم قبول نفقاتهم إلاّ كفرهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ مستاءون لأنهم لا يرجون بأدائها ثوابًا، ولا يخافون بتركها عقابًا ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لأنهم يتخذونها مغرمًا ومنعها مغنمًا.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ لأن العبد إذا كان من الله تعالى فى استدراج (. . . .)[1] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال مجاهد وقتادة والسدى: فى الآية تقديم وتأخير تقديرها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة.

وقال الحسن: إنما يريد الله أن يعذبهم فى الحياة بالزكاة والنفقة فى سبيل الله، وقال ابن زيد: بالمصائب فيها، وقيل التعب فى جمعه، والوجل فى حفظه وحبه. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أى تخرج وتذهب أنفسهم على الكفر: يقال: زهقت الخيول أى خرجت عن الحلبة، وزهق السهم إذا خرج عن الهدف، وزهق الباطل أى اضمحل، قال المبرّد: وفيه لغتان: زَهَق يزهِق وزهق يزهَق.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ على دينكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ يعنى حرزًا وحصنًا ومعقلاً، وقال عطاء مهربًا، وقال ابن كيسان: قومًا يأمنون فيهم ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ غيرانًا فى الجبال، وقال عطاء: سرادب، وقال الأخفش: كلّ ما غرتَ فيه فغبت فهو مغارة، وهى مفعلة من غار الرجل فى الشىء يغور فيه إذا دخل، ومنه غار الماء وغارت العين إذا دخلت فى الحدقة، ومنه غور تهامة، والغور: ما انخفض من الأرض، وقرأ عبد الرحمن بن عوف مُغارات بضم الميم جعله مفعلاً من أغار يُغير إذا أسرع ومعناه موضع فرار، قال الشاعر:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فعدّ طلابها وتعدّ عنها   بحرف قد تغير إذ تبوع

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ موضع دخول، وهو مفتعل من تدخّل يتدخّل متدخّل، وقال مجاهد: مدّخلاً: محرزًا. قتادة: سردابًا، وقال الكلبى وابن زيد: نفقًا كنفق اليربوع، وقال الضحاك: مأوًى يأوون إليه، وقال الحسن: وجهًا يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ، وقال ابن كيسان: دخلا من مدخلاً لا ينالهم منكم ما يخافون (منه) وقرأ الحسن: أو مدخلاً، مفتوحة الميم خفيفة الدال من دخل يدخل، وقرأ مسلمة بن محارب مُدخلاً بضم الميم وتخفيف الدال من دخل يدخل، وقرأه أبىّ مندخلاً، منفعل من اندخل. كما قال:

❖ فلا يدى فى حميت السكن تندخل ❖

وقرأ الأعرج بتشديد الدال والخاء (. . . .)(١) جعله متّفعلاً ثم أدغم التاء فى الدال كالمزمّل والمدّثر ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ لأدبروا إليه هربًا منكم، وفى حرف أُبى: لولّوا وجوههم إليه، وقرأ الأعمش والعقيلى: (لوالوا إليه) بالألف من الموالاة أى تابعوا وسارعوا.

وروى معاوية بن نوفل عن أبيه عن جده ـ وكانت له صحبة ـ لولوا إليه بتخفيف اللام لأنها من التولية يقال: ولى إليه بنفسه إذا انصرف ولولوّا إليه من المولى ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون فى الفرار (لا يردهم شىء). قال الشاعر أبان بن ثعلب:

سبوحًا جموحًا وإحضارها   كمعمعة السعف الموقد

وقيل: إن الجماح مشى بين مشيين وهو مثل (الصماح). قال مهلهل:

لقد جمحت جماحًا فى دمائهمُ   حتى رأيت ذوى أحسابهم خمدوا

وقرأ الأعمش: وهم يجمزون أى يسرعون ويشدّون ﴿وَمِنْهُم﴾ يعنى من المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى سعيد الخدرى، قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم قسمًا ـ قال ابن عباس كانت غنائم هوازن يوم حنين ـ جاء ابن ذى الخويصرة التميمى وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك ومن يعدل إن لم أعدل.

فقال عمر: يا رسول الله ائذن لى فأضرب عنقه، فقال النبى ﷺ: دعه فإن له أصحابًا يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر فى قذذه لا يوجد فيه شىء، ثم ينظر فلا يوجد فيه شىء، وقد سبق الفرث والدم،

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أشبههم برجل أسود فى إحدى يديه، أو قال: إحدى ثدييه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على فترة من الناس، وفى غير هذا الحديث: وإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا اخرجوا فاقتلوهم. فنزل، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ أى يعيبك فى أمرها، ويطعن عليك فيها يقال: همزة لمزة. قال الشاعر:

إذا لقيتُك عن شحط تكاشرنى ... وإنْ تغيبتُ كنتَ الهامز اللمزة

وقال مجاهد: يهمزك: يطعنك، وقال عطاء: يغتابك، وقال الحسن والأعرج وأبو رجاء وسلام ويعقوب: يلمزك بضم الميم، وروى عوف بن كثير يلمزك بكسر الميم خفيفة ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وقرأ (إياد بن لقيط): ساخطون. قال ابن زيد: هؤلاء المنافقون قالوا: والله لا يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثر بها إلاّ هواه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿رَٰغِبُونَ﴾ فى أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس، وقال ابن عباس: راغبون إليه فيما يعطينا من الثواب، ويصرف عنا من العقاب.

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ

جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

ثم بين (لمن) الصدقات فقال عز من قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ لا للمنافقين، واختلف العلماء فى صفة الفقير والمسكين.

وقال ابن عباس والحسن وجابر بن زيد والزهرى ومجاهد وابن زيد: الفقير: المتعفف عن المسألة، والمسكين: المحتاج السائل، وقال قتادة: الفقير: المؤمن المحتاج، والمسكين (. . . .)[1]، وقال الضحاك وإبراهيم النخعى: الفقراء: فقراء المهاجرين، والمساكين: من لم يهاجروا من المسلمين المحتاجين، وروى ابن سلمة عن ابن علية عن ابن سيرين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: ليس الفقير الذى لا مال له ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علية: الأخلق المحارف عندنا، وقال عكرمة: الفقراء فقراء المسلمين، والمساكين من أهل الكتاب.

وقال أبو بكر العبسى: رأى عمر بن الخطاب ذميمًا مكفوفًا مطروحًا على باب المدينة فقال له عمر: ما لك؟ قال: استكرونى فى هذه الجزيرة حتى إذا كف بصرى تركونى فليس لى أحد يعود علىّ بشىء، فقال: ما أنصفت إذًا، فأمر له بقوته وما يصلحه، ثم قال: هذا من الذين قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ وهم زمنى أهل الكتاب، وقال ابن عباس: المساكين: (الطوافون)، والفقراء، من المسلمين.

أخبرنا عبد الله بن حامد. أخبرنا محمد بن جعفر. حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد المؤدب. حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام بن منبّه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليس المسكين هذا الطوّاف الذى يطوف على الناس تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، إنما المسكين الذى لا يجد غنًى يغنيه ولا يسأل الناس، ولا يفطن له فيتصدق عليه.

قال الفرّاء: الفقراء أهل الصفة لم يكن لهم عشائر ولا مال، كانوا يلتمسون الفضل ثم يأوون إلى مسجد رسول الله ﷺ، والمساكين: الطوّافون على الأبواب، وقال عبد الله بن الحسن: المسكين الذى يخشع ويستكين وإن لم يسأل، والفقير الذى يحتمل ويقبل الشىء سرًا ولا يخشع وقال (ابن السكيت والقتيبى ويونس) الفقير الذى له البلغة من العيش والمسكين

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الذى لا شىء له، واحتج بقول الشاعر:

إنّ الفقير الذى كانت حلوبته وقف العيال فلم يترك له سبد

فجعل له حلوبة وجعلها وقفًا لعياله أى قوتًا لا فضل فيه يدلّ عليه ما روى عن عبد الرحمن ابن أبزى قال: كان ناس من المهاجرين لأحدهم الدار والزوجة والعبد والناقة يحجّ عليها ويغزو فنسبهم الله تعالى إلى أنهم فقراء وجعل لهم سهمًا فى الزكاة.

وقال محمد بن مسلمة: الفقير الذى له مسكن يسكنه، والخادم إلى (. . . .)[1] لأن ذلك المسكين الذى لا ملك له. قالوا: وكل محتاج إلى شىء فهو مفتقر إليه وإن كان غنيًا من غيره، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (فاطر: ١٥)، والمسكين المحتاج إلى كل شىء، ألا ترى كيف حُضّ على إطعامه وجعل الكفّارة من الأطعمة له، ولا فاقة أعظم من (. . . .)[1] فى شدة الجوعة.

أما قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ﴾ (الكهف: ٧٩) وإن مسكنتهم ههنا مساكين على جهة الرحمة والاستعفاف لا ملكهم السفينة كما قيل لمن امتحن بنكبة أو دفع إلى بلية: مسكين، وفى الحديث: «مساكين أهل النار» وقال الشاعر:

مساكين أهل الحبّ حتى قبورهم (عليها) تراب الذل بين المقابر

﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ يعنى سقاتها وجباتها الذين يتولّون قبضها من أهلها ووضعها فى حقها ويعملون عليها يعطون ذلك بالسعاية، أغنياء كانوا أو فقراء.

واختلفوا فى قدر ما يعطون، فقال الضحّاك: يعطون الثمن من الصدقة، وقال مجاهد: يأكل العمال من السهم الثامن، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: يعطون على قدر عمالتهم، وهو قول الشافعى وأبى يعفور قالا: يعطون بقدر أجور أمثالهم، وإن كان أكثر من الثمن، يدلّ عليه قول عبد الرحمن بن زيد قال: لم يكن عمر ولا أُولئك يعطون العامل الثمن إنما يفرضون له بقدر عمله، وقال مالك وأهل العراق: إنّما ذلك إلى الإمام واجتهاده، يعطيهم الإمام على قدر ما يرى.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، قال قتادة: هم ناس من الأعراب وغيرهم كان النبى ﷺ يألفهم بالعطية كيما يؤمنوا، وقال معقل بن عبد الله: سألت الزهرى عن المؤلفة قلوبهم، قال: من أسلم من يهودى أو نصرانى، قلت: وإنْ كان غنيًا؟ قال: وإنْ كان غنيًا، وقال ابن عباس: هم قوم قد أسلموا، كانوا يأتون رسول الله ﷺ يرضخ لهم من الصدقات، فإذا أعطاهم من الصدقة

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فأصابوا منها خيراً قالوا: هذا دين صالح، فإن كان غير ذلك عابوه وتركوه.

وقال ابن كيسان: هم قوم من أهل الحرب كان النبى ﷺ يتألّفهم بالصدقات ليكفّوا عن حربه، وقال الكلبى ويحيى بن أبى كثير وغيرهم: ذوو الشرف من الأحياء، كان رسول الله ﷺ يعطيهم فى الإسلام يتألّفهم وهم الذين قسم بينهم يوم حنين الإبل، وهم: من بنى مخزوم الحارث بن هشام، وعبد الرحمن بن يربوع، ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب ومنهم من بنى جمح صفوان بن أمية، ومن بنى عامر بن لؤى سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومن بنى أسد بن عبد العزى حكيم بن حزام، ومن بنى هاشم أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب، ومن بنى فزارة عيينة بن حصين، وحذيفة بن بدر، ومن بنى تميم الأقرع بن حابس، ومن بنى النضر مالك بن عوف بن مالك ومن بنى سليم العباس بن مرداس، ومن بنى ثقيف العلاء بن خارجة، أعطى النبى ﷺ كل رجل منهم مائة ناقة إلا عبد الرحمن بن يربوع وحويطب بن عبد العزى، قال وفى رواية أخرى: مخرمة بن نوفل، وعمير بن وهيب وهشام ابن عمرو.

وزاد الكلبى: أبا البعائل بن يعكل وجد بن قيس السهمى وعمرو بن مرداس وهشام بن عمرو. قال: أعطى كل واحد منهم خمسين ناقة، فقال العباس بن مرداس فى ذلك للنبى ﷺ:

فأصبح نهبى ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى المجمع
وقد كنت فى الحرب ذا (قوّة) ... فلم أعط شيئًا ولم أمنع
إلا أفائل أعطيتها ... عديد قوائمه الأربع
وكانت نهابًا تلافيتها ... بكرى على المهر فى الأجرع
وإيقاظى القوم أن يرقدوا ... إذا هجع الناس لم أهجع
وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فأعطاه النبى ﷺ مائة ناقة، وأعطى حكيم بن حزام سبعين ناقة فقال: يا رسول الله ما كنت أدرى أن أحدًا أحق بعطائك منى فزاده عشرة أبكار، ثم زاده عشرة أبكار حتى أتمها له مائة، فقال حكيم: يا رسول الله أعطيتُك التى رغبت عنها خيرٌ أم هذه التى زادت؟ قال: لا، بل هذه التى رغبت فيها. فقال: لا آخذ غيرها، فأخذ السبعين، فمات حكيم وهو أكثر قريش مالاً.

فقال النبى ﷺ: «أعطى رجلاً وأترك الآخر، والذى أترك أحب إلى من الذى أعطى،

ولكنى أتألف هذا بالعطية، وأُوكل المؤمن إلى إيمانه».

وقال صفوان بن أُمية: لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى وإنه لأبغض الناس إلىَّ فما برح يعطينى حتى أنه لأحب الناس إلى.

ثم اختلفوا فى وجود المؤلّفة اليوم وهل يُعطون من الصدقة وغيرها أم لا؟، فقال الحسن: أما المؤلفة قلوبهم فليس اليوم، وقال الشعبى: إنه لم يبقَ فى الناس اليوم من المؤلفة قلوبهم، إنما كانوا على عهد رسول الله ﷺ، فلمّا ولى أبو بكر انقطعت الرشى، وهذا تأويل أهل القرآن، يدل عليه حديث عمر بن الخطاب حين جاءه عيينة بن حصين فقال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) إن الإسلام أجلّ من أن يرشى عليه، أى ليس اليوم مؤلّفة.

وروى أبو عوانة عن مهاجر أبى الحسن، قال: أتيت أبا وائل وأبا بردة بالزكاة وهما على بيت المال فأخذاها، ثم جئت مرة أُخرى فوجدت أبا وائل وحده فقال ردّها فضعها فى مواضعها، قلت: فما أصنع بنصيب المؤلفة قلوبهم؟ فقال ردّه على الآخرين.

وقال أبو جعفر محمد بن على: (فى الناس) اليوم المؤلفة قلوبهم ثابتة، وهو قول أبى ثور قال: لهم سهم يعطيهم الإمام قدر ما يرى.

وقال الشافعى: المؤلّفة قلوبهم ضربان: ضرب مشركون فلا يعطون، وضرب مسلمون (إذا أعطاهم الإمام كفّوا شرهم عن المسلمين)، فأرى أن يعطيهم من سهم النبى وهو خمس الخمس ما يتألّفون به سوى سهمهم مع المسلمين، يدلّ عليه أن النبى ﷺ أعطى المؤلّفة قلوبهم بعد أن فتح الله عليه الفتوح وفشا الإسلام وأعزّ أهله، وأمّا سهمهم من الزكاة فأرى أن يصرف فى تقوية الدين وفى سدّ خلة الإسلام ولا يعطى مشرك تألّف على الإسلام، ألا إنّ الله تعالى يغنى دينه عن ذلك، والله أعلم.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ مختصر أى فى فك الرقاب من الرق، واختلفوا فيهم، فقال أكثر الفقهاء: هم المكاتبون، وهو قول الشافعى والليث بن سعد، ويروى أنّ مكاتبًا قام إلى أبى موسى الأشعرى وهو يخطب الناس يوم الجمعة فقال له: أيها الأمير حثّ الناس علىّ، فحث أبو موسى، فألقى الناس ملاءة وعمامة وخاتمًا حتى ألقوا عليه سوادًا كثيرًا، فلمّا رأى أبو موسى ما ألقى الناس، قال أبو موسى: اجمعوه فجُمع، ثم أمر به فبيع فأعطى المكاتب مكاتبته، ثم أعطى الفضل فى الرقاب ولم يردّه على الناس، وقال إنما أعطى الناس فى الرقاب. وقال الحسن وابن عباس: يعتق منه الرقاب وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق وأبى عبيد وأبى ثور، وقال سعيد بن جبير والنخعى، لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة لكن يعطى منها فى ميقات

رقبة مكاتب، وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد.

قال الزهرى: سهم الرقاب نصفان: نصف لكلّ مكاتب ممن يدّعى الإسلام، والنصف الثانى لمن يشترى به رقاب ممن صلّى وصام وقدّم إسلامه من ذكر وأنثى يعتقون لله.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ قتادة: هم قوم غرقتهم الديون فى غير إملاق ولا تبذير ولا فساد.

وقال مجاهد: من احترق بيته وذهب السيل بماله، وأدان على عياله، وقال أبو جعفر الباقر: الغارمون صنفان: صنف استدانوا فى مصلحتهم أو معروف أو غير معصية ثم عجزوا عن أداء ذلك فى العرض والنقد فيعطون فى غرمهم، وصنف استدانوا فى جمالات وصلاح ذات بين ومعروف ولهم عروض إن بيعت أضرّ بهم فيعطى هؤلاء قدر عروضهم.

وذلك إذا كان دينهم فى غير فسق ولا تبذير ولا معصية، وأما من أدان فى معصية الله فلا أرى أن يعطى، وأصل الغرم الخسران والنقصان، ومن ذلك قيل للعذاب غرام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (الفرقان: ٦٥) وفلان مغرم بالنساء أى مهلك بهنّ، وما أشدّ غرامه وإغرامه بالنساء.

﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيهم الغزاة والمرابطون والمحتاجون.

فأما إذا كانوا أغنياء فاختلفوا فيه، فقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: لا يعطى الغازى إلا أن يكون منقطعًا مفلسًا، وقال مالك والشافعى وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور: يعطى الغازى منها وإن كان غنيًا، يدلّ عليه قول النبى ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة: رجل عمل عليها أو رجل اشتراها بماله، أو فى سبيل الله أو ابن السبيل، أو رجل كان له جار تصدّق عليه فأهداها له».

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المجتاز، سمّى ابن السبيل للزومه إيّاه، كقول الشاعر:

أيا ابن الحرب رجّعنى وليدًا إلى أن شبتُ فاكتملتْ لداتى

قال مجاهد والزهرى: لابن السبيل حق من الزكاة وإن كان غنيًا إذا كان منتفعًا به، وقال مالك وفقهاء العراق: هو الحاج المنقطع، وقال الشافعى: ابن السبيل من (جيران) الصدقة الذين يريدون السفر فى غير معصية فيعجزون من بلوغ سفرهم إلا بمعونة، وقال قتادة: هو الضيف.

﴿فَرِيضَةً﴾ واجبة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو نصب على القطع فى قول الكسائى، وعلى المصدر فى قول سيبويه أى: فرض الله هذه الأشياء فريضة، وقال إبراهيم بن أبى عبلة: رفع فريضة فجعلها خبرًا كما تقول: إنّما يزيد خارج ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

واختلف العلماء فى كيفية قسم الصدقات المذكورة فى هذه الآية، (وهل) يجب لكل صنف من هؤلاء الأصناف الثمانية فيها حق، أو ذلك إلى رب المال ومن يتولى قسمها فى أن له أن يعطى جميع ذلك من شاء من الأصناف الثمانية، فقال بعضهم: له قسمها ووضعها فى أى الأصناف يشاء وإنما سمّى الله تعالى الأصناف الثمانية فى الآية إعلامًا منه أن الصدقة لا تخرج من هذه الأصناف إلى غيرها لا إيجاد القسمة بينهم، وهو قول عمر بن الخطاب وحذيفة وابن عباس وابن (جبير) وعطاء وأبى العالية وميمون بن مهران وأبى حنيفة.

أخبرنا عبد الله بن حامد. أخبرنا أبو بكر الطبرى. حدّثنا على بن حرب، أخبرنا ابن فضيل، حدّثنا عطاء عن سعيد ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية، أىُّ هذه الأصناف وجدتَ أجزاك أن تعطيه صدقتك، ويقول أبو حنيفة: يجوز الاقتصار على رجل واحد من الفقراء، وقال مالك يخصّ بأمسّهم حاجةً.

كان الشافعى يجرى الآية على ظاهرها ويقول: إذا تولّى رب المال قسمتها فإن عليه وضعه فى ثلاثة أصناف لأن سهم المؤلّفة ساقط، وسهم العاملين يبطل بقسمته إياها، فإذا تولّى الإمام قسمتها فإن عليه أن يقسمها على سبعة أصناف، يجزيه أن يعطى من كل صنف منهم أقل من ثلاثة أنفس ولا يصرف السهم ولا شيئًا منه عن أهله أحد يستحقه، ولا يخرج من بلد وفيه أحد يردّ حقه ممّن لم يوجد من أهل السهام على من وجد منهم، وهذا قول عمر بن عبد العزيز، وعكرمة والزهرى.

ثمّ رجع إلى ذكر المنافقين وقال: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ يعنى من المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ نزلت فى حزام بن خالد، والجلاس بن سويد، وإياس بن قيس، ومخشى بن خويلد، وسمّاك بن يزيد، وعبيد بن هلال ورفاعة بن المقداد، وعبيدة بن مالك، ورفاعة بن زيد، كانوا يؤذون النبى ﷺ ويقولون ما لا ينبغى، فقال بعضهم: لا تفعلوا ما يقولون فيقع بنا، فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنّما محمد أذن سامعة فأنزل الله هذه الآية.

وقال محمد بن إسحاق عن يسار وغيره نزلت فى رجل من المنافقين يقال له: نهشل بن الحارث، وكان حاسر الرأس أحمر العينين أسفح الخدين مشوّه الخلقة، وهو الذى قال النبى ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نهشل بن الحارث»، وكان ينمّ حديث النبى ﷺ إلى المنافقين فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن، من حدّثه شيئًا يقبل، نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له ويصدقنا عليه، فأنزل: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع من كل واحد

ويقبل ما يقال له ومثله أذنة على وزن فعلة ويستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، وأصله: أذن يأذن أذنًا إذا استمع، ومنه قول النبى ﷺ: ما أذن الله لشيء كإذنه لنبى بمعنى القرآن، وقال عدى بن زيد:

أيها القلب تعلل بددن إن همى فى سماع وأَذَن

وقال الأعشى:

صمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكرتُ به وإن ذُكرتُ بشرٍّ عندهم أذنوا

وكان أستاذنا أبو القاسم الحبيبى يحكى عن أبى زكريا العنبرى عن ابن العباس الأزهرى عن أبى حاتم السجستانى أنّه قال: هو أذن أى ذو أذن سامعة.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ قراءة العامة بالإضافة أى أذن خير لا أذن شرّ، وقرأ الحسن والأشهب العقيلى: والأعمش والبرجمى: ﴿أُذُنُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مرفوعًا من المنافقين ومعناه: إنْ كان محمدًا كما تزعمون بأن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم.

ثم كذّبهم فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعلمهم، وقيل: يقال أمنتك وأمنت لك بمعنى صدقتك كقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون:٥٨) أى (. . . .)[1] ربهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ قرأ الحسن وطلحة والأعمش وحمزة: (ورحمة) عطفًا على معنى أُذن خير وأُذن شر فى قول عبد الله وأُبى، وقرأ الباقون: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع أى: هو أُذن خير، وهو رحمة، جعل الله تعالى محمدًا ﷺ مفتاح الرحمة ومصباح الظلمة وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ قال قتادة والسدّى: (اجتمع نفر) من المنافقين منهم جلاس بن سويد وذريعة بن ثابت فوقعوا فى النبى ﷺ وقالوا: لئن كان ما يقول محمد حقًّا لنحن شر من الحمير، وكان سمعهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فحقروه وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إنّ ما يقوله محمد حق وأنتم شر من الحمير، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا إن عامرًا كذّاب، وحلف عامر أنهم كذبة، فصدقهم النبى ﷺ فجعل عامر يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، وقد كان قال بعضهم فى ذلك: يا معشر المنافقين والله إنى شر خلق الله، لوددت أنى قدمت فجلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وقال مقاتل والكلبى: نزلت هذه الآية فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلمّا رجع رسول الله ﷺ من تبوك أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم من تخلّفهم، ويطلبون ويحلفون،

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ وقد كان حقه يرضوهما وقد مضت هذه المسألة، قال الشاعر:

مـا كان حبك والشقاء لتنتهى حتى يجازونك فى مغار محصد

أى الحبل.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ وقراءة العامة بالياء على الخبر، وقرأ السلمى بالتاء على الخطاب ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، قال مجاهد: كانوا يقولون القول بينهم ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشى سرّنا فقال الله لنبيّه متهدداً ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة والمثيرة والمبعثرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم. قال الحسن: كان المسلمون يسمّون هذه السورة الحفّارة، حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته.

قال ابن كيسان نزلت هذه الآية فى اثنى عشر رجلاً من المنافقين وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا حلأها، ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه وتنكروا له فى ليلة مظلمة فأخبر جبرائيل رسول الله ﷺ ما قدموا له، وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم، وعمار بن ياسر يقود برسول الله ﷺ وحذيفة يسوق به.

فقال لحذيفة: اضرب بها وجوه رواحلهم، فضربها حتى نحاهم، فلمّا نزل قال لحذيفة: هل عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال رسول الله ﷺ: إنّهم فلان وفلان حتى عدهم كلّهم، فقال حذيفة ألا تبعث إليهم فتقتلهم، قال: «أكره أن يقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيكم الله الدبيلة» قيل: يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من جهنم يوضع على نياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه فكان كذلك».

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ الآية، قال ابن عمر وقتادة وزيد بن أسلم ومحمد بن كعب: قال رجل من المنافقين فى غزوة تبوك: ما رأيت مثل (قرائنا) هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقة فقال: يا رسول الله إنما كنّا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب يقطع به عنا الطريق.

قال ابن عمر: كأنى أنظر إليه متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: إنا كنّا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله ﷺ ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ فالتفت

إليه وما يزيده عليه.

وقال قتادة: بينما رسول الله ﷺ يسير فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا أيظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيّه على ذلك فقال النبى ﷺ: احبسوا علىَّ الركب، فدعاهم فقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا يا نبى الله إنما كنا نخوض ونلعب، وحلفوا على ذلك، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وقال مجاهد: قال رجل من المنافقين: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادى كذا وكذا وما يدريه ما الغيب، فأنزل الله هذه الآية، وقال ابن كيسان: نزلت فى وديعة بن ثابت وهو الذى قال هذه المقالة، وقال الضحاك: نزلت فى عبد الله بن أبى ورهطه كانوا يقولون فى رسول الله ﷺ وأصحابه ما لا ينبغى، فإذا بلغ رسول الله ﷺ ذلك قالوا: إنّما كنا نخوض ونلعب قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم﴾ بقولكم هذا ﴿بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ إقراركم ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ قراءة العامة بضم الياء والتاء على غير تسمية الفاعل، وقرأ عاصم: ﴿إِن نَّعْفُ﴾ بنون مفتوحة وفاء مضمومة، ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالنون وكسر الذال ﴿طَآئِفَةً﴾ بالنصب، والطائفة فى هذه الآية رجل يقال له مخشى بن حمير الأشجعى، أنكر عليهم بعدما سمع ولم يمالئهم عليه وجعل يسير مجانبًا لهم، فلمّا نزلت هذه الآية تاب من نفاقه وقال: اللهم إنى لا أزال أسمع آية تقرأ أعنى بها، تقشعر منها الجلود وتجل وتجب فيها القلوب، اللهم فاجعل وفاتى قتلاً فى سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة فيمن قتل فما أحد من المسلمين إلا وجدوه وعرف مصرعه غيره.

وقيل: معناه إن يتب على طائفة منكم فيعف الله عنهم ليعذب طائفة بترك التوبة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أى شكل بعض وعلى دين بعض، يعنى أنهم صنف واحد وعلى أمر واحد، ثم ذكر أمرهم فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالكفر والمعصية ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ يمسكونها ويكفّونها عن الصدقة والنفقة فى الحق ولا يبسطونها بالخير، وأصله: أنّ المعطى يمد يده ويبسطها بالخير، فقيل لمن بخل ومنع قد قبض يده، ومنه قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: ٦٤) أى ممسكة عن النفقة.

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعة الله فتركهم الله من توفيقه وهدايته فى الدنيا ومن رحمته المنجية من عذابه وناره فى العقبى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ

﴿وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ كافيتهم عذابًا وجزاءً على كفرهم ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته ولهم عذاب مقيم ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يعنى فعلتم كفعل الذين كانوا من قبلكم ولُعنتم وعُذّبتم كما لعن الذين كانوا من قبلكم من كفار الأُمم الخالية ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾ بطشًا ومنعة ﴿وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ﴾ وتمتعوا وانتفعوا ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ بنصيبهم من الدنيا ورضوا به عوضًا من الآخرة.

قال أبو هريرة: الخلاق: الدين ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ﴾ فى الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين ﴿كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ أراد كالذين خاضوا وذلك أن (الذى) اسم ناقص مثل (ما) و (من) يعبّر بها عن الواحد والجميع نظير قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ﴾ ثم قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ (البقرة: ١٧) قال الشاعر:

وإنّ الذى حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كل القوم يا أم خالد

وإن شئت جعلت (الذى) إشارة إلى ضمير، وقوله: خضتم كالخوض الذى خاضوا فيه إلى قوله الخاسرون.

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ: لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعًا بذراع وشبراً بشبر وباعًا بباع، حتى لو أن أحدًا من ثمّ أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه، قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾ الآية، قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب، قال: «وهل الناس إلا هم».

قال ابن عباس فى هذه الآية: ما أشبه الليلة بالبارحة، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، وقال ابن مسعود: أنتم أشبه الأمم ببنى إسرائيل سمتًا وهديًا، تتبعون عملهم حذو القذّة بالقذّة غير أنى لا أدرى أتعبدون العجل أم لا.

وقال حذيفة: المنافقون الذين فيكم اليوم شرٌّ من المنافقين الذين كانوا على عهد النبى ﷺ، قلنا: وكيف؟ قال: أُولئك كانوا يخفون نفاقهم وهؤلاء أعلنوه.

❖ ❖ ❖

﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ

ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾»

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ يعنى المنافقين والكافرين ﴿نَبَأُ﴾ خبر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حين عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا كيف أهلكناهم وعذّبناهم ثم ذكرهم. فقال ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بالمعنى بدلاً من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أهلكوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ أُهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بسلب النعمة وهلاك نمرود ﴿وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ﴾ يعنى قوم شعيب بعذاب يوم الظلّة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾ المنقلبات التى جعلت عاليها سافلها، وهم قوم لوط ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ فكذبوهم وعصوهم كما فعلتم يا معشر الكفّار فاحذروا بتعجيل النقمة ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فى الدين والملة والعون والنصرة والمحبة والرحمة. قال جرير بن عبد الله سمعت النبى ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة».

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والخير ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ما لا يعرف فى شريعة ولا سنّة.

قال أبو العالية كل ما ذكر الله تعالى فى كتابه من الأمر بالمعروف فهو رجوع من الشرك إلى الإسلام، والنهى عن المنكر فهو النهى عن عبادة الأوثان والشيطان ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ ومنازل طيبة.

قال الحسن: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين عن قول الله ﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾. قالا: على الخبير سقطت، سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «قصر فى الجنة من لؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء، فى كل دار سبعون بيتًا من زبرجدة خضراء، فى كل بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشًا، على كل فراش زوجة من الحور العين، وفى كل بيت مائدة وعلى كل مائدة سبعون لونًا من الطعام، وفى كل بيت وصيفة، ويعطى المؤمن من القوة فى غداة واحدة ما يأتى على ذلك أجمع».

﴿فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ فى بساتين ظلال وإقامة، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به، ومنه المعدن، قال رسول الله ﷺ: «عدن دار الله التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة من النبيّين والصدّيقين والشهداء، يقول الله: طوبى لمن دخلك».

وقال عبد الله بن مسعود: هى بطنان الجنة أى وسطها، وقال ابن عباس: سألت كعبًا عن

جنات عدن فقال: هى الكروم والأعناب بالسريانية، وقال عبد الله بن عمر: إنّ فى الجنة قصراً يقال له عدن، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، على كل باب (حبرة) لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد.

قال الحسن: جنات عدن، وما أدراك ما جنات عدن، قصر من ذهب لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد أو حكم عدل، ورفع به صوته. (فى حديث آخر قصر) فى الجنة يقال له: عدن، حوله البروج والمروج له خمسون ألف باب، وقال الضحاك: هى مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد، والجنان حولها.

وقال عطاء بن السايب: عدن نهر فى الجنة جناته على حافتيه، وقال مقاتل والكلبى: أعلى درجة فى الجنة وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها وهى مغطاة من يوم خلقها الله عز وجل حتى ينزلها أهلها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله، وفيها قصور الدرة والياقوت والذهب، فتهب الريح الطيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأحلى، وقال عطاء الخراسانى فى قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾ قال: قصر من الزبرجد والدرّ والياقوت يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام فى جنات عدن، وهى قصبة الجنة وسقفها عرش الرحمن.

﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ رفع على الابتداء، أى رضا الله عنهم أكبر من ذلك كله.

روى مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربّنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من رضاك؟ فيقول: ألا أعلمكم أفضل من ذلك؟ قالوا: وأى شىء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا».

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف والقتال ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ .

اختلفوا فى صفة جهاد المنافقين، قال ابن مسعود: بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فاكفهر فى وجهه. قال ابن عباس: باللسان وشدة الزجر بتغليظ الكلام، قال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم، ثم قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قال (ابن مسعود وابن عباس) وهذه الآية نسخت كل شىء من العفو (والصلح) والصفح.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالسًا فى ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينىّ شيطان، إذا جاء فلا تكلّموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمنى أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الضحاك: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبّوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا فى الدين، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقال النبى: «يا أهل النفاق ما هذا الذى بلغنى عنكم؟» فحلفوا لرسول الله ﷺ ما قالوا بشىء من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية إكذابًا لهم.

وقال الكلبى: نزلت فى الجلاس بن سويد بن الصامت (لأنّ) رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجسًا وعابهم، فقال الجلاس: والله إن كان محمد صادقًا فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل والله إن محمدًا لصادق مصدق وأنتم شر من الحمير.

فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاّس: كَذب يا رسول الله علىّ، ما قلتُ شيئًا من ذلك، فأمر رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر بعد العصر، فحلف بالله الذى لا إله إلاّ هو ما قاله، وإنه كذب علىّ عامر، ثم قام عامر فحلف بالله الذى لا إله إلاّ هو لقد قاله وما كذبت عليه، ثم رفع عامر بيديه إلى السماء فقال: اللهم أنزل على نبيك الصادق منا المصدّق، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: آمين، فنزل جبرئيل على النبى ﷺ قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فقام الجلاس، فقال: يا رسول الله أسمع الله قد عرض علىّ التوبة، صدق عامر بن قيس فى ذلك، لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه ثم تاب فحسن توبته.

قال قتادة: ذُكر لنا أن رجلين اقتتلا: رجلاً من جهينة، ورجلاً من غفار، وكانت جهينة

حلفاء الأنصار، وظفر الغفارى على الجهينى، فنادى عبد الله بن أبى: أيّها الأوس انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلاّ كما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك.

ثم قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ (المنافقون:٨) فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إليه، فجعل يحلف بالله ما قال، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ .

قال مجاهد: هم المنافقون بنقل المؤمن الذى يقول لنحن شر من الحمير لكى لا يفشيه عليه.

قال السدى: قالوا إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أُبى تاجًا يباهى به (. . . .)[1] إليه.

وقال الكلبى: هم خمسة عشر رجلاً منهم عبد الله بن أُبى، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح، وطعمة بن أُبيرق والجلاس بن سويد وعامر بن النعمان وأبو الأحوص، همّوا بقتل النبى ﷺ فى غزوة تبوك فأخبر جبرائيل بذلك رسول الله ﷺ، وقيل: إنهم من قريش هموا فى قتل النبى ﷺ فمنعه الله عز وجل.

جابر عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنه فى هذه الآية قال: هَمَّ رجل من قريش يقال له الأسود بقتل ﷺ ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ منه، ما أنكروا منه ولا (ينقمون) ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (ويقال: إنّ القتيل) مولى الجلاس قُتل، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثنى عشر ألفًا فاستغنى، وقال الكلبى: كانوا قبل قدوم النبى ﷺ فى ضنك من عيشهم، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، فلمّا قدم النبى ﷺ استغنوا بالغنائم، وهذا مثل مشهور: اتّق شر من أحسنت إليه. ثم قال الله عز وجل: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ يعرضوا عن الإيمان ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والخزى ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بالنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآية.

روى القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أُمامة الباهلى قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدّى شكره خير من كثير لا تطيقه» ثم أتاه بعد ذلك. فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، والذى نفسى بيده لو أردت أن تصير الجبال معى ذهبًا وفضة لصارت» ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالاً لأعطينّ كلّ ذى حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً».

قال: فاتخذ غنمًا فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها، فنزل واديًا من أوديتها وهى تنمو كما تنمو الدود، وكان يصلّى مع النبى ﷺ الظهر، ويصلى فى غنمه سائر الصلوات، ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة يمر على الناس يسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ وسأل ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنمًا ما يسعها واد.

فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» وأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بنى سليم ورجلاً من جهينة وكتب لهما إتيان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما رسول الله ﷺ: «مُرّا بثعلبة بن حاطب ورجل من بنى سليم فخذا صدقاتهما».

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وقرآا له كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أُخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلىّ، فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلمّا زادها قالا: ما هذا عليك، قال: خذاه فإن نفسى بذلك طيبة، فمرّا على الناس وأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أرونى كتابكما فقرأه ثم قال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أُخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيى، قال: فأقبلا فلمّا رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يتكلّما قال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» ثم دعا للسلمى بخير فأخبراه بالذى صنع ثعلبة، فأنزل الله فيه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع قوله فخرج حتى أتاه فال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله عز وجل فيك

كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ فسأله أن يقبل منه الصدقة.

فقال: «إن الله تعالى منعنى أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثى على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى» فلما نهى أن يُقبض رسول الله ﷺ رجع إلى منزله وقُبض رسول الله ﷺ ولم يقبض ولم يقبل منه شيئًا ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلتى من رسول الله ﷺ وموضعى من الأنصار فاقبل صدقتى، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأنا أقبلها؟ فلم يقبل، وقُبض أبو بكر فلم يقبلها، فلمّا ولى عمر رضى الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى، فقال: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، أنا لا أقبلها، فقُبض عمر ولم يقبلها، ثم ولى عثمان فأتاه فسأله أن يقبل صدقته فقال: لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر، أنا لا أقبلها منك، فلم يقبلها منه وهلك فى خلافة عثمان.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: أتى ثعلبة مجلسًا من الأنصار فأشهدهم فقال: لئن آتانى الله من فضله أتيت منه كل ذى حق حقه، وتصدّقت منه، ووصلت القرابة، فمات ابن عم له فورثه مالاً فلم يوف بما قال، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال مقاتل: مرّ ثعلبة على الأنصار وهو محتاج، فقال: لئن آتانى الله من فضله لأصّدقن وأكوننّ من الصالحين فآتاه الله من فضله وذلك أن مولى لعمر بن الخطاب قتل رجلاً من المنافقين خطأ فدفع النبى ﷺ ديته إلى ثعلبة، وكان من قرابة المقتول فبخل ومنع حق الله فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

وقال الحسن ومجاهد: نزلت هذه الآية فى ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما رجلان من بنى عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا: والله لئن رزقنا الله لنصّدقنّ، فلمّا رزقهما الله تعالى بخلا.

وقال الضحاك: نزلت فى رجال من المنافقين (نبتل) بن الحارث وجدّ بن قيس وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير قالوا: لئن آتانا الله من فضله لنصّدقنّ، فلمّا آتاهم الله من فضله وبسط لهم الدنيا بخلوا به ومنعوا الزكاة.

وقال الكلبى: نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة، كان له مال بالشام فجهد لذلك جهداً شديداً فحلف بالله: لئن آتانا الله من فضله من رزقه يعنى المال الذى بالشام لأصدّقن منه ولأصلنّ ولآتين حق الله منه، فآتاه الله ذلك المال فلم يفعل ما قال، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَمِنْهُم﴾ يعنى من المنافقين ﴿مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ولنوفّينّ حق الله منه ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ

﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أى نعمل ما يعمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم والنفقة فى الخير ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ﴾ فأتبعهم، وقيل فجازاهم ببخلهم. قال النابغة:

فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادلله على الرشد

﴿نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ حرمهم الله التوبة ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ قال معبد بن ثابت: إنما هو (شىء) ظاهر فى أنفسهم ولم يتكلموا به، ألم تسمع قول الله عزّ وجلّ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؟

عن مسروق عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خصم فجر».

الأشعث عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه فهو منافق وإن صلّى وصام وزعم أنه مؤمن. إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، إذا اؤتمن خان».

وقال عبد الله بن مسعود اعتبروا المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، أنزل الله تصديق ذلك فى كتابه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾، وهذا خبر صعب الظاهر. فمن لم يعلم تأويله عظم خطؤه وتفسيره.

أخبرنى شيخى الحسن بن محمد بن الحسن بن جعفر، قال: أخبرنى أبى عن جدى الحسين ابن جعفر، قال: حدّثنا محمد بن يزيد السلمى، قال: حدّثنا مار بن قيراط عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قال: كنت على قضاء سمرقند فقرأت يومًا حديث المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «ثلاث من كُنّ فيه فهو منافق: إذا حدّث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف».

فتوزع فيه فكرى وانقسم قلبى وخفت على نفسى وعلى جميع الناس وقلت من ينجو من هذه الخصال؟ (فأخللت) بالقضاء وأتيت بخارى وسألت علماءها فلم أجد فرجًا، فأتيت مرو فلم أجد فرجًا، فأتيت نيسابور فلم أجد عند علمائها فرجًا، فبلغنى أن شهر بن حوشب بجرجان فأتيته وعرضت عليه قصتى وسألت عن الخبر، فقال لى: لم (أكن) أنا (حين) سمعت هذا الخبر كالحبة على المقلاة خوفًا فأدركْ سعيد بن جبير فإنه متولد بالريّ فاطلبه وسله لعلك تجد لى ولك، وسمعت أن عنده فرجًا، فأتيت الرى وطلبت سعيدًا فأتيته وعرضت عليه القصة وسألته عن معنى الخبر.

فقال: أنا كذلك خائف على نفسى منذ بلغنى هذا الخبر، وأنا خائف عليك وعلى نفسى من هذه الخصال: وقد قاسيت وعانيت سفرًا طويلاً وبلايا فعليك بالحسن البصرى فإنى أرجو أن تجد عنده لى ولك وللمسلمين فرجًا، فأتيت البصرة وطلبت الحسن وقصصت عليه القصة بطولها، فقال رحم الله شهرًا قد بلغها النصف من الخبر ولم يبلغهما النصف، إن رسول الله ﷺ لما قال هذا الخبر شغل قلوب أصحابه (وهابوا) أن يسألوه، فأتوا فاطمة وذكروا لها شغل قلوبهم بالخبر، فأتت فاطمة رضى الله عنها رسول الله ﷺ فأخبرته شغل قلوب أصحابه، فأمر سلمان فنادى الصلاة جامعة، فلمّا اجتمعوا صعد المنبر فقال: «يا أيها الناس أما إنّى كنت قلت: ثلاث من كُنّ فيه فهو منافق: إذا حدّث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف، ما عنيتكم بها، إنّما عنيت بها المنافقين، إنما قولى: إذا حدّث كذب فإن المنافقين أتونى وقالوا لى: والله إن إيماننا كإيمانك وتصديق قلوبنا كتصديق قلبك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ (المنافقون: ١) الآية، وأما قولى: إذا اؤتمن خان: فإن الأمانة الصلاة والدين كلّه أمانة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٤٢)، وفيهم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: ٤، ٥) وأما قولى: إذا وعد أخلف، فإنّ ثعلبة بن حاطب أتانى فقال: إنى فقير ولى غنيمات فادع الله أن يبارك فيهن، فدعوت الله فنمتْ وزادت حتى ضاقت الفجاج بها، فسألته الصدقات فأبى علىّ وبخل بها، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾».

فسُرّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكبّروا وتصدّقوا بمال عظيم.

وروى القاسم بن بشر عن أُسامة عن محمد (المخرمى) قال: سمعت الحسن يقول: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: (من) إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

فقال الحسن: يا أبا سعيد والله لئن كان لرجل علىَّ دين فلقينى فتقاضانى وليس عندى فخفت أن يحبسنى ويهلكنى فوعدته أن أقضيه رأس الهلال فلم أفعل أمنافق أنا؟! هكذا جاء الحديث.

ثم حدّث عن عبد الله بن عمرو أن أباه لما حضره الموت قال: زوّجوا فلانًا فإنى وعدته أن أزوجه، لا ألقى الله بثلث النفاق، قال: قلت: يا أبا سعيد ويكون ثلث الرجل منافقًا وثلثاه مؤمنًا؟ قال: هكذا جاء الحديث.

قال محمد: فحججت فلقيت عطاء بن أبى رباح فأخبرته بالحديث الذى سمعته من الحسن وما الذى قلت له عن المنافق وما قال لى: فقال لى أعجزت أن تقول له: أخبرنى عن إخوة يوسف ألم يَعدُوا أباهم فأخلفوه وحدثوه فكذبوه وائتمنهم فخانوه أفمنافقين كانوا ألم يكونوا أنبياء، أبوهم نبىّ وجدّهم نبىّ؟

فقلت لعطاء: يا أبا مُحَمّد حَدّثنى بأصل هذا الحديث، فقال: حَدّثنى جابر بن عبد الله أنّ رسول الله ﷺ إنما قال هذا الحديث فى المنافقين خاصة الذين حدثوا النبى ﷺ فكذبوه وائتمنهم على سرّه فخانوه ووعدوه أن يخرجوا معه إلى الغزوة فأخلفوه، قال: فخرج أبو سفيان من مكة فأتى جبريل فقال: إن أبا سفيان فى مكان كذا وكذا، فقال النبى ﷺ: «إن أبا سفيان فى مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريد بعثكم فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٧)، وأنزل فى المنافقين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾. قال: إذا أتيت الحسن فأقرئه منى السلام فأخبره أصل هذا الحديث وبما قلت لك.

فقدمت على الحسن وقلت: يا أبا سعيد إن أخاك محمّداً يقرئك السلام، فأخبرته بالحديث الذى حدث. فأخذ الحسن يدى فأحالها وقال: يا أهل العراق أعجزتم أن تكونوا مثل هذا، سمع منا حديثًا فلم يقبله حتى استنبط أصله، صدق عطاء هكذا الحديث فى المنافقين خاصة.

❖ ❖ ❖

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ

قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟
بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ قال أهل التفسير: حثَّ رسول الله ﷺ على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: يا رسول الله مالى ثمانية آلاف فجئتك بأربعة آلاف فاجعلها فى سبيل الله، فأمسكت أربعة آلاف لعيالى. فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت».

فبارك الله فى مال عبد الرحمن حتى مات وعنده امرأتان يوم مات فبلغ ثمن مالهما مائة وستين ألف درهم لكل واحدة منها ثمانون ألفًا، وتصدّق يومئذ عاصم بن عدى العجلانى بمائة وستين وسقًا من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصارى ـ واسمه الحباب ـ بصاع من تمر وقال: يا رسول الله بتُّ ليلتى أجرّ بالجرير أحبلاً حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لأهلى وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره فى الصدقات، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلاّ رياء، ولقد كان الله ورسوله غنيين عن صاع أبى عقيل، ولكنه أحبَّ أن يزكى نفسه ليعطى الصدقة فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أى يعيبون ويغتابون المطوعين المتبرعين من المؤمنين فى الصدقات.

وقال النضر بن شميل: هو الطيب نفسه فى الصدقة يعنى عبد الرحمن وعاصمًا.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقتهم يعنى أبا عقيل. قرأ عطاء والأعرج: (جهدهم) بفتح الجيم، وهما لغتان مثل الجهد والجهيد، والضم لغة أهل الحجاز، والفتح لغة أهل نجد.

وكان الشعبى يفرق بينهما فيقول الجُهد: فى العمل والجَهد فى القوة، وقال القتيبى فى الجُهد: الطاقة والجَهد المشقة ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أو جازاهم ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

روى ابن عليّة عن الحريرى عن أبى العليل قال: وقف على الحجر رجل فقال: حدثنى أبى أو عمّى قال: شهدت رسول الله ﷺ وهو يقول: «من يصدّق اليوم بصدقة أشهد له بها عند الله يوم القيامة». قال: وعلىَّ عمامة لى فنزعت منها لوثًا أو لوثين لأتصدق بها ثم أدركنى بما يدرك ابن آدم فعصبّت بها رأسى، قال: فجاء رجل لا أرى بالبقيع رجلاً أقصر قامة ولا أشدّ سوادًا ولا أدم منه يقود ناقة لم أرَ بالبقيع ناقة أحسن ولا أجمل منها. فقال: هى وما فى بطنها صدقة يا رسول الله، فألقى إليه بخطامها قال: فلمزه رجل جالس فقال: والله لمَ يتصدق بها ولهى خير منه. فنظر رسول الله ﷺ وقال: «بل هو خير منك ومنها»، يقول ذلك مليًا فأنزل الله عزّ وجل هذه الآية ثم قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعنى لهؤلاء المنافقين ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لفظه (أمر ومعناه) جزاء تقديره: إن استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ والسبعون عند العرب غاية تستقصى بالسبعة، والأعضاء، والسبعة تتمة عدد الخلق، كالسموات والأرض والبحار والأقاليم.

ورأيت فى بعض التفاسير: إن تستغفر لهم سبعين مرّة بإزاء صلواتك على حمزة لن يغفر الله لهم.

قال الضحاك: لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إنّ الله قد رخّص لى فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم».

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (المنافقون: ٦).

وذكر عروة بن الزبير أن هذه الآيات نزلت فى عبد الله بن أُبى حين قال لأصحابه: لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضّوا من حوله، ثمّ قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨). فأنزل الله تعالى ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾. فقال النبى ﷺ: «لأزيدن على السبعين» فأنزل الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (المنافقون: ٦) فأبى الله أن يغفر لهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عن غزوة تبوك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ قال قطرب والمؤرج: يعنى مخالفة لرسول الله حين سار وأقاموا، وقال أبو عبيدة: يعنى بعد رسول الله ﷺ.

وأنشد الحارث بن خالد:

عقب الربيع خلافهم فكأنما ... بسط الشواطب بينهن حصيرا

أى بعدهم، ويدل على هذا التأويل قراءة عمرو بن ميمون: خلف رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ يعلمون ذلك، هُو فى مصحف عبد الله ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ فى الدنيا ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ قال أبو موسى الأشعرى: إن أهل النار ليبكون الدموع فى النار حتى لو أجريت السفن من دموعهم لجرت، ثمّ إنهم ليبكون الدم بعد الدموع ولمثل ما هم فيه فليبكى.

وقال ابن عباس: إن أهل النفاق ليبكون فى النار عمر الدنيا فلا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم.

شعبة عن قتادة عن أنس قال: قال أنس: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ من غزوة تبوك ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعنى من المخلّفين فإنما قال طائفة منهم لأنه ليس كل من تخلّف عن تبوك كان منافقًا ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ فى أن يكونوا فى غزاة أخرى ﴿فَقُل﴾ لهم ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ عقوبة لهم على تخلّفهم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بمعنى تخلّفوا عن غزوة تبوك ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ قال ابن عباس: الرجال الذين تخلفوا بغير عذر.

الضحاك: النساء والصبيان والمرضى والزمنى، وقيل: مع الخالفين. قال الفراء: يقال: عبد خالف وتخالف إذا كان مخالفًا، وقيل: (ضعفاء) الناس ويقال: خلاف أهله إذا كان ذويهم، وقيل مع أهل الفساد من قولهم: خلف الرجل على أهله يخلف خلوفًا إذا فسد، ونبيذ خَالفٌ أى فاسد (من قولك): خلف اللبن خلوفًا إذا حمض من طول وضعه فى السقاء، وخلف فَمُ الصائم إذا تغيَّرت ريحه، ومنه خلف سوء، وقرأ مالك بن دينار: (مع المخالفين).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ قال المفسرون - بروايات مختلفة -: بعث عبد الله بن أُبى ابن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال له: أهلكك يهود، فقال: يا رسول الله إنى لم أبعث إليك لتؤنبنى ولكن بعثت إليك لتستغفر لى وسأله أن يكفنه فى قميصه ويصلى عليه، فلما مات عبد الله بن أُبى انطلق ابنه إلى النبى عليه السلام ودعاه إلى جنازة أبيه فقال له النبى ﷺ: ما اسمك؟ قال: الحباب بن عبد الله فقال: «أنت عبد الله بن عبد الله، فإنَّ الحباب هو الشيطان». ثم انطلق رسول الله ﷺ فلما قام قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا رسول الله تصلى على عدو الله ابن أبى القائل يوم كذا وكذا، وجعل يعد أيامه ورسول الله ﷺ يبتسم حتى إذا أكثر عليه قال: عنى يا عمر إنما خيرنى الله فاخترت، قيل لى ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ هو أعلم فإن زدت على

السبعين غفر له؟؟ ثم شهّده وكفّنه فى قميصه ونفث فى جنازته ودلاه فى قبره.

قال عمر رضى الله عنه: فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ. فما لبث رسول الله ﷺ إلاّ يسيرًا حتى نزلت ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ أى لا تصل على قبره بمحل ولا تتولّ دفنه: من قولهم قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قبض، وعُيِّر رسول الله ﷺ فيما فعل بعبد الله بن أبى فقال رسول الله ﷺ: «وما يغنى عنه قميصى وصلاتى من الله والله إنى كنت أرجو أن يُسلم به ألف من قومه».

قال الزجاج: فأسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب الاستغفار بثوب رسول الله ﷺ وذكروا أنّ النبى ﷺ أسرّ إلى حذيفة اثنى عشر رجلاً من المنافقين فقال ستة يكفيهم الله بألف مائة شهاب من نار تأخذ كتف أحدهم حتى يفضى إلى صدره، وستة يموتون موتًا. فسأل عمر حذيفة عنهم فقال: ما أنا بمخبرك أحدًا منهم ما كان حيًا. فقال عمر: يا حذيفة أمنهم أنا؟ قال: لا. قال: أفى أصحابى منهم أحد. فقال: رجل واحد. قال: فكأنما دلّ عليهم عمر حتى نزعه من غير أن يخبره به.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ الآية ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ الغنى منهم جدّ بن قيس ومعتب بن قشير وأمثالهما ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ ورحالهم ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ يعنى النساء ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ يعنى الحسنات.

وقال المبرد: يعنى الجوارى الفاضلات. قال الله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ (الرحمن: ٧٠) واحدها الخيرة وهى الفاضلة من كل شىء. قال الشاعر:

ولقد طعنت مجامع الربلات ... ربلات هند خير الملكات

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ الآية.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ قرأ ابن عباس وأبو عبد الرحمن والضحاك وحميد ويعقوب ومجاهد وقتيبة: (المعذرون) خفيفة، ومنهم المجتهدون المبالغون فى العذرة، وقال الضحاك: هم رهط عامر بن الطفيل تخلّفوا عن رسول الله ﷺ يوم تبوك خوفًا على أنفسهم فقالوا: يا رسول الله إن نحن غزونا معك تُغيرُ أعراب طىء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال رسول الله ﷺ لهم: «قد أنبأنى الله منَ أخباركم وسيغنينى الله عنكم».

قال ابن عباس: هم الذين تخلفوا بغير إذن رسول الله ﷺ، لأن الميم لا تدغم فى العين، وقرأ مسلمة: (المعذرون) بتشديد العين والذال ولا وجه لها لأن الميم لا يدغم فى العين لبعد مخرجيهما، وقرأ الباقون: بتشديد الذال، وهم المقصرون.

يقال: أعذر فى الأمر بالمعذرة وعذر إذا قصر.

وقال الفراء: أصله المعتذر فأُدغمت التاء فى الذال وقلبت حركة التاء إلى العين.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ﴾ قراءة العامة بتخفيف الذال يعنون المنافقين، وقرأ أُبى والحسن: (كذبوا الله) بالتشديد ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم ذكر أهل العذر فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ قال ابن عباس: يعنى الزمنى والمشايخ والعجزة ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ يعنى الفقراء ﴿حَرَجٌ﴾ إثم ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فى مغيبهم ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ
تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ
أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٩٣ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ
إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ
عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤
سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ
جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۗ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ۝ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾

قال قتادة: نزلت فى عائذ بن عمرو وأصحابه، وقال الضحاك: فى عبد الله بن زايد وهو ابن أم مكتوم وكان ضرير البصر فقال: يا نبى الله إنى شيخ ضرير البصر خفيف الحال نحيف الجسم وليس لى فائدة هل لى رخصة فى التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبى ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت فى البكائين وكانوا سبعة: معقل بن يسار وصخر بن خنساء - وهو الذى واقع امرأته فى رمضان فأخبره رسول الله ﷺ أن يكفّر - وعبد الله بن كعب الأنصارى وعبد الله بن زيد الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا نبى الله إن الله عزّ وجلّ قد ندبنا للخروج معك فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو معك، فقال النبى ﷺ: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فتولوا وهم يبكون فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ قال مجاهد: نزلت هذه الآية فى عبد الله وعبد الرحمن وعقيل والنعمان وسويد وسنان ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ الآية ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أن نصدّقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ فيما بعد أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من المحسن والمسىء ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ انصرفتم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ (لتصفحوا عن جرمهم ولا) تردوهم ولا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ ودعوهم وما اختاروا لأنفسهم من الشأن والمعصية ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ نجس قال عطاء: إن عملهم نجس ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ قال ابن عباس: نزلت فى جدّ بن قيس

ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين فقال النبى ﷺ: «إذا قدموا المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم».

وقال مقاتل: نزلت فى عبد الله بن أبىّ حلف النبى ﷺ بالذى لا إله إلاّ هو أن لا يرضى عنهم بعدها، وليكون معه على عدوه وطلب إلى النبى ﷺ أن يرضى عنه فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝ الْأَعْرَابُ﴾ يعنى أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أحرى وأولى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال قتادة: هم أقل علمًا بالسنن.

وروى الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو مع أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابى: والله ما أدرى، إن حديثك ليعجبنى وإنّ يدك لترعبنى فقال: أى يد من يدى إنها الشمال، فقال الأعرابى: والله ما أدرى اليمين يقطعون أم الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الآية ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ قال عطاء: لا يرجو على إعطائه ثوابًا ولا يخاف على إمساكه لها إنما ينفق خوفًا رياءً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ يعنى صروف الزمان التى تأتى مرّة بالخير ومرّة بالشرّ. قال: إن متى ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر المشركون ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو بضم السين ههنا وفى سورة الفتح، ومعناه الشر والضر والبلاء والمكروه، وقرأ الباقون على الفتح بالمصدر واختاره أبو عبيد وأبو حاتم فى هذه الآية ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أسد وغطفان وتميم وأعراب حاضرى المدينة ثم استثنى فقال ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وقال الضحاك: يعنى عبد الله ذا النجادين ورهطه.

وقال الكلبى أسلم وغفار بنو جهينة ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ جمع قرابة ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ يعنى دعاءه واستغفاره ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا منازلهم وأوطانهم ﴿وَالْأَنصَارِ﴾ الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل المدينة وأيّدوا أصحابه وقد كانوا آمنوا قبل أن يهاجروا إليهم بحولين ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ يعنى الذين سلكوا سبيلهم فى الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة. وقال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين بالوفاء والترحم والدعاء ويذكرون مجاورتهم ويسألون الله أن يجمع بينهم.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ: (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار

الذين اتبعوهم بإحسان) برفع الواو وحذف الواو من الذين، قال له أُبىّ بن كعب: إنما هو والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وإنه قد كرّرها مراراً ثلاثًا، فقال له: إنى والله لقد قرأتها على رسول الله ﷺ والذين اتبعوهم بإحسان، وإنك يومئذ شيخ تسكن ببقيع الغرقد، قال: حفظتم ونسينا وتفرغتم وشغلنا وشهدتم وغبنا ثم قال عمر لأُبىّ: أفيهم الأنصار؟ قال: نعم ولم يستأ من الخطاب ومن ثمّ قال عمر: قد كنت أظن أنّا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبى: بلى، تصديق ذلك أول سورة الجمعة وأواسط سورة الحشر وآخر سورة الأنفال. قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ (الجمعة: ٣) إلى آخره، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ (الحشر: ١٠) إلى آخر الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ (الأنفال: ٧٥)، وقرأ الحسن وسلام ويعقوب: (والأنصارُ) رفعًا عطفًا على السابقين ولم يجعلوهم منهم وجعلوا السبق للمهاجرين خاصة والمقاسة على الخبر نسقًا على المهاجرين.

واختلف العلماء فى السابقين الأولين من هم. فقال أبو موسى الأشعرى وسعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين: هم الذين صلّوا القبلتين جميعًا.

وقال عطاء بن أبى رباح: هم الذين شهدوا بدراً.

وقال الشعبى: هم الذين شهدوا حجة الرضوان.

واختلفوا أيضًا فى أول من آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة بنت خويلد مع اتفاقهم أنها أول من آمن بالنبى ﷺ وصدّقته. فقال بعضهم: أول ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلّى معه على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهو قول ابن عباس وجابر وزيد بن أرقم ومحمد بن المنكدر وربيعة الرأى وأبى حازم المدنى.

وقال الكلبى: أسلم على وهو ابن تسع سنين، وقال مجاهد وابن إسحاق: أسلم وهو ابن عشر سنين.

وقال ابن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد قال: كان من نعمة الله على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وما صنع الله له وأراد به من الخير أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله للعباس وكانا من أيسر بنى هاشم: «يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ من بنيه رجلاً فنكفيهما عنه».

فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقال: إن تركتما لى عقيلاً فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله ﷺ عليًا كرم الله وجهه فضمّه إليه وأخذ العباس جعفراً يضمّه إليه فلم يزل

على رضى الله عنه مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا فاتبعه على رضى الله عنه.

فآمن به وصدقه ولم يزل جعفر مع العباس رضى الله عنه حتى أسلم واستغنى عنه.

وروى إسماعيل بن إياس بن عفيف عن أبيه عن جده عفيف قال: كنت امرأً تاجرًا فقدمت مكة أيام الحج فنزلت على العباس بن عبد المطلب وكان العباس لى صديقًا وكان يختلف إلى اليمن يشترى القطن فيبيعه أيام الموسم، فبينما أنا والعباس بمنى إذ جاء رجل شاب حين حلقت الشمس فى السماء فرمى ببصره إلى السماء ثم استقبل الكعبة فلبث مستقبلها، حتى جاء غلام فقام عن يمينه فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب وركع الغلام والمرأة فخرّ الشاب ساجدًا فسجدا معه فرفع فرفع الغلام والمرأة فقلت: يا عباس أمرٌ عظيم! فقال: أمرٌ عظيم. فقلت: ويحك ما هذا؟ فقال: هذا ابن أخى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يزعم أن الله تعالى بعثه رسولاً وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذا الغلام ابن أخى على بن أبى طالب، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمد قد تابعاه على دينه، ما على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء.

قال عبد الله الكندى بعدما رسخ الإسلام فى قلبه: ليتنى كنت رابعًا. فيروى أن أبا طالب قال لعلى رضى الله عنه: أى بنى ما هذا الذى أنت عليه قال: آمنت بالله ورسوله وصدقته فيما جاء وصليت معه لله. فقال له: أما إن محمدًا لا يدعو إلاّ إلى خير فالزمه.

وروى عبد الله بن موسى عن العلاء بن صالح عن المنهال بن عمرو عن عبّاد بن عبد الله قال: سمعت عليًا يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدى إلاّ كذاب مفترٍ، صلّيت قبل الناس بسبع سنين.

وقال بعضهم: أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر رضى الله عنه وهو قول إبراهيم النخعى وجماعة يدلّ عليه ما روى أبو أمامة الباهلى عن عمرو بن عنبسة قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ، قلت: يا رسول الله من تبعك فى هذا الأمر؟ قال ﷺ: «اتبعنى رجلان حر وعبد أبو بكر وبلال» فأسلمت عند ذلك، فلقد رأيتنى إذ ذاك ربع الإسلام.

قال: وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا الحسن على بن عبد الله البدخشى يقول سمعت أبا هريرة مزاحم بن محمد بن شاردة الكشى يقول: سمعت غياث بن معاذ يقول: سمعت وكيع بن الجراح يقول: عن إسماعيل بن خالد عن الشفهى قال: قال رجل لابن عباس: مَن أول الناس إسلامًا قال: أبو بكر رضى الله عنه أما سمعت قول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوًا من أخى ثقة   فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أزكاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدّق الرسلا

قال بعضهم: أول من أسلم من الرجال زيد بن حارثة، وهو قول الزهري وسليمان بن يسار وعروة بن الزبير وعمران بن أبي أنس، وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي جمع بين الأخبار فيقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي ومن الموالي زيد بن حارثة.

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله. قال: وكان أبو بكر رجلاً مؤالفًا لقومه محبًا سهلاً وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان منها من خير أو شر، وكان رجلاً (ناجيًا) ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يهابونه ويأتونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه ـ فيما بلغني ـ عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الإسلام من المهاجرين.

فأما سبّاق الأنصار فأهل بيعة العقبة الأولى فكانوا سبعة، والثانية كانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد الدار فعلّمهم القرآن، فهو أول من جمع الصلاة بالمدينة وكانت الأنصار تحبه فأسلم معه سعد بن معاذ وعمرو بن الجموح وبنو عبد الأشهل كلهم وخلقٌ من النساء والصبيان، وكان مصعب بن عمير صاحب راية رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم أحد وكان وقى رسول الله ﷺ بنفسه يوم أحد حيث انهزم الناس، وبقي رسول الله ﷺ حتى نفذت المشاقص في جوفه، فاستشهد يومئذ فقال رسول الله ﷺ: «عند الله أحتسبه ما رأيت قط أشرف منه لقد رأيته بمكة وإن عليه بردين ما يدرى ما قيمتهما وإنّ شراك نعليه من ذهب، وإنّ عن يمينه غلامين وعن يساره غلامين بيد كل واحد منهما (جفنة) من (طعام) يأكل ويطعم الناس، فآثره الله بالشهادة».

وكان رسول الله ﷺ إذا أهديت إليه طرفة حناها لمصعب بن عمير فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ (النازعات: ٤٠) الآية، وأُخذ أخوه يوم بدر أسيرًا فقال: أنا أبو غدير بن عمير أخو مصعب فلم يشدد من الوثاق مع الأسرى وقالوا: هذا الطريق فاذهب حيث شئت،

فقال: إنى أخاف أن تقتلنى قريش فذهبوا به إلى (. . . .)[1] فيمدّ يده بالخبز والتمر وكان يمدّ يده إلى التمر ويدع الخبز، والخبز عند أهل المدينة أعزّ من التمر، والتمر عند أهل مكة أعزّ من الخبز فلما أصبحوا حدّثوا مصعب بن عمير وقالوا له: أخوك عندنا وأخبروه بما فعلوا به. فقال: ما هو لى بأخ ولا كرامة، فشدّوا وثاقه فإن أمه أكثر أهل البطحاء حليًا فأرسلت أمه فى طلبه ثمّ أقبل يوم أحد فلما رأى أخاه مصعب بن عمير. قال فى نفسه: والله لا يقتلك غيرى فما زال حتى قتله وفيه أنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٣٧ - ٣٩) ثمّ جمعهم فى الثواب فقال: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وقرأ أهل مكة: من تحتها الأنهار (وكذا هو فى مصاحفهم) ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قال الحسن بن الفضل: والفرق بينهما أن قوله: ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ معناه تجرى من تحت الأشجار، وقوله: تجرى من تحتها أى ينبع الماء من تحتها ثمّ تجرى من تحت الأشجار.

وروى فى هذه الآية أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «أين السابقون؟» قال معاذ: قد مضى ناس فقال: السابقون المستمتعون بذكر الله من أراد أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ﴾ نزلت فى مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وكانت منازلهم حول المدينة ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه اختصار وإضمار تقديره ومن أهل المدينة قوم ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أى مرنوا وتربّوا عليه يُقال: تمرّد فلان على ربّه ومرد على معصيته أى مرن وثبت عليها واعتادها ومنه: تمريد ومارد وفى المثل: تمرّد مارد وعزّ الإباق، وقال ابن إسحاق لجّوا فيه وأبوا غيره، وقال ابن زيد وأبان بن تغلب: أقاموا عليه ولم يتوبوا كما تاب الآخرون، وأنشد الشاعر:

مرد القوم على حيهم أهل بغى وضلال وأشر

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ﴾ أنت يا محمد ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ قال قتادة فى هذه الآية: ما بال أقوام يتكلّفون على الناس يقولون فلان فى الجنة وفلان فى النار فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدرى أخبرنى أنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ولقد تكلفت شيئًا ما تكلفه الأنبياء قبلك قال نبى الله نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء: ١١٢)، وقال نبى الله شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ (هود: ٨٦)، وقال الله لنبيه عليه السلام: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ واختلفوا فى هذين العذابين وروى عن أبى مالك عن ابن عباس قال: قام

(١) بياض بالأصل المخطوط.

رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق. اخرج يا فلان فإنك منافق».

فأخرج من المسجد ناسًا وفضحهم فهذا العذاب الأول، والثانى عذاب القبر.

وقال مجاهد: بالجوع وعذاب القبر، وعنه أيضًا: بالجوع والقتل وعنه بالجوع مرّتين، وعنه: بالخوف والقتل.

وقال قتادة: عذاب الدنيا وعذاب القبر، وفيه قصة الاثنى عشر فى حديث حذيفة.

وقال ابن زيد: المرّة الأولى المصائب فى الأموال والأولاد، والمرة الأخرى فى جهنم.

وقال ابن عباس: إن المرة الأولى إقامة الحدود عليهم والثانى عذاب القبر.

قال الحسن: إحدى المرتين أخذ الزكاة من أموالهم والأخرى عذاب القبر، فيقول تفسيره فى سورة النحل ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم فى الإسلام، ودخولهم من غير حسبة ثمّ عذابهم فى القبور إذا صاروا إليها ثمّ العذاب العظيم فى الآخرة والخلد فيه.

وفى بعض التفاسير: الأولى ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والأخرى عذاب القبر.

وقيل: تفسيره فى سورة النحل ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ (النحل: ٨٨).

وقال مقاتل بن حيان: الأول بالسيف يوم بدر والثانى عند الموت.

معمر عن الزهرى عن الحسن قال: عذاب النبى وعذاب الله. يعنى بعذاب النبى ﷺ قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦١). قال عطاء: الأمراض فى الدنيا والآخرة فإن من مرض من المؤمنين كفّر الله سيّئاته ومحض ذنوبه فأبدله لحمًا من لحمه ودمًا كثيرًا من دمه وأعقبه ثوابًا عظيمًا، ومن مرض من المنافقين زاده الله نفاقًا وإثمًا وضعفًا كما قال فى هذه السورة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ﴾ (التوبة: ١٢٦) يريد أنهم يمرضون فى كل عام مرة أو مرتين فيردّون إلى عذاب عظيم شديد فظيع.

وقال الربيع: بلايا الدنيا وعذاب الآخرة ثم يردون إلى عذاب عظيم عذاب جهنم.

وقال إسماعيل بن زياد: أحد العذابين ضرب الملائكة والوجوه والأدبار، والثانى عند البعث يوكل بهم عتق من النار.

وقال الضحاك: مرّة فى القبر ومرّة فى النار، وقيل: المرّة الأولى بإحراق مسجدهم مسجد ضرار والثانية بإحراقهم بنار جهنم، وقيل: مرّة بإنفاق أموالهم ومرّة بقتلهم بالسيف إن

أظهروا ما فى قلوبهم.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ يعنى ومن أهل المدينة آخرون أو من الأعراب وليس براجع إلى المنافقين ﴿ٱعْتَرَفُواْ﴾ أقرّوا بك وبربّهم ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو إقرارهم وتوبتهم ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أى بعمل سيّئ وضع الواو موضع الياء فكما يُقال: استوى الماء والخبث أى بالخبث وخلطت الماء واللبن أى باللبن فالعمل السيئ تخلفهم عن رسول الله ﷺ وتركهم الجهاد ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وعسى ولعل من الله واجب وهما حرف ترجّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نزلت هذه الآية فى قوم كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ثم ندموا عليه وتذمموا، وقالوا: نكون فى الكن والظلال مع النساء ورسول الله ﷺ فى الجهاد! والله لنوثقنّ أنفسنا بالقيود فى أيدينا حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنا أو يعذبنا، وبقوا أنفسهم بسوارى المسجد فلما رجع رسول الله ﷺ مرّ بهم فرآهم فقال: مَن هؤلاء؟ قالوا: تخلّفوا عنك فعاهدوا الله ألاّ يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم وتعذرهم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم، رغبوا عنى وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين» فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت أرسل إليهم النبى ﷺ فأطلقهم وعذرهم فلما أُطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التى خلّفتنا عنك فتصدّق بها عنا وطهّرنا واستغفر لنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا» فأنزل الله عزّ وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية.

واختلفوا فى أعداد هؤلاء الناس وأسمائهم فروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: كانوا عشرة رهط منهم أبو لبابة، وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم أبو (منية): منهم هلال وأبو لبابة وكردم ومرداس وأبو قيس، وقال قتادة والضحاك: كانوا سبعة منهم جد بن قيس وأبو لبابة وجدام وأوس، كلّهم من الأنصار.

وقال عطية عن ابن عباس: كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة، وقال آخرون: نزلت فى أبى لبابة واختلفوا فى ذنبه. فقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى أبى لبابة حين قال لقريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى رقبته، وقد مضت القصة فى سورة الأنفال. فندم وتاب فأقرّ بذنبه فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية.

قال الزهرى: نزلت فى تخلّفه عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فربط نفسه بسارية فقال: والله لا أحل نفسى منها ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله علىّ. فمكث سبعة

أيام لا يذوق فيها طعامًا ولا شرابًا حتّى خرّ مغشيًا عليه فأنزل الله تعالى ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ الآية فقيل له: قد تيب عليك يا أبا لبابة فقال: والله لا أحل نفسى منها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلّنى، فجاء النبى ﷺ فحلّهُ بيده، ثمّ قال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتى أن أبرّ دار قومى التى أصبت بها الذنب وأن أنخلع من مالى كله صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: «يجزيك يا أبا لبابة الثلث».

قالوا جميعًا: وأخذ رسول الله ﷺ منهم ثلث أموالهم وترك الاثنين لأن الله عزّ وجلّ قال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ ولم يقل: أموالهم، فلذلك لم يأخذ كلها.

وقال الحسن وقتادة: هؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلّفوا ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ من ذنوبهم والقراءة بالرفع حالاً لا جوابًا، أى خذ من أموالهم صدقة مطهرة ومزكّية كقول الحطيئة:

متى تأته تعشُ إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

وقرأ مسلمة بن محارب: تطهرهم وتزكهم بالجزم على الجواب، وقرأ الحسن: تطهرهم خفيفة من أطهر تطهير ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أى تطهرهم، وقيل: تصلحهم، وقيل: ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، وقيل: هى أموالهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أى استغفر لهم وادعُ لهم، وقيل: هو قول الوالى إذا أخذ الصدقة: آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت، والصلاة فى اللغة الدعاء ومنه قول النبى ﷺ: «إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليجبه فإن كان مفطرًا فليأكل وإن كان صائمًا فليصل» أى فليدع، وقال الأعشى:

وقابلها الريح فى دنّها وصلّى على دنّها وارتسم

أى دعا لها بالسلامة والبركة. وقال أيضًا:

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا يا رب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى نومًا فإن لجنب المرء مضطجعا

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ قرأ أهل الكوفة: صلاتك على الواحد ههنا وفى سورة هود والمؤمنين بإضماره.

أبو عبيد قال: لأن الصلاة هى من الصلوات، وروى ذلك عن ابن عباس: ألا تسمع الله يقول: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (البقرة: ٤٣) فهذه صلاة الأبد، والصلوات للجمع كقوله: صليت صلوات أربع وخمس صلوات، وقرأ الباقون كلها بالجمع واختاره أبو حاتم، قال: ومن زعم أنّ الصلوات من الصلاة لأن الجمع بالتاء قليل فقد غلط، لأن الله تعالى قال: ﴿مَّا نَفِدَتۡ

كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: ٢٧)، ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ (التحريم: ١٢) لم يرد القليل.

﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار لهم، وقال الكلبى: طمأنينة لهم إن الله قد قبل منهم، وقال معاذ: تزكية لهم منك، أبو عبيدة: تثبيت.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ شعبة عن عمرو بن مرّة عن عبد الله بن أبى أوفى، وكان من أصحاب الشجرة: أنّ النبى ﷺ إذا أتاه قوم بصدقاتهم قال: «اللهم صلّ عليهم»، فأتيته بصدقتى فقال: «اللهم صلّ على أبى أوفى» قال ابن عباس: ليس هذا صدقة الفرض، إنما هو كصدقة كفارة اليمين، وقال عكرمة: هو صدقة الفرض. فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يذنبوا متخلّفين: هؤلاء كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم؟ فقال الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ الآية ومعنى أخذ الصدقات. قبولها.

الشافعى عن سفيان بن عيينة عن ابن عجلان عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ قال: «والذى نفسى بيده ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب قوته ولا يقبل الله (عمله) ولا يصعد إلى السماء إلاّ طيّب إلاّ كان إنما يضعها فى يدى الرحمن فيربيها كما يربى أحدكم فلوه حتى إن (اللقمة) لتأتى يوم القيامة وإنها كمثل الجبل العظيم». ثم قرأ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، وتصديق ذلك فى كتاب الله المنزل ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٦-٢٨٠).

وقال مجاهد: هذا وعيد لهم، وفى الخبر: لو أتى عَبْدَ الله فى صخرة لا باب لها ولا كوّة لخرج عمله إلى الناس كائنًا ما كان.

❖ ❖ ❖

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أى مؤخرون لأمر الله ليقضى فيهم ما هو قاض، وهم الثلاثة الذين خلفوا وربطوا بالسوارى أنفسهم ولم يبالغوا فى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فرفق بهم رسول الله ﷺ ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم وأمر نساءهم باعتزالهم حتى شقهم القلق وتهتكهم الحزن وضاقت عليهم الأرض برحبها وكانوا من أهل (بدر، فجعل الناس) يقولون: هلكوا إذا لم ينزل لهم عذر، وجعل آخرون يقولون: عسى أن يغفر الله لهم، فصاروا فرحين لأمر الله لا يدرون يعذبون أو يرحمون حتى تاب الله عليهم بعد خمسين ليلة ونزلت ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ (التوبة: ١١٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ الآية، قال المفسرون: إنّ بنى عمر بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله ﷺ يأتيهم فأتاهم فصلى فيهم فحسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف، وقالوا: نبنى مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلى فيه كما صلى فى مسجد إخوتنا وليصلى فيه أبو عامر النعمان الراهب إذا قدم من الشام وكان أبو عامر رجلاً منهم وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان قد ترهّب فى الجاهلية وتنصّر ولبس المسوح. فلما قدم النبى ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذى جئت به؟ قال: «جئت بالحنيفيّة دين إبراهيم»، قال أبو عامر: فأنا عليها قال النبى ﷺ: «فإنك لست عليها» قال: بلى ولكنك أدخلت فى الحنيفيّة ما ليس منها، فقال النبى ﷺ: «ما فعلت ولكنى جئت بها بيضاء نقية»، فقال للنبى ﷺ: أمات الله الكاذب منّا طريداً وحيداً، فقال رسول الله ﷺ: «آمين»، وسمى العامر الفاسق. فلما كان يوم أُحد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: إن أجد قومًا يقاتلونك إلاّ قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لى مسجداً فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم فأُخرج محمداً وأصحابه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء وكان الذين بنوه اثنا عشر رجلاً: خذام بن خالد ومن داره أخرج المسجد، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وأبو الأرعد، وعباد بن حنيف، وحارثة بن عامر (وجارية وابناه) مجمّع وزيد، ونبتل بن الحارث. ولحاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت، وكان يصلى بهم مجمع بن يسار، فلما فرغوا أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، وقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه وتدعو بالبركة، فقال رسول الله ﷺ: «إنى على جناح السفر ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه».

فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ونزل (بذى أوان) بلد بينه وبين المدينة ساعة، فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن فأخبره الله عزّ وجلّ خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن والوحشى قاتل حمزة وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه» فخرجوا سريعًا حتى أتوا سالم بن عوف وأتوا رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لهم: انتظروا حتى آتى لكم بنار من أهلى فدخل أهله فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه نارًا ثم خرجوا ينشدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدّموه وتفرّق عنه أهله وأمر النبى ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيه الجيف والدنس والقمامة، ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيدًا غريبًا وفيه يقول كعب بن مالك:

معـــــاذ الله من فعل الخبيث كسعيك فى العشيرة عبد عمرو

فأمـا قلت بأن لى شرف ونخل فقـــــد مـا بعت إيمانًا بكفر

قال عكرمة: سأل عمر بن الخطاب رجلاً منهم ماذا أعنت فى هذا المسجد فقال: أعنت فى سارية فقال عمر: أبشر بها فى عنقك فى نار جهنم.

ويروى أنّ بنى عمر بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة فيؤمّهم فى مسجدهم فقال: لا ولا نعمة عين أليس هو مسجد الضرار، فقال له مجمّع: يا أمير المؤمنين لا تعجل علىَّ. فوالله لقد صليت فيه وأنى لا أعلم ما أضمروا عليه، ولقد علمت ما صلّيت معهم فيه كنت غلامًا قارئًا للقرآن وكانوا ثبوتًا قد رغبوا وكانوا لا يعلمون من القرآن شيئًا فصليت ولا أحسب منعوا شيئًا إلاّ أنهم يتضرعون إلى الله ولم أعلم ما فى أنفسهم.

فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء. فهذا قصة مسجد الضرار الذى أنزل الله عزّ وجلّ فيه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا﴾ قرأه العامة بالواو، وقول أهل المدينة والشام بغير الواو، وكذلك هو فى مصاحف أهل المدينة والشام.

قال عطاء: لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم ألاّ يتخذوا فى مدينتهم مسجدين مجاورًا أحدهما لصاحبه.

وروى ليث أن شقيقًا لم يدرك الصلاة فى مسجد بنى عامر فقيل له: مسجد بنى فلان لم يصلوا بعد. قال: لا أحب أن أصلى فيه فإنه بنى على ضرار وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فإن أصله ينتهى إلى مسجد ضرار.

﴿وَكُفۡرٗا﴾ نفاقًا ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يفرقون به جماعتهم لأنهم كانوا يصلون جمعًا فى مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلى فيه بعضهم دون مسجد قباء وبعضهم فى مسجد قباء فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ وانتظاراً وإعداداً ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ وهو أبو عامر الراهب الذى سماه رسول الله ﷺ الفاسق ليصلى فيه إذا رجع من الشام ويظهر على رسول الله ﷺ.

قرأ الأعمش وإرصاداً للذين حاربوا الله ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ ما أردنا ﴿إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ إلاّ الفعلة الحسنى وهى للمرضى المسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فى قولهم وحلفهم ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ﴾ اللام فيه لام الابتداء والقسم تقديره والله لمسجد ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أى بنى أصله وابتدئ بناؤه ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ أى من أول يوم بنى، وقيل معناه: منذ أول يوم وضع أساسه. قال المبرد: قيل فى معنى البيت من حج وأمن دهر. أى من هو حج وأمن دهر، وأنشأ زهير:

لمن الديار بقنة الحجر ... أقوين من حج، ومن دهر

منذ حج ومنذ دهر. ﴿أَحَقُّ﴾ أولى ﴿أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ مصليًا، واختلفوا فى المسجد الذى أسس على التقوى ما هو؟ فقال قوم: هو مسجد رسول الله ﷺ الذى فيه منبره وقبره.

أخبرنا عبد الله بن حامد وأخبرنا العبدى. حدثنا أحمد بن نجدة، حدثنا الجمانى، حدثنا عبد العزيز بن محمد عن عثمان بن عبد الله بن أبى رافع عن ابن عمر وزيد بن ثابت وأبى سعيد الخدرى قالوا: المسجد الذى أسس على التقوى مسجد رسول الله ﷺ. يدل عليه ما روى حميد الخراط عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، أن عبد الرحمن حدثه أنه دخل على رسول الله ﷺ فى بيت بعض نسائه قال: فقلت: يا رسول الله أى المسجد الذى أسس على التقوى؟ فأخذ كفًا من الحصى فضرب به الأرض. ثم قال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة».

وروى أنس بن أبى يحيى عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العوفى: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فى ذلك فقال: هو هذا، يعنى مسجد رسول الله ﷺ.

قال ابن يزيد وابن زيد وعروة بن الزبير: هو مسجد قباء، وهى رواية على بن أبى طلحة وعطية عن ابن عباس.

﴿فِيهِ﴾ ومن حضر ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ من الأحداث والنجاسات بالماء، قال الكلبى: هو غسل الأدبار بالماء، وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء لا ينامون بالليل على الجنابة.

يروى أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية: «إن الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم فى الطهور فما هو؟» قالوا: إنا نستنجى بالماء.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أى المتطهرين فأدغمت التاء فى الطاء لقرب مخرجيهما.

قال يزيد بن عجرة: أتت الحمّى رسول الله ﷺ فى صورة جارية سوداء فقال لها رسول الله ﷺ: «من أنت؟» قالت: أم ملدم أنشف الدم، وآكل اللحم وأصفر الوجه وأرقق العظم. فقال النبى ﷺ: «فاقصدى الأنصار فإن لهم علينا حقوقًا» فَحُمّ الأنصار.

فلما كان الغد قال: «ما للأنصار؟» قال: فحموا عن آخرهم. فقال: «قوموا بنا نعودهم» فعادهم وجعل يقول: «أبشروا فإنها كفارة وطهور».

قالوا: يا رسول الله ادعو الله أن يديمها علينا (. . . .)[1] حتى تكون كفّارة لذنوبنا، فأنزل الله تعالى عليهم ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ بالحمى عن معاصيهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ من الذنوب.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ اختلف القراء به فقرأ نافع وأهل الشام: أسس بنيانه بضم الهمزة والنون على غير تسمية الفاعل، وذكر أبو حاتم عن زيد بن ثابت، وقرأ عمارة بن صائد: آسس بالمد وفتح السين والنون فى وزن آمَنَ، وكذلك الثانية وآسس وأسّس واحد أفعل وفعل يتقاربان فى التعدية.

وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتشديد السين الأولى على تسمية الفاعل واختاره أبو عبيد وأبو حاتم.

﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وقرأ عيسى بن عمر تقوًى من الله منوّنًا ﴿وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ أى شفير وقال أبو عبيد: الشفا الحد وتثنيته: الشفوان.

﴿جُرُفٍ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتثقيل وهما لغتان وهو السير إلى لم تطؤ. قال أبو عبيدة: هو الهوّة وما يجرفه السيل من الأودية ﴿هَارٍ﴾ أى هائر وهو الساقط الذى يتداعى بعضه فى أثر بعض كما ينهار الرمل والشىء الرخو. يقال هو من المقلوب يقلب ويؤخر ياؤها فيقال هار (ولات) كما يقال شاكى السلام وشائك السلاح وعاق وعائق، قال الشاعر:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

❖ ولم يعقنى عن هواها عاق ❖

وقيل: هو من هار يهار إذا انهدم مثل: خاف يخاف، وهذا مثل لضعف نيّاتهم وقلّة بصيرتهم فى علمهم ﴿فَٱنْهَارَ﴾ فانتثر يقال: هار وانهار ويهور بمعنى واحد إذا سقط أو انهدم ومنه قيل تهوّر الليل إذا ذهب أكثره، وفى مصحف أُبىّ: فانهارت به قواعده ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال قتادة: والله (ما تنامى) أن وقع فى النار، وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيها فرأى الدخان يخرج منه قال جابر بن عبد الله، رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار، وقال خلف بن ياسين الكوفى: حججت مع أبى فى زمان بنى أُمية فرأيت فى المدينة مسجد القبلتين يعنى مسجد رسول الله ﷺ بقباء وفيه قبلة بيت المقدس، فلما كان زمان أبى جعفر قالوا: يدخل الجاهل فلا يعرف القبلة فهدّم البناء الذى بنى على يدى عبد الصمد بن علىّ، ورأيت مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾ شكًا ونفاقًا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يحسبون أنهم كانوا ببنائه محسنين كما حبب العجل إلى قوم موسى. قال ابن عباس: شكًا ونفاقًا، وقال الكلبى: حبّبه وزيّنه لأنّهم زعموا أنهم لا يتبعونه، وقال السدى وحبيب والمبرد: لأنّ الله هدم بنيانهم الذى بنوا حزازة فى قلوبهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ تتقطع قلوبهم فيموتوا كقوله تعالى: ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٦) لأن الحياة تنقطع بانقطاع القلب.

وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم: إلى أن تقطع، خفيفة على الغاية، يدل عليه تفسير الضحاك وقتادة، لا يزالون فى شك منهم إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبيّنوا.

واختلف القُراء فى قوله ﴿تَقَطَّعَ﴾. قال أبو جعفر وشيبة وابن عامر وحمزة والمفضل وحفص: تقطع بفتح التاء والطاء مشددًا، يعنى تتقطع ثم حذفت إحدى التائين، وقرأ يحيى ابن كثير ومجاهد ونافع وعاصم وأبو عمرو والكسائى (تقطع) بضم التاء وتشديد الطاء على غير تسمية الفاعل وهو اختيار أبى عبيدة وأبى حاتم، وقرأ يعقوب (تقطع) بضم التاء خفيفة من القطع.

وروى عن ابن كثير (تقطع) بفتح التاء خفيفة ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ نصبًا أى تفعل أنت ذلك بهم، وقرأ ابن مسعود والأعمش ولو قطعت قلوبهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ قال محمد بن كعب القرظى: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسًا. قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة».

وقال الأعمش: الجنة وهى قراءة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾ قال إبراهيم النخعى والأعمش وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المفعول على الفاعل على معنى فيقتل بعضهم ويقتل الباقون، وقرأ الباقون: بتقديم الفاعل على المفعول ﴿وَعْدًا﴾ نصب على المصدر ﴿عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ ثم هنّأهم فقال عزّ من قائل: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قال قتادة: ثامنهم وأغلى ثمنهم، وقال الحسن: اسمعوا بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن، والله ما على وجه الأرض مؤمن إلاّ دخل فى هذه البيعة.

قال: ومرّ أعرابى بالنبى ﷺ وهو يقرأ هذه الآية قال: كلام من هذا؟ قال: كلام الله. قال: بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج إلى الغزو فاستشهد.

أنشدنا أبو القاسم الحسن بن محمد الحبيبى. قال: أنشدنا أبو الحسن العقيلى. أنشدنا بشر ابن موسى الأسدى. أنشدنى الأصمعى عن جعفر الصادق رضى الله عنه:

أثامن بالنفس النفيسة ربها ... فليس لها فى الخلق كلهم ثمن
بها تشترى الجنات إن أنا بعتها ... بشىء سواها إن ذلكم غبن

إذا أذهبت نفسى بدنيا أصبتها فقد ذهبت الدنيا وقد ذهب الثمن

وكان الصادق يقول: أيا من ليست له قيمة إنه ليس بأبدانكم إلاّ الجنة فلا تبيعوها إلاّ بها.

وأنشدنا أبو القاسم الحبيبى. أنشدنا القاضى أبو الربيع محمد بن على. أنشدنا أبو على الحسن بن عاصم الكوفى:

من يشترى قبة فى العدن عالية فى ظل طوبى رفيعات مبانيها

دلالها المصطفى والله بايعها فمن أراد وجبريل يناديها

ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ أى هم التائبون، وقرأ ابن مسعود التائبين العابدين بالنصب آخرها، قال المفسرون: تابوا من الشرك وبرءوا من النفاق ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ المطيعون الذين أخلصوا فيه الشهادة.

وقال الحسن وقتادة: هم قوم اتخذوا من أبدانهم فى ليلهم ونهارهم فعبدوا الله على أحايينهم كلها فى السراء والضراء ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ الله على كل حال فى كل نعمة ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون.

الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون الصائمون».

وروى شيبان بن عبد الرحمن عن الأشعث قال: سألت سعيد بن جبير عن السائحين فقال: هم الصائمون ألم تر أنّ الله عزّ وجلّ إذا ذكر الصائمين لم يذكر السائحين وإذا ذكر السائحين لم يذكر الصائمين.

قال سفيان بن عيينة: أما إنّ الصائم سائح لأنه تارك اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح.

وقال الشاعر فى الصوم:

تراه يصلى ليله ونهاره يظل كثير الذكر لله سائحًا

وقال الحسن: السائحون الذين صاموا عن الحلال وأمسكوا عن الحرام وههنا والله أقوام رأيناهم يصومون عن الحلال ولا يمسكون عن الحرام فالله ساخط عليهم، وقال عطاء: السائحون الغزاة والمجاهدون، وعن عمرو بن نافع. قال: سمعت عكرمة وسُئل عن قول الله تعالى: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ قال: هم طلبة العلم ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ يعنى المصلين ﴿ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ قال بسام بن عبد الله: المعروف السنّة والمنكر البدعة.

﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: القائمون على طاعة الله، وقال الحسن: أهل الوفاء ببيعة الله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، واختلف

العلماء فى سبب نزول هذه الآية .

فروى الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أُمية فقال له رسول الله ﷺ : «أى عم إنك أعظم الناس علىَّ حقًا وأحسنهم عندى (قولاً) ولأنت أعظم علىَّ حقًا من والدى فقل كلمة تجب لك بها شفاعتى يوم القيامة . قل : لا إله إلا الله أحاجّ لك بها عند الله» .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أُمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ، فلم يزالا يكلمانه حتى كان آخر شىء تكلم به : أنا على ملة عبد المطلب . فقال النبى ﷺ : «لأستغفر لك يا عم الله» فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآية ، ونزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ (القصص : ٥٦) الآية .

قال الحسن بن الفضل : وهذا بعيد لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن ، ومات أبو طالب فى عنفوان الإسلام والنبى ﷺ بمكة .

وقال عمرو بن دينار : قال النبى ﷺ : استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر لأبى طالب حتى نهانى عنه ربى . فقال أصحابه : لنستغفرن لآبائنا كما استغفر النبى ﷺ لعمّه . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى جعفر بن عون عن موسى بن عبيدة عن محمّد بن كعب قال : بلغنى أنه لما اشتكى أبو طالب شكواه الذى قبض فيه ، قالت قريش له : يا أبا طالب أرسل إلى ابن أخيك فيرسل إليك من هذه الجنّة فيكون لك شفاء ، فخرج الرسول حتى وجد رسول الله ﷺ وأبو بكر معه جالس فقال زيد : إنّ عمك يقول لك يا ابن أخى إنى كبير وشيخ ضعيف فادعو إلىّ من جنتك هذه التى تذكر من طعامها وشرابها شىء يكون لى فيه شفاء .

فقال أبو بكر : إن الله حرّمها على الكافرين : قال : فرجع إليهم الرسول فقال : بلغت محمّدًا الذى أرسلتمونى به فلم يحر إلىّ شيئًا فقال أبو بكر : إن الله حرمها على الكافرين قال : فحملوا أنفسهم عليه حتى أرسل رسولاً من عنده فوجد الرسول فى مجلسه فقال له مثل ذلك فقال رسول الله ﷺ : «إن الله حرّمهما على الكافرين طعامها وشرابها» ، ثم قام فى أثره حتى دخل معه البيت فوجده مملوءاً رجالاً فقال : «خلّوا بينى وبين عمى» ، فقالوا : ما نحن بفاعلين وما أنت أحق به منا إن كانت لك قرابة فإن لنا قرابة مثل قرابتك فجلس إليه فقال : «يا عم جزيت عنى خيراً كفلتنى صغيراً وحفظتنى كبيراً فجزيت عنى خيراً . يا عماه أعنّى على نفسك بكلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة ، قال : وما هى أى ابن أخى؟

قال: قل لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له». قال: إنك لى لناصح، والله لولا أن تعيّر بها بعدى يقال جزع عمك عند الموت لأقررت بها عينك، قال: فصاح القوم: يا أبا طالب أنت رأس الحنيفية ملة الأشياخ لا تحدث نساء قريش أنى جزعت عند الموت. فقال رسول الله ﷺ: «لا أزال أستغفر لك ربى حتى يردّنى فاستغفر له بعد ما مات».

فقال المسلمون: ما منعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوى قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه وهذا محمد يستغفر لعمه فاستغفروا للمشركين فنزلت هذه الآية.

والدليل - على ما قيل - أن أبا طالب مات كافراً ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا المزنى. قال: حدثنا أحمد بن نجدة حدثنا سعيد بن منصور حدثنا أبو الأحوص أخبرنا أبو إسحاق قال: قال على عليه السلام لما مات أبو طالب: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن عمك (. . . .)[1] قال: اذهب فادفنه ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينى، فانطلقت فواريته ثم رجعت إلى النبى ﷺ وعلىَّ أثر التراب فدعا لى بدعوات ما يسرنى أنَّ لى بها ما على الأرض من شىء.

وقال أبو هريرة وبريدة: لما قدم النبى ﷺ مكة أتى قبر أمّه آمنة فوقف عليه حتى حميت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية، فقام وبكى وبكى من حوله فقال: «إنى استأذنت ربى أن أزورها فأذن لى واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لى فزوروا القبور فإنّها تذكّركم الموت»، فلم نرَ باكيًا أكثر من يومئذ.

على بن أبى طلحة عن ابن عباس: كانوا يستغفرون لأمواتهم المشركين فنزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار فنهاهم ولم ينتهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، وقال قتادة: قال رجال من أصحاب النبى ﷺ: يا نبى الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العانى ويوفى بالذمم ألا نستغفر لهم؟

فقال النبى ﷺ: «بلى، وأنا والله لأستغفرن لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ أى ما ينبغى للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين.

وقال أهل المعانى: ما كان فى القرآن على وجهين أحدهما بمعنى النفى كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ (النمل: ٦٠) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥) والأخرى بمعنى النهى كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾(الأحزاب: ٥٣)، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نهى.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ بموتهم على الكفر، وتأوّل بعضهم الاستغفار فى هذه الآية على الصلاة. قال عطاء بن أبى رباح: ما كنت أدع الصلاة على أحد من أهل هذه القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلاّ عن المشركين كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾ الآية، ثم عذر خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: أنزل الله قوله تعالى خبراً عن إبراهيم ﷺ قال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ (مريم: ٤٧). (قال على) سمعت فلانًا يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت له: أتستغفر لهما مشركين، قال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه، فأتيت النبى ﷺ فرويت ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأنزل قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ (الممتحنة: ٤) وقوله: ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ يعنى بعد موعده.

وقال بعضهم: الهاء فى إيّاه عائدة إلى إبراهيم، وذلك أن أباه وعده أن يسلم فعند ذلك قال إبراهيم: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ (مريم: ٤٧) وقال بعضهم: هى راجعة إلى إبراهيم وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه، وهو قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾، وقوله: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ (الممتحنة: ٤) الآية، تدلّ عليه قراءة الحسن: وعدها أباه بالباء.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ﴾ (بموت أبيه) ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ وقيل: معناه: فلمّا تبين له فى الآخرة أنه عدو لله، وذلك على ما روى فى الأخبار أن إبراهيم ﷺ يقول يوم القيامة: رب والدى رب والدى، فإذا كانت الثالثة يريه الله فيقول له إبراهيم: إنى كنت آمرك فى الدنيا فتعصينى ولست بتاركك اليوم لشىء فخذ (بحبرى) فتعلق به حتى تريد الجواز على الصراط حتى إذا أراد أن يجاوزه به كانت من إبراهيم عليه السلام التفاتة فإذا هو بأبيه فى صورة ضبع، فتخلّى عنه وتبرأ منه يومئذ وعلى هذا التأويل يكون معنى الكلام الاستقبال، تقديره: يتبيّن ويتبرأ ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ اختلفوا فى معناه، فروى شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد مرسلاً أن رسول الله ﷺ سئل عن الأوّاه فقال: الخاشع المتضرع، وقال أنس: تكلّمت امرأة عند النبى ﷺ بشىء كرهه فنهاها عمر رضى الله عنه فقال رسول الله ﷺ: «أعرض عنها فإنها أوّاهة» قيل: يا رسول الله وما الأوّاهة؟ قال: «الخاشعة».

وروى عبد الله بن رباح عن كعب فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ فقال: كان إذا ذكر النار قال: أوه.

وقال عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير: الأواه الدعَّاء، وقال الضحاك: هو الجامع الدعاء.

وروى الأعمش عن الحكم عن يحيى بن الجرار قال: جاء أبو العبيدى رجل من سواد وكان ضريراً إلى ابن مسعود قال: يا عبد الرحمن من يسأل إذا لم يسألك، ما الأوّاه؟ فكأن ابن مسعود رق له فقال: الأواه الرحيم.

وقال الحسن وقتادة: الأواه الرحيم بعباد الله، وقال أبو ميسرة: الأواه الرحيم يوم الحشر، عطية عن ابن عباس الأواه المؤمن بالحبشية. على بن أبى طلحة عن ابن عباس الأواه المؤمن التواب، مجاهد: الأواه المؤمن الموقن، وروى عن ابن عباس وعلى ابن الحكم عن الضحاك، وقال عكرمة: هو المستيقن، بلغة الحبشة، ألا ترى أنك إذا قلت للحبشى الشيء فعرفه قال: أوّه، ابن أبى نجيح: المؤتمن. الكلبى: الأواه: المسبح الذى يذكر الله فى الأرض القفرة الموحشة، وقال عقبة بن عامر: الأواه الكثير الذكر لله، وروى الحكم عن الحسن بن مسلم بن (ساق) أن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبح فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: إنه أوّاه، وقيل: هو الذى يكثر تلاوة القرآن.

وقال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ دفن ميتًا فقال: «يرحمك الله إن كنت لأواه»، يعنى تلاوة القرآن.

وقيل: هو الذى يجهر صوته بالذكر والدعاء والقرآن ويكثر تلاوته، وكان إبراهيم عليه السلام يقول: آه من النار قبل أن لا تنفع آه.

وروى شعبة عن أبى يونس الباهلى عن قاض كان يجمع الحديث عن أبى ذر قال: كان رجل يطوف بالبيت ويقول فى دعائه: أوه أوه، فشكاه أبو ذر إلى النبى ﷺ قال: «دعه فإنه أواه». قال: فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح.

وقال النخعى: الأواه: الفقيه، وقال الفراء: هو الذى يتأوه من الذنوب، وقال سعيد بن جبير: الأواه المعلم للخير، وقال عبد العزيز بن يحيى: هو المشفق، وكان أبو بكر رضى الله عنه يُسمّى الأواه لشفقته ورحمته، وقال عطاء: هو الراجع عن كل ما يكره الله، وقال أيضًا: هو الخائف من النار، وقال أبو عبيدة: هو المتأوه شفقًا وفرقًا المتضرع يقينًا ولزومًا للطاعة. قال الزجاج: انتظم قول أبى عبيدة جميع ما قيل: فى الأواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوتًا من تنفس الصعداء والفعل منه أوه وتأوه، وقال المثقب العبدى:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

قال الراجز:

❖ فأوه الراعى وضوضأ كلبه ❖

ولا يقال منه فعل يفعل

﴿حَلِيمٌ﴾ عمن سبه وناله بالمكروه وقد قيل إنه عليه السلام استغفر لأبيه عند وعده إياه وشتمه، وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم: ٤٦) فقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم: ٤٧) وقال ابن عباس: الحليم السيد.

❖ ❖ ❖

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ يقول: وما كان الله (ليحكم) عليكم بالضلال بعد استغفاركم للمشركين قبل أن يتقدم إليكم بالنهى.

وقال مجاهد: بيان الله للمؤمنين فى ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وبيانه لهم فى معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا.

وقال مقاتل والكلبى: لما أنزل الله تعالى الفرائض فعمل بها الناس (ثم) نسخها من القرآن وقد غاب (ناس) وهم يعملون للأمر الأول من القبلة والخمر وأشباه ذلك، فسألوا عنه

رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ يعني وما كان الله ليبطل عمل قوم عملوا بالمنسوخ ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ قال الضحاك: ما كان الله ليضل قومًا حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم عظّم نفسه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني يحكم فيهما بما يشاء ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ۝ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قال ابن عباس: ومن تاب الله عليه لم يعذبه أبدًا.

واختلفوا في معنى التوبة على النبي ﷺ فقال أهل التفسير: بإذنه للمنافقين في التخلف عنهم، وقال أهل المعاني: هو مفتاح كلام ما كان هو صنف توبتهم ذكر معهم كقوله ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ (الأنفال: ٤١) ونحوه ﴿وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي في وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها. قال جابر: عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء.

قال الحسن: كان الناس من المسلمين يخرجون على بعير يعقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه، كذلك كان زادهم التمر المسوس والشعير والإهالة المنتنة وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلاّ التمرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من الماء كذلك حتى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلاّ النواة فمضوا (في قيظ شديد) ورسول الله ﷺ على صدقهم ويقينهم.

وقال ابن عباس: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ما في شأن العسرة؟ فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ (إلى قيظ شديد) فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى قلنا إن رقابنا ستقطع، حتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إنّ الرجل سينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله: إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا فادع لنا، قال: «تحب ذلك»؟ قال: نعم، فرفع يديه ولم يرجع بها حتى أظلت السماء بسحاب ثم سكبت فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ تميل ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ لعظم البلاء، وقرأ العامة: تزاغ، بالتاء ودليله قراءة عبد الله قال: (زيغهم)، قراءة حمزة والأعمش والجحدري والعباس بن زيد الثقفي بالياء. قال الأعمش: قرأتها بالياء في نية التأخير وفيه ضمير فاعل ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ۝ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ يعني تاب على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فلم يخرجوا، وقيل: خلفوا عن توبة أبي لبابة وأصحابه وأرجئ أمرهم وقد مضت السنة.

وقرأ عكرمة وحميد: خلفوا بفتح الخاء واللام والتخفيف أى (فدله بعقب) رسول الله ﷺ، وروى عن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه أنه قرأ: خالفوا، وقراءة الأعمش، وعلى الثلاثة المخلفين، وهم كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية كلهم من الأنصار وروى عبيد عن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصارى عن أبيه عبد الله بن كعب وكان قائد أبيه كعب حين أُصيب بصره. قال: سمعت أن كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ قال: لم أتخلف عن النبى ﷺ فى غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك غير بدر ولم يعاتب النبى ﷺ أحداً تخلف عن بدر إنما خرج يريد العير فخرجت قريش مغيثين لعيرهم فالتقوا من غير موعد كما قال الله عزّ وجلّ، ولعمرى أن أشرف مشاهد رسول الله ﷺ فى الناس لبدر، وما أحب أنى كنت شهدتها مكان بيعتى ليلة العقبة حيث تواثقنا على الإسلام، ثم لم أتخلف عن النبى ﷺ بعد فى غزوة غزاها إلى إن كانت غزوة تبوك وأذن الناس بالرحيل وذلك حين طاب الظلال وطابت الثمار، وكان قلّ ما أراد غزوة إلاّ ورى غيرها، وكان يقول: الحرب خدعة فأراد النبى ﷺ فى غزوة تبوك أن يتأهّب الناس أهبتها وأنا أيسر ما كنت قد جهزت راحلتين، وأنا أقدر شىء فى نفسى الجهاد وأنا فى ذلك أصغو إلى الظلال وطيب الثمار فلم أزل كذلك حتى قام النبى ﷺ غاديًا بالغداة وذلك يوم الخميس وكان يحب أن يخرج يوم الخميس فأصبح غاديًا فقلت: أنطلق غداً إلى السوق أشترى جهازى ثم ألحق بهم فانطلقت إلى السوق من غد فعسر علىَّ بعض شأنى فرجعت فقلت: أرجع غداً إن شاء الله فألحق بهم، فعسر علىَّ بعض شأنى أيضًا فلم أزل كذلك حتى التبس بى الذنب وتخلّفت عن رسول الله ﷺ فجعلت أمشى فى الأسواق وأطوف بالمدينة فيحزننى أنّى لا أرى أحدًا تخلف إلاّ رجلاً مغموصًا عليه فى النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء وكان الناس كثيراً لا يجمعهم ديوان وكان جميع من تخلّف عن النبى ﷺ بضعًا وثمانين رجلاً ولم يذكرنى النبى ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو بتبوك جالس: «ما فعل كعب بن مالك؟».

فقال رجال من قومى: يا نبىّ الله خلّفه راحلته والنظر فى عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا نبى الله ما نعلم إلاّ خيراً، فبينما هم كذلك إذ همّ برجل مبيضًا يزول به السراب فقال النبى ﷺ: كن أبا خيثمة وإذا به أبو خيثمة الأنصارى وهو الذى تصدّق بصاع التمر فلمزه المنافقون، فلما قضى النبى ﷺ غزوة تبوك وقفل إلى المدينة (جعلت بما أخرج) من سخط النبى ﷺ فأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى حتى إذا قيل إن النبى ﷺ (مضى يصلى) بالغداة راح عنى الباطل وعرفت أن لا أنجو إلاّ بالصدق فدخل النبى ﷺ وصلّى فى

المسجد ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يحلفون له ويعتذرون إليه فيستغفر لهم فقبل منهم علانيتهم ووكّل سرائرهم إلى الله تعالى فدخلت المسجد فإذا هو جالس فلما رآنى تَبَسَّم تبسُّم المغضب فجئت فجلست بين يديه فقال: «ألم تكن قد ابتعت ظهرك» قلت: بلى يا رسول الله قال: «فما خلّفك»؟.

قلت: والله لو كنت بين يدىّ أحد من الناس غيرك جلست لخرجت من سخطته بعذر ولقد أوتيت جدلاً، ولكن قد علمت يا نبى الله أنى إن أخبرك اليوم بقول تجد على فيه وهو حقّ فإنّى أرجو فيه عفو الله وإن حدّثتك اليوم حديثًا ترضى عنى فيه وهو كذب أوشك أن يطلعك الله عليه والله يا نبى الله ما كنت قط أيسر ولا أخف حاذًا منى حين تخلفت عنك.

فقال ﷺ: «أما هذا فقد صدقكم الحديث قم حتى يقضى الله فيك».

فقمت فإذا على أثرى ناس من قومى فتبعونى فقالوا: والله ما نعلمك أذنبت ذنبًا قبل كهذا فهلاّ اعتذرت إلى النبى ﷺ حتى يرضى عنك فيه وكان استغفار رسول الله ﷺ لك كافيك من ذنبك ولم تقف نفسك موقفًا ما تدرى ماذا يقضى لك به؟ فلم يزالوا يؤنبوننى حتى صممت أن أرجع فأكذب نفسى فقلت: هل قال هذا القول أحد غيرى؟ قالوا: نعم، قالوا: هلال بن أُمية الواقفى وأبو مرارة بن ربيعة العامرى. فذكروا رجلين صالحين قد شهدوا بدرًا لى فيهما أُسوة فقلت: والله لا أرجع إليه فى هذا أبدًا، ولا أكذب نفسى قال: ونهى النبى ﷺ الناس عن كلامنا (أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه) قال: فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلمنى أحد ويتنكّر لنا الناس حتى) ما هم بالذين نعرف، وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هى الحيطان التى نعرف وتنكرت لنا الأرض حتى ما هى الأرض التى نعرف، (وكنت أقوى أصحابى وكنت أخرج فأطوف بالأسواق وآتى المسجد فأدخل فآتى النبى ﷺ فاسلّم عليه فأقول فى نفسى: هل حرّك شفتيه بالسلام، فإذا قمت فأقبلت فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ بمؤخر عينيه إذا نظرت إليه، واستكان أعرض عنى فاستكانا صاحباى فجعلا يبكيان الليل لا يطلعان نفسيهما فلما طال على ذلك المسلمين من جفوة حتى تسمّرت بظلّة حائط أبى قتادة، وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه فوالله ما ردَّ علىَّ السلام فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمنّ أنى أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى وتوليت حتى تسوّرت الجدران فبينا أطوف فى السوق إذا برجل نصرانى نبطى من نبط أهل الشام جاء بطعام له يبيعه ويقول: من سيدلّ على كعب بن مالك. فطفق الناس يشيرون له إلىّ فأتانى فدفع إلىّ كتابًا من ملك غسّان فإذا فيه: أمّا بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك

وأقصاك (ولست بدار مضيعة ولا هوان) فالحق بنا نواسيك، فقلت: هذا من البلاء والشر فسجّرت التنور فأحرقته فلما مضيت له بغضون ليلة إذا رسول الله ﷺ، أتانى فقال: «اعتزل امرأتك» فقلت: أطلقها. قال: «لا ولكن لا تقربها» وأرسل إلى صاحبىّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقى بأهلك وكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال فقالت: يا نبى الله إنّ هلال بن أُمية شيخ ضعيف فهل تأذن لى أن أخدمه قال: «نعم ولكن لا يقربك».

قالت: يا نبى الله والله ما به حركة لشىء ما زال مكبًا يبكى الله والنهار. قد كان من أمره ما كان. قال: فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله وما يدرينى ماذا يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب. فلما مضت خمسون ليلة من حين نهى النبى ﷺ عن كلامنا فصلّيت على ظهر بيت لمّا صلّى الفجر وجلست وأنا فى المنزلة التى قال الله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ وضاقت علينا أنفسنا إذ سمعت نداء من جبل سلع أن أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجدًا وعلمت أن الله قد جاء بالفرج ثم جاء رجل يركض على فرس وكان الصوت أسرع من فرسه (فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى، فكسوتها إياه ببشارته واستعرت ثوبين فلبستهما) قال: وكانت توبتنا نزلت على النبى ﷺ ثلثى الليل فقالت أم سلمة عشيّتئذ: يا نبى الله ألا تبشر كعب بن مالك. قال: إذا يحطمك الناس ويمنعونكم النوم بسائر الليل وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى حزنى بأمرى فاستطلت إلى النبى ﷺ فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وقال: «ليهنك توبة الله عليك»، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره وكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلمّا سلمت على رسول الله وقلت: يا نبى الله من عند الله أم من عندك؟ قال: «بل من عند الله» ثم تلا عليهم: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وقلت: يا نبى الله إن من توبتى ألاّ أحدث الأصدقاء حتى أنخلع من مالى كلّه صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»، قلت: فإنى أمسك سهمى الذى من خيبر قال: فما أنعم الله علىّ نعمة بعد الإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ حين صدقته أنا وصاحباى أن لا يكون كذبنا فهلكنا كما هلكوا وأنى لأرجو أن لا يكون الله عزّ وجلّ أبلى أحدًا فى الصدق (منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما ابتلانى والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله إلى يومى هذا) وإنى لأرجو أن يحفظنى

الله عزّ وجلّ فيما بقى، هذا ما انتهى إلينا من حديث الثلاثة الذين خلفوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ المفسرون: أى ضاقت عليهم الأرض برمّتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (ضاقت صدورهم بالهمّ والوحشة) ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ سمعت الحسن بن محمد بن جعفر النيسابورى وإبراهيم بن محمد بن زيد النيسابورى وعبد الله ختن والى بلد العراق يقول: سُئل أبو بكر الوراق عن التوبة النصوح قال: أن تضيق علينا الأرض بما رحبت ويضيق عليه نفسه كتوبة كعب وصاحبيه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ إعادة تأكيد ليتوبوا فهذا بالتوبة منه.

سمعت أبا القاسم بن أبى بكر السدوسى، سمعت أبا سعيد أحمد بن محمد بن رميح الزيدى، سمعت الحسن بن على الدامغانى يقول: قال أبو يزيد: غلطت فى أربعة أشياء: فى الابتداء مع الله سبحانه ظننت أنى أحبه فإذا هو أحبّنى قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (المائدة: ٥٤) فظننت أنى أرضى عنه فإذا هو رضى عنى قال الله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ (البينة: ٨) وظننت أنى أذكره فإذا هو ذكرنى قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥) وشئت أن أتوب فإذا هو تاب علىّ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال نافع: يعنى مع محمد وأصحابه. سعيد بن جبير: مع أبى بكر وعمر، ابن جريح وابن حبّان: مع المهاجرين دليله قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (الحشر: ٨).

أخبرنى عبد الله بن محمد بن عبد الله. محمد بن عثمان بن الحسن. محمد بن الحسين بن صالح. على بن جعفر بن موسى. جندب بن والق. محمد بن عمر المازنى. الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: مع علىّ بن أبى طالب وأصحابه.

وأخبرنى عبد الله محمد بن عثمان. محمد بن الحسن. على بن العباس المقانعى. جعفر بن محمد بن الحسين. أحمد بن صبيح الأسدى. مفضل بن صالح. عن جابر عن أبى جعفر فى قوله تعالى ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: مع آل محمد ﷺ.

يمان بن رباب: اصدقوا كما صدق الثلاثة الذين خلفوا.

ابن عباس: مع الذين صدقت نياتهم فاستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك. بإخلاص ونيّة.

قتادة: يعنى الصدق فى النية وقال: أو الصدق فى الليل والنهار والسرّ والعلانية، وكان ابن

مسعود يقول: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ وكذا كان يقرؤها، وابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ.

أخبرنا عبد الله بن حامد. عبد الله بن محمد بن الحسين. محمد بن يحيى، وهب بن جرير عن شعيب بن عمرو بن زيد عن أبى عبيدة عن عبد الله قال: إن الكذب لا يصلح منه جدّ ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبيته شيئًا ثم لا ينجز شيئًا اقرءوا إن شئتم الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ هل ترون فى الكذب (رخصة) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ ظاهره خبر معناه نهى كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٥٣) ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ سكان البوادى مزينة وجهينة وأسجح وأسلم وغفار ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ إذا غزا ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فى مصاحبته ومعاونته والجهاد معه.

قال الحسن: يعنى لا يرغبون بأنفسهم أن تصيبهم من الشدائد مثل ما يصيب رسول الله ﷺ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ فى سفرهم ﴿ظَمَأٌ﴾ عطش، وقرأ عبد بن عمير ظمأ بالمدّ وهما لغتان مثل خطا وخطأ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ أرضًا ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وطئهم إياها ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ ولا يصيبون من عدوهم شيئًا قتلاً أو أسرًا أو غنيمة أو عزيمة يقال: نلت الشىء فهو منيل ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ قال ابن عباس: بكل روعة تنالهم فى سبيل الله سبعين ألف حسنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإن أصابهم ظمأ سقاهم الله من نهر الحيوان ولا يصيبهم ظمأ بعد، وإن أصابهم نصب أعطاهم الله العسل من نهر الحيوان (ولا يصيبهم) فيهم النصب، ومن خرج فى سبيل الله لم يضع قدمًا ولا يدًا ولا جنبًا ولا أنفًا ولا ركبة ساجدًا ولا راكعًا ولا ماشيًا ولا نائمًا فى بقعة من بقاع الله إلاّ أذن الله له بالشهادة وبالشفاعة.

واختلفوا فى حكم هذه الآية، فقال قتادة: وهذه خاصة لرسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه خلافه إذا لم يكن للمسلمين إليه ضرورة وحاجة. قال: وذكر لنا أن النبى ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتى ما تخلفت خلف سريّة يغزو فى سبيل الله لكنى لا أجد سعة فأنطلق بهم معى ويشق علىّ أن أدعهم بعدى».

وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعى وابن المبارك والفزارى والسبيعى وابن جابر وسعيد بن عبد العزيز يقولون فى هذه الآية: إنها لأول هذه الأمة وآخرها.

وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً فلما كثروا نسخها الله وأباح التخلف لمن شاء فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الآية ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ فى سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا

كَبِيرَةً﴾ ولو علاقة سوط ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ ولا يتجاوزون ﴿وَادِيًا﴾ فى مسيرهم مقبلين أو مدبرين ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ يعنى آثارهم وخطاهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لهم بالثواب ويدخلهم الجنة بغير حساب.

قال ابن عباس: أخبرنا أبو عمر الفراتى بقراءتى عليه أخبرنا أبو موسى أخبرنا مسدّد عن هارون بن عبد الله الجمّال أخبرنا ابن أبى فديك عن الخليل بن عبد الله عن الحسين عن على بن أبى طالب وأبى الدرداء وأبى هريرة وأبى أمامة الباهلى وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين كلهم يحدّثون عن رسول الله ﷺ أنه قال: ومن أرسل نفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه وأنفق فى وجه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم» ثم تلا هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١).

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية قال ابن عباس فى رواية الكلبى كان رسول الله ﷺ إذا خرج غازيًا لم يتخلف إلاّ المنافقون والمعذرون فلما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين ومن نفاقهم فى غزوة تبوك قال المؤمنون: والله لا نتخلّف عن غزوة بعدها يغزوها رسول الله ﷺ ولا عن سرية أبدًا.

فلما أمر رسول الله ﷺ بالسرايا إلى الجهاد ونفر المسلمون جميعًا إلى الغزو وتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ يعنى ليس لهم أن يخرجوا جميعًا إلى العدو ويتركوا رسول الله ﷺ وحده.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ فهلاَّ خرج ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ قبيلة ﴿مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ جماعة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ يعنى الفرقة القاعدين فإذا رجعت السرايا وقد نزلت بعدهم قوله تعالى: ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ (النساء: ٩٥). قالوا لهم إذا رجعوا: قد أنزل الله على نبيكم بعدكم قرآنًا وقد تعلمنا فيمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيّهم من بعدهم ويبعث سرايا أُخر فذلك ليتفقهوا فى الدين ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وليعلموهم الأمر ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ولا يعملون خلافه.

وقال الحسن: هذا التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة ومعنى الآية: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أى ليتبصّروا ويتيقنوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين ولينذروا قومهم من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله النبى والمؤمنين، ويخبرونهم أنهم لا يدان لهم بقتال النبى ﷺ والمؤمنين، لعلهم يحذرون قتال النبى ﷺ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار.

قال الكلبى: ولها وجه آخر: ذكر أن أحياءً من بنى أسد بن خزيمة أصابتهم (. . . .)[١] حتى نزلوا بالمدينة فأفسدوا طرقها بالعذرات وأغلوا أسعارها فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مجاهد: فى أصحاب النبى ﷺ خرجوا فى البوادى فأصابوا من الناس معروفًا وخصبًا ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى. قال الناس لهم: ما نراكم إلاّ وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم من ذلك حرج وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبى ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ويستمعوا ما أنزل إليهم ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ ويدعوهم إلى الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ بأس الله ونقمته باتباعهم وطاعتهم، وقعدت طائفة تريد المغفرة.

وقال عكرمة: لما نزلت ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ﴾ (التوبة: ٣٩) و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ (الأعراب: ١٢٠) الآية قال المنافقون من أهل البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه وقد كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم ليفقهوهم، فأنزل الله تعالى فى المعذر لأولئك هذه الآية.

وروى عن عبد الرزاق بن همام فى قوله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ قال: هم أصحاب الحديث.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم فى الدار والنسب.

قال ابن عباس: مثل قريظة والنضير وخيبر وفدك ونحوها.

ابن عمر: أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ، والشام كانت أقرب إلى المدينة من العراق.

وكان الحسن إذا سئل عن قتال الروم والديلم تلا هذه الآية.

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وحمية، وقال الضحاك: جفاء، وقال الحسن: صبرًا على جهادهم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ﴾ قراءة العامة: برفع الياء لمكان الهاء وقرأ عبد بن عمير: أيكم بفتح الياء وكلّ صواب ﴿زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ يقينًا وإخلاصًا وتصديقًا.

وقال الربيع: خشية ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول القرآن. عن الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يعنى سورة محكمة فيها الحلال والحرام ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ وتصديقًا بالفرائض مع إيمانهم بالرحمن ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزول الفرائض ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفرًا إلى كفرهم وضلالاً إلى ضلالهم وشكًا إلى شكهم.

وقال مقاتل: إثمًا إلى أثمهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ قال مجاهد فى هذه الآية: الإيمان يزيد وينقص، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو وزن إيمان أبى بكر رضى الله عنه بإيمان أهل الأرض لرجحهم، بلى إن الإيمان ليزيد وينقص، قالها ثلاث مرات.

وروى زيد الشامى عن ذر قال: كان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: تعالوا حتى نزداد إيمانًا.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب كلما ازداد الإيمان عظمًا ازداد ملك الناس حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب فكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فيسود القلب كله. فايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود.

وكتب الحسن إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن للإيمان تشاد شرائع وحدود وفرائض

من استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان.

وقال ابن المبارك عن الحسن: إلاّ قرابة بزيادة الإيمان أو أردّ كتاب الله تعالى.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ قرأ العامة بالياء خبرًا عن المنافقين المذكورين، وقرأ حمزة ويعقوب: أولا ترون بالتاء على خطاب المؤمنين، وهى قراءة أبى بن كعب. قرأ الأعمش: أو لم تر، وقرأ طلحة: أولا ترى وهى قراءة عبد الله بن عمر ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يختبرون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: يكذبون كذبة أو كذبتين يصلون فيه، وقال مجاهد: يفتنون بالقحط والغلاء، عطية: بالأمراض والأوجاع وهى روائد الموت.

قتادة: بالغزو والجهاد، وقيل: بالعدوّ، وقيل: يفتنون فيعرفون مرة وينكرون بأخرى. مرّة الهمدانى: يفتنون يكفرون. مقاتل بن حيان: يفضحون بإظهار نفاقهم. عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثمّ ينافقون كما أنهم ينقضون عهدهم فى سنة مرة أو مرتين ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نقضهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (ما صنع الله بهم) وكان رسول الله ﷺ إذا انقضوا عهودهم بعث إليهم السرايا فيقتلونهم. الحسن: يفتنون بالجهاد فى سبيل الله مع رسوله ويرون تصديق ما وعده الله من النصر والظفر على من عاداه الله ثم لا يتوبون لما يرون من صدق موعد الله، ولا يتّعظون، الضحاك: يفتنون بالغلاء والبلاء ومنع القطر وذهاب الثمار ثم لا يرجعون عن نفاقهم ولا يتفكرون فى عظمة الله، وفى قراءة عبد الله: وما يذكرون.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ كلام مختصر تقديره نظر بعضهم فى بعض وقالوا أو أشاروا ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ إن قمتم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أحدًا يراهم قاموا فانصرفوا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن الإيمان بها، وقال الضحاك: هل يراكم من أحد يعنى أطلع أحد منهم على سرائركم مخافة القتل قال الله ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان بالقرآن ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ قال ابن عباس: لا تقولوا إذا صليتم: انصرفنا من الصلاة فإن قومًا انصرفوا فصرف الله قلوبهم، لكن قولوا قضينا الصلاة.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قراءة العامة بضم الفاء أى: من نسبكم تعرفون نسبه وحسبه وأى قبيلة من العرب من بنى إسماعيل. قال ابن عباس: ليس فى العرب قبيلة إلاّ وقد ولدت النبى ﷺ مضريها وربيعها ويمانيها. قال الصادق: لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية.

أخبرنا عبد الله بن حامد، حدثنا حامد بن محمد. على بن عبد العزيز. محمد بن أبى هاشم حدّثنى المدنى عن أبى الحويرث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدنى من سفاح أهل الجاهلية وما ولدنى إلاّ نكاح كنكاح الإسلام» فإن الله تعالى جعله من أنفسهم، فلا

تحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة.

قرأ ابن عباس وابن ثعلبة: عبد الله بن فسيط المكى وابن محيصن والزهرى ﴿مِّنۡ أَنفَسِكُمۡ﴾ بفتح الفاء أى من أشرفكم وأفضلكم من قولك: شىء نفيس إذا كان مرغوبًا فيه. قال يمان: من أعلاكم نسبًا ﴿عَزِيزٌ﴾ شديد ﴿عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ ما صلة أى عنتكم وهو دخول المشقة والمضرّة عليكم. قال ابن عباس: ما ضللتم. قال الضحاك والكلبى: أثمتم، وقال العتيبى: ما عنتكم وضرّ بكم، وقال ابن الأنبارى: ما هلكتم عليه ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ أى على إيمانكم وهداكم وصلاحكم، وقال قتادة: حريص على ضالهم أن يهديه الله، وقال الفراء: الحريص الشحيح أن تدخلوا النار.

﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ﴾ رفيق ﴿رَّحِيمٞ﴾ قيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين رؤوف بعباده رحيم بأوليائه، رؤوف بمن يراه رحيم بمن لم يره.

قال عبد العزيز بن يحيى: نظم الآية: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ عليه ما عنتم لا يهمه إلا شأنكم وهو القائم بالشفاعة - فلل اعانيل بنل غتان نل - متم على سنته فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة لقوله ﷺ: «من ترك مالاً فلنؤتينه ومن ترك كلاً ودنيًا فعلىّ وإلىّ».

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أعرضوا عن الإيمان وناصبوك ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ قراءة العامة بخفض الميم على العرش، وقرأ ابن محيصن: العظيم بالرفع على نعت الربّ، وقال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلاّ للنبى ﷺ فإنه قال: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وقال يحيى بن جعدة: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا تثبت آية فى المصحف حتى يشهد عليها رجلان فجاء رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة التوبة ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ﴾ فقال عمر: والله لا أسألك عليها بيّنة، كذلك كان رسول الله ﷺ فأثبتهما، وهى آخر آية نزلت من السماء فى قول بعضهم، وآخر سورة كاملة نزلت سورة براءة.

أخبرنا أبو عبد الله بن حامد، عن محمد بن الحسن عن على بن عبد العزيز عن حجاج عن همام. عن قتادة قال: إن آخر القرآن عهدًا بالسماء هاتان الآيتان خاتمة براءة ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أُبى بن كعب: إن أحدث القرآن عهدًا بالله تعالى ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾ إلى آخر السورة.

سورة يونس

مكية، وهي عشرة آلاف وثمانمائة وتسع وثمانون حرفًا،
وألفان وخمسمائة كلمة غير واحدة، ومائة وتسع آيات

حدثنا حامد بن أحمد وسعيد بن محمد، ومحمد بن القاسم. قالوا: أخبرنا محمد بن مطر. إبراهيم بن شريك. أحمد بن يونس. سلام بن سليم. هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي أمامة عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ سورة يونس أُعطي من الأجر ومن الحسنات بعدد من صدّق بيونس وكذّب به، وبعدد من غرق مع فرعون» صدق رسول الله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝﴾.

﴿الٓرۚ﴾ قُرئ بالتفخيم والإمالة وبين اللفظين، وكلها لغات صحيحة فصيحة.

ابن عباس والضحاك: أنا الله أرى، وقيل: أنا الرب لا رب غيرى. عكرمة والأعمش والشعبى. الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة. فإذا وصلت كان الرحمن. قتادة: اسم من أسماء القرآن. أبو روق: فاتحة السورة، وقيل: عزائم الله، وقيل: هو قسم كأنّه قال: والله إنّ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

قال مجاهد وقتادة: أراد به التوراة والإنجيل والكتب المقدسة، وتلك إشارة إلى غائب مؤنث.

وقال الآخرون: أراد به القرآن وهو أولى بالصواب لأنه لم يخص الكتب المقدمة قبل ذكره ولأن الحكيم من بعث القرآن، دليله قوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ (هود: ١) ونحوها فيكون على هذا التأويل تلك يعني هذه وقد مضى القول في هذه المسألة في أول سورة البقرة ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ المحكوم بالحلال والحرام والحدود والأحكام.

وقال مقاتل: المحكم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف وهو فعيل بمعنى فاعل كقول الأعمش في قصيدته:

وقصيدة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

وقيل: هو الحاكم فعيل بمعنى فاعل بأنه قرأ: نزل فيهم الكتاب بالحق ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ (البقرة: ٢٣١) وقيل: بمعنى المحكوم فيه فعيل بمعنى المفعول.

قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه.

وقال عطاء: حكيم بما حكم فيه من الأرزاق والآجال بما شاء.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية، قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت الكفار وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أهل مكة والألف للتوبيخ ﴿عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ أن في محل الرفع وأوحينا صلة له تقديره أكان للناس عجبًا لإيحائنا ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنۡهُمۡ﴾ محمد، وفي حرف عبد الله: عجيبٌ، بالرفع على اسم كان، وأن في محل نصب على خبره ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أن على محل نصب بقصد الخافض وكذلك الثانية.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾.

قال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. قال الضحاك: ثواب صدق. مجاهد: الأعمال الصالحة، علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. سلف صدق، زيد بن أسلم: محمد ﷺ شفيع لهم. يمان: إيمانهم، عطاء،: مقام صدق لا زوال فيه ولا بؤس، نعيم مقيم وخلود لا موت فيه، الحسن: عمل صالح أسلفوه (فأثابهم) عليه، الأعمش: سابقة صدق. أبو حاتم: منزل صدق نظيره ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٍ﴾ (الإسراء: ٨٠) عبد العزيز بن يحيى: قدم صدق. قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا

﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ (الأنبياء:١٠١). الزجاج: منزلة رفيعة، وقيل: هو بعثهم وتقديم الله تعالى هذه الأمة فى البعث يوم القيامة، بيانه قوله ﷺ: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، وقيل: عدَة الله تعالى لهم، والقدم: القدم كالنقص والقبض وأضيف القدم إلى الصدق وهو (علة) كما قيل: مسجد الجامع، وحقّ اليقين.

قال ابن الأعرابى: القدم المتقدم فى الشرف.

قال العجاج:

زل بنو العوام عن آل الحكم وتركوا الملك لملك ذى قدم

أى متقدم.

قال أبو عبيدة والكسائى: كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم. يقال: لفلان قدم فى الإسلام، وله عندى قدم صدق، وقدم سوء، وهو مؤنث يقال: قدم حسنة وقدم صالحة. قال حسان بن ثابت:

لنا القدم العلياء إليك وخلفنا لأوّلنا فى طاعة الله تابع

قال ذو الرمّة:

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادىّ طمت على البحر

وقال آخر:

قعدت بهم قدم الفجار وذكرت أنسابهم من فضة من مالق

أى ما يقدّم لهم من الفجّار.

﴿قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ قال المفسرون: القرآن، وقرأ أهل الكوفة: لساحر يعنى محمد ﷺ.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قال مجاهد: يقضيه وحده ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أمره ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذى فعل هذه الأشياء ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا ربّ لكم سواه ﴿فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معادكم ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ صدقًا لا خُلف فيه، وهو نصب على المصدر، أى وعد الله وعدًا حقًّا فجاء به حقًّا، وقيل: على القطع، وقرأ ابن أبى عبلة: وعد الله حق على الاستئناف، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أى يحميهم ابتداءً ثم يميتهم ثم يحييهم، وقرأ العامة: إنّه، بكسر الألف على الاستئناف. وقرأ أبو جعفر: إنه، بالفتح على معنى، لأنه وبأنه، كقول الشاعر:

أحقًا عباد الله أن لست زائرًا بثينة أو يلقى الثريا رقيبها

﴿لِيَجْزِىَ﴾ ليثيب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل ثم قال: مبتدئًا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ﴾ ماء حار قد انتهى حرّه ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو بمعنى محموم فعيل بمعنى مفعول، وكل مسخن مُغلى عند العرب فهو حميم. قال المرقش:

وكل يوم لها مقطرة فيها كباء معدّ وحميم

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ بالنهار ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل. قال الكلبى: تضىء وجوههما لأهل السموات السبع وظهورهما لأهل الأرضين السبع.

(قرأ الأكثرون: ضياءً بهمزة واحدة) وروى عن ابن كثير: ضياء بهمز الياء، ولا وجه لها لأن ياءه كانت واواً مفتوحة، وهى عين الفعل أصله ضواء فسكنت وجعلت ياءً كما جعلت فى

الصيام والقيام ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أى قدر له بمعنى هيأ له وسوى له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها.

وقيل: جعل قدر مما يتعدى لمفعولين ولم يقل قدرهما، وقد ذكر الشمس والقمر وفيه وجهان: أحدهما أن يكون الهاء للقمر خاصة بالأهلة يعرف انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، والآخر أن يكون قد اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ (التوبة: ٦٢) وقد مضت هذه المسألة ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ دخولها وانقضائها ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ يعنى وحساب الشهور والأيام والساعات ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ مثل ما فى الفصل والخلق والتقدير، ولولا (وجود) الأعيان المذكورة لقال: تلك ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لم يخلقه باطلاً بل إظهاراً لصنعه ودلالة على قدرته وحكمته، ولتجزى كل نفس بما كسبت فهذا الحق ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يبيّنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن كثير وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله قبله ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ وبعده ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ فيكون متبعًا له، وقرأ ابن السميقع بضم الياء وفتح الصاد ورفع التاء من الآيات على مجهول الفعل، وقرأ الباقون بالنون على التعظيم.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ يوقنون فيعلمون ويقرّون.

قال ابن عباس: قال أهل مكة: آتنا بآية حتى نؤمن بك فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعنى لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الهلع والخوف ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فاختاروها داراً لهم ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ وسكنوا إليها.

قال قتادة فى هذه الآية: إذا شئت رأيت صاحب دنيا لها يفرح ولها يحزن ولها يرضى ولها يسخط.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أدلتنا ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لا يعتبرون. قال ابن عباس ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ محمد والقرآن ﴿غَٰفِلُونَ﴾ معرضون تاركون مكذبون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ فيه إضمار واختصار أى يهديهم ربهم بإيمانهم إلى مكان ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال أبو روق: يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة، قال عطية: يهديهم ويثيبهم ويجزيهم، وقيل ينجيهم.

مجاهد ومقاتل: يهديهم بالنور على الصراط إلى الجنة يجعل لهم نوراً يمشون به. قال

النبى ﷺ: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة (حسنة وبشارة حسنة) فيقول له. من أنت فوالله إنى لأراك امرأ صدق؟ فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة فيقول: من أنت فوالله إنى لأراك امرأ سوء؟ فيقول: أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار.

وقيل: معنى الآية: بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه أى بتصديقهم هداهم تجرى من تحتهم الأنهار لم يرد أنها تجرى تحتهم وهم فوقها، لأن أنهار الجنة تجرى من غير أخاديد. وإنما معناه أنها تجرى من دونهم وبين أيديهم وتحت أمرهم كقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٤) ومعلوم أنه لم يجعل السرى تحتها وهى عليه قاعدة وإنما أراد به بين يديها، وكقوله تعالى مخبراً عن فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾(الزخرف: ٥١)، أو من دونى وتحت أمرى ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ۝ دَعْوَىٰهُمْ﴾ قولهم وكلامهم ﴿فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

قال طلحة بن عبد الله سئل رسول الله ﷺ: عن سبحان الله، فقال: هو تنزيه الله من كل سوء، وسأل ابن الكوّا علياً عن ذلك فقال: كلمة رضيها الله لنفسه.

قال المفسرون: هذه نعمة علم بين له، وعين الخدام فى الطعام، فإذا اشتهوا شيئًا من الطعام والشراب قالوا: سبحانك اللهم. فيأتوهم فى الوقت بما يشتهون على مائدة، فإذا فرغوا من الطعام والشراب حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ قولهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وما يريد آخر كلام يتكلّمون به ولكن أراد ما قبله.

قال الحسن: بلغنى بأن رسول الله ﷺ قال حين قرأ هذه الآية: «إن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس». وذلك قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿سَلَٰمٌ﴾ يحيّى بعضهم بعضًا بالسلام وتأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام.

قال ابن كيسان: يفتحون كلامهم بالتوحيد ويختمون بالتحميد.

وقرأ العامة: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بالتخفيف والرفع، وقرأ بلال بن أبى بردة وابن محيصن (أنّ) مثقلاً (الحمد) نصبًا.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ فيه اختصار ومعناه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية ذهابهم فى الشر استعجالهم بالإجابة فى الخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أى لفرضه من هلاكهم ولماتوا جميعًا. قال مجاهد: قول الإنسان لولده وماله إذا غضب: (اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك له فيه والعنه) يتخذها الرجل على نفسه وولده وأهله وماله بما يكره أن يُستجاب له.

شهر بن حوشب. قرأت فى بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملكين الموكلين: لا تكتبا

على عبدى فى حال ضجره شيئًا.

وقرأ العامة: (لقضى إليهم آجالهم) برفع القاف واللام على خبر تسمية الفاعل، وقرأ عوف وعيسى وابن عامر ويعقوب: بفتح القاف واللام، وقرأ الأعمش: (لقضينا)، وكذلك هو فى مصحف عبد الله، وقيل: إنها نزلت فى النضر بن الحارث حين قال: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأنفال: ٣٢) الآية، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يخافون البعث والحساب ولا يأملون الثواب ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ وَإِذَا مَسَّ﴾ أصاب ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الشدة والجهد ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ على جنبه مضطجعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ فإنما يريد جميع حالاته لأن الإنسان لا يعدو أحد هذه الخلال ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ رفعنا وفرجنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أى استمر على طريقته الأولى، قيل: أن يصيبه الضرّ ونسى ما كان فيه من الجهد والبلاء وترك الشكر والدعاء، قال الأخفش: كأن لم يدعُنا وكأن لم يلبثوا وأمثالها، كأن الثقيلة والشديدة كأن لم يدعنا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى كما زيّن لهذا الإنسان الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ الآية، زين الجد فى الكفر والمعصية ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعصية والإسراف يكون فى النفس، وفى قراءة: ضيّع نفسه وجعلها عابد وثن وضيع ماله إذ جعله سائبًا بلا خير، ومعنى الكلام أسرفوا فى عبادتهم وأسرفوا فى نفقاتهم.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعنى الأمم الماضية. قال ابن عباس: بين القرنين ثمان وعشرون سنة.

﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أشركوا ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ﴾ أى كما أهلكناهم بكفرهم وتكذيبهم رسلهم ﴿نَجْزِى﴾ نهلك ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين تكذيبهم محمد ﷺ يخوف كفّار مكة عذاب الأمم الخالية المكذبة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أى من بعد القرون التى أهلكناهم ﴿لِنَنظُرَ﴾ لنرى ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهو أعلم بهم. قال النبى ﷺ: «إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله استخلفكم فيها فناظر كيف تعملون».

قتادة: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا فأروا الله من أعمالكم خيرًا بالليل والنهار والسرّ والعلانية.

وروى ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن عوف بن مالك قال لأبى بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن شيئًا دُلّى من السماء فانتشط رسول الله ﷺ ثم أعيد فانتشط أبو بكر رضى الله عنه ثم ذرع الناس حول المنبر ففضّل عمر بثلاثة أذرع إلى المنبر، فقال عمر: دعنا من رؤياك

لا أرب لنا فيها، فلما استخلف عمر قال: قل يا عوف رؤياك، قال: هل لك فى رؤياى من حاجة؟ أو لم تنهونى؟ فقال: ويحك إنى كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه. فقصّ عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس المنبر بهذه الثلاثة الأذرع. قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة وأما الثانية فإنه لا يخاف فى الله لومة لائم، وأما الثالثة فإنه شهيد، ثم قال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل، وأما قوله: فإنى لا أخاف فى الله لومة لائم فيما شاء الله، وأما قوله: إنى شهيد فإنّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به، ثم قال: إن الله على ما يشاء لقدير.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قتادة: يعنى مشركى مكة، مقاتل: هم خمسة نفر: عبد الله بن أمية المخزومى والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله ابن أبى قيس العامرى، والعاص بن عامر بن هاشم. قالوا للنبى ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ﴾ ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل وليس فيه عنهما أى ﴿بَدِّلْهُ﴾ تكلم به من تلقاء نفسك.

وقال الكلبى: نزلت فى المستهزئين، قالوا: يا محمد ائت بقرآن غيره (ليس فيه ما يغيظنا، أو بدله) فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو آية رحمة آية عذاب أو حرام حلالاً أو حلال حرامًا ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ من قبل نفسى ومن عندى ﴿إِنْ

﴿أَتَّبِعُ﴾ ما أطيع فيما آمركم وأنهاكم ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ أعلمكم ﴿بِهِۦ﴾ وقرأ الحسن: ولا أدرأتكم به، وهي لغة بني عقيل يحولون الياء ألفًا فيقولون: أعطأت بمعنى أعطيت، ولبأت بمعنى لبيت وجاراة وناصاة للجارية والناصية. فأنشد المفضل:

لقد أذنت أهل اليمامة طي بحرب كناصاة الأغر المشهر

وقال زيد الخيل:

لعمرك ما أخشى التصعلك ما بقا على الأرض قيسي يسوق الأباعرا

أي ما بقي، وقال آخر:

زجرت فقلنا لا نريع لزاجر إن الغوى إذا نها لم يعتب

أي نهي.

وروى البزى عن ابن كثير ولأدراكم بالقصر على الإيجاب يريد: ولا عملكم به من غير قراءتي عليكم. وقرأ ابن عباس: ولا أدراتكم من الإنذار، وهي قراءة الحسن ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ حينًا وهو أربعون سنة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنه ليس من قبلي.

قال ابن عباس: نبئ رسول الله ﷺ وهو ابن أربعون سنة وأقام بمكة ثلاث عشرة وبالمدينة عشرة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن له شريكًا أو صاحبة أو ولدًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ محمد والقرآن ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لا يأمن ولا ينجو المشركون ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن عصوه ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أن أطاعوه يعني الأصنام ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ تخبرون ﴿ٱللَّهَ﴾ قرأه العامة: بالتشديد وقرأ أبو الشمال العدوي: أتنبئون بالتخفيف وهما لغتان. نبأ ينبئ بنية، وأنبأني إنباءً بمعنى فاعل جمعها.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (التحريم: ٣) ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ بما لا يعلم الله تعالى صحته وحقيقته ولا يكون ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ومعنى الآية: أتخبرون الله أن له شريكًا أو عنده شفيعًا بغير إذنه ولا يعلم الله أن له شريكًا ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ٣٣).

ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قرأ يحيى بن ثابت والأعمش وأبو حمزة

والكسائي وخلف: تشركون بالتاء هاهنا وفي سورة النحل والروم، وهو اختيار أبي عبيد للمخاطبة التي قبلها، وقرأ الباقون كلها بالياء، واختارها أبو حاتم، وقال: كذلك تعلمناها.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على ملة واحدة الإسلام دين آدم عليه السلام إلى أن قتل أحد ابني آدم أخاه فاختلفوا. قاله مجاهد والسدي.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا على عهد نوح فبعث الله إليهم نوحًا، وقيل: كانوا أمة واحدة مجتمعة على التوحيد يوم الميثاق. وقيل: أهل سفينة نوح، وقال أبو روق: كانوا أمة واحدة على ملة الإسلام زمن نوح عليه السلام بعد الغرق، وقال عطاء: كانوا على دين واحد الإسلام من لدن إبراهيم عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي، عطاء: يدل على صحة هذه التأويلات قراءة عبد الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾، وقال الكلبي: وما كان الناس إلا أمة واحدة كافرة على عهد إبراهيم فاختلفوا فتفرقوا، مؤمن وكافر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بأن جعل للدنيا مدة لكل أمة أجلاً لا تتعدى ذلك، قال أبو روق وقال الكلبي: هي أن الله أخر هذه الأمة ولا يهلكهم بالعذاب في الدنيا، وقيل: هي أنه لا يأخذ إلا بعد إقامة الحجة.

وقال الحسن، ولولا كلمة سبقت من ربك مضت في حكمه أنه لا يقضي فيهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين في النار بكفرهم ولكنه سبق من الله الأجل فجعلوا موعدهم يوم القيامة.

وقال أبو روق: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، لأقام عليهم الساعة، وقيل: الفزع من هلاكهم، وقال عيسى بن عمر: لقضى بينهم بالفتح لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الذين ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ﴾ لهم يا محمد ما سألتموني الغيب ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ ما يعلم أحدكم بفعل ذلك إلا هو، وقيل: الغيب، نزول الآية متى تنزل نزل ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزول الآية ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها، وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق على الباطل. وقال الحسن: فانتظروا مواعيد الشيطان وكانوا مع إبليس على موعد فيما يعدهم ويمنيهم ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾. فأنجز الله وعده ونصر عبده.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ يعنى الكفار ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أى راحة ورخاء بعد شدة وبلاء، وقيل: عنى به القطر بعد القحط ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. مقاتل ابن حيان: لا يقولون هذا رزق الله فإنما يقولون: سقينا بنوء كذا وهو قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢) ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أعجل عقوبة وأشد أخذًا وأقدر على الجزاء، وقال مقاتل: صنيعًا. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ حفظتنا ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ قرأ العامة بالتاء لقوله، وقراءة الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب: (يمكرون) بالياء لقوله: ﴿إِذَا لَهُم﴾ وهى رواية هارون عن أبى عمرو.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يحر بكم ويحملكم على التسيير، وقرأ أبو جعفر وابن عامر: (ينشركم) بالنون من النشر، وهو (البسط) فى البر على الظهر وفى البحر على الفلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أى فى السفن يكون واحدًا أو جمعًا، وقرأ عيسى (الفلك) بضم اللام. ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ يعنى جرت السفن بالناس وهذا خطاب تكوين رجع من الخطاب إلى الخبر ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أى الريح ﴿جَآءَتْهَا﴾ يعنى الفلك وهو جواب لقوله حتى إذا جاءتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديد يقال: عصفت الريح وأعصفت والريح، مذكر ومؤنث، وقيل: لم يقل: عاصفة لاختصاص الريح بالمعصوف، وقيل: للنسب أى ذات عصوف ﴿وَجَآءَهُمُ﴾ يعنى

سكان السفينة ﴿ٱلْمَوْجُ﴾ وهو حركة الماء وأخلاطه ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ﴾ وأيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ إذا أحاط بهم الهلاك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ هنالك ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ للدعاء دون أوثانهم وكان مفزعهم إلى الله دونها.

روى (الثورى) عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيد فى قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قال: قالوا فى دعائهم: أهيا شراهيا وتفسيره: يا حى يا قيوم ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ خلصتنا يا ربنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الريح العاصف ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك بالإيمان والطاعة ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ الآن ووباله راجع إليها وجزاؤه لاحق، وأتم الكلام هاهنا كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ أى هذا بلاغ وقيل هو كلام متصل، والبغى ابتداء ومتاع خبره، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ صلة المتاع ومعناه ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ولا يصلح لزاد المعاد لأنكم استوجبتم غضب الله.

وقرأ ابن إسحاق وحفص: متاعًا بالنصب على الحال ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فى فنائها وزوالها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ من الحبوب والبقول والثمار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من الحشيش والمراعى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حسنها وبهجتها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ هذا قراءة العامة، وتصديقها قراءة عبد الله بن مسعود: وتزينت، وقرأ أبو عثمان النهدى والضحاك: وأزانت على وزن أجازت قال عوف بن أبى جميلة: كان أشياخنا يقرءونها كذلك، وازيانت نحو اسوادّت، وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والشعبى والحسن والأعرج: وأزينت على وزن أفعلت مقطوعة الألف (بالتخفيف)، قال قطرب: معناه: أتت بالزينة عليها، كقولهم: أحبّ فأذمّ واذكرت المرأة فأنثت ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أخبر عن الأرض ويعنى النبات إذ كان مفهومًا وقيل: ردّه إلى الغلة وقيل: إلى الزينة ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ قضاؤنا بهلاكها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ مقطوعة مقلوعة وهى محصورة صرفت إلى حصيد ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ تكن، وأصلة من غنى المكان إذا أقام فيه وعمره، وقال مقاتل: تغن، وقرأها العامة: تغن بالتاء لتأنيث الأرض، وقرأها قتادة بالياء يذهب به إلى الزخرف ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ قال قتادة: السلام الله وداره الجنة، وقيل: السلام والسلامة واحد كاللذاذ واللذاذة والرضاع والرضاعة. قال الشاعر:

تحيّى بالسلامـــــة أم بكر   وهل لك بعد رهطك من سلام

فسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات. قال الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ (الحجر:٤٦)، وقال ذو النون المصرى: سميت بذلك لأن من دخلها سلم من القطيعة والفراق، وقيل: أراد الله به التحية يقال: سلم تسليمًا وسلامًا كما يقال: كلم تكليمًا وكلامًا فسميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحيى بعضهم بعضًا والملائكة يسلمون عليهم، وقال الحسن: السلام لا ينقطع عن أهل الجنة وهو تحيتهم.

وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لأن من دخلها سلم عليه المولى وذلك أن الله يعلم ما فيه أهل الجنة من ذكر الذنوب والهيبة لعلاّم الغيوب فيبدؤهم بالسلام والتحية لهم تقريبًا وإيناسًا وترحيبًا.

قال جابر بن عبد الله خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: «إنى رأيت فى المنام كأن جبرائيل عند رأسى وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً فقال: اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتًا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولاً يدعوهم إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول، من أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل مما فيها».

قال يحيى بن معاذ: يا ابن آدم دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه فإن أجبته من دنياك دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها ثم قال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عمّ بالدعوة إظهاراً لحجته وخصّ بالهداية استغناء عن خلقه، وقيل: الدعوة إلى الدار عامة لأنها الطريق إلى النعمة وهداية الصراط خاصة لأنها الطريق إلى المنعم.

❖ ❖ ❖

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ

عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾».

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن يوسف بن يعقوب الفقيه في آخرين قالوا: حدثنا أبو على إسماعيل بن محمد الصفار. الحسن بن عرفة العبدى حدثنى سلم بن سالم البلخى عن نوح عن أُبيّ عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: «الذين أحسنوا العمل فى الدنيا الحسنى: وهى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم».

وهو قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وحذيفة وأبى موسى وصهيب وعبادة بن الصامت وكعب بن عجرة وعامر بن سعد وعبد الرحمن بن سابط والحسن وعكرمة وأبى الجوزاء والضحاك والسدى وعطاء ومقاتل، يدل عليه:

ما أخبرنا أبو إسحاق بن الفضل القهندرى أخبرنا أبو على الصفار. الحسن بن عرفة. يزيد ابن هارون عن حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً لم تروه، قال: فيقولون وما هو؟ ألم تبيض وجوهنا وتزحزحنا عن النار وتدخلنا الجنة. قال: فيكشف الحجاب - تبارك وتعالى - فينظرون إليه قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم منه».

قال ابن عباس: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ يعنى للذين شهدوا أن لا إله إلا الله الجنة.

وروى عطية عنه هى أن واحدة من الحسنات واحدة والزيادة التضعيف بعشر أمثالها إلى

سبعمائة ضعف.

وروى جويبر عن الليث عن عبد الرحمن بن سابط قال: الحسنى: النظرة، والزيادة: النظر. قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣).

وروى الحكم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: الزيادة غرفة من لؤلؤ واحدة لها أربعة آلاف باب. مجاهد: الحسنى: حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان، ابن زيد: الحسنى: الجنة والزيادة ما أعطاهم فى الدعاء لا يحاسبهم به يوم القيامة.

حكى منصور بن عمار عن يزيد بن شجرة قال: الزيادة: هى أن تمر السحابة بأهل الجنة فتمطرهم من كل النوادر، وتقول لهم: ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئًا إلا مطرتهم. ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ يغشى ويلحق ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غبار وهو جمع قترة. قال الشاعر:

متوج برداء الملك يتبعـــــه موج ترى فوقه الرايات والقترا

وقال ابن عباس وقتادة: سواد الوجوه، وقرأ الحسن: قتر بسكون التاء وهما لغتان كالقدْر والقدَر ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوان، وقال قتادة: كآبة وكسوف. قال ابن أبى ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ يجوز أن يكون الجزاء مرفوعًا بإضمار أى: لهم جزاء، ويجوز أن يكون مرفوعًا بالباء، فيجوز أن يكون ابتداء وخبره ﴿بِمِثْلِهَا﴾ أى: مثلها بزيادة الباء فيها كقولهم: بحسبك قول السوء.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى من مانع، ومن صلة ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ ألبست ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ أكثر القراء على فتح الطاء وهو جمع قطعة ويكون ﴿مُظْلِمًا﴾ على هذه القراءة نصبًا على الحال والقطع دون النعت كأنه أراد قطعًا من الليل المظلم فلما حذف الألف واللام نصب. يجوز أن يكون مظلمًا صفة لقطع ـ وسط الكلام ـ كقول الشاعر:

❖ لو أن مدحة حتى منشر أحداً ❖

وقرأ أبو جعفر والكسائى وابن كثير (قطْعًا) بإسكان الطاء وتكون ﴿مُظْلِمًا﴾ على هذا نعت كقوله: بقطع من الليل، اعتبارًا بقراءة أُبىّ: كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ اثبتوا وقفوا فى موضعكم ولا تبرحوا ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ يعنى الأوثان ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ميزنا وفرقنا بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا بذلك حين (اتخذوا) كل معبود من دون الله من خلقه ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ يقولون بلى كنا نعبدكم فيقول الأصنام: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ أى ما كنا عن عبادتكم إيانا إلا

غافلين، ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل. قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ﴾ أى تخبر وقيل: تعلم، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وطلحة وعيسى وحمزة والكسائى ﴿تَتْلُواْ﴾ بالتاء، وهى قراءة ابن مسعود فى معنى: وتقرأ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ صحيفتها، وقيل: معناه تتبع ما قدمت من خير وشر، وقال ابن زيد (تعاون) ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ﴾ (بطل) ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (من الآلهة) ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ **المطر** ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ **النبات** ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ **الذى فعل هذه الأشياء** ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ **أفلا تخافون عقابه فى شرككم** ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ **الذى يفعل هذه الأشياء** ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ **فمن أين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرون** ﴿كَذَٰلِكَ﴾ **فسرها الكلبى هكذا فى جميع القرآن** ﴿حَقَّتْ﴾ **وجبت** ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ **حكمه وعلمه السابق.**

وقرأ الأعرج: كلمات ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ **كفروا** ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ **ينشئ من غير أصل ولا (مثال)** ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ **يحييه بهيئته بعد الموت فإن أجابوك وإلا** ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ **تصرفون عن قصد السبيل** ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ **أوثانكم** ﴿مَّن يَهْدِىٓ﴾ **يرشد** ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ **فإذا قالوا: لا، فلا بد لهم منه** ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ **أى إلى الحق** ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾.

اختلف القراء فيه، فقرأ أهل المدينة: مجزومة الهاء مشددة الدال لأن أصله يهتدى فأدغمت التاء فى الدال وتركت الهاء على (السكون) فى قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا فى قوله: (تعدوا وتخصمون).

وقرأ ابن كثير وابن عاصم بفتح الهاء وتشديد الدال وقلبت الياء المدغمة إلى الهاء، فاختاره أبو عبيد وأبو حاتم، وقرأ عاصم وورش بكسر الهاء وتشديد الدال فراراً من التقاء الساكنين. (لأن الجزم إذا اضطر إلى حركته) تحول إلى الكسر. قال أبو حاتم: هى لغة سفلى مضر. وروى يحيى بن آدم عن أبى بكر عن عاصم بكسر الهاء والياء وتشديد الدال (لإتباع) الكسر الكسر وقيل: هو على لغة من يقرأ نعبد ونستعين ولن تمسنا النار ونحوها، وقرأ أبو عمرو بين الفتح والجزم على مذهبه فى الإخفاء، وقرأ حمزة والكسائى وخلف: بجزم الهاء وتخفيف الدال على معنى يهتدى، يقال: هديته أى اهتدى فقال: خبرته فخبر ونقصته فنقص.

﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ فى معنى الآية وجهان: فصرفها قوم إلى الرؤساء والمضلين. أراد لا يرشدون إلا أن يرشدوا وحملها الآخرون على الأصنام، قالوا: وجه الكلام والمعنى لا يمشى

إلا أن يحمل وينتقل عن مكانه إلى أن ينقل كقول الشاعر:

للفتى عقل يعيش به حيث تهدى ساقه قدمه

يريد حيث يحمل ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ تقضون لأنفسكم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ منهم أنها آلهة وأنها تشفع لهم فى الآخرة وأراد بالأكثر الكل ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

❖ ❖ ❖

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا
يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ
مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي
وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ
إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ
كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا
كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا
يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ
مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ
أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ
بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال الفراء: معناه وما ينبغى لهذا القرآن أن يفترى كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ (آل عمران: ١٦١) وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ (التوبة: ١٢٢)، وقال الكسائى: (أن) فى محل نصب الخبر و(يفترى) صلة له وتقديره: وما كان هذا القرآن مفترى، وقيل: أن بمعنى اللام أى وما كان القرآن ليفترى من دون الله ﴿وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ تمييز الحلال من الحرام والحق من الباطل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ﴾ أى يقولون.

قال أبو عبيدة: أم بمعنى الواو ويقولون ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، اختلق محمد القرآن من قبل نفسه.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ شبيه القرآن وقرأ ابن السميقع: بسورة مثله مضافة، فتحتمل أن تكون الهاء كناية عن القرآن وعن الرسول ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ممن تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليعينوكم على ذلك، وقال ابن كيسان: وادعوا من استطعتم على المخالفة ليعينوكم، وقال مجاهد: شهداءكم بمعنى: ناسًا يشهدون لكم ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أنّ محمدًا افتراه.

ثم قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ يعنى القرآن ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ تفسيره. وقال الضحاك: يعنى عاقبته وما وعد الله فى القرآن إنه كائن من الوعيد والتأويل ما يؤول إليه الأمر.

وقيل للحسن بن الفضل: هل تجد فى القرآن (من جهل شيئًا عاداه؟) فقال: نعم فى موضعين ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (الأحقاف: ١١) ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الخالية ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أى كما كذب هؤلاء المشركون بالقرآن كذلك كذب فى هذا وبشر المشركون بالهلاك والعذاب ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أى ومن قومك من سيؤمن بالقرآن ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ لعلم الله السابق فيهم ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين لا يؤمنون ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى﴾ الإيمان ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الشرك ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قال مقاتل والكلبى: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره، وأن أحدًا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته، وذكر أن الكفار يستمعون القرآن وقول محمد ﷺ فينظرون إليه ويرون إعلامه وأدلته على نبوته ولا ينفعهم ذلك ولا يهتدون لإرادة الله وعلمه فيهم فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بأسماعهم الظاهرة ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ بأبصارهم الظاهرة ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وهذا تسلية من الله تعالى لنبيه ﷺ يقول ما لا تقدر أن تسمع من سلبته السمع، ولا تقدر أن تخلق

للأعمى بصراً يهتدى به فكذلك لا تقدر أن توفقهم للإيمان وقد حكمت عليهم أن لا يؤمنوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾؛ لأنه فى جميع أفعاله عادل.

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعصية وفعلهم ما ليس لهم أن يفعلوا (وألزمهم) ما ليس للفاعل أن يفعله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ قال الضحاك: كأن لم يلبثوا فى الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ قصرت الدنيا فى أعينهم من هول ما استقبلوا، وقال ابن عباس: كأن لم يلبثوا فى قبورهم إلا قدر ساعة من النهار ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ حين بعثوا من القبور يعرف بعضهم بعضاً كمعرفتهم فى الدنيا ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد فى حياتك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مجزيهم به.

قال المفسرون: فكان البعض الذى أراه قبلهم ببدر وسائر العذاب بعد موتهم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ خلت ﴿رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فكذبوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أى عذبوا فى الدنيا وأهلكوا بالحق والعدل.

وقال مجاهد ومقاتل: فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينه وبينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقصون من حسناتهم ويزادوا على سيئاتهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أى المشركون ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذى وعدتنا يا محمد من العذاب.

وقيل: قيام الساعة ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أنت يا محمد وأتباعك ﴿صَـٰدِقِينَ ۝ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لا أقدر لها على ضر ولا نفع ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أملكه ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة (وأجل) ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ وقت (انتهاء) أعمارهم ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ يتأخرون ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝ قُلْ﴾ لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الله ﴿بَيَـٰتًا﴾ ليلاً ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون وقد وقعوا فيه ﴿أَثُمَّ﴾ هنالك وحينئذ، وليس بحرف عطف ﴿إِذَا مَا وَقَعَ﴾ نزل العذاب ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ صدقتم بالعذاب فى وقت نزوله.

وقيل: بأنه فى وقت البأس ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ فيه إضمار أى، وقيل: إنهم الآن يؤمنون ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وتكذبون ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أشركوا ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فى الدنيا.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ ويستخبرونك يا محمد ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة ﴿قُلْ إِى﴾ كلمة تحقيق ﴿وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ لا شك فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فأتيقن.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ **أشركت** ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ **يوم القيامة** ﴿وَأَسَرُّوا﴾ **وأخفوا** ﴿النَّدَامَةَ﴾ **على كفرهم** ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ **وفرغ من عذابهم** ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ **إلى قوله** ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ **تذكرة** ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ﴾ **ودواء،** ﴿لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ **إلى قوله تعالى:** ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ .

قال أبو سعيد الخدرى: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله.

وقال ابن عمر: فضل الله الإسلام وبرحمته تزيينه فى القلب.

خالد بن معدان: فضل الله الإسلام وبرحمته السنة.

الكسائى: فضل الله النعم الظاهرة، ورحمته النعم الباطنة. بيانه: وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة.

أبو بكر الوراق: فضل الله النعماء وهو ما أعطى وحبى ورحمته الآلاء وهى ما صرف.

وروى ابن عيينة: فضل الله التوفيق ورحمته العصمة.

سهل بن عبد الله: فضل الله الإسلام ورحمته السنة.

الحسين بن الفضل: فضل الله الإيمان ورحمته الجنة.

ذو النون المصرى: فضل الله دخول الجنان ورحمته النجاة من النيران.

عمر بن عثمان الصدفى: فضل الله كشف الغطاء ورحمته الرؤية واللقاء.

وقال هلال بن يساف ومجاهد وقتادة: فضل الله الإيمان ورحمته القرآن ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الأموال قرأ العامة كلاهما بالياء على الخبر، وقرأهما أبو جعفر: بالتاء وذكر ذلك عن أبى بن كعب، وقرأ الحسين ويعقوب: فلتفرحوا بالتاء خطابًا للمؤمنين يدل عليه قول النبى ﷺ فى بعض مغازيه «لتأخذوا (مصافكم)» ويجمعون بالياء خبرًا عن الكافرين ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ خلق الله ﴿لَكُم﴾ عبر عن الخلق بالإنزال لأن ما فى الأرض من خيراتها أنزل من السماء ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ زرع أو ضرع ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ وهو ما حرموا من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى.

قال الضحاك: هو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ (الأنعام: ١٣٦) الآية ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فى هذا التحريم والتحليل ﴿أَمْ﴾ بل ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وهو قولهم: الله أمرنا بها ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم ولا يعاتبهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ منّ على الناس حين لا يعجل عليهم بالعذاب بافترائهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ عمل من الأعمال، وجمعه: شؤون، قال الأخفش: يقول العرب ما شأنك شأنه، أى لمّا عملت على عمل ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ من الله ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ ثم خاطبه وأمته جميعًا فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى تأخذون وتدخلون فيه، والهاء عائدة على العمل، يقال: أفاض فلان فى الحديث وفى القول إذا أبدع فيه.

قال الراعى:

وأفضن بعد كظومهن بجرة　　　من ذى الأبارق إذ رعين حقيلا

قال ابن عباس: تفيضون تفعلون، الحسن: تعملون، الأخفش: تكلمون، المؤرج: تكثرون، ابن زيد: تخرصون. ابن كيسان: تنشرون. يقال: حديث مستفيض، وقيل: تسعون.

وقال الضحاك: الهاء عائدة إلى القرآن أى تستمعون فى القرآن من الكذب. قيل: من شهد شهود الحق قطعًا ذلك عن مشاهدة الأغيار أجمع ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ قال ابن عباس: فلا يغيب، أبو روق: يبعد، وقال ابن كيسان يذهب.

وقرأ يحيى والأعمش والكسائى: يعزب بكسر الزاى وقرأ الباقون: بالضم وهما لغتان (صحيحتان) ﴿مِن مِّثْقَالِ﴾ من صلة معناه وما يعزب عن ربك مثقال ذرة أو وزن ذرة (وهى

النملة الحمراء الصغيرة)، يقول العرب: (خذ) هذا، فإنهما أثقل مثقالاً وأخفها مثقالاً أى وزنًا ﴿ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ قرأ الحسن وابن أبى يحيى وحمزة برفع الراء فيهما عطفًا على موضع المثقال فبرّر دخول من، وقرأ الباقون بفتح الراء عطفًا على الذرة ولا مثقال أصغر وأكبر ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بمعنى اللوح المحفوظ.

❖ ❖ ❖

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم وصفهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ قال ابن زيد: فلن يقبل الإيمان إلا بالتقوى، واختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم.

فروى سعيد بن جبير عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن أولياء الله تعالى فقال: «هم الذين يذكر الله لرؤيتهم».

وقال عمر رضى الله عنه فى هذه الآية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بإيمانهم عند الله تعالى، قالوا: يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطونها، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر (عُمش) العيون من العبر خمص البطون من الخواء يبس الشفاه من الذوى.

وقال ابن كيسان: (هم الذين) تولى الله هداهم بالبرهان الذى آتاهم وتولوا القيام بحقه والدعاء إليه. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾.

عن عبادة بن الصامت قال: سألت النبى ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾. قال: «هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له».

وعن عطاء بن يسار عن أبى الدرداء أنه سئل عن هذه الآية ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ قال: لقد سألت عن (شىء) ما سمعت أحدًا سأل عنه بعد أن سألت رسول الله ﷺ وقال رسول الله ﷺ: «ما سألنى عنها أحد قبلك منذ نزل الوحى، هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وفى الآخرة الجنة».

وعن يمان بن عبيد الراسبى قال: حدثنا أبو الطفيل عامر بن واثلة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نبوة بعدى إلا المبشرات».

قيل: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة».

محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا قال: والرؤيا ثلاثة: فرؤيا بشرى من الله ورؤيا من الشىء يحدث الرجل به نفسه، ورؤيا تحزين من الشيطان، والرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة. فإذا رأى أحدكم ما يكره فلا يقصه فليقم وليصل، قال: وأحبّ القيد فى النوم وأكره الغل، القيد ثبات فى الدين».

وقال عبادة بن الصامت: قلت: يا رسول الله الرجل يحبه القوم لعمله ولا يعمل مثل عمله.

قال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

وقال الزهرى وقتادة: هى البشارة التى يبشر بها المؤمن بالدنيا عند الموت، وقال الضحاك: هى أن المؤمن يعلم أين هو قبل أن يموت، وقال الحسن: هى ما بشرهم الله به فى كتابه، جنته وكرم ثوابه لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ (يونس: ٢) ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٣) ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾ (فصلت: ٣٠).

وقال عطاء: لهم البشرى فى الحياة الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة والبشارة من الله وتأتى أعداء الله بالغلظة والفظاظة فى الآخرة ساعة خروج نفس المؤمن تعرج بها إلى الله

كما تزف العروس تبشر برضوان من الله، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٢) الآية قال ابن كيسان: هى ما بشرهم الله فى الدنيا بالكتاب والرسول بأنهم أولياء الله وتبشرهم فى قبورهم وفى كتابهم الذى فيه أعمالهم بالجنة.

وسمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجوزقى يقول: رأيت أبا محمد الحافظ فى المنام راكبًا برذونا وعليه طيلسان وعمامة فسلمت عليه وسلم فقلت له: أيها الحاكم نحن لا نزال نذكرك ومحاسنك، فعطف على وقال لى: ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك، قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الثناء الحسن، وأشار بيده ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا تغيير لقوله ولا خلف لوعده.

روى ابن علية عن أيوب عن نافع: قال: أطال الحجاج الخطبة فوضع ابن عمر رأسه فى حجرى فقال الحجاج: إن الزبير بدل كتاب الله، فقعد ابن عمر فقال: لا تستطيع أنت ذلك ولا ابن الزبير ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فقال الحجاج: لقد رأيت حلما وسكت.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعنى قول المشركين تم الكلام ها هنا.

ثم قال مبتدءًا: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ القدرة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وهو المنتقم منهم. قال سعيد بن المسيب: إن العزة لله جميعا يعنى أن الله يعز من يشاء كما قال فى آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)، وعزة الرسول والمؤمنين منّا لله فهى كلها لله قال الله: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: ١٨٠) ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ هو ما الاستفهام يقول وأى شىء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء يعنى أنهم ليسوا على شىء وقراءة السلمى: يدعون بالتاء أى ما تصنع شركاؤكم فى الآخرة ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعنى ظنوا أنها تشفع لهم يوم القيامة، يقربهم إلى الله زلفى ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟﴾ لتهدءوا وتقروا وتستريحوا ﴿فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئا يبصر فيه كقولهم: ليل نائم وسر كاتم وماء دافق وعيشة راضية وقال جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطى بنائم

وقال قطرب: يقول العرب: أظلم الليل وأضاء النهار فأبصر، أى صار ذا ظلمة وضياء وبصر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ فيعتبرون ﴿قَالُوا۟﴾ يعنى المشركين ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ هو قولهم: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقهما ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ﴾

(ما عندكم من حجة) وبرهان بهذا ، إنما سميتموها جهلاً بها سلطانًا (ولا يمكن) التمسك بها ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ .

قال الكلبى : لا يؤمنون ، وقيل : لا ينجون ، وقيل : لا يفوزون ، وقيل : لا يبقون فى الدنيا ولكن ﴿مَتَٰعٌ﴾ قليل يتمتعون به متاعا وينتفعون به إلى وقت انقضاء أجلهم ، ومتاع رفع بإضمار أى لهم متاع ، قاله الأخفش ، وقال الكسائى : متاع فى الدنيا .

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ
ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ
وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا
إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ
مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ
لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢ فَمَآ ءَامَنَ
لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى
ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن

كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ اقرأ يا محمد على أهل مكة ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ ولد وأهل ﴿يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ عظم وثقل وشق ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ فلو شق مكثى بين أظهركم ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ ووعظى إياكم ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بحججه وبيناته فعزمتم على قتلى أو طردى ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فبالله وثقت ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ قرأه العامة بقطع الألف وكسر الميم أى فأعدوا وأبرموا وأحكموا ﴿أَمْرَكُمْ﴾ فاعزموا عليه قال المؤرج: أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه، وأنشد:

يا ليت شعرى والمنى لا تنفع هل أغدون يوما وأمرى مجمع

وقرأ الأعرج والجحدرى موصولة مفتوحة الميم من الجمع اعتباراً بقوله فجمع كيده، وقال أبو معاذ: ويجوز أن يكون بمعنى وأجمعوا واحد يقال: جمعت وأجمعت بمعنى واحد.

قال أبو ذؤيب: (عزم عليه كأنه جمع نفسه له، والأمر مجمع) ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ فيه إضمار أى: وادعوا شركاءكم آى آلهتكم فاستعينوا، وكذلك فى مصحف أُبىٍّ؛ وادعوا شركاءكم، وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وعيسى وسلام ويعقوب: وشركاؤكم رفعًا على معنى: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم، أى وليجمع معكم شركاؤكم، واختار أبو عبيد وأبو حاتم النصب لموافقة الكتاب وذلك أنه ليس فيه واو.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أى خفيًا مظلمًا ملتبسًا مبهمًا من قولهم: غمّ الهلال على الناس إذا أشكل عليهم فلم يتبينوه، قال طرفة:

لعمرك مـا أمرى علىّ بغمّة نهارى وما ليلى علىّ بسرمد

وقيل: هو من الغمّ لأن الصدر يضيق فلا يتبين صاحبه لأمره مصدراً ينفرج عنه ما بقلبه، قالت الخنساء:

وذى كربة راخى ابن عمرو خناقه وغمته عن وجهـه فتجلت

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ أى آمنوا إلى ما فى أنفسكم أو افرغوا منه، يقال: قضى فلان إذا مات ومضى وقضى منه إذا فرغ منه.

وقال الضحاك: يعنى انهضوا إلىَّ، وحكى الفراء عن بعض القراء: أفضوا إلىَّ بالفاء، أى توجهوا حتى تصلوا إلىَّ، كما يقال أنصت (الخلائق) إلى فلان وأفضى إلى الوجه ﴿وَلَا

تُنظِرُونِ﴾ ولا تؤمرون، وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان من نصر الله واثقًا ومن كيد قومه وبوائقهم غير خائف علمًا منه بأنهم وآلـهتهم لا تنفع ولا تضر شيئًا إلا أن يشاء الله، وتعزية لنبيه محمد ﷺ وتقوية لقلبه ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن قولى وأبيتم أن تقبلوا نصحى ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ على الدعوة وتبليغ الرسالة ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ جُعْل وعوض ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما جزائى وثوابى ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ﴾ يعنى نوحًا ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ سكان الأرض خلفًا عن الهالكين ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ يعنى (أخزى) من الذين أنذرتهم الرسل ولم يؤمنوا ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أى من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات والأمر والنهى ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ ليصدقوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ بما كذبت ﴿بِهِ﴾ وأنهم ﴿مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين الحلال إلى الحرام ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أى من بعد نوح ﴿مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يعنى أفراد قومه ﴿بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ يعنى فرعون وقومه ﴿الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ تقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم سحرًا سحر هذا الحذف السحر الأول، فدلالة الكلام عليه كقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (الإسراء: ٧) المعنى: يغشاكم ليسوءوا وجوهكم.

وقال ذو الرمة:

فلما لبسن الليل أو حين نصبت ... له من خذا آذانها وهو جانح

أى: أو حين أقبل ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ۝ قَالُوا﴾ يعنى فرعون وقومه ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتلوينا وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ الملك والسلطان ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض (مصر) ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ۝ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ أى الذى جئتم به السحر.

وقراءة مجاهد وأبو عمرو وأبو جعفر: السحر بالمد على الاستفهام، ودليل قراءة العامة قراءة ابن مسعود: ما جئتم به السحر وقراءة أُبىٍّ: ما أتيتم به سحر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ﴾ لم يصدق موسى مهما آتاهم من الحجج ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ فقال قوم: هى راجعة إلى موسى وأراد بهم مؤمنى بنى إسرائيل.

قال ابن عباس: كانوا ستمائة ألف وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر فى اثنين وسبعين إنسانًا فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف.

وقال مجاهد: أراد بهم أولاد الذين أرسل إليهم موسى إلى بنى إسرائيل لطول الزمان هلك الآباء وبقى الأبناء، وقال آخرون: الهاء راجعة إلى فرعون.

روى عطية عن ابن عباس: هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته.

وروى عن ابن عباس من وجه آخر: أنهم سبعون أهل بيت من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله.

قال الفراء: وإنما سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين انتقلوا إلى اليمن الأبناء، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم والذرية العقب من الصغار والكبار ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يريد الكناية فى قومه إلى فرعون، رد الكناية فى قوله: وملئهم، إلى الذرية، ومن رد الكناية إلى موسى يكون: إلى ملأ فرعون.

قال الفراء: وإنما قال: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ بالجمع وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر ذهب الوهم إليه وإلى أصحابه.

(فيكون من باب حذف المضاف) وذكر وهب بن منبه، (أنه) إليه وإلى عصابته كما يقال: قدم الخليفة تريد والذين معه، ويجوز أن يكون أراد بفرعون آل فرعون (كقوله تعالى): ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) و ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ (الطلاق: ١) ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بصرفهم عن دينهم، ولم يقل: يفتنوهم؛ لأنه أخبر أنّ فرعون وقومه كانوا على (الضلال).

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (من المجاوزين الحدّ فى العصيان والكفر) لأنه كان قد ادعى الربوبية ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمؤمنى قومه: ﴿يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ .

ثم دعوا فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال أبو مجلز: (ربنا لا تظهر فرعون وقومه) علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا طغيانًا. وقال عطية: لا تسلطهم علينا فيسيئون ويقتلون. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدى قوم (ظالمين ولا تعذبنا) بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق لما عُذّبوا، ولا تسلطنا عليهم فيفتتنوا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ (أمرناهما) ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال: تبوأ فلان

لنفسه بيتًا إذا اتخذه له .

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ قال أكثر المفسرين : كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا فى كنائسهم وبيعهم ، وكانت ظاهرة ، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بنى إسرائيل فخربت ، ومنعهم من الصلاة ، فأمروا أن يتخذوا مساجد لهم يصلون فيها خوفًا من فرعون ، وهذا قول إبراهيم وابن زيد والربيع وهى كذلك ، ورواية عكرمة عن ابن عباس .

قال مجاهد وخلف : (قال موسى) : لمن معه من قوم فرعون أن صلوا إلى الكنائس الجامعة ، فأمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة للكعبة فيصلون فيها سرًا . ومعنى البيوت هنا (يكون) المساجد .

وتقدير الآية : واجعلوا بيوتكم إلى القبلة . وهذا رواية ابن جريج عن ابن عباس ، قال : كانت الكعبة قبلة موسى ومن معه . قال سعيد بن جبير : معناه : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا ، والقبلة الوجهة .

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يا محمد .

❖ ❖ ❖

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨٩ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ﴾ من متاع الدنيا وأثاثها . مقاتل : شارة حسنة ، لقوله : ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ (القصص : ٧٩) ﴿وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ .

اختلفوا فى هذه اللام فقال بعضهم هى لام (كى) ومعناه (أعطيتهم لكى يضلوا ويبطروا ويتكبروا) لتفتنهم بها فيضلوا ويُضلوا إملاءً منكم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ۝١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ (الجن : ١٦ ، ١٧) ، وقيل : هى لام العاقبة ولام الصيرورة يعنى أعطاهم ليضلوا

(. . . .)[1] آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنًا، وقيل: هى لام أى آتيتهم لأجل ضلالهم عقوبة لهم كقوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ (التوبة: ٩٥) أى لأجل إعراضكم عنهم، ولم يحلفوا لتعرض عنهم.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، قال عطية ومجاهد: أعفها، فالطمس: المحو والتعفية، وقال أكثر المفسرين: امسخها وغيّرها عن هيئتها، قال محمد بن كعب القرظى: جعل سكتهم حجارة، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة، وقال ابن عباس: إن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأثلاثًا وأنصافًا. قال ابن زيد: صارت حجارة ذهبهم، ودراهمهم وعدسهم وكل شيء، وقال السدّى: مسخ الله أموالهم حجارة، النخل والثمار والدقيق والأطعمة، وكانت إحدى الآيات التسع.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعنى: واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان.

﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ قيل: هو نصب جواب الدعاء بالفاء، وقيل: عطف على قوله: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾.

قال الفراء: هو دعاء ومحله جزم كأنه: اللهم فلا يؤمنوا وقيل: معناه فلا آمنوا.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ (وقرأ على والسلمى: «دعواتكما» بالجمع وقرأ ابن السميقع: «قد أجبت دعوتكما» خبرًا عن الله تعالى.

كقول الأعشى:

فقلت لصاحبى لا تعجلانا   بنزع أصـــوله واجتز شيحًا

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على الرسالة والدعوة، وامضيا لأمرى إلى أن يأتيهم عقاب الله.

قال ابن جريج: مكث فرعون بعد هذا الدعاء أربعين سنة.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ نهى بالنون الثقيلة ومحله جزم ويقال فى الواحد لا تتبعن، فيفتح النون لالتقاء الساكنين، وتكسر فى التثنية لهذه العلة. وقرأ ابن عامر بتخفيف النون لأن نون التوكيد تثقل وتخفف.

﴿سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى: ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدى فتستعجلان قضائى؛ فإن قضائى ووعدى لا خلف لهما، ووعيدى نازل بفرعون وقومه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ الآية، وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يخرج ببنى إسرائيل من مصر (وتبعا) بنو إسرائيل من القبط (فأخرجهم) بعلة عرس لهم وسرى بهم وسرى موسى وهم ستمائة ألف وعشرون ألفًا لا يُعد فيهم ابن سبعين سنة ولا ابن عشرين

(١) بياض بالأصل المخطوط.

سنة، إلى البحر وقال لكما القبط تلك الليلة، فتبعوا بنى إسرائيل حتى أصبحوا وهو قوله: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ (الشعراء: ٦٠) بعدما دفنوا أولادهم، فلما بلغ فرعون ركب (البحر) ومعه ألف ألف وستمائة ألف.

قال محمد بن كعب: كان فى عسكر قومه مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشهبان، وكان (. . . .)[1] وكان هارون على مقدمة بنى إسرائيل وموسى فى الساقة، فلما انتهوا إلى البحر وقربت منهم مقدمة فرعون مائة ألف رجل، كل قد غطى أعلى رأسه ببيضة وبيده حربة، وفرعون خلفهم فى الدميم، فقالت بنو إسرائيل لموسى: أين ما وعدتنا؟ هذا البحر أمامنا (إن عبرناه) غرقنا وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا، ولقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا.

فقال موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾، وقال: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهۡدِينِ﴾، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم ينفلق وقال: أنا أقدم منك وأشد خلقًا، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن كنه وقل: انفلق أبا خالد بإذن الله عز وجل، ففعل ذلك فانفلق البحر وصار اثنى عشر طريقًا لكل سبط طريق. وكشف الله عن وجه الأرض فصارت يابسة وارتفع بين كل طريقين جبل.

وكانوا بنى عم لا يرى بعضهم بعضًا ولا يسمع بعضهم كلام بعض، فقال كل فريق: قد غرق أصحابنا فأوحى الله تعالى إلى الجبال من الماء تشبكى فتشبكت وصارت فيه شبه الخروق فجعل ينظر بعضهم إلى بعض. فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر ورأوا البحر بتلك الهيئة وقال فرعون: هابنى البحر، وهابوا دخول البحر، وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن فى خيل فرعون فرس أنثى، فجاء جبرئيل على فرس وديق وخاض البحر وميكائيل يسوقهم، لا يشذ رجل منهم إلا ضمه إليهم.

فلما شم أدهم فرعون ريح فرس جبرئيل، وفرعون لا يراه انسل خلف فرس جبريل ولم يملك فرعون من أمره شيئًا واقتضمت الخيول فى الماء، فلما دخل آخرهم البحر وهم أولهم أن يخرج انطبق الماء عليهم، فلما أدرك فرعون الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فدس جبرئيل فى فيه من حمأة البحر، وقال: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾.

قال أبو بكر الوراق: قال الله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ (طه: ٤٤) حين لم ينفعه تذكره وخشيته.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال كعب: لما أمسك نيل مصر عن الجرى قالت القبط لفرعون: (إن كنت ربنا فأجر لنا الماء)، فركب وأمر جنوده بالركوب وكان مناديه ينادى كل ساعة: ليقف فلان بجنوده قائدًا قائدًا فجعلوا يقفون على درجاتهم (وقفز) حتى بقى هو وخاصته، فأمرهم بالوقوف حتى بقى فى حُجابه وخدامه، فأمرهم بالوقوف وتقدم وحده بحيث لا يرونه (ونزل عن دابته) ولبس ثيابًا أُخر وسجد وتضرع إلى الله، فأجرى الله تعالى له الماء فأتاه جبرئيل وحده فى هيئة مستفت وقال: ما يقول الأمير فى رجل له عبد قد نشأ فى نعمته لا سيد له غيره، فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه؟.

فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون ولا يموت أبدًا، فأمر الله تعالى بالبحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصير كأنه ثور فتراءاه بنو إسرائيل، فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتًا أبدًا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَـٰوَزْنَا﴾ أى قطعنا ببنى إسرائيل البحر حتى جازوه، وقرأ الحسن (وجوزنا) وهما لغتان.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فأدركهم، يقال: تبعه وأتبعه إذا أدركه ولحقه، واتبعه بالتشديد إذا سار خلفه (واقتدى بهم) ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ظلمًا واعتداءً، يقال: عدا يعدو عدوًا مثل: غزا يغزو غزوًا، وقرأ الحسن (عُدوًّا) بضم العين وتشديد الواو مثل: علا يعلو عُلوًّا. قال المفسرون: بغيًا فى القول وعدوًا فى الفعل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أى أحاط به ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائى وخلف إنه بالكسر أى آمنت وقلت: إنه، وهى قراءة عبد الله. وقرأ الآخرون: أن بالفتح لوقوف آمنت عليها، وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم.

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال جبرئيل ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبرئيل: ما أبغضت أحدًا من عباد الله إلا أنِّى أبغضت عبدين أحدهما من الجن والآخر من الإنس، فأما من الجن فإبليس حين أبى بالسجود لآدم وأما من الإنس ففرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، ولو رأيتنى يا محمد وأنا أدس الطين فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة».

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى نجعلك على نجوة من الأرض وهى النجو: المكان المرتفع، قال أوس بن حجر:

فمن بعقوته كمن بنجـوته والمستكن كمن يمشى بقرواح

﴿بِبَدَنِكَ﴾ بجسدك لا روح فيك. وقال مجاهد والكسائى: البدن هاهنا الدرع وكان دارعًا.

قال الأعشى:

وبيضـاء كالنهى موضونة لها قونس فوق جيب البدن

وقرأ عبد الله: فاليوم ننجيك ببدنك، أى نلقيك على ناحية البحر. وقيل: شعرك.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عبرة وعظة. وقرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه: لمن خلقك (بالقاف)، أى تكون آية لخالقك.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال مقاتل: يعنى أهل مكة، قال الحسن: هى عامة.

﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ عن الإيمان بآياتنا ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعد هلاك فرعون ﴿مُبَوَّأَ﴾ منزل ﴿صِدْقٍ﴾ يعنى خير، وقيل الأردن وفلسطين وهى: الأرض المقدسة التى بارك الله فيها لإبراهيم وذريته. الضحاك: هى مصر والشام.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الحلالات. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ يعنى اليهود الذين كانوا على عهد النبى محمد ﷺ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ البيان بأن محمداً ﷺ يقول صدقًا ودينه حق. وقيل: العلم بمعنى المعلوم لقولهم للمخلوق: خلق، وللمقدور: قدر، وهذا (. . . .)[1] فتم طرف الأمر، قال الله (. . . .)[1]، ومعنى الآية فما اختلفوا فى محمد حتى جاءهم المعلوم وهو كون محمداً ﷺ نبيًا لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، الآية، وقد أكثر العلماء في تفسير معنى الآية، قال مقاتل: قالت كفار مكة: إنما ألقى هذا الوحى على لسان محمد شيطان، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يعنى القرآن.

﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ يخبرونك أنه مكتوب عندهم فى التوراة رسولاً نبيًا.

وقيل: الخطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره من الشاكين به، كما ذهب العرب فى خطابهم الرجل بالشيء ويريدون به غيره، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾(الأحزاب: ١) كأن الخطاب للنبى ﷺ والمراد به المؤمنون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ٩٤) ولم يقل: تعمل.

قال المفسرون: كان الناس على عهد رسول الله ﷺ قالوا: آمنا بالله بلسانهم، ومنهم كافر مكذب لا يرى إلا أن ما جاء به باطل، أو شاك فى الأمر لا يدرى كيف هو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، فخاطب الله هذا الصنف من الناس فقال: ﴿فَإِن كُنتَ﴾ أيها الإنسان ﴿فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من الهدى على لسان محمد ﷺ.

﴿فَاسْأَلِ﴾ الأكابر من علماء أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسى، وتميم الدارى وأشباههم فيشهدوا على صدقه، ولم يرد المعاندين منهم.

وقيل: إنْ بمعنى (ما)، وتقديره: فما كنت فى شك مما أنزلنا إليك، فاسألوا يا معاشر الناس أنتم دون النبى. كما قال: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦) بمعنى وما كان مكرهم.

وقيل: إن الله علم أن الرسول ﷺ لم يشك ولكنه أراد أن يأخذ الرسول بقوله لا أشك ولا (أمارى) إدامة للحجة على الشاكين من قومه كما قال لعيسى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (المائدة: ١١٦) وهو يعلم أنه لم يقل ذلك، بدليل قوله: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ (المائدة: ١١٦) إدامة للحجة على النصارى.

وقال الفراء: علم الله تعالى أن رسول الله ﷺ غير شاك، فقال له: فإن كنت فى شك، وهذا كما تقول لغلامك الذى لا تشك فى ملكك إياه: إن كنت عبدى فأطعنى، أو تقول لابنك: إن كنت ابنى فبرّنى.

وقال عبد العزيز بن يحيى الكنانى: الشاك فى الشيء يضيق به صدرًا، فيقال لضيق الصدر

شاك، إن ضقت ذرعًا بما تعاين من تعنتهم وأذاهم فاصبر، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك كيف صبر الأنبياء على أذى (قومهم) وكيف كان عاقبة أمرهم من النصر والتمكين.

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن حبيب سمعت أبا بكر محمد بن محمد بن أحمد القطان في (ذلك:) كان جائزًا على الرسول ﷺ وسوسة الشيطان لأن المجاهدة في ردّها يستحق عليها عظيم الثواب والله (. . . .)[1] وكان يضيق صدره من ذلك والله أعلم. وقال الحسين بن الفضل مع حيث الشرط لا يثبت الفعل.

والدليل عليه ما روى أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «والله ما أشك ولا أسأل».

ثم أفتى وزوّدنا بالكلام فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (الذين تحبط أعمالهم) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ لعنته إياهم (لنفاقهم)، قال ابن عباس: ينزل بك السخط، وقال: إن الله خلق الخلق (فمنهم شقي ومنهم) سعيد، فمن كان سعيدًا لا يكفر إلا ريثما يراجع الإيمان ومن كان شقيًا لا يؤمن إلا ريثما يراجع الكفر، وإنما العمل (. . . .)[1] وقرأ أهل المدينة: (كلمات) جمعًا.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ دلالة ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ قال الأخفش: أنث فعل (كل) لأنها مضافة إلى مؤنث، ولفظة كل للمذكر والمؤنث سواء.

❖ ❖ ❖

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿فَلَوْلَا﴾فلولا أى فهلاَّ، وكذلك هى فى حرف عبد الله وأُبى، قال الشاعر:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم (بنى ضوطرى) لولا الكمىّ المقنعا

أى فهلاَّ.

وقرأ فى الآية: (فلا تكن قرية) لأن فى الاستفهام ضربًا من الجحد.

﴿ءَامَنَتْ﴾عند معاينتها العذاب ﴿نَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ﴾فى وقت اليأس ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنهم نفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت لما علم من صدقهم. قال أهل النحو: قوم منصوب على الاستثناء المنقطع، وإن شئت قلت من جنسها لأن القوم مستثنى من القرية، ومنجون من الهالكين وتقديره: لكن قوم يونس كقول النابغة:

وقفت فيها أصيلا لا أسائلها أعيت جوابًا وما بالربع من أحد

إلا الأوارى لأيًا ما أبينها والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

وفى يونس ست لغات، ضم النون، وقرأ (. . . .)(١) بضم الياء لكثرة من قرأ بها، وقرأ طلحة والأعمش والحميرى، وعيسى بكسر النون، وعن بعضهم بفتح النون، وروى أبو قرظة الأنصارى عن العرب همزة مع الضمة والكسرة والفتحة.

﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهو وقت انقضاء آجالهم، قال بعضهم: إنما نفعهم إيمانهم فى وقت اليأس لأن آجالهم بقى منها بقية فنجوا لما بقى من آجالهم، فأما إيمان من انقضى أجله فغير نافع عند حضور العذاب.

وقصة الآية على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير والسدى ووهب وغيرهم أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فدعاهم فأبوا، فقيل له: أخبرهم أن العذاب يجيئهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذبًا فانظروا، فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشىء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان فى جوف الليل خرج ماشيًا من بين ظهرانيهم فلما أصبحوا يغشاهم العذاب كما يغشى الثوب القصير إذا أدخل فيه صاحبه.

قال مقاتل: كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل. قال ابن عباس: قدر ثلثى ميل. قال وهب: غامت السماء غيمًا أسود هائلاً يدخل دخانًا شديداً، وهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم فلم يجدوه، فقذف الله فى قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النية، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام، فحن بعضهم إلى بعض، وعلت أصواتهم واختلطت أصواتها بأصواتهم وحنينها بحنينهم، وعجوا وضجوا إلى الله تعالى وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم، وكشف عنهم العذاب بعدما أظلهم وتدلى إلى سمعهم، وذلك يوم عاشوراء.

قال ابن مسعود: بلغ من توبة أهل نينوى أن ترادوا المظالم بينهم حتى إن كان الرجل ليأتى الحجر وقد وضع عليه أساس فيقلعه ويرده.

وروى صالح المرى عن أبى عمران الجونى عن أبى الجلد، قال: لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم، فقالوا له: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال: قولوا: يا حى حين لا حى ويا حى (يا) محيى الموتى، ويا حى لا إله إلا أنت، فقالوها، فكشف عنهم العذاب ومُتعوا إلى حين.

قالوا: وكان يونس عليه السلام وعدهم العذاب فخرج ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم ير شيئًا، وكان من كذب ولم تكن له بينة قتل، فقال يونس لما كشف عنهم العذاب: كيف أرجع إلى قومى وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتبًا على ربه، مغاضبًا لقومه فأتى البحر (فإذ سفينة قد شحنت) فركب السفينة (لوحده) بغير أجر، فلما دخلها وقفت السفينة، والسفن تسير يمينًا وشمالاً قالوا: ما لسفينتكم؟ قال يونس: إنّ فيها عبدًا آبقًا ولا تجرى ما لم تلقوه، فقالوا: وأنت يا نبى العبد فلا نلقيك، فاقترعوا فوقعت القرعة عليه ثلاثًا فوقع فى الماء ووكل عليه حوت فابتلعه.

قال ابن مسعود: فابتلعه الحوت وجرى به حتى أتاه إلى قرار الأرض، وكان فى بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فاستجاب الله له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر (عريانًا)، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فجعل يستظل بها، ووكل الله به سخلاً يشرب من لبنها، فيبست الشجرة فبكى عليها، فأوحى الله إليه: تبكى على شجرة يبست، ولا تبكى على مائة ألف إنسان أُهلكهم! فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت يا غلام؟

قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنك لقيت يونس، قال الغلام: إن كنت يونس فقد تعلم أنه لم يكن لى بينة، (فإن) قلت: فمن يشهد لى؟ قال يونس: يشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، قال الغلام: أراهما؟ قال يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدوا له، قالا: نعم. فرجع الغلام إلى قومه، فقال للملك: إنى قد لقيت يونس وهو يقرأ عليكم

السلام، وكان له إخوة وكان في منعة فأمر الملك بقتله، فقال: إنّ لي بينة فانسلوا معه إلى البقعة والشجرة، فقال الغلام: أنشدكما هل أشهدكما يونس؟ قالا: نعم، فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض، فأخذ الملك بيد الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني، قال ابن مسعود: فأقام لهم أميرًا فيهم ذلك الغلام أربعين سنة.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ قال الحسين بن الفضل: لأضطرهم إلى الإيمان. قال الأخفش: جاء بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ مع (كل) تأكيدًا كقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ (النحل: ٥١).

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ حريصًا على أن يؤمن جميع الناس ويبايعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله سعادة في الكتاب الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن: وما ينبغي لنفس. وقال المبرد: معناه وما كنت لتؤمن إلا بإذن الله. قال ابن عباس: بأمر الله. وقال عطاء: بمشيئة الله، كقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٠٢) وقال الكوفي: ما سبق من قضائه. وقال (الداني): بعلمه وتوفيقه.

﴿وَيَجْعَلُ﴾ أي ويجعل الله، وقرأ الحسن وعاصم بالنون ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب والسخط. وقرأ الأعمش الرجز بالزاي ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ حجج الله في التوحيد والنبوة.

﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين السائليك الآيات ﴿ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الجبال والأنهار والأشجار وغيرها من الآيات ثم قال: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ يعني مشركي مكة ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الذين مضوا. قال قتادة: يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود، والعرب تسمي العذاب والنعيم: أيامًا، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ (إبراهيم: ٥) وكل ما مضى عليك من خير أو شر فهو أيام.

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معهم عند نزول العذاب كذلك كما أنجيناهم.

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا﴾ واجبًا، ﴿عَلَيْنَا﴾ غير شك، ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك يا محمد. وقرأ يعقوب:

ننجى رسلنا بالتخفيف، وقرأ الكسائى وحفص: ننجى المؤمنين بالتخفيف وشددهما الآخرون، وهما لغتان فصيحتان أنجى ينجى إنجاءً ونجّى ينجّى تنجية بمعنى واحد.

❖ ❖ ❖

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذى أدعوكم إليه.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان التى لا تعقل ولا تفعل ولا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ تقدير أن يسلم ويقبض أرواحهم.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ قال ابن عباس: عملك. وقيل: نفسك، أى استقم على الدين ﴿حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ على المنبر: «لم أعبد ربى بالرهبانية وإن خير الدين الحنيفية السهلة».

﴿وَلَا تَدْعُ﴾ تعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن أطعته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فعبدت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الضارين لأنفسهم، الواضعين العبادة فى غير موضعها ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يصبك الله ببلاء وشدة ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ دافع ﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ رخاء ونعمة ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فلا مانع لرزقه.

﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ واحد من الضر والخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعنى القرآن فيه البيان.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فعلى نفسه جنى ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بكفيل وحفيظ يحفظ أعمالكم. قال ابن عباس: نسختها آية القتال.

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ من نصرك وقهر أعدائك وإظهار دينه ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

قال الحسن: لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ الأنصار وقد تجمع خيرتهم فقال: «إنكم ستجدون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى» قال أنس: فلم نصبر. فأمرهم بالصبر كما أمره الله به.

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب: لما قدم معاوية المدينة تلقته الأنصار وتخلف أبو قتادة ودخل عليه بعد فقال: ما لك لا تلقانا؟ قال: لم تكن عندنا دواب، قال: فأين النواضح؟ قال: ربطناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال رسول الله ﷺ: «فاصبروا حتى تلقونى»، قالوا: ففى ذلك قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... أمير المؤمنين ثنا كلام
فإنا صابرون ومنظروكم ... إلى يوم التغابن والخصام

❖ ❖ ❖

سورة هود عليه السلام

مكية، أخبرنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن إسحاق بن خزيمة قال: حدثنى أبو بكر محمد ابن إسحاق، محمد بن على بن محمد، محمد بن على بن صالح عن ابن إسحاق عن أبى جحيفة قال: قيل: يا رسول الله قد أسرع إليك المشيب، قال: «شيبتنى هود وأخواتها: الحاقة، والواقعة، وعم يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية».

وعن زيد قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام فقرأت عليه سورة هود فلما ختمتها قال: يا زيد قرأت، فأين البكاء؟.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝﴾.

﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ قبل ﴿الٓر﴾ مبتدأ وكتاب خبره، وقيل: كتاب رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره: هذا كتاب ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قال ابن عباس: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بينت بالأحكام والحلال والحرام، قال الحسن وأبو العالية: ﴿فُصِّلَتْ﴾: فُسرت ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ يحتمل أن يكون موضع أن رفعًا على مضمر تقديره: وفى ذلك الكتاب أن لا تعبدوا، ويحتمل أن يكون محله نصبًا بنزع الخافض تقديره: ثم فصلت أن لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أو لئلا تعبدوا إلا الله.

﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ من الله ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ وأن عطف على الأول ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أى ارجعوا إلى الله بالطاعة والعبادة، وقال الفراء: ثم هاهنا بمعنى (الواو) أى وتوبوا إليه

لأن الاستغفار من التوبة، والتوبة من الاستغفار ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ أى يعيشكم عيشًا فى (منن) ودعة وأمن وسعة (رزق)، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الموت ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ ويؤت كل ذى عمل مبلغ أجره وثوابه (سمى فضله) باسم الابتداء.

قال ابن مسعود: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات ثم قال: هلك من غلبت آحاده عشراته.

وقال ابن عباس: من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن ساوت حسناته سيئاته كان من أهل الأعراف، ثم يدخلون الجنة بعد، وقال أبو العالية: من زادت طاعته فى الدنيا زادت درجاته فى الجنة، لأن الدرجات تكون بالأعمال. وقال مجاهد: إن ما يحتسب الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمله بيده ورجله، أو ما يتصدق به من حق ماله.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يخفون ما فى صدورهم من الشحناء والعداوة، نزلت فى الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام، حلو المنظر، يأتى رسول الله ﷺ بما يحب وينطوى بقلبه على ما يكره. مجاهد: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ شكًا وامتراء، السدى: يعرضون بقلوبهم عنك من قولهم (. . . .)[1].

عن عبد الله بن شداد: نزلت فى بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأطأ رأسه، وتغشى ثوبه كى لا يراه النبى ﷺ. قتادة: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله ولا ذكره. ابن زيد: هذا حين يناجى بعضهم بعضًا فى أمر رسول الله ﷺ.

﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ أى من رسول الله ﷺ، وقال مجاهد: ليستخفوا من الله إن استطاعوا، وقال ابن عباس: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ على وزن يحنون، جعل الفعل للصدور أى (يلقون).

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يغطون رءوسهم بثيابهم، وذلك أخفى ما يكون لابن آدم إذا حنى صدره وتغشى ثوبه وأضمر همه فى نفسه.

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ من بغلة وليس دابة وهى كل حيوان دب على وجه الأرض، وقال بعض العلماء: كل ما أُكل فهو دابة.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ غذاؤها وقوتها وهو المتكفل بذلك فضلاً لا وجوبًا، وقال بعضهم: (على) بمعنى (من) أى من الله رزقها، ويدل عليه قول مجاهد، قال: ما جاء من رزق فمن الله، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعًا، ولكن ما كان من رزق فمن الله.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أى مأواها الذى تأوى إليه وتستقر فيه ليلاً ونهارًا، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الموضع الذى تودع فيه إما بموتها أو دفنها، قال ابن عباس: مستقرها حيث تأوى، ومستودعها حيث تموت، مجاهد: مستقرها فى الرحم ومستودعها فى الصلب، عبد الله: مستقرها الرحم، ومستودعها المكان الذى تموت فيه، الربيع: مستقرها أيام حياتها، ومستودعها حيث تموت، ومن حيث تبعث. وقيل: يعلم مستقرها فى الجنة أو فى النار، ومستودعها القبر، ويدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة والنار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٧٦) و ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٦٦).

﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كل ذلك مثبت فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها.

❖ ❖ ❖

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ
أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ
صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ
يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قبل أن يخلق السموات

والأرض وذلك الماء على متن الريح. وقال كعب: خلق الله ياقوتة حمراء لا نظير لها (فنظر إليها بالهيبة) فصارت ماء، (يرتعد من مخافة الله تعالى) ثم خلق الريح فجعل الماء (على قشرة ثم وضع العرش على الماء. وقال ضمرة: إن الله تعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض بالحق، وخلق القلم وكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه، ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده قبل أن يخلق شيئًا من الخلق.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم وهو أعلم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ روى عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله».

قال ابن عباس: أيكم أعمل بطاعة الله. قال مقاتل: أيكم أتقى لله، الحسن: أيكم أزهد فى الدنيا زهداً وأقوى لها تركًا.

﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ يا محمد ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنون القرآن، ومن قرأ: ساحر رده إلى محمد ﷺ.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى أجل معدود ووقت محدود، وأصل الأمة الجماعة، وإنما قيل للحين: أمة، لأن فيه يكون الأمة، فكأنه قال: إلى مجىء أُمة وانقراض أخرى قبلها، كقوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: ٤٥).

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يقولون استعجالاً للعذاب واستهزاء، يعنون أنه ليس بشىء. قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ خبر (ليس) عنهم. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى رجع إليهم ونزل بهم وبال استهزائهم ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ سعة ونعمة ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا﴾ سلبناها ﴿مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ قنوط فى الشدة ﴿كَفُورٌ﴾ فى النعمة.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ بعد بلاء وشدة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ زالت الشدائد عنى ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أشر بطر، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم إن نالتهم شدة وعسرة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة، وإنما جاز الاستثناء مع اختلاف الحالين لأن الإنسان اسم الجنس كقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (العصر: ١-٣).

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ فلا تبلغه إياهم، وذلك أن مشركى مكة قالوا: آتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا. ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا﴾ لأن يقولوا ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينفقه ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه، قال عبد الله بن أمية المخزومى قال الله: يا أيها النذير ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى: ٤٨) ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ

﴿مِّثْلِهِۦ﴾ مثله ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ بزعمكم ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ لفظه جمع والمراد به الرسول وحده كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾(المؤمنون: ٥١) ويعنى الرسول. وقال مجاهد: عنى به أصحاب محمد ﷺ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ يعنى القرآن ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أى من كان يريد بعمله الحياة الدنيا ﴿وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ نوفر لهم أجور أعمالهم فى الدنيا ﴿فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون. قتادة يقول: من كانت الدنيا همه وقصده وسروره وطلبته ونيته جازاه الله تعالى ثواب حسناته فى الدنيا، ثم يمضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة.

قال النبى ﷺ: «من أحسن من محسن فقد وقع أجره على الله فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة».

واختلفوا فى المعنى بهذه الآية فقال بعضهم: هى للكفار، وأما المؤمن فإنه يريد الدنيا والآخرة، وإرادته الآخرة غالبة على إرادته للدنيا، ويدل عليه قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ فى الدنيا ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قال مجاهد: هم أهل الربا.

وروى ابن المبارك عن حيوة بن شريح قال: حدثنى الوليد بن أبى الوليد بن عثمان أن عقبة ابن مسلم حدثه أن شقى بن قابع الأصبحى حدثنا أنه دخل المدينة فإذ هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ قيل: أبو هريرة. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت: وأنشدك الله لما حدثتنى حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ (عقلته وعلمته) فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ فى (هذا البيت) ثم غشى عليه ثم أفاق فقال: أحدثك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت، ولم يكن أحد غيره وغيرى، ثم شهق أبو هريرة شهقة شديدة ثم قال: (فأرى على وجهه ثم استغشى) طويلاً ثم أفاق فقال: حدثنى رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة دعا العباد ليقضى بينهم، وكل أمة جاثية فأول من يدعو رجل جمع القرآن ورجل قُتل فى سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى؟ قال: بلى يا رب. قال: ماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، فيقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك،

ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك. ويؤتى بالذى قُتل فى سبيل الله فيقال له: فى ماذا قُتلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قُتلت، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جرىء، فقد قيل ذلك» ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

قال الوليد: وأخبرنى غيره أن شقيًا دخل على معاوية وأخبره بهذا عن أبى هريرة فقال معاوية: وقد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقى من الناس؟ ثم بكى معاوية (وضرب خديه) حتى ظننا أنه هالك، ثم أفاق معاوية لا يمسح وجهه وقال: صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا﴾ وقرأ إلى قوله: ﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان وحجة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو رسول الله ﷺ ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يتبعه من يشهد له ويصدقه.

واختلفوا فى هذا الشاهد فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد والضحاك وأبو صالح وأبو العالية وعكرمة: هو جبريل عليه السلام، وقال الحسن رضى الله عنه: هو رسول الله ﷺ. وقال الحسن وقتادة: هو لسان رسول الله ﷺ. وقال محمد بن الحنفية: قلت لأبى أنت

التالى؟ قال: وما تعنى بالتالى؟ قلت: قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: وددت أنى هو ولكنه لسان رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: الشاهد صورة النبى ﷺ ووجهه ومخائله، لأنّ كل من كان له عقل ونظر إليه علم أنه رسول الله ﷺ.

وقال الحسين بن الفضل: هو القرآن فى نظمه وإعجازه والمعانى الكثيرة منه فى اللفظ القليل. وروى ابن جريج وابن أبى نجيح عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده. وقيل: هو على بن أبى طالب.

أخبرنى عبد الله الأنصارى عن القاضى أبى الحسين النصيرى، وأبى بكر السبيعى، وعلى بن محمد الدهان والحسن بن إبراهيم الجصاص، قال الحسين بن حكيم عن الحسين بن الحسن عن حنان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ رسول الله ﷺ ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ على خاصة رضى الله عنه.

وبه عن السبيعى عن على بن إبراهيم بن محمد (العلوى)، عن الحسين بن الحكيم، عن إسماعيل بن صبيح، عن أبى الجارود، عن حبيب بن يسار، عن زاذان قال: سمعت علياً يقول: والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لو ثنيت لى وسادة فأجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواسى إلا وأنا أعرف به يساق إلى جنة أو يقاد إلى نار. فقام رجل فقال: ما آيتك يا أمير المؤمنين التى نزلت فيك؟ قال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ رسول الله ﷺ على بينة من ربه وأنا شاهد منه.

وبه عن (السبيعى)، وأحمد بن محمد بن سعيد الهمدانى حدثنى الحسن بن على بن برقع وعمر بن حفص الفراء، حدثنا صباح القراملى، عن محارب عن جابر بن عبد الله (الأنصارى)، قال على رضى الله عنه: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان، فقال له رجل: فأنت أى شىء نزل فيك؟ قال على رضى الله عنه: أما تقرأ الآية التى فى هود: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾.

وفى الكلام محذوف تقديره: أفمن كان على بينة من ربه كمن هو فى الضلالة (متردد)، ثم قال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ يعنى ومن قبل محمد والقرآن كان ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أى بنى إسرائيل ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أى بمحمد وقيل بالقرآن، وقيل بالتوراة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

روى سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال: «لا يستمع لى يهودى ولا نصرانى ولا يؤمن بى إلا كان من أهل النار».

قال أبو موسى فقلت فى نفسى: إن النبى لا يقول مثل هذا القول إلا من الفرقان فوجدت الله يقول: ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أى فى شك ﴿مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ زعم أن لله ولداً أو شريكًا أو كذب بآيات القرآن ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ يعنى الكاذبين، ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ويجزيهم بها.

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعنى الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا، فى قول مجاهد والأعمش، وقال الضحاك: يعنى الأنبياء والرسل، وقال قتادة: يعنى الخلائق.

وروى صفوان بن محرز المازنى قال: بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر إذ عرض له رجل فقال: يا بن عمر ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى؟ فقال: سمعت نبى الله ﷺ (يقول): «يدنو المؤمن من ربه حتى يضع كتفيه عليه فيقرره بذنوبه فيقول: هل (تعرف ما فعلت؟ يقول:) رب أعرف مرتين، حتى إذا بلغ ما شاء الله أن يبلغ فقال: وإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، وقال (ثم يعطى صحيفة حسناته، أو كتابه بيمينه قال): وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رءوس الأشهاد».

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: سابقين. مقاتل بن حيان: قانتين، قتادة: (هرابًا) ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنصار تُغنى (عنهم) ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعنى يزيد فى عذابهم.

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ اختلف فى تأويله: قال قتادة (. . . .)[1] ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ الهدى، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(الشعراء: ٢١٢) قال ابن عباس: إن الله تعالى إنما حال بين أهل الشرك وبين طاعته فى الدنيا، وأما فى الدنيا فإنه قال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ فإنه قال: فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم، وقال بعضهم: إنما عنى بذلك الأصنام.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وآلهتهم ﴿لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ ولا يسمعونه ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ (. . . .)[1] فلا يعتبرون بها

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فحذف الباء، كما يقول: لا يجزينك ما عملت وبما عملت.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ﴾ أى (. . . .)(1)، قال الفراء: معناها لا بد ولا محالة ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ يعنى من غيرهم، وإن كان الكل فى الخسار.

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا
بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ
عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ
عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن
يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا
فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ
وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن
يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ
مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

---

(1) بياض بالأصل المخطوط.

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾».

«إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ» قال عطية عن ابن عباس وقتادة: أنابوا وتضرعوا إليه، مجاهد: اطمأنوا إلى ذكره، مقاتل: أخلصوا، الأخفش: تخشعوا له، وقيل: تواضعوا له.

«أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ» المؤمن والكافر «كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا» قال الفراء: وإنما لم يقل هل يستوون مثلاً، لأن الأعمى والأصم فى خبر كأنهما واحد، لأنهما من وصف الكافر، والسميع والبصير فى خبر كأنهما واحد، لأنهما من وصف المؤمن.

«أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى» قرأ أهل مكة وأبو عمرو والكسائى: «إِنِّى» بفتح الألف ويعنون بأنى، وقرأ الباقون بكسر الألف (إنى)، قال: إنى لأن فى الإرسال معنى القول.

«لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» مؤلم، قال مقاتل: بعث نوح وأمره ربه ببناء السفينة وهو ابن ستمائة سنة وكان عمره ألفًا وخمسين عامًا ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، قال الله تعالى: «فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا» (العنكبوت: ١٤) أى فلبث فيهم داعيًا «فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ» يا نوح «إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا» آدميًا مثلنا «وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا» سفلتنا «بَادِىَ ٱلرَّأْىِ» قال مجاهد وأبو المعين وحمزة وأبو عمرو وبصير على معنى بادى الرأى من غير روية ولا فكرة يعنى: آمنوا من غير روية.

«وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ» نوح «يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً» هدى ومغفرة «مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ» التبست واشتبهت وقرأ أهل الكوفة: «فَعُمِّيَتْ» بضم العين وتشديد الميم، أى اشتبهت ولبست ومعنى الكلام: عميت الأبصار عن الحق، وهذا كما يقال: دخل الخاتم فى أصبعى، والخف فى رجلى وإنما يدخل الأصبع فى الخاتم والرجل فى الخف «أَنُلْزِمُكُمُوهَا» يعنى البينة والرحمة «وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ»

لا تريدونها يعنى لا يقبل ذلك.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ أى على الوحى وتبليغ الرسالة كناية عن غير مذكور ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ ما ثوابى ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ الباء صلة ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ بالمعاد فيجزيهم بأعمالهم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ۝ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ﴾ تحتقر وتستصغر ﴿أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ يعنى يؤخذ وإنما ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ من النية والعزم على الخير والشر ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن فعلت ذلك.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ ماريتنا وخاصمتنا ﴿فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ يعنى العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ نصيحتى ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ يهلككم ويضلكم ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ والأمر والحكم له ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وهو رد على المعتزلة و (المرجئة).

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ قال ابن عباس: يعنى نوحًا، مقاتل: يعنى محمداً ﷺ ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ إثمى ووبال أمرى، لا تؤخذون بذنبى ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ لا أؤاخذ بذنوبكم ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ ولا تحزن وهو منفعل من البؤس ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فإنى مهلكهم ومنقذك منهم فحينئذ دعا عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح: ٢٦).

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ واعمل السفينة ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بمرأى منا، الضحاك: بمنظر منا. مقاتل: بعلمنا. ربيع: بمسمعنا ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ (على ما أوحينا إليك) قال ابن عباس: وذلك أنه لم يعلم كيف يصنع الفلك فأوحى الله إليه أن يصنعها على جؤجؤ الطائر ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ ولا تسألنى العفو عن هؤلاء الذين كفروا ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ بالطوفان، أمر أن لا يشفع لهم عنده، وقال: عنى امرأته وابنه.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ قيل: معناه وكان يصنع الفلك، وقيل: معناه وصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ هزئوا به.

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ الآن ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ إذا عاينتم عذاب الله ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ يهينه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ دائم، قال ابن عباس: اتخذ نوح عليه السلام السفينة فى سنتين، وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين، وطولها فى السمك ثلاثين ذراعًا، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاثة بطون فحمل فى البطن الأسفل

الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو في البطن الأعلى (. . . .)(١)، عما يحتاج إليه من الزاد.

روى عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، فأوحى الله عز وجل لما كان آخر زمانه وغرس شجرة، ويقطع ما يبس منها، ثم جعل يعمل سفينة ويمرون عليه قومه فيسألونه فيقول: أعمل سفينة فيسخرون منه ويقولون: يعمل سفينة في البر فكيف تجرى؟ فيقول: فسوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك، خشيت أم صبي عليه وكانت تحبه حبًا شديداً، فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء خرجت حتى صعدت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعته بيديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله أحداً منهم لرحم أم الصبي».

وروى على بن زيد بن صوحان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فيحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفًا من ذلك التراب بكفه قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كفن حام بن نوح، قال: فضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، قال له عيسى: هكذا هلكت؟

قال: لا بل مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت، قال: حدثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحوش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثرت فضلات الدواب أوحى الله تعالى إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل، فغمز فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بحوض السفينة وحبالها فقرضها، وذلك أن الفأر ولدت في السفينة فأوحى الله تعالى إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وهرة فأقبلا على الفأر.

فقال له عيسى: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت، ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت قال: فطوقها بالحمرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في قصر بأمان فمن ثم تألفت البيوت.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال: فقالوا: يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ فقال له: عد بإذن الله، قال: فعاد ترابًا.

وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن عبيد بن عمير أنه كان يحدث الأحاديث وكانوا يبطشون به - يعنى قوم نوح - فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا فى المعصية وعظمت فى الأرض منهم الخطيئة وتطاولوا عليه، وتطاول عليه وعليهم الشأن واشتد عليهم منهم البلاء، وانتظر البخل بعد البخل، فلا يأتى قرن إلا كان أخبث من الذى قبله حتى إذا كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونًا لا يقبلون منه شيئًا، حتى شكا ذلك من أمرهم إلى الله عز وجل فقال: رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً، حتى قال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إلى آخر القصة، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا أى بعد اليوم إنهم مغرقون.

فأقبل نوح على (عمل) الفلك ولجأ عن قومه إلى جبل يقطع الخشب ويضرب بيديه (الحديد) ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه إلا هو، وجعل قومه يمرون به وهو فى ذلك من عمله فيسخرون منه ويقولون: يا نوح هل صرت نجاراً بعد النبوة؟ وأعقم الله أرحام النساء فلبثوا سنين فلا يولد لهم ولد.

قال: ويزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يصنعه أزور وأن يطليه بالقار من أسفله وخارجه، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعًا وعرضها خمسين ذراعًا، ومائة فى عرضه وبطوله فى السماء ثلاثين ذراعًا، والذراع إلى المنكب، وجعلها ثلاثة طوابق سفلى ووسطى وعليًّا، فجعل فيه كوى، ففعل نوح كما أمره الله تعالى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يعنى انبجس الماء من وجه الأرض، والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض، وذلك أنه إذا قيل: إذا رأيت الماء يسيح على وجه الأرض فاركب أنت ومن اتبعك، ومنها قول ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيينة، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى تفسيره ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: أى طلع الفجر ونور الصبح، ومن ذلك عبارته نور الفجر تنويراً، قتادة: موضع فى الأرض وأعلى مكان فيها. قال الحسن: أراد بالتنور الذى يخبز فيه وكان تنوراً من حجارة وكان لحواء حتى صار إلى نوح، فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك، فنبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته، وهذا قول مهران. ورواه عطية عن ابن عباس، قال مجاهد: وكان ذلك فى ناحية

الكوفة، وروى السدى عن الشعبى أنه كان يحلف بالله ما يظهر التنور إلا من ناحية الكوفة، وقال: اتخذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الداخل مما يلى باب كندة، وكان فوران الماء منه علمًا لنوح ودليلاً على هلاك قومه.

وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم وإنما كان بالشام بموضع يقال له: عين وردة، وقال ابن عباس: فار التنور بالهند، والفور: الغليان.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أى فى السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قال المفسرون أراد بالزوجين: اثنين ذكرًا وأنثى، وقال أهل المعانى: كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه، فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجًا، يقال له: زوجا نعال إذا كانت له نعلان وكذلك عنده زوجا حمام، وعليه زوجا قيود، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ (النجم: ٤٥)، وقال بعضهم: أراد بالزوجين الضربين والصنفين وكل ضرب يدعى زوجًا، قال الأعشى:

وكل زوج من الديباج يلبسه   أبو قدامة محبو بذاك معا

أراد كل ضرب ولون. وقال لبيد:

وذى (. . .)[1] كر المقاتل صولة   وذرته أزواج (. . .)[1] يشرب

أى ألوان وأصناف، وقرأ حفص هاهنا وفى سورة المؤمنين ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين أى من كل صنف، وجعل اثنين على التأكيد.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أى واحمل أهلك ومالك وعيالك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالهلاك يعنى امرأته راحلة وابنه كنعان.

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ يعنى واحمل من آمن بك، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلفوا فى عددهم، فقال قتادة والحكم وابن جريج ومحمد بن كعب القرظى: لم يكن فى السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة بنيه، سام وحام ويافث إخوة كنعان وزوجاتهم (ورَحْلهم) فجميعهم ثمانية، فأصاب حام امرأته فى السفينة فدعا الله نوح أن يغير نطفته فجاء بالسودان. وقال الأعمش: كانوا سبعة: نوح وثلاث كنائن وثلاثة بنين له. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم: نوح وبنوه حام وسام ويافث وستة أناس ممن كان آمن معه وأزواجهم جميعًا.

وقال مقاتل: (كانوا) اثنين وسبعين رجلاً وامرأة وبنيه الثلاثة ونساءهم، فكان الجميع ثمانية وسبعين نفسًا، نصفهم رجال ونصفهم الآخر نساء.

قال ابن عباس: كان فى سفينة نوح ثمانون إنسانًا أحدهم جرهم.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال مقاتل: وحمل نوح معه جسد آدم وجعله معترضًا بين الرجال والنساء، وحمل نوح جميع الدواب من الغنم والوحوش والطير وفرق فيما بينها.

قال ابن عباس: أول ما حمل نوح فى السفينة من الدواب الأوزة، وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه فلم يستقل رجلاه فجعل نوح يقول له: ادخل فينهض فلا يمشى، حتى قال نوح: ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك، فقال له نوح: ما أدخلك علىّ يا عدو الله؟ فقال له: ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك، قال نوح: اخرج عنى يا عدو الله، قال: ما لك بد من أن تحملنى معك، فكان فيما يزعمون فى ظهر الفلك.

وفى تفسير مالك بن إبراهيم الهروى الذى أخبرنى بالإسناد إلى أبى القاسم والحسن بن محمد ببعضه قراءةً وأجاز لى بالباقى فى غير مرة، قال يحدثنا أبو العباس محمد بن الحسن الهروى، قال: حدثنا جابر بن عبد الله عنه أن الحية والعقرب أتيا نوحًا فقالتا: احملنا، فقال نوح: إنكما سبب الضر والبلايا والأوجاع فلا أحملكما، فقالتا: احملنا فنحن نضمن لك بأن لا نضر أحدًا ذكرك، فمن قرأ حين خاف مضرتهما: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات: ٧٩ - ٨١) ما ضرتاه.

❖ ❖ ❖

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن

مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا﴾ نوح لهم: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا﴾ قرأ أبو رجاء العطاردى: (مجراها ومرساها) بضم الميمين وكسر الراء والسين وهى قراءة عبد الله.

قال ابن عباس: مجريها حيث تجرى ومرساها حيث ترسو، أى تحسر فى الماء.

وقرأ محمد بن محيصن بفتح الميمين وهما مصدران، يعنى أن الله تعالى بيده جريها ورسوها أى ثبوتها، جرى يجرى جريًا ومجرى، رسا يرسو رسوًا ومرسى، مثل ذهب مذهبًا وضرب مضربًا. قال امرؤ القيس:

تجاوزت أحراسًا وأهوال معشر   علىَّ حرام لو يسرون مقتلى

أى: قتلى.

وقرأ الباقون بضم الميمين، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، ومعناه: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، كقوله تعالى: ﴿أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ (المؤمنون: ٢٩)، و﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء: ٨٠) بمعنى الإنزال والإدخال والإخراج.

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن يرسو قال: بسم الله، فرست، وإذا أراد أن تجرى قال: بسم الله، فجرت.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان وكان عنيداً وقيل: كان كافراً.

﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عنه لم يركب معه الفلك.

﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فتهلك﴿قَالَ﴾ له ابنه: ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾ سأصير وأرجع ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى﴾ يمنعنى﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ ومنه عصام القربة الذى (يربط) رأسها فيمنع الماء أن يسيل منها.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ عذاب الله إلا من رحمناه، وأنقذناه منه، ومن فى محل رفع، وقيل: فى محل النصب ومعناه لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله، كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (القارعة: ٧) و ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق: ٦) قال الشاعر:

بطىء القيام رخيم الكلام   أمسى فؤادى به فاتنا

أى مفتونًا.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ فصار﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝ وَقِيلَ﴾ بعدما تناهى أمر الطوفان﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ أى اشربى﴿مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أمسكى﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فذهب ونقص ومصدره الغيض والغيوض.

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أى وفرغ من العذاب ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ يعنى السفينة استقرت ورست وحلت ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل، قال مجاهد: تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الماء فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعًا وتواضع الجودى وتطامن لأمر ربه فلم يغرق، فأرسيت السفينة عليه.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ هلاكًا ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، قال رسول الله ﷺ: «فى أول يوم من رجب وفى بعض الأخبار: لعشر مضت من رجب ـ ركب نوح فى السفينة فصام هو ومن معه وجرت بهم السفينة ستة أشهر، ومرت بالبيت فطاف به سبعًا وقد رفعه الله من الغرق، ـ وأرسيت السفينة على الجودى يوم عاشوراء، فصام نوح وأمر جميع من معه من الوحوش والدواب فصاموا شكرًا لله عز وجل».

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وقد وعدتنى أن تنجينى وأهلى ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أى الصدق ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أى تحكم على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ وقرأ أهل الكوفة (عَملَ) بكسر الميم وفتح اللام، (غير) بنصب الراء على الفعل ومعناه: إنهَ عمل الشرك والكفر، وقرأ الباقون (عَملٌ) بفتح الميم وضم اللام وتنوين غير بالرفع ومعناه: إن سؤالك إياى أن أنجيه عملٌ غير صالح.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ يا نوح ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بما لا تعلم وقرأ ابن كثير بتشديد النون وفتحه، وقرأ أهل المدينة والشام بتشديد النون وكسره.

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ واختلفوا فى هذا الابن فقال بعضهم: إنه لم يكن ابن نوح، ثم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: كان ولد خبث من غيره، ولم يعلم بذلك نوح، فقال الله تعالى: إنه ليس من أهلك أى من ولدك، وهو قول مجاهد والحسن، وقال قتادة: سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان بابنه، وقرأ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ (التحريم: ١٠) فقال: إن الله حكى عنه أنه قال: إن ابنى من أهلى، وقال: ونادى نوح ابنه وأنت تقول: لم يكن ابنه، وإن أهل الكتابين لا يختلفون فى أنه كان ابنه. فقال الحسن: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب، إنهم يكذبون.

وقال ابن جريج: ناداه وهو يحسب أنه ابنه، وكان ولد على فراشه، وقال عبيد بن عمير، نرى أن رسول الله ﷺ إنما قضى أن الولد للفراش من أجل ابن نوح، وقال بعضهم: إنه كان ابن امرأته واستدلوا بقول نوح: إن ابنى من أهلى ولم يقل: منى، وهو قول أبى جعفر الباقر.

وقال الآخرون: كان ابنه ومن فصيلته، ومعنى قوله: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، وقالوا: ما بغت امرأته ولا امرأة لوط وإنما كانت خيانتهما فى الدين لا فى الفراش،

وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وهذه كانت تدل على الأضياف، وهو قول ابن عباس وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وميمون بن مهران.

قال أبو معاوية البجلى: قال رجل لسعيد بن جبير: قال نوح إن ابنى من أهلى، أكان ابن نوح؟ فسبح طويلاً، وقال: لا إله إلا الله يحدث الله محمداً ﷺ أنه ابنه وتقول ليس ابنه، كان ابنه ولكنه كان مخالفًا فى النية والعمل والدين، فمن ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وهذا القول أولى بالصواب وأليق بظاهر الكتاب.

فقال نوح عليه السلام عند ذلك ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ انزل من السفينة إلى الأرض ﴿بِسَلَـٰمٍ﴾ بأمن وسلامة ﴿مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ وهم الذين كانوا معه فى السفينة.

وقال أكثر المفسرين: معناه وعلى قرون تجىء من ذرية من معك من الذين آمنوا معك من ولدك، وهم المؤمنون وأهل السعادة من ذريته ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ فى الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾ فى الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهم الكافرون وأهل الشقاوة. وقال محمد بن كعب القرظى: داخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك داخل فى ذلك العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

قال الضحاك: زعم أُناس أن من غرق من الولدان مع آبائهم وإنما ليس كذلك وإنما الولدان بمنزلة الطير، وسائر من أغرق الله يعود لابنه ولكن حضرت آجالهم فماتوا لآجالهم والمذكورين من الرجال والنساء ممن كان الغرق عقوبة من الله لهم فى الدنيا ثم مصيرهم إلى النار.

❖ ❖ ❖

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ

وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾».

«تِلْكَ» الذى ذكرت «مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ» يا محمد «وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا» من قبل إخبارنا إياك «فَٱصْبِرْ» على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح «إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ» آخر الأمر بالسعادة والظفر والمغفرة «لِلْمُتَّقِينَ» كما كان لمؤمنى قوم نوح وسائر الأمم.

«وَإِلَىٰ عَادٍ» أى فأرسلنا إلى عاد «أَخَاهُمْ هُودًا» فى النسب لا فى الدين «قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ» وحدوا الله وأكثروا العبادة فى القرآن بمعنى التوحيد «مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» ما أنتم فى إشراككم معه الأوثان إلا كاذبون.

«يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ» على تبليغ الرسالة ولا أبتغى جعلاً «أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ» والفطرة ابتداء الخلقة «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» وذلك أن الأمم قالت للرسل: ما تريدون إلا أن تأخذوا أموالنا فقالت الرسل لهم هذا.

«وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ» أى آمنوا به يغفر لكم، والاستغفار هنا بمعنى الإيمان «ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ» من عبادتكم غيره وسالف ذنوبكم، وقال الفراء: معناه وتوبوا إليه لأن التوبة استغفار والاستغفار توبة.

«يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» متتابعًا، وقال مقاتل بن حيان وخزيمة بن كيسان: غزيراً كثيراً.

«وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ» شدة مع شدتكم، وذلك أن الله حبس عنهم القطر فى سنين وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فقال لهم هود: إن آمنتم أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد.

«وَلَا تَتَوَلَّوْاْ» ولا تدبروا مشركين «قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ» بيان وبرهان على ما تقول فنقر ونسلم لك «وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ» أى بقولك، والعرب تضع الباء موضع عن، وعن

موضع الباء.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يعنى لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا إلا أن بعض آلهتنا اعتراك وأصابك بسوء، بل جنون، وهذيان، هو الذى يحملك على ما تقول وتفعل، ولا نقول فيك إلا هذا ولا نحمل أمرك إلا على هذا، فقال لهم هود: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ على نفسى ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ﴾ يعنى الأوثان ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ فاحتالوا جميعًا فى ضرّى ومكرى أنتم وأوثانكم ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

قال الضحاك: يحييها ويميتها، قال الفراء: مالكها والقادر عليها، قال القتيبى: يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته، قال ابن جرير: إنما خص الناصية لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانًا بالذلة والخضوع فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان أى أنه مطيع له يصرفه كيف شاء، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا (ناصيته) ليغتروا بذلك فخرًا عليه، فخاطبهم بما يعرفون فى كلامهم.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: إن ربى على طريق الحق يجازى المحسن بإحسانه والمسىء بمعصيته ولا يظلم أحدًا غيًا ولا يقبل إلا الإسلام، والقول فيه إضمار أى: إن ربى يدل أو يحث أو يحملكم على صراط مستقيم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ أى قل يا محمد: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يوحدونه ويعبدونه ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بتوليكم وإعراضكم وإنما تضرون أنفسكم، وقيل: معناها لا تقدرون له على خير إن أراد أن يضلكم، وقرأ عبد الله: ولا يضره هلاككم إذا أهلككم ولا تنقصونه شيئًا، لأنه سواء عنده كنتم أو لم تكونوا.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أى لكل شىء حافظ، على بمعنى اللام، فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ بنعمة ﴿مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وقيل: الريح، قيل: أراد بالعذاب الغليظ عذاب القيامة أى كما نجيناهم فى الدنيا من العذاب كذلك نجيناهم فى الآخرة من العذاب.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ رده إلى القبيلة ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ يعنى هودًا وحده لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سوى هود، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ (المؤمنون: ٥١) يعنى النبى ﷺ وأنه لم يكن فى عصره رسول سواه، وإنما جمع هاهنا لأن من

كذب رسولاً واحدًا فقد كذب جميع الرسل.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ متكبر لا يقبل الحق ولا يذعن له، قال أبو عبيد: العنيد والعنود والعاند والمعاند: المعارض لك بالخلاف، ومنه قيل للعرق الذى يفجر دمًا فلا يرقى: عاند قال الراجز:

❖ إنى كبير لا أطيق العندا ❖

﴿وَأُتْبِعُوا﴾ ألحقوا وأردفوا ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يعنى بعدًا وعذابًا وهلاكًا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى وفى يوم القيامة أيضًا كذلك لعنوا فى الدنيا والآخرة ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى بربهم، كما يقال: شكرته وشكرت له، وكفرته وكفرت به ونصحته ونصحت له، قيل بمعنى: كفروا نعمة ربهم.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ البعد بعدان: أحدهما البعد ضد القرب، يقال: بعد يبعد بُعدًا، والآخر بمعنى الهلاك، ويقال منه: بَعد يَبعد بَعدًا وبُعْدًا.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم﴾ ابتدأ خلقكم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ وذلك أن آدم خلق من الأرض وهم منه ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وجعلكم

عمارها وسكانها ، قال ابن عباس : أعاشكم فيها ، الضحاك : أطال أعماركم ، مجاهد : أعمركم من العمر أى جعلها داركم وسكنكم ، قتادة : أسكنكم فيها .

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ ممن رجاه ﴿مُّجِيبٌ﴾ لمن دعاه .

﴿قَالُواْ﴾ يعنى قوم ثمود ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ القول أى كنا نرجو أن تكون فينا سيداً ، وقيل : كنا نرجو أن تعود إلى ديننا ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الآلهة .

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ موقع الريبة وموجب إليها ، يقال : أربته إرابة إذا فعلت به فعلاً يوجب لديه الريبة ، قال الهذلى :

كنت إذا أتيته من غيبِ يشم عطفى ويبز ثوبى

كأنما أربته بريب .

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة وحكمة ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا يمنعنى من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ قال ابن عباس : غير خسارة فى خسارتكم ، الفراء : تضليل ، قال الحسين بن الفضيل : لم يكن صالح فى خسارة حين قال ، علمت علم العرب ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ وإنما المعنى ما تزيدوننى ، كما يقولون : ما أسبق إياكم إلى الخسارة ، وهو قول العرب : فسقته وفجرته إذا نسبته إلى الفسق والفجور ، وكذلك خسرته : نسبته إلى الخسران .

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصب على الحال والقطع ﴿فَذَرُوهَا﴾ أى دعوها ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ من العشب والنبات فليس عليكم رزقها ولا مؤنتها .

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ ولا تصيبوها بعقر ونحر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ إن قتلتموها ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ من عقرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ حتى يحين (عذابه) ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ منازلكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ تمهلون ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ غير كذب وقيل : غير مكذوب فيه .

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ﴾ نعمة وعصمة ﴿مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ عذابه وهوانه .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعنى صيحة جبريل ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ صرعى ، هلكى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ يقيموا ويكونوا ﴿فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ .

❖ ❖ ❖

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ يعنى الملائكة، واختلفوا فى عددهم، فقال ابن عباس: كانوا ثلاثة: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل. الضحاك: تسعة، السدّى: أحد عشر، وكانوا على صورة الغلمان الوضاء وجوههم.

﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب، وبإهلاك قوم لوط ﴿قَالُواْ﴾ لإبراهيم ﴿سَلَٰمًا﴾ سلموا عليه ونصب ﴿سَلَٰمًا﴾ بإيقاع القول عليه، لأن السلام قول أى (مثل) قالوا وسلموا سلامًا ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَٰمٌ﴾ أى عليكم سلام، وقيل: لكم سلام وقيل: رُفع على الحكاية، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الزمر:٧٥)، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ (البقرة:٥٨)، وقرأ حمزة والكسائى سلام بكسر السين من غير ألف ومثلها فى الذاريات، وكذلك هو فى مصحف عبد الله ومعناه: نحن سلام صالح لكم غير حرب، وقيل: هو بمعنى السِّلم أيضًا كما يقال: حِل وحلال، وحرم وحرام. وأنشد الفراء:

مررنا فقلنا إيه سلّم فسلمت كما اكتلّ بالبرق الغمام اللوائح

﴿فَمَا لَبِثَ﴾ فما أقام ومكث إبراهيم ﴿أَن﴾ بمعنى بإسقاط الخافض أى بأن ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ قال ابن عباس: مشوى بالحجارة الحارة فى خد من الأرض، قتادة ومجاهد: نضج بالحجارة وشوى، ابن عطية: شوى بعضه بحجارة، أبو عبيدة: كل ما أسخنته فقد حنذته فهو حنيذ ومحنوذ وأصل يحنذ أن إذا ألقيت عليها الجلال بعضها على بعض لتعرق.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أى للعجل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أى: أنكرهم، ويقال: نكرت الشىء وأنكرته بمعنى واحد. قال الأعشى:

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فجمع المعنيين فى وقت واحد.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أضمر وأحسّ منهم خوفًا، وقال مقاتل: وقع فى قلبه، الأخفش:

خامر نفسه. الفراء: استشعر. الحسن: حدث نفسه، وأصل الوجوس الدخول، وكان الخوف دخل قلبه. قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا أتاهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ لخير وأنه يحدث نفسه بشر.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم فإنا ملائكة الله ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ قال الوالبى: لما عرف إبراهيم أنه ملائكة خاف أنه وقومه المقصودون بالعذاب؛ لأن الملائكة كانت تنزل إذ ذاك بالعذاب، نظير ما فى الحجر ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الحجر:٨) أى بالعذاب، قالت الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ لا إلى قومك.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ سارة بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغوا بن فالغ وهى ابنة عم إبراهيم ﴿قَائِمَةٌ﴾ من وراء الستر تسمع كلام الملائكة وكلام إبراهيم، وقيل: كانت قائمة (. . . .)[1] الرسل وإبراهيم جالس معهم فهو كلام أولى، وقرأ ابن مسعود: وامرأته قائمة وهو جالس ﴿فَضَحِكَتْ﴾.

واختلفوا فى العلة الجالبة للضحك، فقال السدى: لما قرب إليهم الطعام فلم يأكلوا خاف إبراهيم فظنهم لصوصًا، فقال لهم: ألا تأكلون؟ فقالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعامًا إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمنًا، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدون على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: حق أن يتخذك خليلاً، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه نكرهم؛ فضحكت سارة وقالت: إنا قمنا لأضيافنا هؤلاء إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا.

وقال قتادة: فضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، وقال مقاتل والكلبى: فضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة نفر وهو فيما بين خدمه وحشمه، وقال ابن عباس ووهب: ضحكت عجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، وقالوا: هو من التقديم الذى معناه التأخير، وكان بمعنى: (. . . .)[1] وامرأته قائمة.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فضحكت وقالت ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ الآية، وقيل: ضحكت سرورًا بالأمن عليهم لما قالوا: لا تخف. وقال مجاهد وعكرمة: فضحكت أى حاضت فى الوقت، تقول العرب: ضحكت الأرنب إذا حاضت، وقال الشاعر:

وضحكت الأرانب فوق الصفا   كمثل دم الخـــوف يوم اللقا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ قال ابن عباس والشعبى: الوراء ولد الولد، واختلف القراء فى قوله: يعقوب، فنصبه ابن عامر وعاصم وقيل: فى موضع جر فى الصفة أى من وراء إسحاق يعقوب، فلما حذف الباء نصب، وقيل: بإضمار فعل له، ووهبنا له يعقوب. ورفعه الآخرون على خبر حذف الصفة، فلما بُشرت بالولد والحفيد ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ (الذاريات: ٢٩) أى ضربته تعجبًا ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾ والأصل: يا ويلتاه ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ وكانت لتسعين سنة فى قول ابن إسحاق، وتسع وتسعين سنة فى قول مجاهد.

﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ زوجى سمى بذلك لأنه قيم أمرها كما سمى مالك الشىء بعله، والنخل الذى استغنى بالأمطار عن ماء يسمى بعلاً ﴿شَيْخًا﴾ وكان إبراهيم ابن مائة سنة فى قول مجاهد، وعشرين ومائة سنة فى قول ابن إسحاق.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فقالت الملائكة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يعنى هنا إبراهيم ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ قال السدى: قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: ما آية قولك؟ قال: فأخذ بيده عودًا يابسًا فلواه بين أصابعه، فاهتز أخضر فقال إبراهيم: هو لله إذًا ذبيحًا.

❖ ❖ ❖

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ
غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾
قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ
مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الخوف ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب ﴿يُجَادِلُنَا﴾ فى (. . . .)[1] لأن إبراهيم لا يجادل ربه إنما يسأله ويطلب إليه.

وقال عامة أهل التفسير معناه يجادل رسلنا وذلك أنهم لما قالوا: إنا مهلكوا أهل هذه القرية، قال لهم: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا لا، فقال إبراهيم: وأربعون؟

قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، قال: حتى بلغ عشرة، قالوا: لا، فقال: خمسة قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونه؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عند ذلك: إن فيها لوطًا، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

قال ابن جريج: وكان فى قرى لوط أربعة آلاف ألف، قال قتادة: فى هذه الآية لا يرى مؤمن إلا لوط المؤمن، فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أى دع عنك الجدال، وأعرض عن هذا المقال ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذاب ربك ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ نازل بهم، يعنى قوم لوط ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ غير مدفوع ولا ممنوع.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ يعنى الملائكة ﴿لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ حزن لمجيئهم، يقال: سؤته فسىء مثل شغلته فانشغل، وسررته فانسر ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ قلبًا ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، ومنه عصبصب، كالعصب به الشر والبلاء أى شد ومنه عصابة الرأس، قال عدى بن زيد.

وكنت لزاز خصمك لم أعرد ... وقد سلكوك فى يوم عصيب

وقال آخر:

وإنك إلا تُرض بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب

وقال الراجز:

يوم عصيب يعصب الأبطالا ... عصب القوى السلم الطوالا

وذلك أن لوطًا عليه السلام لم يكن يعلم أنهم رسل الله فى تلك الحال، وعلم من قومه ما هم عليه من إتيان الفواحش فخاف عليهم، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه.

قال قتادة والسدّى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام نحو قرية لوط فأتوا لوطًا وهو فى أرض يعمل فيها، وقد قال الله تعالى لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطًا أربع شهادات، واستضافوه فانطلق معهم، فلمّا خشى عليهم، قال لهم: ما بلغكم، أمر هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرّ قرية فى الأرض عملاً يقول، ذلك

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أربع مرات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بذلك أحد إلاّ أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدّى: يُسرعون، ومجاهد: يهرولون، الضحاك: يسعون، ابن عيينة: كأنهم يُدفعون، شمر بن عطية: مشى بين الهرولة والجمزى، الحسن: مشى بين مشيتين، قال أهل اللغة: يقال: أهرع الرجل من برد وغضب أو أهرع إذا أرعد فهو مُهرع إذا كان معجلاً مسرعًا، قال مُهلهل:

فجاءوا يهرعون وهم أُسارى يقودهم على رغم الأنوفِ

وقال الراجز:

❖ بمعجلات نحوه مهارع ❖

﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أى من قبل مجىء الرسل إلى لوط كانوا يأتون الرجال فى أدبارهم، فقال لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان: ﴿يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ واختلفوا فى معنى قوله، قال محمد بن الفضل: يعنى على شريعة الإسلام. وقال تميم: فلعلّ ذلك إلاّ إذا كان تزويجه بناته من الكفرة جائزًا كما زوج النبى ﷺ بنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وكانا كافرين، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: أراد بقوله بناتى: النساء، وكلّ نبى أبو أمّته. وقرأ بعض القراء: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم)، وقال بعضهم: كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه، زعوراء وريثا.

وقوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قراءة العامة برفع الراء، وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو: (أطهر) بالنصب على الحال، فإن قيل: فأى طهارة فى نكاح الرجال حتى قال لبناته هن أطهر لكم؟ قيل: ليس هذا زيادة الفضل، إنما يقال ليس ألف «أطهر» للتفضيل وهذا سائغ جائز فى كلام العرب كقول الناس: الله أكبر، فهل يكابر الله أحد حتى يكون هو أكبر منه؟ ويدلّ عليه ما روى عن أبى سفيان حين قال يوم أحد: اعلُ هبل، فقال النبى ﷺ لعمر: «قل الله أعلى وأجل»، وهبل لم يكن قط عاليًا.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أى لا تهينونى فيهم بركوبهم، وهم لا يركبون، وعجزى من دفعكم عنهم. وقيل: أراد ولا تشهرونى بهم. تقول العرب: خزى خزيًا إذا افتضح، وخزى يخزى خزاية بمعنى الاستحياء، قال ذو الرمة:

خزاية أدركته بعد جولته من جانب الحبل مخلوطًا بها الغضب

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ صالح، قال ابن عباس: معناه رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى ليس لنا أزواجًا (نلتصقهنّ) بالتزويج ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إتيان الأضياف، فقال لهم لوط عند ذلك ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أى منعة وشيعة تنصرنى ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أى ألجأ وأنضوى إلى عشيرة مانعة، وجواب ﴿لَوْ﴾ مضمر (تقديره: لرددت أهل الفساد)، وقالوا: ما بعث الله بعده نبيًا إلاّ فى ثروة من قومه، وروى أن النبى ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: «رحم الله أخى لوطًا لقد كان يأوى إلى ركن شديد».

قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه فى الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار، فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب والنصب بسببهم، قالوا: يا لوط إنّ ركنك لشديد وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ فافتح الباب ودعنا وإيّاهم ففتح الباب ودخلوا، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم فأذن له، فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو برّاق الثنايا أجلى الجبين، ورأسه حبك مثل المرجان وهو اللؤلؤ كأنّه ثلج، وقدماه إلى الخضرة فقال: يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك، امضِ يا لوط من الباب، ودعنى وإيّاهم، فتنحى لوط عن الباب فخرج عليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم فطمس أعينهم فعموا وانصرفوا على أعقابهم فلم يعرفوا طريقًا ولم يهتدوا إلى بيوتهم.

فانصرفوا وهم يقولون: النجا النجا فإن فى بيوت لوط أسحر قوم فى الأرض وقد سحرونا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح، يتوعدونه، فقال لهم لوط: متى موعد هلاكهم؟ فقالوا: الصبح قال: أريد أسرع من ذلك أن تهلكونهم الآن، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

قالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، قرأ أهل الحجاز بوصل الألف من سرى يسرى ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر: ٤) وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسرى اعتبارًا بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ١) وهما بمعنى واحد.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل، الضحّاك: ببقية، قتادة: بعد مضى صدره، الأخفش، بعد جنح، وقيل: بعد هدوء، وبعضها قريب من بعض.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: امرأتك برفع التاء على الاستثناء من الالتفات أى ولا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتُك فإنها تلتفت وتهلك، وإنّ لوطًا

خرج بها ، ونهى من معه ممن أُسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته ، فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه فأدركها حجر فقتلها .

وقرأ الباقون بنصب المرأة على الاستثناء من الأهل ، أى فأسر بأهلك قطع من الليل إلاّ امرأتك ولا يلتفت منكم أحد ، فـ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب غير مخطئها ولا يُخطئهم .

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أى إن موعد هلاكهم هو الصبح ، فقال لوط : أُريد أسرع من ذلك ، فقالوا : ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات سدوم وعامورا ودادوما وصبوا ، فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ، ثم جعل عاليها سافلها .

روى أن النبى ﷺ قال لجبريل عليه السلام : «إن الله تبارك وتعالى سمّاك بأسماء ففسّرها لى ، قال الله فى وصفك ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ٢٠، ٢١) فأخبرنى عن قوّتك ، قال : يا محمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحى فى الهواء حتى سمعت ملائكة سماء الدنيا أصواتهم وأصوات الديكة ثم قلبتها ظهرًا لبطن ، قال : فأخبرنى عن قوله ﴿مُّطَاعٍ﴾ قال : إن رضوان خازن الجنان ، ومالكًا خازن النيران متى كلفتهما فتح أبواب الجنة والنار فتحاهما لى ، قال : فأخبرنى عن قوله : ﴿أَمِينٍ﴾ قال : إن الله عزّ وجلّ أنزل من السماء مائة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأتمن عليها غيرى» .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أى على شذاذها وسافليها ، وقال أبو عبيدة : مَطَر فى الرحمة ، وأمطر فى العذاب ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال مجاهد : أولها حجر وآخرها طين ، وقال ابن عباس ووهب وسعيد بن جبير (سنك) : و (كل) حجارة وطين ، قتادة وعكرمة : السجّيل : الطين دليله قوله تعالى : ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (الذاريات: ٣٣) قال الحسن : كان أصل الحجارة طينًا فشدّدت .

وروى عكرمة أيضًا أنه قال : هو حجر معلق فى الهواء بين الأرض والسماء منه أنزل الحجارة ، وقيل : هو جبال فى السماء وهى التى أشار الله إليها فقال : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ (النور: ٤٣) وقال أهل المعانى : السجّيل والسجّين واحد ، وهو الشديد من الحجر والضرب . قال ابن مقبل :

ورجلة يضربون البيض ضاحية ... ضربًا تواصت به الأبطال سجينا

والعرب تعاقب بين اللام والنون ، قالوا : لأنّها كلها ذلقة من مخرج واحد ونظيره فى

الكلام هلّت العين وهنّت إذا أصيبت وبكت، وقيل: هو فعيل من قول العرب أسجلته إذا أرسلته فكأنها مرسلة عليهم، وقيل: من سجلت لهم سجلاً إذا أعطيتهم كأنهم أُعطوا ذلك البلاء والعذاب، قال الفضل بن عباس:

من يُساجلنى يساجلْ ماجدًا يملأ الدلو إلى عقد الكرب

﴿مَّنضُودٍ﴾ قال ابن عباس: متتابع، قتادة: بعضها فوق بعض، الربيع: قد نضد بعضه على بعض، عكرمة: مصفوف، أبو بكر الهذلى: معدّ وهى من عدة (الله) التى أُعدت للظلمة.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ من نعت الحجارة، وهى نصب على الحال ومعناها مُعلّمة قتادة وعكرمة: مطوقة بها نضح من حمرة، ابن جريج: كانت لا تشاكل حجارة الأرض، الحسن والسدّى: مختومة، وقيل: مشهورة، ربيع: مكتوب على كل حجر اسم من رُمى به.

﴿وَمَا هِىَ﴾ يعنى تلك الحجارة ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ من مشركى مكّة ﴿بِبَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يرهب بها قريشًا، قتادة وعكرمة: يعنى ظالمى هذه الأُمة والله ما أجار الله منها ظالمًا بعد، وقال أنس بن مالك: سأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قال: يعنى بها ظالمى أمتك، ما من ظالم منهم إلاّ هو يعرف أى حجر سقط عليه.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ
تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾
قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ
إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ
قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ
وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ

لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ
ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ
جَٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا
وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ
قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا
ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ
إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ
ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا
بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَٰلِدِينَ فِيهَا
مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ
مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا
لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ يعنى وأرسلنا إلى قوم مدين بن إبراهيم، ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ﴾ بن شرون بن أيوب ابن مدين بن إبراهيم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ﴾ وكانوا يطففون ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنه: موسرين فى نعمة، الحسن: الغنى ورخص السعر،

قتادة: المال وزينة الدنيا، الضحاك: رغد العيش وكثرة المال، مجاهد: خصب وسعة، وغيرهم في غلاء السعر وزوال النعمة وحلول النقمة إن لم يتوبوا ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ محيط بكم فلا يفلت منكم أحد.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ اكتالوا ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾ ولا تنقصوا ﴿ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ قال ابن عباس: ما أبقى الله لكم من الحلال، وإيفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف، قال مجاهد: الطاعة، سفيان: رزق الله، قتادة: حظكم من ربكم، ابن زيد: الهلاك في العذاب والبقية: الرحمة، الفرّاء: مراقبة الله ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ وإنما قال هذا لأن شعيبًا لم يؤمر بالقتال.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأوثان، قال ابن عباس: كان شعيب كثير الصلاة لذلك قالوا هذا، قال الأعمش: يعني قراءتك ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ يعني أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء، وقرأ بعضهم: تفعل وتشاء بالتاء يعني: تأمرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء فيكون راجعًا إلى الأمر لا إلى الترك.

قال أهل التفسير: كان هذا نهيًا لهم عنه وعذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم. فلذلك قالوا: وأن نفعل ما نشاء ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس: السفية الغاوي. قال القاضي: والعرب تصف الشيء بضده، للتطير والفأل كما قيل للّديغ: سليم، وللفأرة: مفازة.

وقيل: هو على الاستهزاء، كقولهم للحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض: أبو الجون، ومنه قول خزنة النار لأبي جهل: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ (الدخان: ٤٩). وقيل: معناه الحليم الرشيد بزعمك وعندكم ومثله في صفة أبي جهل، وقال ابن كيسان: هو على الصحة أي أنّك يا شعيب لنا حليم رشيد، فليس يجمل بك شق عصا قومك ولا مخالفة دينهم، كقول قوم صالح له: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ (هود: ٦٢).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ حجّة وبصيرة وبيان وبرهان ﴿مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ حلالاً طيبًا من غير بخس ولا تطفيف، وقيل: علمًا ومعرفة ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ ما أريد أن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿إِنۡ أُرِيدُ﴾ ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع فيما ينزل بي من النوائب، وقيل: إليه أرجع في الآخرة.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ لا يحملنكم ﴿شِقَاقِيٓ﴾ خلافي وفراقي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ

نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ من العذاب ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط، وقيل: ما دارُ قوم لوط منكم ببعيد ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ محبٌّ للمؤمنين، وقيل: مودود للمؤمنين ومحبوبهم.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ وذلك أنه كان ضريراً، قال سفيان: كان ضعيف البصر، وكان يقال له خطيب الأنبياء ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عشيرتك وكان فى عزة ومنعة من قومه ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ لقتلناك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ قيل: الهاء راجعة إلى الله وقيل: إلى أمر الله وما جاء به شعيب، أى نبذتموه وراء ظهوركم وتركتموه، يقال: جعلت أمرى بظهر إذا قصر فى أمره وأخلّ بحقه.

﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ۝ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى تؤدتكم ومكانكم، يقال: فلان يعمل على مكانته ومكنته إذا عمل على تؤُدة وتمكن. ويقال: مُكن يمكن مكنًا مكانًا ومكانة، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيّنا الجانى على نفسه، والأخطأ فى فعله، وذلك قوله ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ قيل: ﴿مَن﴾ فى محل النصب أى فسوف تعلمون من هو كاذب، وقيل: ويخزى من هو كاذب، وقيل: محله رفع تقديره: ومن هو كاذب فيعلم كذبه ويذوق وبال أمره ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ وانتظروا العذاب ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة من السماء أخذتهم وأهلكتهم، ويقال: إن جبريل صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ميتين ساقطين هلكى صرعى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ يكونوا ﴿فِيهَآ أَلَا بُعْدًا﴾ هلاكًا وغضبًا ﴿لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ﴾ هلكت ﴿ثَمُودُ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ حجة بيّنة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وخالفوا أمر موسى ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ۝ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ أى يتقدمهم ويقودهم إلى النار ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ وبئس المدخل المدخول فيه.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ العون المعان، وذلك أنه ترادفت عليهم اللعنات، لعنة فى الدنيا، ولعنة فى الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ خراب، ابن عباس: قائم ينظرون إليه، وحصيد قد خرب وهلك أهله، مقاتل: قائم يعنى له أثر، وحصيد لا أثر له، مجاهد: قائم: خاوية على عروشها وحصيد: مستأصل يعنى محصوداً كالزرع إذا حصد، قال قتادة: القائم

منها لم يذهب أصلاً، ومنها حصيد قد ذهب أصلاً، القرظى: منها قائم بجدرانها وحيطانها، وحصيد: ساقط، محمد بن إسحاق: منها قائم يعنى (. . . .)(١) وأمثالها من القرى التى لم تهلك، وحصيد يعنى التى قد أهلكت.

﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بالعذاب والإهلاك ﴿وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعصية يظلمون ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ﴾ عذاب ﴿رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غير تخسير.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وهكذا أخذ ربك ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ نظير قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (البروج: ١٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ لعبرة وعظة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ذَٰلِكَ﴾ يعنى يوم القيامة ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ قال عبد الله بن مسعود لأصحابه: إنكم مجموعون يوم القيامة فى صعيد واحد تسمعون الداعى (. . . .)(١) ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ يشهده أهل السماء وأهل الأرض.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ يعنى وما نؤخّر ذلك اليوم ولا نقيم عليكم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أى مؤقّت لا يتقدم ولا يتأخر ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ وقرئ بإثبات الياء وحذفه، وهما لغتان وحذف الياء له طريقان كالكسرة عن الياء والضمة من الواو كقول الشاعر:

كفاك كفّ مـــا تليق ودرهمًا ... جودًا وأخرى تُعط بالسيف الدما

﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أى: لا تتكلم ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ نظير ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ (القدر: ٤) أى: تتنزل.

قال لبيد:

والعين ساكبة على أطلائها ... عوذا تأجّل بالفضاء بهامها

(أى تتأجل).

﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ قال ابن عباس: فمنهم شقى كتبت عليه السعادة، وروى عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن عمر، قال: لمّا نزلت هذه الآية سألت النبى ﷺ، فقلت: يا نبى الله فعلى ما عملنا، على شىء قد فرغ منه أو على شىء لم يفرغ منه؟ فقال ﷺ: «على شىء قد فرغ منه يا عمر، وجرت به الأقلام ولكن كلّ ميسّر لما خلق له».

وروى عنه عليه السلام: «الشقى من شقى فى بطن أُمّه، والسعيد من سعد فى بطن أُمّه».

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال ابن عباس: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف، الضحّاك ومقاتل: الزفير: أول نهيق الحمار، والشهيق آخره

(١) بياض بالأصل المخطوط.

حين يفرغ من صوته إذا ردّده في الجوف. أبو العالية: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ لابثين ومقيمين ﴿فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يسمى هنا ﴿مَا﴾ الوقت.

قال ابن عباس: ما دامت السموات والأرض من ابتدائها إلى وقت فنائها، قال الضحّاك: ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما، وكل ما علاك فأظلّك فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض.

قال الحسين: أراد ما دامت الآخرة كدوام السماء والأرض في الدنيا قدر مدة بقائها، قال أهل المعاني: العرب (. . . .)[1] في معنى التأبيد والخلود، يقولون: هو باق ما (. . . .)[1] وأطت الإبل، وأينع الثمر، وأورق الشجر، ومجن الليل وسال سيل، وطرق طارق، وذرّ شارق ونطق ناطق، وما اختلف الليل والنهار، وما اختلف الذرة والجمرة، وما دام عسيب، وما لألأت العفراء ونابها، وما دامت السموات والأرض، فخاطبهم الله تعالى بما تعارفوا بينهم.

ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ اختلف العلماء في هذين الاستثناءين، من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة، فقال بعضهم هو في أهل التوحيد الذي يخرجهم الله من النار.

قال ابن عباس: وما شاء ربك أن يخرج أهل التوحيد منها، وقال فقوله في وصف السعداء: إلا ما شاء ربك أن يخلدهم في الجنة، وقال قتادة في هذه الآية: الله أعلم بها، وذكر لنا أن ما أقوله سيصيبهم سفع من النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم الله منها، وعلى هذا القول يكون استثناء من غير جنسه لأن الأشقياء في الحقيقة هم الكافرون، والسعداء في الحقيقة هم المؤمنون.

وقال أبو مجلز: هو جزاؤه إلاّ أن يشاء ربك أن يتجاوز عنهم، ولا يدخلهم النار، وفي وصف السعداء إلاّ ما شاء ربك بقاؤهم في الجنة. قال ابن مسعود: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها إلاّ ما شاء ربك. وهو أن يأمر النار أن تأكلهم وتفنيهم ثم يجدّد خلقهم.

قال: وليأتين على جهنم زمان تغلق أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا، وقال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرًا وأسرعهما خرابًا، وقال ابن زيد: في هذه الآية أخبرنا بالذي أنشأ لأهل الجنة فقال: هذا غير مجذوذ، ولم يخبرنا بالذي أنشأ لأهل النار، وقال ابن كيسان: إلاّ ما شاء ربك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا قبل مصيرهم إلى الجنة

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

والنار، وقيل: ما شاء ربك من احتباس الفريقين في البرزخ ما بين الموت والبعث.

الزجّاج: فى هذه الآية أربعة أقوال: قولان منها لأهل اللغة، وقولان لأهل المعانى، فأمّا أحد قولى أهل اللغة فإنهم قالوا: ﴿إِلَّا﴾ ههنا بمعنى سوى كما يقال فى الكلام: ما كان معنا رجل إلاّ زيد، ولى عليك ألف درهم إلاّ الألفان التى لى عليك، فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود، والقول الثانى: إنّه استثنى من الإخراج وهو لا يريد أن يخرجهم منها، كما يقول فى الكلام: أردت أن أفعل كذا إلاّ أن أشاء غيره، وأنت مقيم على ذلك الفعل، والمعنى أنّه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم، ولكنّه أعلمهم أنهم خالدون فيها، قال الزجّاج: فهذان مذهبا أهل اللغة.

وأما قولا أهل المعانى، فإنهم قالوا: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربك من مقدار مواقفهم على رأس قبورهم وللمحاسبة إلاّ ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم، وزيادة العذاب لأهل الجحيم، وقال الفراء: معناه: وقد شاء ربك خلود هؤلاء فى النار وهؤلاء فى الجنة، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو سائغ جائز فى الجنة، قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (البقرة: ١٥٠) ومعناه، ولا الذين ظلموا، وأنشدنى أبو ثروان:

من كان أشرك فى تفرّق فالج فلبونه جربت معًا وأغـــدت
إلاّ كنـــاشرة الذى ضيعتم كالغصـن فى غلوائه المثبت

معناه، لكن هنا كناشرة، وهى كاسم قبيلة، وقال: معناه كما شاء ربك كقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (النساء: ٢٢) معناه كما قد سلف.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ قرأ أهل الكوفة: ﴿سُعِدُوا﴾ بضم السين أى رُزقوا السعادة، وسعد وأُسعد بمعنى واحد، وقرأ الباقون بفتح السين قياسًا على الذين شقوا، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾. الضحّاك: إلاّ ما مكثوا فى النار حتى أُدخلوا الجنة، أبو سنان: إلاّ ما شاء ربك من الزيادة على قدر مدة دوام السماء والأرض، وذلك هو الخلود فيها، قال الله ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع.

وكيع بن الجراح: كفرت الجهمية بأربع آيات من كتاب الله، قال الله تعالى فى وصف نعيم الجنة: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (الواقعة: ٣٣) وقال الجهمية: يقطع فيمنع عنهم، وقال الله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد: ٣٥) وقالوا: لا يدوم، وقال الله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) وقالوا: لا يبقى، وقال الله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وقالوا: يُجذ ويُقطع.

﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمد ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ فهم ضُلاّل.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ﴾ فيه إضمار أي: (كعبادة) ﴿آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظهم من الجزاء ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ممّن صدف عنه وكذبّ به، كما فعل قومك بالقرآن يُعزّى نبيه ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أُفرغ من عقابهم وإهلاكهم، يعني المختلفين المخالفين.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريب والتهمة، يقال: أراب الرجل، أي جاء بريبة، وألام إذا أتى بما يُلام عليه، قال الشاعر:

تعد معاذرًا لا عذر فيها ومن يخذل أخاه فقد ألاما

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ اختلف فيه القُرّاء، فقرأ ابن عامر وأبو جعفر وحمزة (وإن) بتخفيف النون ﴿لَّمَّا﴾ بتشديد الميم على معنى فإنّ كلاً لمّا ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾، ولكن لما اجتمعت الميمات حذفت واحدة، كقول الشاعر:

كان من أخرها لقادم مخرم نجد فارع المحارم

أراد إلى القادم، فحذف اللام عند اللام وتكون (ما) بمعنى من تقديره لمّن يوفينّهم، كقول الشاعر:

وأنّى لمّا أصدر الأمر وجهه إذا هو أعيا بالسبيل مصادره

وقيل: أراد ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمًّا﴾ بالتنوين والتشديد، قرأها الزهري بالتنوين أي وإن كلاً شديداً وحقًا ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿كُلًّا لَّمًّا﴾ أي شديداً فحذفوا التنوين وأخرجوه

على هذا فعلى، كما فعلوا فى قوله: ثم أرسلنا رسلنا تترى، وقرأ نافع وابن كثير بتخفيف النون والميم على معنى إن الثقيلة مخفّف، وأنشد أبو زيد:

ووجه مشرق النحر كأنْ ثدييه حُقّان

أراد كان فخفّف ونصب به، و(ما) صلة تقديره وإن كلا ليوفينّهم. وقرأ أبو عمرو والكسائى ويعقوب وحفص وأيوب وخلف بتشديد النون وتخفيف الميم على معنى وأن كُلاّ ليوفينّهم، جعلوا (ما) صلة. وقيل: أرادوا وإن كلا لمَّن كقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ (النساء: ٣) أى من. وقرأ أبو بكر بن عياش بتخفيف النون وتشديد الميم أراد إن الثقيلة فخفّفها.

وقيل: (أن) بمعنى (ما) الجحد و (لما) بمعنى (إلا) تقديره وما كلاً إلاّ ليوفينّهم، ولكنه نصب كلاّ بإيقاع التوفية عليه أى ليوفينّ كلا وهو أبعد القراءات فيها من الصواب، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ يا محمد على أمر ربك والعمل به والدعاء إليه ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أن لا تشرك بى شيئًا وتوكّل علىّ مما ينوبك، قال السدّى: الخطاب له ﷺ والمراد أُمته.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فليستقيموا، يعنى المؤمنين ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ ولا تجاوزوا أمرى، وقال ابن زيد: ولا تعصوا الله ولا تخالفوه، وقيل: لا تتخيّروا.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شىء، قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ فى جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشقُّ عليه من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب، فقال: «شيبتنى سورة هود وأخواتها».

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قال ابن عباس: ولا تميلوا على غيّهم ولا تدهنوا لهم، قال أبو العالية: لا ترضوا على أعمالهم. قتادة: لا تلحقوا بالمشركين. السدّى وابن زيد، ولا تداهنوا الظلمة، ابن كيسان: لا تسكنوا إلى الذين ظلموا.

﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ تصيبكم ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أى أعوان يمنعون ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۞ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ يعنى الغداة والعشى، قال ابن عباس: يعنى صلاة العصر والمغرب. مجاهد: صلاة الفجر وصلاة العشاء، القرظى: هى الفجر والظهر والعصر، الضحاك: صلاة الفجر والعصر، (وقيل: الطرفان) صلاة الفجر والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف.

﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ يعنى صلاة العتمة، وقال الحسن: هما المغرب والعشاء، قال الأخفش:

يعنى ساعات الليالى واحدتها زلفة، وأصل الزلفة المنزلة والقربة، ومنه المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة، قال العجاج:

طىّ الليـــالى زلفًا فزلّفا سماوة الهلال حتى احقوقفا

وفيه أربع لغات زُلُفًا: بفتح الفاء وضم اللام وهى قراءة العامة، وقرأ أبو جعفر بضم الزاى واللام، وقرأ ابن محيصن بضم الزاى وجزم اللام، وقرأ مجاهد زُلفى، مثل قُربى.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعنى: إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات، هذا قول أكثر المفسرين، وقال مجاهد: هى قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر.

نزلت هذه الآية فى أبى اليسر عمرو بن غزية الأنصارى وكان يبيع التمر فأتته امرأة تبتاع تمرًا فقال: إن هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه فهل لك فيه، فقالت: نعم، فذهب بها إلى بيته فضمها إليه وقبّلها، فقالت له: اتق الله فتركها وندم على ذلك، فأتى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله، ما تقول فى رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شيئًا مما يفعل الرجال بالنساء إلاّ ركبه غير أنه لم يجامعها، فقال عمر بن الخطاب: لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك، فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئًا، وقال: أنظر فيه أمر ربى، وحضرت صلاة العصر، فصلّى النبى ﷺ العصر، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية، فقال النبى ﷺ: «أين أبو اليسر؟» فقال: هأنذا يا رسول الله، قال: «أشهدت معنا هذه الصلاة؟» قال: نعم، قال: «اذهب فإنها كفارة لما عملت» فقال عمر: يا رسول الله أهذا له خاصّة أم لنا عامة؟ فقال: «بل للناس عامة».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرناه، وقيل: هو إشارة إلى القرآن ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على ما تلقى من الأذى، وقيل: على الأذى، وقيل: على الصلاة، نظير قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢)، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من أعمالهم، وقال فيه ابن عباس: يعنى المصلّين.

❖ ❖ ❖

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ

أَجْمَعِينَ ۝ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۝ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ فهلاّ كان ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ التى أهلكناهم ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أصحاب دين وعقل ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ومعناه: فلم يكن، لأن فى الاستفهام ضربًا من الجحد ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وهم أتباع الأنبياء وأهل الحق.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ قال ابن عباس: ما أُنظروا فيه، وروى عنه: أُبطروا. الضحّاك: اعتلّوا، مقاتل بن سليمان: أُعطوا، ابن حيان: خوّلوا، مجاهد: تجبّروا فى الملك وعتوا عن أمر الله، الفرّاء: ما سوّدوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ (بظلم منه لهم) ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فى أعمالهم غير مسيئين، لكنه يهلكها بكفرهم وإتيانهم السيئات، وقيل: معناه لم يكن ليهلكهم بشركهم وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون، ويتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين، وإنّما يهلكهم إذا ظلموا.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ﴾ كلّهم ﴿أُمَّةً﴾ جماعة ﴿وَاحِدَةً﴾ على ملّة واحدة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ على أديان شتى من يهودى ونصرانى ومجوسى ونحو ذلك ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ويعنى بهم المؤمنون وأهل الحق.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل بن حيان ويمان وعطاء: وللاختلاف خلقهم، قال الأشهب: سألت مالكًا عن هذه الآية فقال: خلقهم ليكون فريق فى الجنة، وفريق فى السعير، وقيل: اللام بمعنى على، أى وعلى ذلك خلقهم، كقول الرجل للرجل: أكرمتك على برّك بى ولبرّك بى، ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة: وللرحمة خلقهم ولم يقل: ولتلك، والرحمة مؤنّثة لأنها مصدر وقد مضت هذه المسألة، وهذا باب سائغ فى اللغة (وهو أن يُذكر) لفظان متضادان ثم يشار إليهما بلفظ التوحيد فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ (البقرة:٦٨) ثم قال: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ (البقرة:٦٨)، وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:١١٠)، وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ (يونس:٥٨) فكذلك معنى الآية، (ولذلك) أى وللاختلاف والرحمة خلقهم أحسن خلق،

هؤلاء لجنّته، وهؤلاء لناره.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ قال ابن عباس: نسدد، الضحاك: نقوّى، ابن جريج: نصبّر حتى لا تجزع، أهل المعانى: ما نثبّت به قلبك.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ قال الحسن وقتادة: فى هذه الدنيا، وقال غيرهما: فى هذه السورة ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۝ وَانتَظِرُوا﴾ ما يحلّ بنا من رحمة الله ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما يحل بكم من النقمة.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: خزائن الله، الضحّاك: جميع ما غاب عن العباد، وقال الباقون: غيب نزول العذاب من السماء ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فى المعاد حتى لا يكون للخلق أمر، وقرأ نافع وحفص بضم الياء أى يُرجع ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ توثّق به.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة هود والله أعلم. يعملون قراءة العامة بالياء، وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء.

❖ ❖ ❖

سورة يوسف عليه السلام

مكية، وهى سبعة آلاف وستة وسبعون حرفًا، وألف
وسبعمائة وستة وسبعون كلمة، ومائة وإحدى عشرة آية

أخبرنا أبو الحسين على بن محمد بن الحسن المقرئ غير مرة، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الجرجانى، وأبو الشيخ عبد الله بن محمد الأصفهانى قالا: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن شريك، قال: حدثنا أحمد بن يونس اليربوعى، قال: حدثنا سلام بن سليم المدائنى، قال: حدثنا هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى أمامة عن أُبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «علّموا أرقاءكم سورة يوسف فإنه أيّما مسلم تلاها وعلّمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلمًا».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ يعنى البيّن حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وهداه وبركته، قال معاذ بن جبل: بيّن فيه الحروف التى سقطت من ألسن الأعاجم وهى ستة أحرف.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يعنى الكتاب ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغتكم يا معشر العرب ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ لكى

تعلموا معانيه وتقيموا ما فيه ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ أى نقرأ، وأصل القصص تتبع الشىء، ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ (القصص: ١١) فالقاص يتتبع الآثار ويخبر بها.

﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ يعنى قصة يوسف ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ وما المصدر أى بإيحائنا إليك ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ من قبل وحينا ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ قال سعد بن أبى وقاص: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانًا، وكأنهم ملّوا فقالوا: لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ الآية، فقالوا: يا رسول الله لو ذكرتنا وحدثتنا فأنزل الله تعالى ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ (الحديد: ١٦) الآية، فقال الله تعالى على هذه الآية: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾.

واختلف الحكماء فيها لم سميت أحسن القصص من بين الأقاصيص؟ فقيل: سماها أحسن القصص لأنه ليس قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة، وقيل: سمّاها أحسن لامتداد الأوقات فيما بين مبتداها إلى منتهاها، قال ابن عباس: كان بين رؤيا يوسف ومصير أبيه وإخوته إليه أربعون سنة، وعليه أكثر المفسرين، وقال الحسن البصرى: كان بينهما ثمانون سنة.

وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجاورة يوسف إخوته، وصبره على أذاهم، وإغضائه عند الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه فى العفو عنهم وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والأنعام والطير، وسير الملوك والمماليك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء، وحيلهن ومكرهن، وفيها أيضًا ذكر التوحيد والعفة والسير وتعبير الرؤيا والسياسة وتدبير المعاش، وجعلت أحسن القصص لما فيها من المعانى الجزيلة والفوائد الجليلة التى تصلح للدين والدنيا، وقيل: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب. وقيل: أحسن القصص هاهنا بمعنى أعجب.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾ قراءة العامة يوسف بضم السين، وقرأ طلحة بن مطرف بكسر السين، واختلفوا فيه فقال أكثرهم: هو اسم عبرىّ فلذلك لا يجرى، وقال بعضهم: هو اسم عربى.

سمعت أبا القاسم الحبيبى، قال: سمعت أبى يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع، وكان حكيمًا، وسئل عن يوسف، فقال: الأسف: الحزن، والأسيف، العبد واجتمعا فى يوسف فلذلك سمى يوسف.

﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. روى أبو سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق

ابن إبراهيم عليهم السلام».

﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير يا أبتاه، وقرأ الباقون بالكسر، لأنه أصله يا أبه على هاء الوقف والجر.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ نصب الكوكب على التمييز، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ﴾ ولم يقل: رأيتها لي ساجدة، والهاء والميم والياء والنون من كنايات ما يعقل؛ لأن السجود فعل ما يعقل فعبّر عنها بكنايتها كقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ (النمل:١٨) الآية.

روى السدّي عن عبد الرحمن بن (ساريا)، عن جابر، قال: سأل النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود يقال له بستان، فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها، فسكت رسول الله ﷺ وقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتُ بأسمائها؟» قال: نعم، فقال: «حرثان والطارق والذيال وذو النقاب وقابس ووثاب وعمودان والمصبح والفليق والضروح وذو الفرغ، رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء فسجدن له» فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها.

قال ابن عباس: الشمس والقمر أبواه والكواكب إخوته الأحد عشر. وقال قتادة: الشمس أبوه والقمر خالته، وذلك أن أمه راحيل كانت قد ماتت، قال وهب: وكان يوسف رأى وهو ابن سبع سنين، أن إحدى عشرة عصًا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذا عصا صغيرة ثبتت عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه، فقال له: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن اثني عشرة سنة أن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر سجدن له فقصّها على أبيه فقال له: ﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ فيبغوا لك الغوائل ويحتالوا في إهلاكك، لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

واختلف النحاة في وجه دخول اللام في قوله لك، فقال بعضهم: معناه فيكيدوك واللام صلة، كقوله ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف:١٥٤) وقال آخرون: هو مثل قولهم: نصحتك ونصحت لك، وشكرتك وشكرت لك، وحمدتك وحمدت لك، وقصدتك وقصدت لك.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ كقوله: (يصطفيك ويختارك) ليوسف ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تعبير الرؤيا وسمي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بالخلة وإنجائه من النار قال عكرمة: بأن نجّاه

من الذبح وفداه بذبح عظيم. وقال الباقون: بإخراج يعقوب، والأسباط من صلبه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ولهذا قيل: العرق نزّاع والأصل لا يخطئ، فلمّا بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه، قال ابن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما رضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه، فبغوه بالعداوة.

❖ ❖ ❖

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾.

يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ﴾ أى فى خبره وخبر إخوته ﴿وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوى، ويهودا، وزيالون، وأمنجر، وأُمهم ليا بنت إيان وهى ابنة خال يعقوب، وولد له من سريّتين له اسم إحداهما زاد والأُخرى ملده، أربعة نفر، دان ونفتالى وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، وكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً.

﴿ءَايَٰتٌ﴾ قرأ أهل مكة آية على الواحد، أى عظة وعبرة، وقيل: عجب، يقال: فلان آية فى الحسن والعلم أى عجب، وقرأ الباقون: آيات على الجمع ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وذلك أن اليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فأخبرهم بها كما فى التوراة فعجبوا منه وقالوا: من أين

لك هذا يا محمد؟ قال: «علمنيه ربي» وقيل: معناه للسائلين ولمن لم يسأل، كقوله: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (فصلت: ١٠).

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ﴾ اللام فيه جواب القسم تقديره: تالله ليوسف ﴿وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ خطأ بيّن في إيثاره يوسف وأخاه علينا.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ اختلفوا في تأويل هذا القول، فقال وهب: قاله شمعون، كعب: دان، مقاتل: روبيل ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي في أرض ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ يخلص ويصفو لكم.

﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ عن شغله بيوسف فإنه قد شغله عنّا وصرف وجهه إليه عنّا ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد قتل يوسف ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ تائبين، وقال مقاتل: يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو روبيل، وقال السدي: هو يهودا، وهو أعظمهم وكان ابن خالة يوسف، وكان أحسنهم فيدايا نهاهم عن قتله وقال لهم: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإن قتله عظيم.

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي في قعر الجب وظلمته حيث يغيب خبره، قتادة: في أسفله، والغيابة: كل شيء غَيَّبَ شيئًا، وأصلها من الغيبوبة، وقرأ أهل المدينة: غيابات الجب، على الجمع، والباقون: غيابة، على الواحد، والجبّ: البئر غير المطويّة، قتادة: هو بئر بيت المقدس، وقال وهب: هو بأرض الأردن، كعب: بين مدين ومصر، مقاتل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ يأخذه، قراءة العامة بالياء لأنه البعض وقرأ الحسن: تلتقطه بالتاء لأجل السيارة، والعرب تفعل ذلك في كل خبر كان عن مضاف إلى مؤنث يكون الخبر عن بعضه خبراً عن جميعه، كقول الشاعر:

أرى مرّ السنين أخذن مني ... كما أخذ السرار من الهلال

ولم يقل أخذت وقال الآخر:

إذا مات منهم سيد قام سيد ... فدانت له أهل القرى والكنائس

﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ بعض مارّي الطريق من المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فينستر خبره ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما أقول لكم.

قيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ ولهذا قيل: الأب جلاب، والأخ

سلاب، فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضرب من الاحتيال، فقالوا ليعقوب ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قرأ أبو جعفر بالنون، وقرأ الباقون بإشمام النون للضمّة، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لأن أصله تأمننا بنونين فأُدغمت إحداهما في الأخرى.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾ نحوطه ونحفظه حتى نردّه إليك، مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَـٰفِلُونَ﴾ فحينئذ قالوا ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ۝ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾.

وقرأ أبو عمرو بالنون فيهما وكذلك ابن عامر قال، هارون: فقلت لأبي عمرو: كيف تقرأ نرتع ونلعب وهم أنبياء؟ قال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وقرأ أهل الكوفة كلاهما بالياء أي ننعم ونأكل وننشط ونلهو، يقال: رتع فلان في ماله إذا أنعم وأنفقه في شهواته. قال القطامي:

أكفراً بعـد رد الموت عني ... وبعد عطائك المائة الرتاعا

وقال ابن زيد: معناه يرعى غنمه، وينظر ويعقل فيعرف ما يعرف الرجل.

وقرأ يعقوب (نرتع) بالنون ﴿وَيَلۡعَبۡ﴾ بالياء ردًا للعب إلى يوسف، والرتوع إلى إخوته، وقرأ أهل الحجاز (نرتع) بكسر العين من الارتعاء، أي نتحارس ويحفظ بعضنا بعضًا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي ذهابكم ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَـٰفِلُونَ﴾ لا تشعرون، وذلك أن يعقوب رأى في منامه أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره، ومن ثم قال هذا فلقنهم العلة وكانوا لا يدرون فقالوا: ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ عشرة رجال ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ ضعفة عجزة مغبونون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ في الكلام إضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ وعزموا على ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ هذه الواو مقحمة زائدة تقديره أوحينا، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ (الصافات: ١٠٣) أي ناديناه وقال امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحى ... بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل

أراد انتحى.

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يعني أوحينا إلى يوسف، (سوف تتحقق) رؤياك، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا وما فعلوه بك، وهم لا يشعرون بوحي الله إليه وإعلامه إياه ذلك، وهذا معنى قول مجاهد، وقيل: معناه وهم لا يشعرون أنك يوسف.

قال ابن عباس: لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ وقال: إنه ليخبرنى هذا الجام إنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف، يدنيه دونكم، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب ثم جئتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله وبعتموه بثمن بخس، فذلك قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال السدى: أرسل يعقوب يوسف معهم فأخرجوه وبه عليهم من الكرامة، فلمّا برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يجد منهم رحمة، فضربوه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه يا يعقوب، لو تعلم ما يصنع بابنك هؤلاء الأبناء.

فلما كادوا ليقتلوه قال يهودا: أليس سألنا أبانا موثقًا ألاّ تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فجعلوا يدلونه فى البئر، فتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه، ردوا على القميص أتوارى به فى الجب، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك، قال: إنّى لم أر شيئًا.

فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فيه فقام عليها، فلما ألقوه فى الجب جعل يبكى فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه فقام يهودا فمنعهم وقال: قد أعطيتمونى موثقًا ألا تقتلوه، وكان يهودا يأتيه بالطعام.

ويقال: إن الله تعالى أمر صخرة حتى ارتفعت من أسفل البئر فوقف يوسف عليها وهو عريان، وكان إبراهيم الخليل ﷺ حين ألقى فى النار جرّد من ثيابه وقذف فى النار عريانًا فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه وكان ذلك (القميص) عند إبراهيم، فلما مات ورثه إسحاق، فلما مات إسحاق ورثه يعقوب، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويذ وعلقه فى عنقه، فكان لا يفارقه، فلما ألقى فى البئر عريانًا جاء جبرئيل وكان عليه ذلك التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إياه، قال ابن عباس: ثم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ ليكونوا أجرأ فى الظلمة على الاعتذار وترويج ما مكروا، وقد قيل: لا تطلب الحاجة بالليل وإن الحياء فى العينين، ولا يعتذر من ذنب فى النهار فيتلجلج فى الاعتذار فلا يقدر على إتمامه، وقيل: أخروا المجىء إلى وقت العشاء الآخرة ليدلسوا على أبيهم.

قال السدّى: فلما سمع أصواتهم فزع وقال: ما لكم يا بنى؟ وهل أصابكم فى غنمكم شئ؟ قالوا: لا، قال: فما أصابكم؟ وأين يوسف؟

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أى نترامى، دليله قول عبد الله: ننتضل، السدّى وابن حيان: نشتد ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ مصدّق ﴿لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ لسوء ظنّك بنا وتهمتك لنا، وهذا قميصه ملطخ بالدم فذلك قوله ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أى بدم كذب، وقيل: بدم ذى كذب لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دم شاة، وهذا كما يقال: الليلة الهلال، وقيل: معناه بدم مكذوب فيه، فوضع المصدر موضع الاسم، كما يقال: ما له عقل ولا معقول.

وقرأت عائشة: بدم كدب بالدال غير المعجمة، أى طرى، فبكى يعقوب عند ذلك، وقال لبنيه: أرونى قميصه فأروه، فقال: يا لله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا، أكل ابنى ولم يخرق عليه قميصه، فحينئذ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ رتبت ﴿أَمْرًا فَصَبْرٌ﴾ أى فمنى أو فعلى صبر، وقيل: فصبرى صبر ﴿جَمِيلٌ﴾ وقرأ الأشهب والعقيلى: فصبرًا على المصدر أى فلأصبرن صبرًا جميلاً وهو الصبر الذى لا جزع ولا شكوى فيه.

وقيل: معناه لا أعاشركم على كآبة الوجه وحبوس الحنين، بل أكون فى المعاشرة معكم جميلاً كما كنت.

وروى عبد الرزاق عن الثورى عن حبيب بن ثابت أن يعقوب النبى عليه السلام كان قد سقط حاجباه على عينيه وكان يرفعهما بخرقة فقيل له: ما هذا؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكونى؟ قال: يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الكذب، قالوا: وكان يوسف حين أُلقى فى الجب ابن ثمانى عشرة سنة، وقيل: سبع عشرة سنة، وكان ابن عشر، ومكث فيها ثلاثة أيام.

❖ ❖ ❖

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أى رفقة مارة من قبل مدين يريدون مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يمشون على غير الطريق حتى نزلوا قريبًا من الجب، وكان الجب فى قفرة بعيدًا عن العمران، إنما هو للرعاة والمجتازة، وكان ماؤه مالحًا فعذب حين أُلقى فيه يوسف، فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر ليطلب لهم الماء فذلك قوله ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ الوارد: الذى يتقدم الرفقة إلى الماء فيُهيّئ الأرشية والدلاء، فوصل إلى البئر ﴿فَأَدْلَىٰ﴾ فيها ﴿دَلْوَهُۥ﴾ أى أرسلها يقال: أدليت الدلو فى الماء إذا أرسلتها فيها، ودلوتها دلوًا إذا أخرجتها منها، فتعلق يوسف عليه السلام بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون من الغلمان.

قال النبى ﷺ: «أُعطى يوسف شطر الحسن والنصف الآخر لسائر الناس»، قال كعب الأحبار: كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر، ضخم العينين، مستوى الخلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، وكان إذا ابتسم رأيت النور فى ضواحكه، وإذا تكلم رأيت فى كلامه شعاع النور، ينبهر بين ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه، وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله وصوره ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية، ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن.

فلما رآه مالك بن ذعر ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ واختلفت القراء فى قوله: يا بشرى، فقرأ أهل الكوفة بسكون الياء، وقالوا: نادى مالك فى رجل من أصحابه، اسمه بشرى، فقال: يا بشر، كما يقول: يا زيد وهذا فى محل رفع على النداء المفرد، وهذا قول السدى.

وقرأ الباقون: يا بشراى بالألف وفتح الياء على الإضافة وقالوا: بشر المستقى أصحابه بأنه أصاب عبدًا.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ وأخفوه ﴿بِضَٰعَةً﴾ نصب على الحال، قال مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين معه وقالوا لهم: هو بضاعة استبضعناها بعض أهل الماء إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة إن علموا بثمنه، عطية عن ابن عباس: يعنى بذلك أخوة يوسف، أسرُّوا شأن يوسف أن يكون أخاهم وقالوا: هو عبد لنا أبق منا.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فأتى يهودا يوسف بالطعام فلم يجده فى البئر فأخبر

إخوته بذلك فطلبوه، فإذا هم مالك وأصحابه نزول، فأتوهم فإذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد أبق منا، وقال وهب: كان يهودا (مستندًا) من بعيد ينظر ما يطرأ على يوسف، فلما أخرجوه رآه فأخبر الآخرين، فأتوا مالكًا وقالوا: هذا عبدنا، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، فقال مالك: أنا أشتريه منكم، فباعوه منه فذلك قوله تعالى ﴿وَشَرَوۡهُ﴾ أى باعوه، قال ابن مفرغ الحميرى:

وشريتُ بُردًا ليتنى　　　من بعد بُرد كنتُ هامه

أى بعت بردًا وهو غلامه.

﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ﴾ ناقص وهو مصدر وضع موضع الاسم، قال قتادة: ظلم، الضحاك ومقاتل والسدى: حرام، لأن ثمن الحر حرام، عكرمة والشعبى: قليل، ابن حيان: زيف ﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من الثمن ﴿مَعۡدُودَةٍ﴾ وذكر العدد عبارة عن القلة، أى باعوه بدراهم معدودة قليلة غير موزونة، ناقصة غير وافية، وقال قوم: إنما قال معدودة لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أربعين درهمًا، إنما كانوا يعدونها عدًا، فإذا بلغ أوقية وزنوه، لأن أقل أوزانهم وأصغرها يومئذ كانت أوقية، والأوقية أربعون درهمًا.

واختلف العلماء فى مبلغ عدد الدراهم التى باعوه بها، فقال ابن مسعود وابن عباس وابن قتاده والسدى: عشرون درهمًا فاقتسموها درهمين درهمين، مجاهد: اثنان وعشرون درهمًا، عكرمة: أربعون درهمًا ﴿وَكَانُواْ﴾ يعنى إخوة يوسف ﴿فِيهِ﴾ فى يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لم يعلموا كرامته على الله ولا منزلته عنده.

ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف وتبعهم إخوته يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق، فذهبوا حتى قدموا به مصر، فاشتراه قطفير، قاله ابن عباس، وقيل: قطفير بن روجيت وهو العزيز وكان على خزائن مصر.

وكان الملك بمصر يومئذ ونواحيها الريان بن الوليد بن ثروان بن أرامة بن فاون بن عمرو بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح، وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتبع يوسف على دينه ثم مات ويوسف بعده حى، فملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن البيلواس ابن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوى بن سام بن نوح وكان كافرًا ودعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يقبل.

قال ابن عباس: لما دخلوا مصر تلقى قطفير مالك بن ذعر فابتاع يوسف منه بعشرين دينارًا وزوج نعل وثوبين أبيضين، وقال ابن منبه: قدمت السيارة بيوسف مصر (فعرضوه) للبيع

فترافع الناس في ثمنه وتزايد حتى بلغ ثمنه وزنه مسكًا وورقًا فابتاعه قطفير بن مالك بهذا الثمن فذلك قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ .

فإن قيل: كيف أثبت الشرى في قوله وشروه واشتراه ولم ينعقد عليه؟ والجواب: أن الشراء هو المماثلة فلما ماثله بمال من عنده جاز أن يقال: اشتراه، على التوسع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ (التوبة: ١١١) الآية، فلمّا مر قطفير وأتى به منزله قال لامرأته - واسمها راحيل بنت رعابيل، قاله محمد بن إسحاق بن يسار.

قال الثعلبي: وأخبرني ابن فنجويه قال: حدثنا ابن منبه، قال: حدثنا أبو حامد المستملي، حدثنا أبو هشام الرفاعي، قال: اسم امرأة العزيز التي ضمت يوسف زليخا بنت موسى.

﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ منزله ومقامه، قتادة وابن جريج: منزلته ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فيكفينا إذا بلغ وفهم الأمور وبعض ما نحن (نستقبله) من أمورنا.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي نتبناه، قال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء، وكانت امرأته راحيل حسناء ناعمة طامعة في ملك ودنيا.

قال الثعلبي: أخبرنا أبو بكر الجوزقي، أخبرنا أبو العباس الدغولي، حدثنا علي بن الحسن الهلالي، حدثنا زهير عن أبي إسحاق عن أبي عبيد عن عبد الله قال: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال: أكرمي مثواه، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها يا أبت استأجره، وأبو بكر حين استخلف عمر.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما أنقذ يوسف من أيدي إخوته وقد هموا بقتله فأخرجناه من الجب بعد أن ألقي فيه، فصيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مصر، فجعلناه على خزائنها، قال أهل الكتاب: لما تمت ليوسف عليه السلام ثلاثون سنة استوزره فرعون.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي ولكي نعلّمه من عبارة الرؤيا، مكنّا له في الأرض ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ اختلفوا في هذه الكناية، فقال قوم: هي راجعة إلى الله عز وجل، وتقدير الكلام: لا يغلب الله شئ، بل هو الغالب على أمره يفعل ما يشاء، ويعمل ما يريد، وقال آخرون: راجعة إلى يوسف، ومعنى الآية: والله مستول على أمر يوسف يسوسه ويحوطه ويدبر أمره، ولا يكله إلى غيره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما الله صانع بيوسف، و(ما) إليه يوسف من أمره صائر، وهم الذين زهدوا فيه وباعوه بثمن بخس وفعلوا به ما فعلوا.

قالت الحكماء فى هذه: والله غالب على أمره حيث أمر يعقوب يوسف عليه السلام أن لا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حين قص، ثم أراد يعقوب أن لا يكيدوا فغلب أمره حتى كادوا، ثم أراد أخوه يوسف قتله فغلب أمره حتى لم يقتلوه، ثم أرادوا أن يلقوه فى الجب ليلتقطه بعض السيارة فيندرس اسمه، فغلب أمره حتى لم يندرس اسمه وصار مشكوراً مشهورًا.

ثم باعوه ليكون مملوكًا فغلب أمره حتى صار ملكًا والعبيد بين يديه، ثم أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، فغلب أمره حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قومًا صالحين تائبين، فغلب أمره حتى نسى الذنب وأصروا حتى أقروا بين يدى يوسف فى آخر الأمر بعد أربعين سنة، وقالوا: وإن كنا خاطئين، وقالوا لأبيهم: إنا كنا خاطئين.

ثم أرادوا أن يغروا باسم القميص والدم والبكاء، فغلب أمره حتى لم يخدع، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ (يوسف:١٨) ثم احتالوا أن تذهب محبته من قلب أبيه، فغلب أمره حتى ازدادت المحبة والشوق فى قلبه، ثم تدبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى فغلب أمره حتى نسى الساقى فى ذكره، ولبث فى السجن بضع سنين، ثم احتالت امرأة العزيز أن (تترك) المراودة عن نفسها حتى قالت ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ (يوسف: ٢٥) الآية، فغلب أمره حتى شهد الشاهد من أهلها.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أى منتهى شبابه وشدة قوته، قال مجاهد: ثلاثًا وثلاثين سنة، الضحاك عشرين سنة، وروى ابن عباس أنه ما بين ثمانى عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، وقيل: إلى أربعين، وقيل: إلى ستين، والأشد: جمع شد، مثل قد وأقد، وشر وأشر، وضر وأضر، وقال حميد:

وقد أتى لو تعبت العواذل   بعد الأشل أربع كوامل

قال الشاعر:

هل غير أن كثر الأشل وأهلكت   حرب الملوك أكاثر الأموال

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال مجاهد: العقل والفهم والعلم قبل النبوة، وقال أهل المعانى: يعنى إصابة فى القول، وعلمًا بتأويل الرؤيا وموارد الأمور ومصادرها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس: المؤمنين، وعنه أيضًا: المهتدين، وقال (الصدوق) عن الضحاك: يعنى الصابرين على النوائب كما صبر يوسف، وقال محمد بن كعب: هذا وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فإن المراد به محمد نبى الله ﷺ يقول:

كما فعلت بيوسف بعدما لقى من إخوته ما لقى وقاسى من البلاء ما قاسى فمكنته فى الأرض، ووطأت له فى البلاد، وآتيته الحكم والعلم فكذلك أفعل بك، أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك فى الأرض، وأزيدك الحكم والعلم، لأن ذلك جزائى لأهل الإحسان فى أمرى ونهيى.

❖ ❖ ❖

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يعنى امرأة العزيز، وطلبت منه أن يواقعها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وكانت سبعة.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ﴾، اختلف القراء فيه، فقرأ ابن عباس والسلمى وأبو وائل وقتادة: هئت لك بكسر الهاء وضم التاء مهموزاً، بمعنى تهيأت لك، وأنكرها أبو عمرو، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: سمعت أبا عمرو وسئل عن قراءة من قرأ: هئت لك بكسر الهاء وهمز الياء فقال أبو عمرو: باطل، جعلها من تهيأت، اذهب واستعرض العرب حتى تنتهى إلى اليمن، هل تعرف أحدا يقول هذا؟

وقال الكسائى أيضًا: لم يُحكَ هئت عن العرب، وقال عكرمة: هِئتُ لك: أى زينت لك وحسنت وهى قراءة غير مرضية، وقرأ نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعبد الله بن أبى إسحاق: هيت لك بفتح الهاء وكسر التاء وقرأ يحيى بن وثاب هيت: بكسر الهاء وضم التاء وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وضم التاء، وأنشد طرفة:

ليس قومى بالأبعدين إذا ما قال داع من العشيرة هَيتَ

هم يجيبـــون إذا هم سراعا   كالأبابيل لا يغـــادر بيتا

وقرأ أهل المدينة والشام بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ الباقون بفتح الهاء والتاء، وهى لغة النبى ﷺ واللغة المعروفة عند العرب، الشعبى عن عبد الله بن مسعود: أقرأنى النبى ﷺ هيت لك.

وروى الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود أنه قرأ هيت لك، فقيل له: هيت لك، قال ابن مسعود: إنما نقرأها كما تعلمناها وسمعناها جميعًا هلُمَّ وأقبل وادنُ، قال الشاعر (يخاطب) أمير المؤمنين على رضى الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين أهل العرق إذا أتينا   أن العراق وأهله سلم إليك فهيت هيتا

قال السدى: هى بالقبطية هلم لك، وقال الحسين: هيت لك كلمة بالسريانية أى عليك، قال أبو عبيد: كان الكسائى يقول هى لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز معناها تعال، قال أبو عبيد: سألت شيخًا عالمًا من حوران فذكر أنها لغتهم، وكذا قال عكرمة، وقال مجاهد وغيره: هى لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها وهى كلمة حث وإقبال على الشىء، وأصلها من (الدعوة) والصياح تقول العرب هيت فلان بفلان إذا دعاه وصاح به، قال الشاعر:

قَدْ رابنى أنّ الكرى أسكتا   لو كان مَعْنيًا بها لهَيَّتا

أى صاح به، والكرى المكارىّ.

وقال أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: رأيتُ فى بعض التفاسير هيت لك يقول: هل لك رغبة فى حسنى وجمالى، وذكر أبو عبيدة أن العرب لا تثنى هيت ولا تجمع ولا تؤنث، وإنها بصورة واحدة فى كل حال وإنما تتميز بما بعدها وبما قبلها.

﴿قَالَ﴾ يوسف عليه السلام عند ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعتصمُ وأستجيرُ بالله مما دعوتنى إليه وهو مصدر تقديره: عياذًا بالله.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يعنى إن زوجك قطفير سيدى، ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أى منزلتى، وعلى هذا أكثر المفسرين، قال بعضهم: إنها مردودة إلى الله ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أى آوانى ومن بلاء الحب عافانى.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ يعنى إن فعلت، وائتمننى هذا فخنته فى أهله بعدما أكرمنى وائتمننى وأحسن مثواى فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون، وقيل الزناة.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ يعنى الهم بالشىء: حديث المرء نفسه به، ولما يفعل ذلك.

يقول الشاعر:

هممتُ وَلمْ أفعلْ وكدتُ وليتنى تركتُ على عثمان تبكى حَلائلهُ

فأما ما كان من هم يوسفَ عليه السلام بالمرأة وهمها به، فإن أهل العلم (اختلفوا) فى ذلك، فروى سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبى يزيد قال: سَمعتُ ابن عباس سُئِلَ: ما بلغَ من همّ يوسف قال: حَلَّ الهميان وجلس منها مجلس المُجامع.

وروى ابن جريج عن ابن أبى عطية، قال: سألتُ ابن عباس رضى الله عنه: ما بلغ من هم يوسف، قال: استلقت له على قفاها وقعد بين رجليها لينزع ثيابه.

سعيد بن جبير: أطلق تكة سراويله، مجاهد: حل السراويل حتى بلغ الثفن، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته.

الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بيده إلى جيد يوسف، وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما.

قال السدى وابن إسحاق: لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت له: يا يوسف ما أحسن شعرك! قال: هو أول ما ينتثر من جسدى، قالت: يا يوسف ما أحسن عينيك! قال: هى أول ما تسيل إلى الأرض من جسدى، قالت: ما أحسن وجهك! قال: هو للتراب يأكله، فلم تزل تُطمعه مرة وتخيفه أخرى وتدعوه إلى اللذة، وهو شاب مستقبل بجد من شبق الشباب ما يجد الرجل، وهى حسناء جميلة حتى لان لها مما يرى من كلفها به ولما يتخوف منها حتى خليا فى بعض البيوت وهم بها، فهذه أقاويل المفسرين من السلف الصالحين.

وقالت جماعة من المتأخرين: لا يليق هذا بالأنبياء (. . . .) فأولوا الآية بضروب من التأويل، وقال بعضهم: وهم بالفرار منها، وهذا لا يصح لأن الفرار مذكور وليس له فى الآية ذكر، وقيل: هم بضربها ودفعها، وقيل: هم بمخاصمتها ومرافعتها إلى زوجها، وقيل: وهم بها كناية عن غير مذكور، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم ابتدأ الخبر عن يوسف وقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ على التقديم والتأخير تقديرها: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ولكنه رأى البرهان فلم يهم كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣).

وهذا فاسد عند أهل اللغة لأن العرب لا تقدم جواب (لولا) قبلها، لا يقول: لقد قمت لولا زيد، وهو يريد، لولا زيد لقمت، جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: هممت

بيوسف أن يفترشها وهم بها يوسف يعنى تمناها أن تكون له زوجة.

وهذه التأويلات التى حكيناها كلها غير قوية ولا مرضية لمخالفتها أقوال القدماء من العلماء الذين يؤخذ عنهم التأويل، وهم قد أخذوا عن الذين شهدوا التنزيل.

وكما روى فى الخبر الصحيح أن يوسف لما دخل على الملك وأقرت المرأة، وقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٢) قال له جبرئيل عليه السلام: ولا حين هممت بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ (يوسف: ٥٣).

وأما أهل الحقائق فإنهم قالوا فى وجه هذه الآية: إن الهم همان: هم مقيم (ثابت) وهو إذا كان مع عزيمة وعقد ونية ورضى مثل هم امرأة العزيز فالعهد مأخوذ.

وهم عارض وارد وهو الخطرة والفكرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزيمة مثل هم يوسف عليه السلام، والعهد غير مأخوذ ما لم يتكلم به أو يفعله، يدل عليه ما روى عن ابن (المبارك) قال: قلت لسفيان: أيؤخذ العبد بالهمة؟ قال: إذا كان عزمًا أخذ بها.

وروى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله عز وجل: «إذا هم عبدى بالحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عليه سيئة واحدة، فإن تركها من أجلى كتبتها له حسنة».

والقول بإثبات مثل هذه الزلات والصغائر على الأنبياء عليهم السلام غير محظور لضروب من الحكمة.

أحدها: ليكونوا من الله تعالى على وجل إذا ذكروها فيجدون فى طاعته إشفاقًا منها ولا يتكلون على سعة رحمة الله.

والثانى: ليعرفهم موقع نعمته وامتنانه عليهم بصرفه عنهم.

والثالث: ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب فى رجاء رحمة الله وترك اليأس من عفوه وفضله.

وقد روى عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ما من أحد إلا يلقى الله عز وجل قد هم بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكريا فإنه لم يهم ولم يعملها».

وعن مصعب بن عبد الله قال: حدثنى مصعب بن عثمان قال: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهًا، فدخلت عليه امرأة تستفتيه: (فتأمنته) بنفسه فامتنع عليها وذكرها، فقالت له: إن لم تفعل لأشهرن بك، فخرج وتركها، فرأى فى منامه يوسف النبى عليه السلام، فقال له: أنت يوسف؟ قال: أنا يوسف النبى هممت وأنت سليمان الذى لم تهم.

وأمّا البرهان الذى رآه يوسف عليه السلام فإن العلماء اختلفوا فيه، فأخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى عن أبى العباس الأصم عن الحسن بن على، عن الحسين بن عطية عن إسرائيل عن أبى حصين عن سعيد عن ابن عباس ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ قال: مثل له يعقوب فضرب يده فى صدره، فخرجت شهوته من أنامله.

وقال الحسن وسعيد بن جبير وحميد بن عبد الرحمن ومجاهد وعكرمة وابن سيرين وأبو صالح وشمر بن عطية والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضًا على إصبعه.

وقال ابن جبير: فكل ولد يعقوب ولد له اثنا عشر ولدًا إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولدًا من أجل نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه فاستحياه.

قتادة: رأى صورة يعقوب فقال: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء؟

ابن أبى مليكة: عن ابن عباس قال: نودى: يا يوسف أتزنى فتكون كالطير وقع ريشه فذهب يطير فلا ريش له؟

السدى: نودى يا يوسف تواقعها؟ إنما مثلك - ما لم تواقعها - مثل الطير فى جو السماء لا يطلق، ومثلك إن واقعتها مثل (الطير) إذا مات وقع فى الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لا يعمل عليه، ومثلك إن واقعتها مثل الثور حين يموت فيدخل النمل فى أصل قرنيه، فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

أبو مردود عن محمد بن كعب القرظى: قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين هم فرأى كتابًا فى حائط البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢).

أبو معشر عنه: لولا ما رأى بالقرآن من تعظيم الزنا وتحريمه، وزاد القرظى: بالقرآن وصحف إبراهيم عليه السلام.

ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: حل سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته وإذا بكف قد مدت فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢).

فقام هاربًا وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته فإذا بكف قد مدت فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١) فقام هاربًا وقامت فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، قال الله تعالى لجبريل عليه السلام: يا جبرئيل أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة، فرأى جبريل عاضًا على إصبعه أو

كفه وهو يقول: يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله فى الأنبياء؟ فذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

قتادة عن عطية عن وهب بن منبه، أنه قال: لما هم يوسف وامرأة العزيز بما هما خرجت كف بلا جسد بينهما مكتوب عليها بالعبرانية ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: ٣٣) ثم انصرفت الكف وقاما مقامها، ثم رجعت الكف بينهما مكتوب عليها بالعبرانية ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار: ١٠- ١٢)، ثم انصرفت الكف وقاما مقامها، فعادت الكف بالعبرانية مكتوب عليها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢) فانصرفت الكف وقاما مقامها، فعادت الكف رابعة مكتوب عليها بالعبرانية ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ (البقرة: ٢٨١) فولى يوسف هاربًا.

وروى عطية عن ابن عباس، أن البرهان الذى رآه يوسف أنه أرى تمثال الملك، وروى عمر ابن إسحاق عن بعض أهل العلم أنه قطفير سيده حين دنا من الباب فى ذلك الحين، أنه لما هرب منها واتبعته ألفاه لدى الباب.

روى على بن موسى الرضا عن أبيه قال: حدثنى أبى عن أبيه على ابن الحسين، فى قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ قال: قامت امرأة العزيز إلى الصنم فأظلت دونه بثوب فقال لها يوسف: ما هذا؟ فقالت: أستحيى من الصنم أن يرانا، فقال يوسف: أتستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ولا يشهد ولا أستحيى ممن خلق الأشياء وعلمها؟

وقال جعفر بن محمد: البرهان النبوة التى أودع الله صدره هى التى حالت بينه وبين ما يسخط الله.

وقيل: هو ما آتاه الله من العلم والحكمة، وقال أهل الإشارة: إن المؤمن له برهان من ربه فى سره من معرفته فرأى ذلك البرهان وهو زاجره.

فالبرهان الآية والحجة، وجواب (لولا) محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لزنى، وحقق الهمة الغريزية بهمة الكسب، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ (النساء: ٨٣) ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (النور: ١٠) ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٠) مجازه لهلكتم، وقال امرؤ القيس:

فلو أنها نفس تموت سوية ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

أراد (بسقطت) فنيت ولهان على، ونحوها.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الإثم ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنا.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قرأ أهل مكة والبصرة بكسر اللام أى المخلصين التوحيد والعبادة لله، وقرأ الآخرون بفتح اللام أى المختارين للنبوة، دليلها قوله ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ (ص: ٤٦).

وروى الزهرى عن حمزة بن عبيد الله بن عمران بن عمر قال: قال: لما اشتكى النبى ﷺ الألم الذى توفى فيه، قال ﷺ: «يصلى بالناس أبو بكر»، قالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق، وإنه لا يملك نفسه حين يقرأ القرآن، فمر عمر يصلى بالناس، قال رسول الله ﷺ «يصلى بالناس أبو بكر» فراجعته، فقال «ليصل بالناس أبو بكر فإنّكن صويحبات يوسف»، قالت عائشة: والله ما حملنى فى ذلك الأمر عليهم أن يكون أول رجل قام مقام رسول الله ﷺ.

وأخبرنى ابن فنجويه قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن شيبة قال: حدثنا أبو حامد أحمد بن جعفر المستملى قال: حدثنا بعض أصحابنا قال: قال جعفر بن سليمان: سمعت امرأة فى بعض الطرق وهى تتكلم ببعض الرفث فقلت لها (. . . .)[1] إنكن صويحبات يوسف، فقالت له المرأة: واعجبًا نحن دعوناه إلى اللذة، وانتم أردتم قتله، فمن أصحابه نحن أم أنتم، وقتل النفس أعظم مما أردناه؟

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ وذلك أن يوسف لما رأى البرهان قام مبادراً إلى باب البيت هاربًا مما أرادته منه واتبعته المرأة فذلك قوله تعالى ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾: يعنى بادر يوسف وراحيل إلى الباب، أما يوسف ففراراً من ركوب الفاحشة، وأما المرأة فطلبها ليوسف لتقضى حاجتها أى راودته عليها، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته إليها مانعة له من الخروج.

﴿وَقَدَّتْ﴾ أى خرقت وشقت ﴿قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾: من خلف لا من قدام، لأن يوسف كان الهارب والمرأة هى الطالبة، فلما خرجا ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، أى وجد زوجها قطفير عند الباب جالسًا مع ابن عم لراحيل، فلما رأته هابته فقالت سابقة بالقول لزوجها: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ يعنى الزنا، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعنى الضرب بالسياط، قاله ابن عباس.

﴿قَالَ﴾ يوسف: بل ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، اختلفوا فى هذا الشاهد، قال سعيد بن جبير وهلال بن يسار والضحاك: كان صبيًا فى المهد أنطقه الله بقدرته.

وحدثنا العوفى عن ابن عباس وشهر بن حوشب عن أبى هريرة، ويدل عليه ما روى عطاء

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب ابن جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام.

وقيل: كان ذلك الصبى ابن خال المرأة، وقال الحسن: غلامه، قتادة والضحاك ومجاهد برواية (. . . .)[1]: ما كان بصبى ولكنه كان رجلاً حكيمًا ذا لحية، له رأى ومقال وآية، وهو رواية ابن أبى مليكة عن ابن عباس، قال: وكان من خاصة الملك. وقال السدى: هو ابن عم راحيل، وكان جالسًا مع زوجها على الباب فحكم وأخبر الله تعالى عنه: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ الآية.

قال عيسى عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد: إن الشاهد قميصه المقدود من دبر، ومعنى شهد شاهد حكم حاكم من أهلها، قال مجاهد: قال الشاهد: تبيان هذا الأمر فى القميص.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أى قدام ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ وخفف ابن أبى إسحاق القبل والدبر وثقلهما الآخرون وهما لغتان.

فجىء بالقميص فإذا هو قد من دبر، فلما رأى قطفير قميصه قد من دبر عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف ﴿قَالَ﴾ لها ﴿إِنَّهُۥ﴾ أى إن هذا الصنيع ﴿مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقيل: إن هذا من قول الشاهد.

ثم أقبل قطفير على يوسف فقال: ﴿يُوسُفُ﴾ يعنى يا يوسف، لفظ مفرد ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا﴾ الحديث فلا تذكره لأحد، وقيل: معناه لا تكترث له فقد كان عفوك لبراءتك، ثم قال لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ وقيل: هو من الشاهد ليوسف ولراحيل، وأراد بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾، يقول: سلى زوجك ألا يعاقبك على ذنبك ويصفح عنك، وهذا معنى قول ابن عباس.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ من المذنبين حين راودت شابًا عن نفسه وخنت زوجك، فلما استعصم كذبت عليه، يقال خطأ يخطأ خطأ، وخطأ وخطًا وخطاءً، إذا أذنب والاسم منه الخطيئة، قال الله تعالى: ﴿كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (الاسراء: ٣١) وقال أمية:

عبادك يخطئون وأنت رب بكفيك المنايا والحتـوم

أى يذنبون، فإذا أرادوا التعمد قيل: خطأ خطأ هنا لأن الفعل بالألف قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ (النساء: ٩٢)، وإنما قال ﴿ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ ولم يقل: الخاطئات

(١) بياض بالأصل المخطوط.

لأنه لم يقصد قصد الخبر عن النساء، وإنما قصد الخبر عمن يفعل ذلك، وتقديره: من القوم الخاطئين. ومثله قوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾(التحريم:١٢)، بيانه قوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ (النمل:٤٣).

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝﴾

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يقول: شاع أمر يوسف والمرأة فى مدينة مصر وتحدثت النساء بذلك، وقلن يعنى امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب، قاله مقاتل ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ وهو فى كلام العرب الملك، قال أبو داود:

درة غاص عليها تاجر جليتْ عند عزيز يوم طل

أى ملك.

﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ عدها الكنعانى ﴿عَن نَّفْسِهِۦ ۖ﴾.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ﴾ أى أحبها حتى دخل حبه شغاف قلبها، وهو حجابه وغلافه. قال السدى: الشغاف جلدة رقيقة على القلب يقال لها: لسان القلب، تقول: دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب، قال النابغة الذبيانى:

وقد حال هم دون ذلك داخل دخول الشغاف تبتغيه الأصابع

وقال ابن عباس: علقها حبًا، الحسن: بطنها حبًا، قتادة: استبطنها حبها إياه، أبو رجاء: صدقها حبًا، الكلبى: حجب حبه قلبها حتى لا يعقل سواه.

وقرأ أبو رجاء العطاردى والشعبى والأعرج، شعفها بالعين غير معجمة واختلفوا فى

معناها فقال الفراء: ذهب بها كل مذهب، وأصله من شعف الجبال وهى رءوسها، والنخعى والضحاك: فتنها، وذهب بها، وأصله من شعف الدابة حين تتمرغ بذعر، قال امرؤ القيس:

أتقتلنى وقـــد شعفت فؤادها كما شعف المهنؤة الرجل الطالى

ومراده: ذهب قلب امرأته كما ذهب الطالى بالإبل بالقطران يتلو بها، والإبل تخاف من ذلك ثم تستروح إليه، وقال الأخفش: من حبها، وقال محمد بن جرير: عمها الحب.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾: خطأ بين، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راحيل، ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ بقولهن وحديثهن، قال قتادة والسدى وقال ابن إسحاق: وإنما قلن ذلك مكرًا بها ليرين يوسف وكان قد وصف لهن حسنه وجماله ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ قال وهب: اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة فيهن اللائى عيرنها، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ وأعدت وهو أفعلت العتاد وهو العدة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا﴾ (الكهف: ٢٩).

﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ مجلسًا للطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد، يقال: ألقى له متكأ أى ما يتكأ عليه، وهذا معنى قول ابن عباس فى رواية على بن أبى طلحة. وقال سعيد بن جبير والحسن وقتادة وأبى إسحاق وابن زيد: طعامًا، قال القتيبى: والأصل فيه أن من دعوته إلى مطعم عندك أعددت له وسادة أو متكأ، فسمى الطعام متكأ على الاستعارة، يقال: اتكأنا عند فلان أى أكلنا، قال عدى بن زيد:

فظللنا بنعمـــة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

وروى عن الحسن أنه قال: متكاء بالتشديد والمد وهى غير فصيحة، وعن الحسن: فما أظن بصحيحة، وقرأ مجاهد متكأ خفيفة غير مهموزة، وروى ذلك عن ابن عباس.

واختلفوا فى معناه، فقال ابن عباس: هو الأترج، عكرمة: هو الطعام، وأبو روق عن الضحاك: الزماورد، على بن الحكم وعبيد بن حكيم، عنه: كل شىء يحز بالسكين فهو عند العرب المتكأ، والمتك والبتك: القطع والعرب تعاقب بين الباء والميم تقول سمد رأسه وسبده، وأغبطت عليه وأغمطته (لازب) ولازم قال الله تعالى: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ (النساء: ١١٩).

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ﴾ ليوسف ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك أنها قد كانت أجلسته فى مجلس غير المجلس الذى هن فيه جلوس، فخرج عليهن يوسف عليه السلام، قال عكرمة: وكان فضل يوسف على الناس فى الحسن والجمال كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء.

وعن أبى سعيد الخضرى قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى إلى السماء

فرأيت يوسف، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا يوسف» قالوا: وكيف رأيته يا رسول الله، قال: «كالقمر ليلة البدر».

وعن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ: قال: «هبط جبريل فقال: يا محمد إن الله تعالى يقول: كسوت حسن يوسف من نور الكرسى، كسوت نور حسن وجهك من نور عرشى».

وروى الوليد بن مسلم عن إسحاق عن عبد الله بن أبى فروة قال: كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس والماء على الجدران.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أى أعظمنه وأجللنه، قال أبو العالية: هالهن أمره وبهتن، وروى عبد الصمد بن على عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ قال حضن من الفرح، ثم قال:

نأتى النساء على أطهارهن ولا نأتى النساء إذا أكبرن إكبارا

وعلى هذا التأويل يكون أكبرنه بمعنى أكبرن له أى حضن لأجله من جماله، ووجدنا ما تجد النساء فى مثل تلك الحال وهكذا كقول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المطعم

أى وأظل عليه.

قال الأصمعى: أنشد بين يدى رسول الله ﷺ هذا البيت فقال: ما من شاعر جاهلى أحببت أن أراه دون (. . . .)[1] البيت.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، يعنى وحززن أيديهن بالسكاكين التى معهن وكن يحسبن أنهن يقطعن الأترج، عن قتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، وقال مجاهد: فما أحسسن إلا بالدم ومنهن من لم يجدن من ألم الدم لشغل قلوبهن بيوسف، قال وهب: وبلغنى أن تسعًا من الأربعين متن فى ذلك المجلس وجدا بيوسف.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أى معاذ الله، قال أبو عبيدة: لهذه الكلمة معنيان: التنزيه والاستثناء، واختلف القراء فيها فقرأت العامة: حاش لله، (. . . .)[1] حذفوا الألف لكثرة دورها على الألسن كما حذفت العرب الألف من قولهم: لأب غيرك ولأب لشانئك، وهم يعنون لا أب، واختار أبو عبيدة هذه القراءة وقال: اتباعا للكتاب وهو الذى عليه الجمهور الأعظم، مع أنى قرأتها فى مصحف الإمام عثمان عليه السلام: حاش لله والأخرى مثلها. وقرأ أبو عمرو: حاشى لله بإثبات الياء على الأصل، وقرأ أبو مسعود حاشى الله، كقول الشاعر:

(١) بياض بالأصل المخطوط.

حاشا أبى ثوبان أنه به ضنا عن الملحاة والشتم

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ نصب بنزع حرف الصفة وعلى خبر ما الجحد كما تقول: ما زيد قائما، وقرأ الأعمش: (ما هذا بشر) بالرفع وهى لغة أهل نجد، وأنشد الفراء:

ويزعم حسل أنه فرع قومه وما أنت فرع يا حسيل ولا أصل

وأنشد آخر:

لشتان ما أنوى وينوى بنو أبى جميعا فما هذان مستويان

تمنوا لى الموت الذى يشعب الفتى وكل فتى والموت يلتقيان

وروى الفراء عن دعامة بن رجاء التيمى عن أبى الحويرث الحنفى أنه قرأ: ما هذا بشرى، قال الفراء: يعنى بمشترى، ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ من الملائكة.

قال الثعلبى: سمعت ابن فورك يقول: إنما قلن له ملك كريم لأنه خالف ميوله وأعرض عن الدنيا وزينتها وشهوتها حين عرضن عليه، وذلك خلاف طبائع البشر.

﴿قَالَتْ﴾ راحيل للنسوة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أى فى حبه وشغفى فيه، ثم أقرت لهن فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أى امتنع واستعصى، فقلن له أطع مولاتك، فقالت راحيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ولئن لم يطاوعنى فيما دعوته إليه، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أحبسنه، ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أى الأذلاء ونون التوكيد تثقل وتخفف والوقف على قوله: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنون لكنها مشددة. وعلى قوله: ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالألف لأنها مخففة وهى تشبه نون الإعراب فى الاسم كقولك: رأيت رجلاً، فإذا وقفت قلت: رجلا ومثله قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ (العلق: ١٥)، ونحوه الوقف عليها بالألف كقول الأعشى:

وصل على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

أى أراد فاعبدن، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف.

واختار يوسف حين عاودته المرأة فى المراودة وتوعدته، السجن على المعصية، ﴿قَالَ رَبِّ﴾: يا رب، منادى مضاف، ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ المحبس، قراءة العامة بكسر السين على الاسم وقرأ يعقوب برفع السين على المصدرية يعنى الحبس، ﴿أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، ثم علم أنه لا يستعصم إلا بعصمة الله فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ﴾ أمل ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ وأبايعهن، فقال صبا فلان إلى كذا، وصبا يصبو، صبوا وصبوة، إذا مال واشتاق إليه، قال يزيد بن ضبة:

إلى هند صبا قلبى وهند مثلها يصبى

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائه وشكايته

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمكرهن.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أى العزيز وأصحابه، فى الرأى ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة على براءة يوسف، وهى قد القميص من دبر وخمش فى الوجه وتقطيع النسوة أيديهن ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ قال الفراء: هذه اللام فى اليمين وفى كل مضارع القول كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ (البقرة: ١٠٢) ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ (فصلت: ٤٨) دخلتها (اللام وما) لأنهما فى معنى القول واليمين.

﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ يعنى إلى الوقت الذى يرون فيه رأيهم.

قال عكرمة: تسع سنين، الكلبى: خمس سنين، و(حتى) بمعنى (إلى) كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ (القدر: ٥)، وقال السدى: وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس، يعتذر إليهم ويخبرهم أنى راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذرى فإما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر، وإما أن تحبسوه كما حبستنى، فحبسه بعد علمه ببراءته، وذكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همته بالمرأة وتكفيرا لزلته.

قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات: حين هم بها فسجن، وحين قال: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ (يوسف: ٤٢)، وحين قال لهم: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ (يوسف: ٧٠) فـ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ (يوسف: ٧٧).

❖ ❖ ❖

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ

ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ
فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا
ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ
ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا
نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ
سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ
يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ﴾ وهما غلامان كانا للملك الأكبر الوليد بن الريان، أحدهما خبازه صاحب طعامه واسمه مجلث، والآخر ساقيه صاحب شرابه واسمه بنو غضب عليهما الملك فحبسهما، وذلك أنه بلغه أن خبازه يريد أن يسمه وأن ساقيه مالأ على ذلك، وكان السبب أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فدسوا إلى هذين، وضمنوا لهما مالا ليسما طعام الملك وشرابه فأجابهم إلى ذلك، ثم إن الساقى نكل عنه وقبل الخباز الرشوة فسم الطعام.

فلما حضر وقته وأحضر الطعام، قال الساقى: أيها الملك لا تأكل فإن الطعام مسموم، فقال الخباز: لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشرب فشربه فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك، فأبى، فجرب الطعام على دابة من الدواب فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما.

وكان يوسف لما دخل السجن قال لأهله: إنى أعبر الأحلام، فقال أحد الفتيان لصاحبه: هلم فلنجرب هذا العبد العبرانى، فتقربا له وسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا، قال عبد الله بن مسعود: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، إنما كانا تحالفا أن يجربا علمه.

روى عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أرى عينيه فى المنام ما لم تريا كلف أن يعقد بين شعرتين يوم القيامة، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنه الآنك»

وقال قوم: كانا رأيا على صحة وحقيقة، قال مجاهد: لما رأى الفتيان يوسف قالا له: والله لقد أحببناك حين رأيناك فقال لهما يوسف: أنشدكما الله أن لا تحبانى، فإنه ما أحبنى أحد قط إلا دخل على من حبه بلاء.

لقد أحبتنى عمتى فدخل على فى حبها بلاء، ثم أحبنى أبى فدخل على بحبه بلاء ثم أحبتنى زوجة الملك هذا، فدخل على بحبها إياى بلاء، فلا تحبانى بارك الله فيكما، قال: فأبيا إلا حبه وألفته حيث كان، وجعلا يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله، وقد كانا رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف فقال له الساقى: أيها العالم إنى رأيت كأنى غرست حبة من عنب عليها ثلاث عناقيد من عنب فحبستها، وكان كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه.

وقال الخباز: إنى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة فإذا سباع الطير تنهش منه، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ يعنى بنو ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أى رأيتنى، ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ يعنى عنبا بلغة عمان، ويدل عليه قراءة ابن مسعود أعصر عنبا.

قال الأصمعى: أخبرنى المعتمر أنه لقى أعرابيا معه عنب، فقال: ما معك؟ قال: خمر، ومنه يقال للخل العنبى خل خمرة، وهذا على قرب الجوار، قال القتيبى: وقد تكون هى الخمر بعينها كما يقال: عصرت زيتا وإنما عصر زيتونا.

وقال الآخر: وهو مجلث: ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أخبرنا تفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أى العالمين الذين أحسنوا، قال الفراء وقال ابن إسحاق: إنا نراك من المحسنين إلينا إن فعلت ذلك وفسرت رؤيانا، كما يقال: افعل كذا وأنت محسن.

وروى سلمة بن نبط عن الضحاك بن مزاحم فى قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ما كان إحسانه؟ قال كان إذا مرض رجل فى السجن قام إليه، وإذا ضاق وسع له، وإن احتاج جمع له، وسأل له.

قتادة: بلغنا أن إحسانه كان يداوى مريضهم، ويعزى حزينهم، ويجتهد لربه.

وقيل: لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم وطال

حزنهم فجعل يقول: أبشروا واصبروا تؤجروا، وإن لهذا لأجراً وثواباً، فقالوا له: يا فتى بارك الله فيك، ما أحسن وجهك وأحسن خلقك وأحسن حديثك! لقد بورك لنا في جوارك بالحبس، إنا كنا في غير هذا منذ حبسنا لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والطهارة، فمن أنت يا فتى؟

قال: أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن إبراهيم خليل الله، فقال له عامل السجن: يا فتى والله لو استطعت لخليت سبيلك، ولكن ما أحسن جوارك وأحسن أخبارك! فكن في أي بيوت السجن شئت.

فكره يوسف عليه السلام أن يعبر لهما ما سألاه لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره، قال لهما: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في نومكما ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ في اليقظة.

هذا قول أكثر المفسرين، وقال بعضهم: أراد به في اليقظة فقال: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ تطعمانه وتأكلانه ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ بتفسيره قال: إنه أي طعام أكلتم ومتى أكلتم وكم أكلتم، فقالا له: هذا من فعل العرافين والكهنة، فقال لهما عليه السلام: ما أنا بكاهن وإنما ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ العلم ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ كررهم على التأكيد. وقيل: هم الأول جماد كقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٥) فصارت الأولى الملغاة والثانية ابتداء، وكافرون خبره.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ فتح ياؤه قوم وسكنها آخرون، (فما وفى) أمثالها فالجزم على الأصل والفتح على موافقة الألف استقلته لأنها أخت الفتحة وقرأها الأعمش أباى إبراهيم دعاى إلا فرارا مقصورا غير مهموز وفتح ياءهما مثل (. . . .)[1].

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما ينبغي ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من صلة، تقديره: أن نشرك بالله شيئًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد والعلم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فأراهما يوسف فطنته وعلمه ثم دعاهما إلى الإسلام، فأقبل عليهما وعلى أهل السجن وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها فقال إلزاما للحجة ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه كقوله تعالى لسكان الجنة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٤٤) ولسكان النار:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ (الأعراف: ٤٤).

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ آلهة شتى لا تنفع ولا تضر ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذى لا ثانى له ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ قد قهر كل شىء، نظيرها، قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٥٩) ثم بين الحجر والأصنام وضعفها فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أى ممن دون الله، وإنما قال ما تعبدون وقد ابتدأ الكلام بخطاب الاثنين لأنه قصد به جميع من هو على مثل حالهما من الشرك، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وذلك تسميتهم أوثانهم آلهةً وأربابًا من غير أن تكون تلك التسمية حقيقة، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة وبرهان ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاء والأمر والنهى، ﴿إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ نظيره ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (البينة: ٥)، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى دعوتكم إليه من التوحيد وترك الشرك، ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم فسر رؤياهما فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقى، ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ سيده يعنى الملك ﴿خَمْرًا﴾ وأما العناقيد الثلاثة التى رآها فإنها ثلاثة أيام، يبقى فى السجن ثم يخرجه الملك ويكون على ما كان عليه، ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ﴾ وأما السلال الثلاث التى رآها فإنها ثلاثة أيام، يبقى فى السجن ثم يخرجه الملك (فى) اليوم الرابع فيصلبه، ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

قال ابن مسعود: لما سمعا قول يوسف قالا: ما رأينا شيئًا إنما كنا نلعب، فقال يوسف عليه السلام: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أى فرغ من الأمر الذى عنه تسألان، ووجب حكم الله عليكما بالذى أخبرتكما به.

معلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبى رزين العقيلى قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت، وإن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، فأحسبه قال: لا تقصه إلا على ذى رأى»

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن إسماعيل بن محمد عن الحسن بن على بن عفان عن ابن نمير عن الأعمش عن يزيد الرقاشى عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا لأول عابرة».

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك، ﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾، علم ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الساقى، هذا قول أكثر المفسرين، وفسره قتادة على الظن الذى هو خلاف اليقين، وقال: إنما عبارة الرؤيا بالظن ويخلق الله ما يشاء، والقول الأول أولى وأشبه بحال الأنبياء، ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ سيدك يعنى الملك، وقل له: إن فى السجن غلاما محبوسا ظلما ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ يعنى أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه عز وجل حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بالمخلوق، وتلك

غفلة عرضت ليوسف من قبل الشيطان، ونسى لهذا ربه عز وجل الذى لو به استغاث لأسرع خلاصه ولكنه (غفل) وطال من أجلها حبسه.

وقال محمد بن إسحاق: الهاء راجعة فى قوله ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ إلى الساقى فنقول: أنسى الشيطان الساقى ذكر يوسف للملك وعلى هذا القول يكون معنى الآية: فأنساه الشيطان ذكره لربه كقوله: خوف ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٧٥) أى يخوفكم بأوليائه.

﴿فَلَبِثَ﴾ مكث، ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ اختلف العلماء فى معنى بضع فقال أبو عبيدة: هو ما بين الثلاثة إلى الخمسة، ومجاهد: ما بين الثلاث إلى التسع، الأصمعى: ما بين الثلاث إلى التسع، وابن عباس: ما دون العشرة، وزعم الفراء أن البضع لا يذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين وهو نيف ما بين الثلاثة إلى التسعة، وقال: كذلك رأيت العرب تعمل ولا يقولون: بضع ومائة ولا بضع وألف، وإذا كانت للذكران قيل: بضعة، وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين، قال وهب: أصاب أيوب عليه السلام البلاء سبع سنين، وترك يوسف فى السجن سبع سنين، وعذب بخت نصر فحول فى السباع سبع سنين.

روى يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله يوسف، لولا كلمته ما لبث فى السجن طول ما لبث»، يعنى قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ قال: ثم بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا أمر نزعنا إلى الناس، وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقى: اذكرنى عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك، فبكى يوسف عليه السلام وقال: يا رب إننى رابنى كثرة الطوى فقلت كلمة، فويل لإخوتى.

وحكى أن جبريل دخل على يوسف عليهما السلام، فلما رآه يوسف عرفه وقال: يا أخا المنذرين ما لى أراك بين الخاطئين؟، ثم قال له جبرئيل: يا طاهر الطاهرين، يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول: ما لك؟ أما استحييت منى إذ استغثت بالآدميين؟، فوعزتى لألبثنك فى السجن بضع سنين، قال يوسف: وهو فى ذلك على راض؟ قال: نعم، قال إذا لا أبالى.

وقال كعب: قال جبرئيل ليوسف: إن الله تعالى يقول: من خلقك؟ قال: الله، قال: فمن حببك إلى أبيك؟ قال: الله، قال فمن أنيسك فى البئر إذ دخلته عريان؟ قال: الله: قال: فمن نجاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمن علمك تأويل الرؤيا؟ قال: الله، قال فكيف استشفعت بآدمى مثلك؟ فلما انقضت سبع سنين، قال الكلبى: وهذه السبعة سوى الخمسة التى كانت قبل ذلك، ولما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هائلة وذلك أنه رأى، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف أى مهازيل

فابتلعت العجاف السمان، أكلهن حتى أتين عليهن فلم ير منهن شيئًا، وأرى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأفركت والتفت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فجمع السحرة والكهنة والحازة والقافة وقصها عليهم وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ أى الأشراف ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ﴾ فاعبروها، ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ تفسرون، والرؤيا: الحلم وجمعها رؤى.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ﴾ أى أحلام مختلطة مشتبهة، أهاويل بأباطيل، واحدها ضغث، وأصله الحزمة من الزرع والحشيش، قال الله تعالى ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ (ص: ٤٤) قال ابن مقبل:

خــود كأن فراشها وضعت أضغاث ريحان غداه شمال

وقال آخر:

بحمى ذمــــار حين قل مانعـــــه طاو كضغث الخلا فى البطن مكتمن

والحلم جمع الحلم وهو الرؤيا والفعل منه حلمت وأحلم، بفتح العين فى الماضى، وحلمتها فى الغابرة لها وحلما فعاد فحذف يا من حالم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ من القتل، ﴿مِنْهُمَا﴾: من الفتيين وهو الساقى، ﴿وَٱدَّكَرَ﴾: أى وتذكر حاجة يوسف قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: بعد حين، قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك (بعد أمة) أى بعد نسيان ويقال أمه، يأمه، أمها، إذا نسى، ورجل (ما هو) أى ذاهب العقل.

وأنشد أبو عبيدة:

أمهت وكنت لا أنسى حديثا كذاك الدهر يودى بالعقـول

وقرأ مجاهد: أمه، بسكون الميم وفتح الألف وهاء لخالصة، وهو مثل الأمة أيضًا وهما لغتان ومعناهما النسيان، ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾: أخبركم بتفسيره وما ترون ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾: فأطلقونى، وأذنوا لى أمضى وآتكم بتأويله وفى الآية اختصار تقديرها فأرسلون، فأتى السجن، قال ابن عباس لم يكن السجن فى المدينة فقال: ﴿يُوسُفُ﴾ يعنى يا يوسف، ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾: فيما عبرت لنا من الرؤيا والصديق الكثير الصدق ولذلك سمى أبو بكر صديقا، وفعيل للمبالغة والكثرة مثل الفسيق والضليل والشريب والخمير ونحوها.

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾: الآية فإن الملك رأى هذه الرؤيا.

﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أهل مصر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، تأويلها، وقيل: لعلهم يعلمون فضلك وعلمك، فـ ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف معلما ومعبرا: أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع

سنين مخصبات، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات السنون المهولة المجدبة، وذلك قوله تعالى: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أى كعادتكم، وقال: بعضهم أراد بجد واجتهاد وقرأ بعضهم دأبا بفتح الهمزة وهما لغتان، يقال دأبت فى الأمر أدأب دأبا ودأبا إذا اجتهد، قال الفراء: وكذلك كل حرف فتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذ كان ثانيه همزة أو عينا أو حاء أو خاء أو هاء.

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ فى (بذره) ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ وإنما أشار عليهم بذلك ليبقى ولا يفسد، ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ يعنى سبع سنين جدد بالقحط ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ يعنى يؤكل، فيهن ما أعددتم لهن من الطعام فى السنين الخصبة، وهذا كقول القائل:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم

والنهار لا يسهو والليل لا ينام، وإنما يسهى فى النهار وينام فى الليل. ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ أى: تخزنون وخزنون وتدخرون.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ﴾ وهذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن فى رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله عز وجل، كما قال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها، فقال: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أى يمطرون بالغيث وهو المطر، وقيل: يغاثون، من قول العرب استغثت بفلان وأغاثنى، ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ قرأ أهل الكوفة إلا عاصمًا تعصرون، بالتاء لأن الكلام كله بالخطاب، وقرأ الباقون بالياء ردا إلى الناس، قال أكثر المفسرين يعصرون العنب خمرا، والزيتون زيتا، والسمسم دهنا، وإنما أراد بعض الأعناب والثمار والحبوب كثرة النعم والخير، وروى الفرج بن فضالة عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: تعصرون تحلبون، وقال أبو عبيدة: ينجون من الجدب والكرب، والعصر: المنجى والملجأ، وقال أبو زبيد الطائى:

صاديا يستغيث غير مغاث ... ولقد كان عصرة المنجود

وأخبرنى أبو عبد الله بن فنجويه الدينورى، أبو على بن حبش المقرئ، أبو القاسم بن الفضل المقرئ، حدثنى أبو زرعة، حدثنى حفص بن عمر، حدثنى أبو جميلة عن عيسى بن عبيد قال: سمعت عيسى بن الأعرج يقرأها فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، برفع الياء قال: قلت: ما يعصرون؟ قال: المطر أى تمطرون وقرأ ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ (النبأ: ١٤).

❖ ❖ ❖

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ الآية، وذلك أن بنو لما رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه كالنهار، وعرف الملك أن الذى قال كائن، قال: ائتونى بالذى عبر رؤياى هذه، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ يوسف، وقال له: أخبر الملك أبى أن يخرج مع الرسول حتى يظهر عذره وبراءته ويعرف صحة أمره من قبل النسوة ﴿قَالَ﴾ للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى سيدك يعنى الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ والمرأة التى سجنت بسوء فعلها، وروى عبد الحميد بن صباح البرجمى ومحمد بن حبيب الشمونى عن أبى بكر بن عباس عن عاصم قرأ النسوة بضم النون.

﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إن الله تعالى بصنيعهن عالم، وقيل: معناه: إن سيدى قطفير العزيز عالم ببراءتى مما ترمينى به المرأة.

قال ابن عباس: فأخرج يوسف يومئذ قبل أن يسلم الملك لشأنه، فما زالت فى نفس العزيز منه شئ يقول: : هذا الذى راود امرأتى، قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى، ولقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حتى أتاه الرسول فقال ارجع إلى ربك، ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لأسرعت الإجابة ولبادرتهم الباب، وما ابتغيت الغفران كان حليمًا ذا أناة».

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ : الآية : فى الكلام متروك قد استغنى عنه (يدل) الكلام عليه، وهو: فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالة، فدعا الملك النسوة اللاتى قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن: ما خطبكن: ما شأنكن وأمركن ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، فأجبنه ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ معاذ الله، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أى ظهر وتبين والأصل فيه: حص وقيل: حصص، كما قيل: كبكبوا فى كبوا، وكفكف فى كف، وردد فى رد، وأصل الحص استئصال الشئ، يقال حص شعره إذا استأصله جزا، وقال أبو قيس ابن الأصلت:

قد حصت البيضة رأسى فما أطعم يوما غير تهجاع

وتعنى بالآن حصحص الحق: ذهب الباطل والكذب وانقطع وتبين الحق فظهر وبهر ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فتنته عن نفسه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فى قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى﴾.

فلما سمع ﴿ذَٰلِكَ﴾ يوسف، قال: ليعلم ذلك الذى مضى من ردى رسول الملك فى شأن النسوة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز.

﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ فى حال غيبتى عنه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ واتصل قول يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ بقول المرأة: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ من غير تبيين، وفرق بينهما لمعرفة السامعين معناه، كاتصال قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٣٤) بقول بلقيس: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ وكذلك قول فرعون لأصحابه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وهو متصل بقول الملأ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ (الشعراء: ٣٥).

روى أبو عبيدة عن الفراء أنه قال هذا من أغمض ما يأتى فى الكلام أنه حكى عن رجل شيئًا ثم يقول فى شئ آخر من قول رجل آخر لم يجر له ذكر.

وحدثنا الحسين بن محمد بن الجهمين، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن على قال: حدثنا على بن الحسين بن مجلز، قال الحسن بن على البغدادى، خلف بن تيم عن عطاء بن مسلم عن الخفاف عن جعفر بن نوفان عن ميمون بن مهران عن عبد الله بن عمر أن على بن أبى طالب أتى عثمان وهو محصور فأرسل إليه بالسلام وقال إنى قد جئت لأنصرك فأرسل إليه بالسلام وقال: جزاك الله خيراً، لا حاجة فى قتال القوم، فأخذ على عمامته عن رأسه، فنزعها فألقاها فى الدار ثم ولى وهو يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

قال أهل التفسير: لما قال يوسف هذه المقالة قال له جبرئيل: ولا حين هممت بها؟ فقال

عند ذلك يوسف ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ من الخطأ والزلل فاركبها، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالمعصية ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ يعنى إلا من رحمه ربى فعصم، و﴿مَا﴾ بمعنى مَن كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٣) أى من طاب، وقوله إلا استثناء منقطع عما قبله كقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ (يس: ٤٣، ٤٤) يعنى إلا أن يرحموا، فإن إذا كانت فى معنى المصدر تضارع ما.

﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلما تبين للملك (حق) يوسف وعرف أمانته وعلمه، قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أجعله خالصًا لى دون غيره، فلما جاء الرسول يوسف قال له: أجب الملك، الآن، فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعوة تعرف إلى اليوم وذلك أنه قال: اللهم اعطف عليهم بقلوب الأخيار وأنعم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار فى كل بلدة، فلما خرج من السجن كتب على باب السجن: (هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وحرقة الأصدقاء وشماتة الأعداء)، ثم اغتسل يوسف عليه السلام وتنظف من قذر السجن، ولبس ثيابا جددا حسانا، وقصد الملك.

قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال عليه السلام: حسبى ربى من دنياى، وحسبى ربى من خلقه، عز جاره، وجل ثناؤه ولا إله غيره.

ثم دخل الدار، فلما دخل على الملك قال: اللهم إنى أسالك عزك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره، فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية، فقال له: الملك، ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمى إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائى.

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لسانًا، فكلما كلم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأجابه الملك، فأعجب الملك ما رأى منه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فلما رأى الملك حداثة سنه، قال لمن عنده: إن هذا علم تأويل رؤياى ولم يعلمه السحرة والكهنة، ثم أجلسه على سريره، وقال له: إنى أحب أن أسمع رؤياى منك شفاها، فقال له يوسف: نعم، أيها الملك، رأيت سبع بقرات سمان شهب غر حسان، كشف لك عنهن النيل وطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبنًا، فبينا أنت تنظر إليهن وتتعجب من حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسا، فخرج من حمأته وحوله سبع بقرات عجاف شعث غبر مقلصات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف، ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسمان فافترسنهن افتراس السبع، فأكلن لحومهن

ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن وتشمشن مخهن.

فبينا أنت تنظر وتتعجب وإذا بسبع سنابل خضر وسبع أخر سود فى منبت واحد عروقهن فى الثرى والماء، فبينا أنت تقول فى نفسك: أنى هذا؟ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد، وأصولهن فى الماء إذ هبت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سودا متغيرات.

فهذا آخر ما رأيت من الدنيا ثم انتبهت من نومك مذعورا، فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجبا بأعجب مما سمعته منك، فما ترى فى رؤياى أيها الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع الزرع الكثير فى هذه السنين المخصبة وتبنى (الأهواء) والخزائن، فتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله ليكون قصبه وسنبله علفا للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومن حولها، وتأتيك الخلق من النواحى يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك، فقال الملك: ومن لى بهذا ومن يجمعه و(يبيعه) ويكفى الشغل فيه؟ فقال يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مجاز الآية: على خزائن أرضك وهى جمع الخزانة فدخلت الألف واللام خلفا من الإضافة، كقول النابغة: والأحلام غير كواذب.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾: كاتب حاسب، قتادة: حفيظ لما وليت، عليهم بأمره، ابن إسحاق: حفيظ لما استودعتنى، عليم بما وليتنى، شيبة الضبى: حفيظ لما استودعتنى وعليم بسنى المجاعة، الأعشى: حافظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من سألنى، الكلبى: حفيظ التقدير فى هذه السنين الجدبة، عليم بوقت الجوع متى يقع، وقيل: حفيظ لما وصل إلى عليم بحسابة المال، فقال له الملك: ومن أحق به منك؟ فولاه ذلك، وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ ذو مكانة ومنزلة، أمين على الخزائن، روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة فأقام عنده فى بيته سنة مع الملك».

روى سفيان عن أبى سنان عن عبد الله بن أبى الهذيل، قال: قال الملك ليوسف: إنى أريد أن تخالطنى فى كل شىء غير أنى آنف أن تأكل معى، فقال يوسف عليه السلام: أنا أحق أن آنف، أنا ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، فكان يأكل بعدئذ معه.

روى حمزة الريان عن أبى إسحاق عن أبى ميسرة، قال: لما رأى العزيز رأى يوسف وظرفه

دعاه وكان يتغدى ويتعشى معه دون غلمانه، فلما كان بينه وبين المرأة ما كان، قالت له مرة: فليتغد مع الغلمان، فقال: اذهب فتغد مع الغلمان فقال له يوسف فى وجهه استنكفت أن تأكل معى، أنا والله يوسف بن يعقوب نبى الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

روى مقاتل عن يحيى بن أبى كثير أن عمر بن الخطاب عرض على أبى هريرة الإمارة فقال: لا أفعل ولا أريدها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من طلب الإمارة لم يعدل» فقال عمر: لقد طلب الإمارة من هو خير منك، يوسف عليه السلام، قال: اجعلنى على خزائن الأرض.

روى ابن إسحاق عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه ورداه سيفه، ووضع له سريرا من ذهب، مكللا بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من إستبرق، وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشا وتسعون مرفقة، ثم أمره أن يخرج فخرج متوجا، لونه كالثلج ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه فى صفاء لون وجهه، فانطلق حتى جلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه.

قال ابن إسحاق: قال ابن زيد: وكان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلم سلطانه كله إليه، وجعل أمره وقضاءه نافذا، ثم إن قطفير هلك فى تلك الليالى فزوج الملك يوسف راحيل امرأة قطفير، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيرا مما كنت تريدين؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمنى فإنى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى، فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى، فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف ومنشا بن يوسف.

واستوسق ليوسف ملك مصر وأقام فيهم العدل فأحبه الرجال والنساء فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعنى أرض مصر: أى مكناه ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ أين نزل ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾: ويصنع فيها ما يشاء، والبواء المنزل يقال: بوأته فتبوأ، وقرأ أهل مكة: حيث نشاء بالنون ردا على قوله مكنا وبعده، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أى بنعمتنا.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال ابن عباس ووهب: يعنى الصابرين كصبره فى البئر، وصبره فى السجن وصبره فى الرق، وصبره عما دعته إليه المرأة، قال مجاهد وغيره: فلم يزل يدعو ويتلطف له حتى أسلم الملك وكثير من الناس فهذا فى الدنيا ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ (نعيم) الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ قال البحترى:

أما فى رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوسا (.......)[١]
أقام جميل الصبر فى الحبس برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن

❖❖❖

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ
ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ
تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ
لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢ فَلَمَّا
رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ
بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٦٦ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ
وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا
حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨
وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٩ فَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠
قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١﴾

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قالوا: فلما اطمأن بيوسف ملكه دخلت السنون المخصبة، ودخلت السنون المجدبة أصاب الناس الجوع وجاءت تلك السنون (. . . .)[١] وكان ابتداء القحط، بينا الملك ذات ليلة أصابه الجوع نصف الليل، وهتف الملك: يا يوسف الجوع الجوع فقال: هذا أول القحط، فلما دخلت السنة الأولى من سنى الجدب هلك فيها كل شيء أعدوه فى السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف، فباعهم أول سنة بالنقود حتى لم يبق فى مصر دينار ولا درهم إلا قبضه، وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق فى أيدى الناس منها شيء، وباعهم بالسنة الثالثة بالمواشى والدواب حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم بالسنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق عبد ولا أمة فى يد أحد منهم، ثم باعهم السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها، وباعهم السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، وباعهم السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا صار عبدا له، حتى قال الناس: تالله ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من هذا، ثم قال يوسف لفرعون كيف رأيت صنيع ربى فيما خولنى، فما ترى لى؟ قال الملك: الرأى رأيك، وإنما نحن لك تبع، قال: فإنى أشهد وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم.

وروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام فى تلك الأيام، فقيل له: تجوع وبيدك خزائن الأرض، فقال: أخاف أن شبعت أن أنسى الجائع، وأمر يوسف أيضًا طباخى الملك أن جعلوا الغداة نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، ويحسن إلى المحتاجين، ففعل الطهاة ذلك، ومن ثم جعلت الملوك غداءهم نصف النهار.

قالوا: وقصد الناس مصر من كل حدب يمتارون، فجعل يوسف لا يمكن أحدا منهم وإن كان عظيما بأكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس وتوسعا عليهم، وتزاحم الناس عليه، قالوا: وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس فأرسل بنيه إلى مصر للميرة، فأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالقربات من أرض فلسطين ثغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ﴾ يوسف وأنكروه لما أراد الله أن يبلغ يوسف فيما أراد.

قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه فى البئر وبين أن دخلوا مصر أربعين سنة فلذلك أنكروه

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقيل: إنه كان متزيا بزى فرعون مصر، عليه ثياب حرير، جالس على سريره، وفى عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج، فلذلك لم يعرفوه، وكان بينه وبينهم ستر ولذلك لم يعرفوه.

قال بعض الحكماء: المعصية تورث الكبرة، قال الله تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية، قال لهم: أخبرونى من أنتم؟ وما أمركم؟ فإنى أنظر شأنكم، قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار، قال: لعلكم عيون تنظرون عورة بلادى، قالوا: والله ما نحن جواسيس وإنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له: يعقوب، نبى من أنبياء الله، قال: وكم أنتم؟

قالوا: كنا اثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك فيها، وكان أحبنا إلى أبينا، فقال: فكم أنتم ههنا، قالوا: عشرة، قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا لأنه أخ الذى هلك من أمه، وأبونا يتسلى به، قال: فمن يعلم أن الذى تقولون حق؟ قالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا أحد، قال يوسف: فأتونى بأخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين، فأنا أرضى بذلك.

قالوا: إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه وإنا لفاعلون، قال: فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف وأبرهم به فخلفوه عنده، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يعنى حمل لكل رجل منهم بعيرا بعدتهم، ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ يعنى بنيامين، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أى لا أبخس الناس شيئًا وأتم لهم كيلهم فأزيد لكم حمل بعير فى خراجكم، وأكرم مثواكم، وأحسن إليكم، ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ المضيفين.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ ليس لكم عندى طعام أكيله لكم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ولا تقربوا بلادى بعد ذلك، وهو جزم يدل على النهى.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ نطلبه ونسأله أن يرسله معنا، قال ابن عباس: سنخدعه حتى نخرجه معنا، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ما أمرت به.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ أى لغلمانه الذين يعملون بالطعام، قرأ الحسن وحميد ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وحفص، لفتيانه بالألف والنون وهو اختيار أبى عبيدة، وقال: هى فى مصحف عبد الله كذلك، وقرأ الباقون لفتيته بالتاء من غير ألف وهما لغتان مثل الصبيان والصبية.

﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أى طعامهم، قال قتادة: أوراقهم، الضحاك عن ابن عباس قال: كانت

النعل والأدم، ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ فى أوعيتهم وهى جمع رحل، والجمع القليل منه الرحيل، قال ابن الأنبارى: يقال للوعاء: رحل وللمسكن رحل.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ انصرفوا، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى واختلف العلماء فى السبب الذى فعل يوسف من أجله، فقال الكلبى: تخوف يوسف أن لا يكون عند أبيه من الورق فلا يرجعون مرة أخرى، وقيل: خشى أن يضر أخذه ذلك منهم بأبيه، إذ كانت السنة سنة جدب وقحط، فأحب أن يرجع إليه، وإنما أراد أن يتسع به أبوه، وقيل: رأى لو أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه فرده عليهم من حيث لا يعلمون تكرما وتفضلا.

وقيل: فعل لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة ولا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: أبدا لهم كرمة فى رد البضاعة وتقديم الضمان فى البر والإحسان ليكون أدعى لهم إلى العود إليه طمعا فى بره.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا﴾ قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة، لو كان رجلا من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته، قال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملكًا بمصر فاقرئوه منى السلام وقولوا له: إن أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: إنه عند ملك مصر وأخبروه بالقصة، فقال: ولم أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال: إنكم جواسيس عندما كلمناه بلسان العبرانيين، وقصوا عليه القصة.

﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلْ﴾ قرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائى يكتل بالياء يعنى يكتل لنفسه هو كما كنا نكتل نحن، وقرأ الآخرون بالنون بمعنى نكتل نحن، واختاره أبو عبيد ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ قَالَ﴾ يعقوب، ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ﴾ قرأ ابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى: حافظا بالألف على التمييز والتفسير، كما يقال هو خير رجلا، ومجاز الآية خيركم حافظا فحذف الكاف والميم، ويدل عليه أنها مكتوبة فى مصحف عبد الله: والله خير الحافظين.

وقرأ الآخرون حفظا بغير الألف على المصدر بمعنى خيركم حفظا واختلف فيه عن عاصم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ﴾ الذى حملوه من مصر ﴿وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾ ثمن الطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ﴾ أى ماذا نبغى؟ وأى شىء نطلب وراء هذا؟ أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن، أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم، و ﴿مَا﴾ استفهام فى موضع نصب ويكون معناه جحدا كأنهم قالوا: لسنا نريد منكم دراهم.

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ونشترى لهم الطعام فنحمله إليهم، يقال مار أهله يمير ميرا فهو ماير، إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده فى مثله امتار يمتار امتيارا، قال الشاعر:

بعثتك مائرا فمكثت حولا متى يأتى غياثك من تغيث

وقال آخر:

أتى قرية كانت كثيرا طعامها كعفر التراب كل شىء يميرها

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ﴾ على أحمالنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لنا من أجله ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾: لا مؤونة فيه ولا مشقة، وقال مجاهد: كيل بعير يعنى: حمل حمار، قال: وهى لغة يقال للحمار بعير، ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ تعطونى ﴿مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعنى تحلفوا لى بحق محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين أن لا تغدروا بأخيكم ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ وإنما دخلت فيه اللام لأن معنى الكلام اليمين ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تهلكوا جميعا، قاله مجاهد، وقال قتادة: إلا أن يغلبوا حتى لا يطيقوا ذلك.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أعطوه عهودهم، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: حلفوا له بحق محمد ﷺ ومنزلته من ربه ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أى شاهد وحافظ بالوفاء، وقال القتيبى: كفيل، وقال كعب: لما قال يعقوب: فالله خير حافظا، قال الله جل ذكره: وعزتى لأردن عليك كليهما بعدما توكلت على، وقال لهم يعقوب لما أرادوا الخروج (هذا)، ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوى جمال وهيئة وصور حسان وقامات ممتدة، وكانوا ولد رجل واحد، وأمرهم أن يفترقوا فى دخولها ثم، قال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ علم عليه السلام أن المقدور كائن، وأن الحذر لا ينفع من القدر، وما أغنى عنكم من الله من شىء ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وإلى الله فليفوض أمورهم المفوضون.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ وكان لمصر أربعة أبواب فدخلوها من أبوابها كلها، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ صدق الله تعالى يعقوب فيما قال ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ حزازة وهمة ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا﴾: أى مما ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾ يعنى لتعليمنا إياه، قاله قتادة، وروى سفيان عن (ابن) أبى عروة قال: إنه العامل بما علم، قال سفيان: من لا يعمل لا يكون عالما، وقيل: إنه لذو حظ لما علمناه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يعلم يعقوب، أى لا يعرفون مرتبته فى العلم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قالوا: هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به، قد جئناك به فقال لهم:

أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندى، ثم أنزلهم فأكرم منزلهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحيدا، فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه، فقال لهم يوسف عليه السلام: لقد بقى هذا أخوكم وحيدا، فأجلسه على مائدته فجعل يؤاكله.

فلما كان الليل أمر لهم بمثل أى فرش، فقال: لينم كل أخوين منكم على مثال، فلما بقى بنيامين وحده، قال يوسف عليه السلام: هذا ينام معى على فراشى فبات معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم خده حتى أصبح فجعل روبيل يقول: ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح قال لهم: إنى أرى هذا الرجل الذى جئتم به ليس معه ثان فسأضمه إلى فيكون منزله معى، ثم أنزلهم (معه)، وأجرى عليهم الطعام والشراب وأنزل أخاه لأمه معه فذلك، قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ فلما خلا به قال له: ما اسمك؟ قال: بنيامين.

قال ابن من يا بنيامين؟ قال: ابن المثكل، وذلك أنه لما ولد هلكت أمه، قال: وما اسمها؟ قال: راحيل بنت لاوى بن ناحور، قال: فهل لك بنون؟ قال: نعم، عشرة بنين وقد اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى من أمى هلك، قال: لقد اضطرك إلى ذاك حزن شديد، قال: فما سميتهم؟ قال: بالعا وأحيرا وأثكل وأحيا وكنر ونعمان وأدر وأرس وحيتم وميثم، قال: فما هذه؟ قال: أما بالعا فإن أخى قد ابتلعته الأرض، وأما أحيرا فإنه بكر أبى لأمى، وأما أثكل فإنه كان أخى لأبى وأمى وسنى، وأما كنر فإنه خير حبيب كان، وأما نعمان فإنه ناعم بين أبويه وأما أدر فإنه كان بمنزلة الورد فى الحسن، قال: وأما أرس فإنه كان بمنزلة الرأس من الجسد، وأما حيتم فأعلمنى أنه حى، وأما ميثم فلو رأيته قرت عينى.

فقال يوسف: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ فقال بنيامين: ومن يجد أخا مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه وعانقه و﴿قَالَ﴾ له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لشىء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا ولا تعلمهم شيئًا مما علمت.

وقال عبد الصمد بن معقل: سمعت وهب بن منبه وسئل عن قول يوسف لأخيه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾، فقيل كيف أخاه حين أخذ بالصواع وقد كان أخبره أنه أخوه، وأنتم تزعمون أنه لم يزل متنكرا لهم يكابرهم حتى رجعوا.

فقال: إنه لم يعترف له بالنسبة ولكنه قال: أنا أخوك مكان أخيك الهالك، ومثله قال الشعبى، قال: لم يقل له: أنا يوسف، ولكن أراد أن يطيب نفسه.

ومجاز الآية أى: أنا أخوك بدل أخيك المفقود فلا تبتئس بما كانوا يعملون فلا تشتك ولا تحزن لشىء سلف من إخوتك إليك فى نفسك وفى أخيك من أمك، وما كانوا يفعلون قبل اليوم بك، ثم أوفى يوسف لإخوته الكيل وحمل لهم بعيرا، وحمل لبنيامين بعيرا باسمه كما حمل لهم، ثم أمر بسقاية الملك فجعل فى رحل بنيامين، قال السدى: جعل السقاية فى رحل أخيه، والأخ لا يشعر.

قال كعب: لما قال له: إنى أنا أخوك قال بنيامين: فأنا لا أفارقك، قال يوسف (عليه السلام): قد علمت (عنهم) والدى بى، فإذا حبستك ازداد غمه، فلا يمكننى هذا إلا أن أشهرك بأمر وأنسبك إلى ما لا يجمل بك، قال: لا أبالى فافعل ما بدا لك فإنى لا أفارقك.

قال: فإنى أدس صاعى هذا فى رحلك ثم أنادى عليك بالسرقة لجهازى ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك، قال: فافعل، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أى لما قضى لهم حاجتهم، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾: وهى المشربة التى كان يشرب بها الملك، قال ابن زيد: وكان كأسا من ذهب فيما يذكرون، وقال ابن إسحاق: هو شىء من فضة، عكرمة: مشربة من فضة مرصعة بالجواهر، جعلها يوسف مكيلا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب بها، سعيد بن جبير: هو (المقياس) الذى يلتقى طرفاه وكان يشرب بها الأعاجم وكان للعباس منها واحدة فى الجاهلية، والسقاية والصوع واحد، ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ فى متاع بنيامين، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ومضوا ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد، ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ هى القافلة التى فيها الأحمال، قال الفراء: لا يقال عير إلا لأصحاب الإبل، وقال مجاهد كانت العير حميرا.

﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ قفوا، فوقفوا، فلما انتهى إليهم الرسول قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعله بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قال: سقاية الملك، فقال: إنه لا يتهم عليها غيركم، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ عطفوا على المؤذن وأصحابه: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ ما الذى ضل منكم؟ فالفقدان ضد الوجود، والمفقد: الطلب.

❖ ❖ ❖

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟

جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ واختلف القراء فى قراءة ذلك، فروى قثم عن داود بن أبى هند عن مولى بنى هاشم عن أبى هريرة أنه قرأ صاع الملك، وقرأ أبو رجاء صوع، وقرأ يحيى بن معمر صوغ بالغين، (فإنه) وجهنا إلى مصر، صاغ يصوغ صوغا، وجمع الصواع صيعا، وجمع صاع أصواع.

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيل يقوله المؤذن، وأصل الزعيم: القائم بأمر القوم، ويقال للرئيس زعيم، يقال: زعم، زعامة وزعاما، قالت ليلى الأخيلية:

حتى إذا رفـع اللواء رأيتـه ... تحت اللواء على الخميس زعيما

و ﴿قَالُوا۟﴾ يعنى إخوة يوسف، ﴿تَٱللَّهِ﴾ أى والله، أصلها الواو قلبت تاء كما فعل القراء فى التقوى والتكلان والتراب والتخمة، وأصلها الواو، والواو فى هذه الحروف كلها حرف من الأسماء، وليست كذلك فى تالله لأنها إنما هى واو القسم وإنما جعلت بالكثرة ما جرى على ألسن العرب، وهم زعموا أن الواو من نفس الحرف فقلبوها تاء، ووضعت فى هذه الكلمة الواحدة دون غيرها من أسماء الله تعالى.

﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ فإن قيل: من أين علموا ذلك؟ الجواب عنه: قال الكلبي قال: إن فتى يوسف وهو المؤذن قال لهم: إن الملك ائتمنني بالصاع وأخاف عقوبة الملك، فلى اليوم عنده مقولة حسنة، فإن لم أجده تخوفت أن تسقط منزلتى وأفتضح فى مصر، قالوا: لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض إنا منذ قطعنا هذا الطريق لم ننزل عند أحد ولا أفسدنا شيئًا وسلوا عنا من مررنا به، هل ضررنا أحدا؟ أو هل أفسدنا شيئًا؟ وإنا قد رددنا الدراهم كما وجدنا فى رحلنا، فلو كنا سارقين ما رددناها.

قال فتى يوسف: إنه صواع الملك الأكبر الذى يكتال فيه، وقال بعضهم: إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا معروفين أنهم لا يتناولون ما ليس لهم، وقيل: إنهم كانوا حين دخلوا مصر كموا أفواه دوابهم لكى لا تتناول من حروث الناس.

فإن قيل: كيف استجاز يوسف تسميتهم سارقين؟

قيل: فيه جوابان: أحدهما أنه أضمر فى نفسه أنهم سرقوه من أبيه، والآخر أنه من قول المنادى لا من أمر يوسف والله أعلم.

﴿قَالُواْ﴾ يعنى المنادى وأصحابه، ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ ثوابه قال الأخفش: إن شئت رددت الكناية إلى السارقين، وإن شئت رددتها إلى السرق ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فى قولكم: «ما كنا سارقين».

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ﴾ أن يسلم سرقته إلى المسروق منه، ويسترق سنة، وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الفاعلين ما ليس لهم فعله من أخذ مال غيره سرقا، وأما وجه الكلام فقال الفراء من فى معنى جزاؤه، ومن معناها الرفع بالهاء التى جاءت وجواب الجزاء الفاء فى قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ ويكون قوله: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ الثانية مرتفع بالمعنى المجمل فى الجزاء وجوابه، ومثله فى الكلام أن يقول: ماذا لى عندك؟ فيقول: لك عندى أن بشرتنى فلك ألف درهم كأنه قال: لك عندى هذا، وإن شئت الجزاء مرفوعا بمن خاصة وصلتها كأنك قلت: جزاؤه الموجود فى رحله، كأنك قلت: ثوابه أن يسترق (فى المستأنف) أيضًا فقال: فهو جزاؤه، وتلخيص هذه الأقاويل: جزاؤه جزاء الموجود فى رحله، أو جزاؤه الموجود فى رحله. تم الكلام.

وقال مبتدئا ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ فقال الرسول عند ذلك: إنه لا بد من تفتيش أمتعتكم ولستم سارقين حتى أفتشها فانصرف بهم إلى يوسف، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ لإزالة التهمة ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وكان فتش أمتعتهم واحدا واحدا، قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر فى وعاء

إلا استغفر الله تأثمًا مما قذفهم به، حتى إذا لم يبق إلا الغلام، قال: ما أظن هذا أخذ شيئًا، فقال إخوته: والله لا نتحرك حتى تنظر فى رحله، فإنه أطيب من نفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وإنما أتت الكناية فى قوله استخرجها والصواع مذكر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ لأن رده إلى السقاية كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾، ثم قال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١١) ردها إلى الجنة وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾، ثم قال: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ (النساء: ٦)، أى من الميراث.

وقيل: رد الكناية إلى السرقة.

وقيل: إنما أنثها لأن الصواع يذكر ويؤنث فمن أنثه قال: ثلاث أصوع مثل أدود ومن ذكره قال: ثلاثة أصواع مثل ثلاثة أثواب.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعنى كما فعلوا فى الابتداء بيوسف فعلنا بهم لأن الله تعالى حكى عن يعقوب أنه قال ليوسف﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ فالكيد جزاء الكيد، قال ابن عباس: كذلك كدنا أى صنعنا، ربيع: ألهمنا، ابن الأنبارى: أردنا.

ومعنى الآية: كذلك صنعنا ليوسف حتى ضم أخاه إلى نفسه وفصل بينه وبين إخوته بعلة كادها الله له فاعتل بها يوسف، ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ إليه ويضمه إلى نفسه﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ فى حكمه وقضائه، قاله قتادة.

وقال ابن عباس: فى سلطان الملك، وأصل الدين: الطاعة، وكان حكم الملك فى السارق أن يسترق ويغرم ضعف ما سرق للمسروق منه، وقال الضحاك: كان الملك إذا أتى بسارق كشف عن فرجتيه وسمل عينيه، إلا أن يشاء الله، يعنى أن يوسف لم يكن ليتمكن من أخذ أخيه بنيامين من إخوته وحبسه عنده فى حكم الملك لولا ما كدنا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك وهو ما أجراه على ألسنة إخوته أن جزاء السارق الاسترقاق فأقروا به وأبدوا من تسليم الأخ إليه، وكان ذلك مراد يوسف عليه السلام.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالحكم كما رفعنا يوسف على إخوته.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم، قال قتادة والحسن: والله ما من عالم على ظهر الأرض إلا فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهى العلم إلى الله الذى علمه ومنه بدأ وإليه يعود، وفى قراءة عبد الله: (وفوق كل عالم عليم).

وعن محمد بن كعب القرظى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قضى بقضية فقال رجل من ناحية المسجد: يا أمير المؤمنين ليس القضاء كما قضيت، قال فكيف هو؟ قال: كذا وكذا قال: صدقت وأخطأت، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

قالوا: فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رءوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين وقالوا: يا بنيامين أى شيء الذى صنعت، فضحتنا وسودت وجوهنا، يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت الصواع؟

فقال بنيامين: بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء، ذهبتم بأخى فأهلكتموه بالبرية، وضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع الدراهم فى رحالكم.

ثم قالوا ليوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾: من أبيه وأمه، من قبل، واختلف العلماء فى السرقة التى وصفوا بها يوسف، فقال سعيد بن جبير وقتادة: سرق يوسف صنمًا لجده أبى أمه فكسره وألقاه فى الطريق، الكلبى: بعثته أمه حين أرادت أن ترتحل من حران مع يعقوب إلى فلسطين والأردن، أمرته أن يذهب فأخذ جونة فيها أوثان لابنها (أى) ذهب فيأتيها بها لكى إذا فقدها أبوها أسلم، فانطلق فأخذها وجاء بها إلى أمه، فهذه سرقته التى يعنون.

وعن ابن جريج: كانت أم يوسف أمرته أن يسرق صنمًا لخاله يعبده وكانت مسلمة، وروى أبو كريب عن أبى إدريس قال سمعت أبى قال: كان أولاد يعقوب على طعام ونظر يوسف إلى عرق فخبأه فعيروه بذلك، وأخبر عبد الله بن السدى، عن أبيه عن مجاهد أن يوسف جاءه سائل إلى البيت فسرق (جبة) من البيت فناولها السائل فعيروه بها، وقال سفيان بن عيينة: سرق يوسف دجاجة من الطير التى كانت فى بيت يعقوب فأعطاها سائلاً.

كعب: كان يوسف فى المنزل وحده فأتاه سائل وكان فى المنزل عتاق وهى الأنثى من الجدى، فدفعها إلى السائل من غير أمر أبيه. وهب: كان يخبئ الطعام من المائدة للفقراء.

هشام عن سعد بن زيد بن أسلم فى هذه الآية قال: كان يوسف عليه السلام مع أمه عند خال له، قال: فدخل وهو صبى يلعب وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب، فذلك تعيير إخوانه إياه.

وروى ابن إسحاق عن مجاهد بن جويبر عن الضحاك قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى أن عمته بنت إسحاق وكانت أكبر أولاد إسحاق، وكانت لها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر من أختانها ممن وليها كان له سلم لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء، وكانت راحيل أم يوسف قد ماتت فحضنته عمته وأحبته حبًا شديداً، وكانت لا تصبر عنه.

فلما ترعرع وبلغ سنوات وقعت محبة يعقوب عليه فأتاها يعقوب فقال: يا أختاه سلمى إلى يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة، فقالت: لا، فقال: والله ما أنا بتاركه.

قالت: فدعه عندى أيامًا أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه، ففعل، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وهو صغير ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها فالتمسوها فلم توجد فقالت: اكشفوا أهل البيت، فكشفوهم فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لسلم لى أصنع فيه ما شئت، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال: إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، فهذا الذى قال إخوة يوسف: إن سرق فقد سرق أخ له من قبل، وهذا هو المثل السائر الذى يقال عذره شر من جرمه.

﴿فَأَسَرَّهَا﴾ فأضمرها، ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ وإنما أنث الكناية لأنه عنى بها الكلمة والمقالة وهى قراءة.

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أى شر منزلاً عند الله ممن رميتموه بالسرقة فى صنيعكم بيوسف ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تقولون، قتادة: تكذبون.

وقالت الرواة: لما دخلوا على يوسف واستخرج الصواع من رحل بنيامين دعا يوسف بالصواع فنقر فيه ثم أدناه من أذنه ثم قال: إن صواعى هذا ليخبرنى أنكم كنتم اثنى عشر رجلاً وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه، فلما سمعها بنيامين قام فسجد ليوسف ثم قال: أيها الملك سل صواعك هذا عن أخى أين هو فنقره ثم قال: هو حى وسوف تراه قال: فاصنع فى ما شئت فإنه إن علم بى فسوف يستنقذنى، قال: فدخل يوسف فبكى، ثم توضأ وخرج فقال بنيامين: أيها الملك إنى أرى أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذى سرقه فجعله فى رحلى فنقره فقال: إن صواعى هذا عصانى وهو يقول: كيف تسألنى عن صاحبى وقد رأيت مع من كنت؟

قال: وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا فغضب روبيل، وقال: والله أيها الملك لتتركنا أو لأصيحن صيحة لا تبقى بمصر امرأة حامل إلا ألقت ما فى بطنها وقامت كل شعرة فى جسد روبيل فخرجت من (. . . .)[1] فمسه فذهب غضبه، فقال روبيل من هذا؟ إن فى هذا البلد لبذرًا من بذر يعقوب.

فقال يوسف: ومن يعقوب؟ فغضب روبيل وقال: يا أيها الملك لا يذكر يعقوب فإنه

(١) بياض بالأصل المخطوط.

سرى الله ابن ذبيح الله ابن خليل الرحمن، قال يوسف (اشهد) إذا أنت كنت صادقًا، احتبس يوسف أخاه وصار بحكم أخوته أولى به منهم، فرأوا أنه لا بد لهم من تخليصه منه سألوه تخليته ببدل منهم يعطونه إياه، ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا﴾: متعلقًا بحبه يعنون يعقوب، ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾: بدلاً منه ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فى أفعالك قيل: إلينا، وقال ابن إسحاق: يعنون إن فعلت ذلك كنت من المحسنين.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله وهو نصب على المصدر، وكذلك تفعل العرب فى كل مصدر وضع موضع الفعل، تقول: حمداً لله وشكراً لله، بمعنى أحمد الله وأشكره ﴿أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل من سرق تحرزاً من الكذب، ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ إن أخذنا بريئًا بسقيم.

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾ يعنى أيسوا من يوسف من أن يجيبهم إلى ما سألوه ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ أى خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم، والنجى لقوم يتناجون وقد يصلح للواحد أيضًا، قال الله فى الواحد: ﴿وَقَرَّبۡنَـٰهُ نَجِيّٗا﴾ (مريم: ٥٢)، وقال فى الجمع: ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ وإنما جاز للواحد والجمع لأنه مصدر أبدل نعتًا كالعدل والزور والفطر ونحوها، وهو من قول القائل نجوت فلانًا أنجوه نجيًا، ومثله النجوى يكون اسمًا ومصدراً، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ (الإسراء: ٤٧) أى يتناجون وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ﴾ (المجادلة: ٧)، وقال فى المصدر ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ﴾ (المجادلة: ١٠)، وقال الشاعر:

بنى بدا خب نجوى الرجال فكن عند سرك خب النجى

والنجوى والنجى فى هذا البيت بمعنى المناجاة، وجمع النجى أنجية، قال لبيد:

وشهدت أنجية الأفاقة عاليًا كعبى وأرداف الملوك شهود

وقال آخر:

إنى إذا مــا القوم كانوا أنجيــه واضطربت أعناقهم كالأرشيه

هناك أوصنى ولا توصى بيه

﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ يعنى فى العقل والعلم لا فى السن وهو شمعون، وكان رئيسهم، قاله مجاهد، وقال قتادة والسدى والضحاك وكعب: هو روبيل وكان أسنهم وهو ابن خالة يوسف، وهو الذى نهى إخوته عن قتله، وهب والكلبى: يهودا، وكان أعقلهم، محمد بن إسحاق: لاوى.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عهداً من الله ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِى يُوسُفَۖ﴾

اختلفوا فى محل ما فقال بعضهم: هو نصب إيقاع العلم عليه يعنى: ألم تعلموا من قبل فعليكم بهذه تفريطكم فى يوسف؟ وقيل: هو فى محل الرفع على الابتداء، وتمام الكلام عند قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعنى: ومن قبلى هذا تفريطكم فى يوسف، فيكون ما مرفوعًا يخبر (. . . .) الصفة وهو قوله: ومن قبل، وقيل: ما صلة، ويعنى ومن هذا فرطتم فى يوسف أى قصرتم وضيعتم، وقيل: رفع على الغاية.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ التى أنا بها وهى أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالخروج منها ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروج منها وترك أخى بنيامين بها أو معه، وإلا فإننى غير خارج منها، وقال أبو صالح: أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب من حبس أخى بنيامين.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ أفضل وأعدل من يفصل بين الناس.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ يقوله الآخر فى المحتبس بمصر لإخوته ﴿فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ﴾ بنيامين ﴿سَرَقَ﴾ الصواع، وقرأ ابن عباس والضحاك: (سُرِّق) بضم السين وكسر الراء وتشديده على وجه ما لم يسم فاعله، يعنى أنه نسب إلى السرقة مثل: خونته وفجرته (. . . .) أى نسبته إلى هذه الخلال.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يعنى ما كانت منا شهادة فى عمرنا على شىء إلا بما علمنا وليست هذه شهادة منا إنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم، وقال ابن إسحاق: معناه: وما قلنا: إنه سرق إلا بما علمنا، قال: وكان الحكم عند الأنبياء يعقوب وبنيه أن يسترق السارق بسرقته.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا، فلو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا، وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس يعنون: أنه سرق ليلاً وهم نيام والغيب هو الليل بلغة حمير، وقال ابن عباس: لم نعلم ما كان يعمل فى ليله ونهاره ومجيئه وذهابه، عكرمة ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾ لعلها دست بالليل فى رحله.

وقيل معناه: قد أُخذت السرقة من رحله ونحن ننظر إليه، ولا علم لنا بالغيب فلعلهم سرقوه ولم يسرق، وهذا معنى قول أبى إسحاق، وقال ابن كيسان: لم نعلم أنك تنصاب كما أصبت بيوسف، ولو علمنا ذلك لم (نأخذ) فتاك ولم نذهب به.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ يعنى أهل القرية وهى مصر، ابن عباس: قرية من قرى مصر.

﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ يعنى القافلة التى كنا فيها وكان معهم قومٌ من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام، قال ابن إسحاق: قد عرف الأخ المُحتبس بمصر أن إخوته أهل تهمة عند

أبيهم لما صنعوا فى أمره فأمرهم أن يقولوا هذا الاسم، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ فى الآية اختصار معناها، فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ذلك، فقال: بل سولت أى زينت ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ أردتموه ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ يوسف وبنيامين وأخيهما المقيم بمصر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بحزنى ووجدى على فقدهم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فى تدبير خلقه.

❖ ❖ ❖

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ وذلك أن يعقوب لما بلغه خبر بنيامين تتام حزنه وبلغ جهده وجدد حزنه على يوسف، فأعرض عنهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ يا حزنى ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وقال مجاهد: يا جزعاه، والأسف: شدة الحزن والندم.

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أى مكظوم مملوء من الحزن، ممسك عليه لا يبثه، ومنه كظم الغيظ، عطاء الخراسانى: ﴿كَظِيمٞ﴾: حزين، مجاهد: مكبود، الضحاك: كميد، قتادة: تردد حزنه فى جوفه، ولم يتكلم بسوء، ولم يتكلم إلا خيراً، ابن زيد: بلغ به الجزع حتى كان لا يكلمهم، ابن عباس: مهموم، مقاتل: مكروب، وكلها متقاربة.

سعيد بن جبير: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يعط أمة من الأمم إنا لله وإنا

إليه راجعون عند المصيبة إلا أمة محمد، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه لم يسترجع إنما قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؟».

وأخبرنى ابن فنجويه (قال: حدثنا أبو بكر بن مالك) القطيعى قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، (قال: حدثنى) أبى، عن هشام (بن القاسم) عن الحسن، قال: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عامًا لا تجف عينا يعقوب، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

﴿قَالُواْ﴾ يعنى ولد يعقوب ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أى لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبه، يقال: ما فتئتُ أقول ذلك، وما فتأتُ أو أفتؤ، فتأً وفتوًا، قال أوس بن حجر:

فما فتئت حى كأن غبارها ... سرادق يوم ذى رياح ترفع

وقال آخر:

فما فتئت خيل تثوب وتدّعى ... ويلحق منها لاحق وتقطع

أى فما زالت.

وحذف «لا» قوله فتئ كقول امرئ القيس:

فقلتُ يمين الله أبرحُ قاعدًا ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى: لا أبرح.

وقال خداش بن زهير:

وأبرحُ ما أدام الله قومى ... بحمد الله منتطقًا مجيدا

أى لا أبرح ومثله كثير.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ اختلف ألفاظ المفسّرين فيه، فقال ابن عباس: دنفًا، العوفى: يعنى الهد فى المرض، مجاهد: هو ما دون الموت، يعنى قريبًا من الموت، قتادة: هرمًا، الضحاك: باليًا مدبرًا، ابن إسحاق: فاسدًا لا عمل لك، ابن زيد: الحرض: الذى قد رد إلى أرذل العمر حتى لا يعقل، الربيع بن أنس: يابس الجلد على العظم، مقاتل: مدنفًا، الكسائى: الحرض: الفاسد الذى لا خير فيه، الأخفش: يعنى ذاهبًا، المخرج: ذائبًا من الهم، الفراء عن بعضهم: ضعيفًا لا حراك بك، الحسن: كالشن المدقوق المكسور، علام: تعبًا مُضنى، ابن الأنبارى: هالكًا فاسدًا، القتيبى: ساقطًا، وكلها متقاربة.

ومعنى الآية: حتى يكون دنف الجسم مخبول العقل، وأصل الحرض: الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرم، ومنه قول العَرجى:

إنى امرؤ لجّ بى حبٌّ فأحرضنى حتى بليتُ وحتى شفنى السقم

يقال منه : رجل حرض وامرأة حرض ورجلان وامرأتان حرض ، ورجال ونساء حرض يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، والمذكر والمؤنث ، لأنه مصدر وضع موضع الاسم ، ومن العرب من يقول للذكر حارض وللأنثى حارضة ، فإذا وصف بهذا اللفظ ثنى وجمع وأنث ، ويقال : حرض ، يحرض ، حرضًا وحراضة فهو حرض ، ويقال : رجل محرض وأنشد فى ذلك :

طلبته الخيل يومًا كاملا ولو آلفته لأضحى مُحرضا

وقال امرؤ القيس :

أرى المرء ذا الأذواد يصبح مُحرضًا كإحراض بكر فى الديار مريض

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾ أى الميتين ، وقال يعقوب عند ذلك لما رأى غلظتهم وسوء لفظهم ، ﴿إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إليكم ، قال المفسرون دخل على يعقوب جار له فقال : يا يعقوب ما لى أراك قد انهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من مصاب يوسف ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب أتشكونى إلى خلقى؟ قال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لى ، قال : فإنى قد غفرتها لك وكان بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله .

وقال حبيب بن أبى ثابت : بلغنى أن يعقوب كبر حتى سقط حاجباه على عينيه ، وكان يرفعهما بخرقة ، فقال له رجل : ما بلغ بك ما أرى؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان .

فأوحى الله إليه : يا يعقوب تشكونى ، فقال : خطيئة أخطأتها فاغفرها لى .

وعن عبد الله بن قميط ، قال : سمعت أبى يقول : بلغنا أن رجلاً قال ليعقوب عليه السلام : ما الذى أذهب بصرك؟ قال : حزنى على يوسف ، قال : فما الذى قوس ظهرك؟ قال : حزنى على أخيه ، فأوحى الله عز وجل إليه : يا يعقوب أتشكونى؟ وعزتى وجلالى لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما ، وإنما وجدت عليكم أنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين فلم تطعموه شيئًا ، وأن أحب خلقى إلىّ الأنبياء ثم المساكين ، فاصنع طعامًا وادع إليه المساكين ، فصنع طعامًا ، ثم قال : من كان صائمًا فليفطر الليلة عند آل يعقوب .

وروى أبو عمران عن أبى الخلد ووهب بن منبه ، قالا : أوحى الله تعالى إلى يعقوب : تدرى لم عاقبتك وغيبت عنك يوسف وبنيامين؟ قال : لا إلهى ، قال : لأنك شويت عتاقًا وقترت على جارك ، وأكلت ولم تطعمه ، ويقال : إن سبب ابتلاء يعقوب بفقد يوسف ، أنه

كانت له بقرة ولها عجول فذبح عجولها بين يديها، وإنما كانت تخور فلم يرحمها، فأخذه الله به وابتلاه بفقد يوسف أعزّ ولده.

وقال وهب بن منبه والسدى وغيرهما: أتى جبرائيل يوسف وهو فى السجن، فقال: هل تعرفنى أيها الصديق؟ قال: أرى صورة طاهرة وريحًا طيبة، قال: فإنى رسول رب العالمين، وأنا الروح الأمين، قال: فما الذى أدخلك حبس المذنبين وأنت أطيب الطيبين، ورأس المقربين، وأمين رب العالمين؟ قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر البيوت لهؤلاء الطيبين، وأن الأرض التى تدخلونها هى أطهر الأرضين، وأن الله قد طهر بك السجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين؟

قال: كيف لى بابن الصديقين وتعدنى من المخلصين، وقد أدخلت مدخل المذنبين، وسميت باسم المفسدين؟ قال: لأنه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك فى معصية ربك فلذلك سماك الله فى الصديقين، وعدك مع المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين، قال: هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟ قال: نعم وهب الله له البلاء الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فما قدر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فماذا له من الأجر يا جبرائيل؟ قال: أجر مائة شهيد، قال: أفترانى لاقيه؟ قال: نعم، فطابت نفس يوسف، قال: ما أبالى ما ألفيته أن رأيته.

وأما قوله: ﴿بَثِّي﴾ فالبث: أشد الحزن سمى بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه أى يظهره، يقال: بث، يبث فهو باث وأبث (. . . .)[1] يُبث فهو مُبث إذا أظهره قال ذو الرمة:

وقفت على ربع لمية ناقتى فما زلتُ أبكى عندهُ وأُخاطبه

وأسقيه حتى كـاد مما أبثه تكلمنى أحجـاره وملاعبه

وقال الحسن: ﴿بَثِّي﴾ أى حاجتى، وقال محمد بن القاسم الأنبارى: البث: التفرق، وقال محمد بن إسحاق: معناه: إنما أشكو حزنى الذى أنا فيه إلى الله، وهو من بث الحديث.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس: يقول أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنى وأنتم سنسجد له، وقال آخرون: وأعلم أن يوسف حى.

قال السدّى: لما أخبره ولده بسيرة الملك وقوله أحسّت نفس يعقوب فطمع وقال: لعلّه يوسف، ويروى أنه رأى الملك فى المنام فسأله: هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا والله، وهو حى.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ويقال: أرسل الله إليه ذئبًا فسلم عليه وكلمه، فقال له يعقوب: أكلت ابنى وقرة عينى وثمرة فؤادى؟ قال: قد والله علمت يا يعقوب أن لحوم الأنبياء وأولاد الأنبياء علينا حرام، فلذلك قال لبنيه: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ولا تيأسوا من روح الله سيروا واطلبوا الخبر من يوسف وأخيه، وهو تفعلوا من الحس يعنى تتبعوا، قال ابن عباس: التمسوا، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾، أى لا تقنطوا، ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: من فرج الله، قال ابن زيد وقتادة، والضحاك: من رحمة الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

يُقال: سُئل ابن عباس عن الفرق بين التجسّس والتحسس فقال: لا يبعد أحدهما عن الآخر إلا أن التحسس فى الخير والتجسس فى الشر، الحسن وقتادة: ذكر لنا أن نبى الله يعقوب لم ينزل به بلاء قط إلا أتى حسن ظنه بالله من ورائه، وما ساء ظنه بالله ساعة قط من ليل أو نهار، الحسن عن الأحنف بن قيس عن ابن عباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «قال داود: إلهى أسمع الناس يقولون إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فاجعلنى رابعًا فقال: لست هناك، إن إبراهيم لم يعدل بى شيئًا قط إلا اختارنى، وإن إسحاق جاد لى بنفسه، وإن يعقوب فى طول ما كان لم ييأس من يوسف».

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ فى الآية متروك يستدل بسياق الكلام عليه تقديره: فجاؤوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا إلى يوسف، فقالوا له: يا أيها العزيز، يا أيها الملك بلغة حمير، ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الشدة والجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ قليلة، رديئة ناقصة، كاسدة. لا تنفق فى شىء من الطعام إلا (يتوجبن) من البائع فيها، وأصل الإزجاء السوق والدفع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ (النور: ٤٣)، قال النابغة الذبيانى:

وهبت الريحُ من تلقاء ذى أزل تُزجى مع الليلِ من صرادها صرما

وقال حاتم الطائى:

لبيك على ملحان ضيفٌ مُدَفَّعٌ وأرمَلةٌ تُزجى مع الليلِ أرملا

وإنما قيل للبضاعة: مزجاة لأنها غير نافقة وإنما يجوز تجويزًا على دفع من أخذها. وأمالها حمزة والكسائى وفخمها الباقون.

واختلف المفسرون فى هذه البضاعة ما هى؟ عكرمة عن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفًا لا تنفق إلا بوضيعه بإذن عنه، يعنى لا تنفق فى الطعام، لأنه لا يؤخذ فى ثمن الطعام إلا الجيد، ابن أبى مليكة: حبل خلق الغرارة والحبل ورثة المتاع، عبد الله بن الحارث: متاع الأعراب، الصوف والسمن، الكلبى ومقاتل وابن حيان: الصنوبر وحبة خضراء، سعيد بن

جبير: دراهم (قليلة)، ابن إسحاق: قليلة لا تبلغ ما كان يشترى به إلا أن تتجاوز لنا فيها أحسن كانت أو أوطأ، جويبر عن الضحاك: النعال والأدم، وروى عنه أنها سويق المقل.

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أى أعطنا بها ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافى ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ وتفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والردىء. ولا تنقصنا من السعر، هذا قول أكثر المفسرين، وقال ابن جريج والضحاك: تصدق علينا برد أخينا إلينا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ قال الضحاك: لم يقولوا: إن الله يجزيك أن تصدقت علينا لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن، قال عبد الجبار بن العلاء: سئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا ﷺ؟ قال سفيان: ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أراد سفيان أن الصدقة كانت لهم حلالاً وأنها إنما حرمت على نبينا ﷺ، وروى أن الحسن البصرى سمع رجلاً يقول: اللهم تصدق على، فقال: يا هذا إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبغى الثواب، قل: اللهم أعطنى أو تفضل على.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اختلفوا فى السبب الذى حمل يوسف على هذا القول، فقال ابن إسحاق: ذكر لى أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقة فانفض دمعه باكيًا ثم باح لهم بالذى كان يكتم فقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

وقال الكلبى: إنما قال ذلك حين حكى لإخوانه: أن مالك بن أذعر قال: إنى وجدت غلامًا فى بئر حاله كيت وكيت وابتعته من قوم بألف درهم فقال: أيها الملك نحن بعنا ذلك الغلام منه، فغاظ يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم، فولى يهودا وهو يقول: كان يعقوب يحزن لفقد واحد منا حتى كف بصره فكيف به إذا قتل بنوه كلهم، ثم قالوا: إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا وإنه فى مكان كذا وكذا، فذاك حين رحمهم وبكى وقال لهم ذلك القول.

وقال بعضهم: إنما قال ذلك حين قرأ كتاب أبيه إليه وذلك أن يعقوب لما قيل له: إن ابنك سرق، كتب إليه: من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، فأما جدى فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وأما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه، ليقتل، ففداه الله، وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخًا

بالدم وقالوا: قد أكله الذئب وذهب (. . . .)[1] ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق، وإنك حبسته بذلك وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا، فإن رددته إلى وإلا دعوت عليك دعوة تنزل بالسابع من ولدك، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعيل صبره فقال لهم ذلك.

وقال بعضهم: إنما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين: هل لك ولد؟ قال: نعم، ثلاثة بنين، قال: فما سميتهم؟ قال: سميت الأكبر يوسف قال: ولم؟ قال: محبة لك، لأذكرك به، قال: فما سميت الثانى؟ قال: ذئبًا، قال: ولم سميته بالذئب وهو سبع عاقر؟ قال: لأذكرك به، قال: فما سميت الثالث؟ قال: دماء، قال: ولم؟ قال: لأذكرك به، فلما سمع يوسف المقالة خنقته العبرة، ولم يتمالك، فقال لإخوته لما دخلوا عليه: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ فرقتم بينهما وصنعتم ما صنعتم إذ أنتم جاهلون، بما يؤول إليه أمر يوسف.

وقيل: يكون المذنب جاهلاً وقت ذنبه.

قال ابن عباس: إذا أنتم صبيان، الحسن: شبان وهذا غير بعيد من الصواب لأن مظنة الجهل الشباب.

فإن سئل عن معنى قول يوسف ﴿مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وقيل ما كان عنهم إلى أخيه هم لم يسعوا فى حبسه، فالجواب أنهم لما أطلقوا ألسنتهم على أخيهم بسبب الصاع (حبس) وقالوا: ما رأينا منكم يا بنى راحيل كما ذكرناه، فعاتبهم يوسف على ذلك. وقيل: إنهما لما كانا من أم واحدة وكانوا يؤذونه بعد فقد يوسف فعاتبهم على ذلك.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾: قرأ ابن محصين وابن كثير: (إنك) على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستفهام، ودليلهم قراءة أبى بن كعب (أو أنت يوسف)، قال ابن إسحاق: لما قال يوسف لإخوته ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ الآية، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب فعرفوه، فقالوا: إنك لأنت يوسف، جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: قال يوسف: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾؟ ثم تبسم، وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم، فلما أبصروا ثناياه شبهوه بيوسف، فقالوا له استفهامًا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟، ابن سمعان عن عطاء عن ابن عباس قال: إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان فى قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها، وكان لإسحاق مثلها، وكان لسارة مثلها شبه الشامة البيضاء، فلما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ورفع التاج عنه، فعرفوه فـ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بأن جمع بيننا بعدما فرقتم ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ويصبر عما حرم الله عليه، قال ابن عباس: يتق الزنا ويصبر على العزوبة، مجاهد: يتق معصية الله ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ على السجن ﴿وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فـ﴿قَالُواْ﴾ مقرين معتذرين: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ اختارك الله علينا بالعلم والحكم والعقل والفضل والحسن والملك ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وإن كنا فى صنيعنا بك لخطئين، مذنبين، يقال: خطئ، يخطأ، خَطأ وخطأ وأخطأ إذا أذنب، قال أمية بن الأكسر:

وإن مهاجرين تكنَّفَـاهُ لعمرُ الله قد خطئا وخابا

وقيل لابن عباس: كيف قالوا: إنا كنا خاطئين وقد تعمدوا ذلك؟ فقال: أخطأوا الحق وإن تعمدوا، وكل ما أتى ذنبًا كذلك يخطئ المنهاج الذى عليه من الحق حتى يقع فى الشبهة والمعصية فـ ﴿قَالَ﴾ يوسف وكان حليمًا موفقًا: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ لا تعيير ولا تأنيب عليكم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، وأصل التثريب: الإفساد، وهى لغة أهل الحجاز، ومنه قول النبى ﷺ: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها» أى لا يعيرها، ثم دعا لهم يوسف وقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

عطاء عن ابن عباس قال: أخذ النبى ﷺ بعضادتى الباب يوم فتح مكة وقد لاذ الناس بالبيت، وقال: «الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «ما تظنون؟» قالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، قال: «وأنا أقول كما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم».

قال السدى وغيره: فلما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه فقال: ما فعل؟ فقالوا ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه وقال لهم: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ يعود مبصرًا، لأنه كان دعاء. قال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة، روى السدى عن أبيه عن مجاهد عن هذه الآية قال: كان يوسف أعلم بالله عز وجل من أن يعلم أن قميصه يرد على يعقوب بصره، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله عز وجل فى النار من حرير الجنة، وكان كساه إسحاق، وكان إسحاق كساه يعقوب، وكان يعقوب أدرج القميص وجعله فى قصبه وعلقه فى عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين، ثم أمره جبرائيل عليه السلام أن أرسل بقميصك فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلٍ ولا سقيم إلا صح وعوفى.

﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ
لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ
إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٦ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ
سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ
وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ
يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ
ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا
يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ
فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى
بِٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠١﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ يعنى خرجت من عريش مصر متوجهة إلى كنعان.

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لولد ولده ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ روى أن الريح استأذنت ربها فى أن تأتى يعقوب عليه السلام بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، فأذن لها فأتته بها، ابن السدى عن أبيه عن مجاهد، قال: أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام وذلك أنها هبت فصفقت القميص فاحتملت الريح ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أن ليس فى الأرض من ريح الجنة إلا أن تأتى من ذلك القميص فمن ثم قال: إنى لأجد ريح يوسف، وهو منه على مسيرة ثمانى ليال.

وروى شعبة عن أبى سنان قال: سمعت عبد الله بن أبى الهذيل قال: سمعت ابن عباس يقول: وجد يعقوب ريح يوسف وهو منه على مسيرة ثمانى ليال، وروى شعبة عن أبى سنان قال: سمعت عبد الله بن أبى الهذيل عن ابن عباس فى هذه الآية قال: وجد ريحه من مسيرة ما بين البصرة والكوفة. وقال الحسن: ذكر لنا أنه كان بينهما يومئذ ثمانون فرسخًا.

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾: سفيان عن حصيف، عن مجاهد ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قال: تسفهون الرأى، عن ابن عباس: تجهلون، ابن جريج وابن أبى نجيح عن مجاهد: لولا أن تقولوا: ذهب عقلك، سعيد بن جبير والسدى والضحاك: تكذبون، وهى رواية العوفى عن ابن

عباس، والحسن وقتادة: تهرمون، ومثله روى إسرائيل عن أبى يحيى عن مجاهد، ربيع: تحمقون، جويبر عن الضحاك: تهرمون، فتقولون: شيخ كبير قد خرف وذهب عقله، ابن يسار: تضعفون، أبو عمرو بن العلاء: تقبحون، الكسائى: تعجزون، الأخفش: تلومون، أبو عبيدة: تضللون، وأصل الفند: الفساد، قال النابغة:

إلا سليمان إذ قال المليك له قم فى البرية فاحددها عن الفند

أى امنعها من الفساد، ولذلك يقال: اللوم تفنيد، قال الشاعر:

يا صاحبى دعا لومى وتفنيدى فليس ما فات من أمر بمردود

وقال جرير بن عطية:

يا عاذلى دعا الملام وأقصرا طال الهوى وأطلتما التفنيدا

وقال آخر:

❖ أهلكتنى باللوم والتفنيد ❖

والفند: الخطأ فى الكلام والرأى يقال: أفند فلانًا الدهر إذا أفسده، ومنه قول ابن مقبل:

دع الدهر يفعل ما أراد فإنه إذا كلف الأفناد بالناس أفندا

﴿قَالُواْ﴾ يعنى أولاد أولاده ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ﴾ خطئك ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ من حبك يوسف لا تنساه، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ المبشر برسالة يوسف، قال ابن عباس: البريد يهودا بن يعقوب، ابن مسعود: جاء البشير من بين يدى العير قال السدى: قال يهودا: أنا ذهبت بالقميص ملطخًا بالدم إلى يعقوب وأخبرته أن يوسف أكله الذئب، وأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حى وأفرحه كما أحزنته، قال ابن عباس: حمله يهودا دونهم، وخرج حاسرًا حافيًا وجعل يعد حتى أتى أباه، وكان معه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها، وكانت المسافة ثمانين فرسخًا، وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: البشير مالك بن ذعر من أهل مدين.

﴿أَلْقَىٰهُ﴾ يعنى ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب، ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾: فعاد بصيرًا بعدما كان عمى.

عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبى عبد الله السلمى: قال سمعت يحيى بن مسلم عمن ذكره قال: كان يعقوب أكرم أهل الأرض على ملك الموت، وإن ملك الموت استأذن ربه فى أن يأتى يعقوب فأذن له فجاءه فقال يعقوب: يا ملك الموت أسألك بالذى خلقك، هل أخذت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس؟ قال: لا، قال ملك الموت: يا يعقوب ألا أعلمك دعاء؟ قال: بلى، قال: قل: يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبدًا ولا يحصيه غيرك، قال: فدعا

به يعقوب فى تلك الليلة فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيراً، قال الضحاك: رجع إليه بصره بعد العمى والقوة بعد الضعف والشباب بعد الهرم والسرور بعد الحزن.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا ﴿قَالُوا۟﴾ بعد ذلك ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ مذنبين.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ فى صلاة الليل، قال أكثر المفسرين: أخره من الليل إلى السحر، وذلك أن الدعاء بالأسحار لا يحجب عن الله، فلما انتهى يعقوب إلى الموعد تقدم إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يده إلى الله تعالى: اللهم اغفر لى حزنى على يوسف وقلة صبرى عنه، واغفر لولدى ما أتوا على يوسف، فأوحى الله إليه: أنى قد غفرت لك ولهم أجمعين.

قال محارب بن دثار: كان عم لى يأتى المسجد، قال: فمررت بدار عبد الله بن مسعود فسمعته يقول: اللهم إنك دعوتنى فأجبت وأمرتنى فأطعت فهذا سحر فاغفر لى. سألته عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر استغفار بنيه إلى السحر بقوله: سوف أستغفر لكم ربى.

عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «سوف أستغفر لكم ربى، يقول: حتى يأتى يوم الجمعة».

قال وهب: كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة، وقال طاوس: أخر إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء.

عن أبى سلمة عن عطاء الخراسانى قال: طلب الحوائج إلى الشاب أسهل منها فى الشيوخ، ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، وقول يعقوب عليه السلام: سوف أستغفر لكم ربى.

أبو الحسن الملانى الشعبى: قال: سوف أستغفر لكم ربى، قال: أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفر لكم ربى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ روى أن يعقوب عليه السلام قال للبشير لما أخبره بحياة يوسف، قال: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك؟ على أى دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. فقال يعقوب: الآن تمت النعمة.

وقال الثورى: لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال يوسف: يا أبة بكيت على حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى بنى، ولكن خشيت أن تسلب دينك، فيحال بينى وبينك.

قالوا: قد كان يوسف بعث مع البشير إلى يعقوب جهازاً ومائتى راحلة، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده أجمعين، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر، فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذى فوقه فخرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند، وركب أهل مصر معها، يتلقون يعقوب، ويعقوب يمشى ويقود ركابه يهوذا، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال ليهوذا: هذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ابنك.

فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمنع من ذلك وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل، فابتدأه يعقوب بالسلام وقال: السلام عليك أيها الذاهب بالأحزان، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

فإن قيل: كيف قال لهم يوسف: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين بعدما دخلوها، وقد أخبر الله أنهم لما دخلوا على يوسف وضم إليه أبويه قال لهم هذا القول حين تلقاهم قبل دخولهم مصر كما ذكرنا.

وقال بعضهم: فى الآية تقديم وتأخير، وهذا الاستثناء من قول يعقوب حين قال: سوف أستغفر لكم ربى ومعنى الكلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ إن شاء الله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال: ادخلوا مصر آمنين ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهذا معنى قول أبى جرير، وقال بعضهم: إنما وقع الاستثناء على الأمن لا على الدخول كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٧)، وقول رسول الله ﷺ عند دخول المقابر: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

فالاستثناء وقع على اللحوق بهم لا على الموت، وقيل: «إن» هاهنا بمعنى «إذ» كقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٧٨)، وقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (النور: ٣٣).

وقال ابن عباس: إنما قال: آمنين لأنهم فيما خلا كانوا يخافون ملوك مصر ولا يدخلون مصر لأنهم لا جواز لهم، وأما قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ فقال ابن إسحاق: أباه وأمه وقال الآخرون: أبوه وخالته لعيا، وكانت راحيل أم يوسف قد ماتت فى نفاسها وتزوج يعقوب بعدها أختها لعيا فسمى الخالة أمًا كما سمى العم أبًا فى قوله: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ (البقرة: ١٣٣) وروى إسحاق عن بشر عن سعيد عن الحسن،

قال: نشر الله راحيل أم يوسف من قبرها حتى سجدت تحقيقًا للرؤيا.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على السرير، يعنى أجلسهما عليه قال ابن إسحاق يعنى رفع اسمهما ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ يعنى يعقوب وخالته وإخوته، وكانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، لأن ذلك لا يجوز إلا لله تعالى وإنما هو الانحناء والتواضع على طريق التحية والتعظيم والتسليم لا على جهة العبادة والصلاة، وهذا قول الأعشى بن ثعلبة:

فلما أتانا بعيد الكرى ... سجدنا له ورفعنا العمارا

وقال آخر:

فضول أزمتها لأمها أسجدت ... سجود النصارى لأربابها

وقيل: السجود فى اللغة الخضوع كقول النابغة:

بجمع تضل البلق فى حجراته ... ترى الأكم فيه سجدًا للحوافز

أى متطامنة ذليلة.

قال (ثعلبة): ﴿وَخَرُّواْ﴾ يعنى مروا، ولم يرد الوقوع أو السقوط على الأرض، نظيره قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان: ٧٣) إنما أراد لم يمروا كذلك، مجاهد: بمعنى المرور، وروى عن ابن عباس أن معناه خروا لله سجدًا فقوله: ﴿لَهُۥ﴾ كناية عن الله تعالى ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك واقشعر جلده: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾، وهو قوله: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾.

واختلفوا فى مدة غيبة يوسف عن يعقوب، فقال الكلبى: مائتان وعشرون سنة، سلمان الفارسى: أربعون سنة، عبد الله بن شداد: سبعون سنة وقيل: سبع وسبعون سنة، وقال الحسن: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقائه بيعقوب ثلاثًا وعشرين سنة، ومات هو ابن عشرين ومائة سنة، وفى التوراة: مائة وست وعشر سنين. فى قول ابن إسحاق بن يسار: ثمانين وسبعة أعوام، وقال ابن أبى إسحاق: ثمانى عشرة سنة، وولد ليوسف من امرأة العزيز: إفراثيم وميشا ورحمة امرأة أيوب، وبين يوسف وموسى أربعمائة سنة.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجب استعمالاً للكرم لئلا يذكر إخوته صنيعهم، وقيل: لأن نعمة الله عليه فى النجاة من السجن أكبر من نعمته عليه فى إنقاذه من

الجب، وذلك أن وقوعه فى البئر كان لحسد إخوته، ووقوعه فى السجن مكافأة من الله لزلة كانت منه.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ وذلك أن يعقوب وبنيه كانوا أهل بادية ومواش، والبدو مصدر قولك: بدا، يبدو، بدواً، إذا صار بالبادية، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ أفسد ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ﴾ ذو لطف وصنع ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ عالم بدقائق الأمور وحقائقها، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

روى عبد الصمد عن أبيه عن وهب: قال: دخلوا ـ يعنى يعقوب وولده ـ مصر وهم اثنان وسبعون إنسانًا ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاطنهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى والزمنى، وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف سوى المقاتلة.

قال أهل التاريخ: أقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله أربعًا وعشرين سنة فى أغبط حال وأهنأ عيش، ثم مات بمصر، ولما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر.

قال سعيد بن جبير: نقل فى تابوت من ساج إلى بيت المقدس ووافق ذلك يوم مات عيصوا فدفنا فى قبر واحد، فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس من فعل ذلك منهم، وولد يعقوب وعيصوا فى بطن واحد، ودفنا فى قبر واحد وكان عمرهما جميعًا مائة وسبعًا وأربعين سنة.

قالوا: فلما جمع الله ليوسف شمله وأقر له عينه وأتم له رؤياه، وكان موسعًا له فى ملك الدنيا ونعيمها علم أن ذلك لا يدوم له وأن لا بد له من فراقه فأراد نعيمًا هو (أدوم) منه، فاشتاقت نفسه إلى الجنة فتمنى الموت ودعا ربه، ولم يتمن نبى قبله ولا بعده الموت فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ يعنى ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يعنى تعبير الرؤيا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى خالقها وبارئها.

﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ معينى ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ تتولى أمرى ﴿تَوَفَّنِى﴾ اقبضنى إليك ﴿مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بآبائى النبيين.

قيل: فتوفاه الله طيبًا طاهرًا بمصر، ودفن فى النيل فى صندوق رخام، وذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه كل يحب أن يدفن فى محلتهم لما يرجون من بركته، فاجتمعوا على ذلك حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه فى النيل حيث مفرق الماء بمصر فيمر الماء عليه ثم يصل الماء

إلى جميع مصر، فيكونوا كلهم فيه شرعًا واحدًا ففعلوا.

وروى صالح المرى، عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك، قال: إن الله عز وجل لما جمع ليعقوب شمله خلا ولده نجيا، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم ما صنعتم وما لقى منكم الشيخ وما لقى منكم يوسف؟ قالوا: بلى، قال: فإن أعفوا عنكم ولكن كيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد.

قالوا: يا أبانا أتيناك فى أمر لم نأتك فى مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله، حتى حركوه، والأنبياء عليهم السلام أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بنى؟ قالوا: ألست قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قالا: بلى، قالوا: أفلستما قد عفوتما، قالا: بلى، قالوا: فإن عفوكما لا يغنى عنا إن كان الله لم يعف عنا، قال: فما تريدون يا بنى؟ قالوا: نريد أن تدعو الله فإذا جاء الوحى من عند الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرت أعيننا وأطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرت عين لنا فى هذه الدنيا أبدًا، فقام الشيخ واستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه وقاموا خلفهما أذلة خاشعين، فدعا يعقوب وأمن يوسف فلم يجب فيهم عشرين سنة.

قال صالح المرى: يخيفهم، حتى إذا كان رأس العشرين نزل جبرائيل على يعقوب فقال: إن الله تبارك وتعالى بعثنى إليك أبشرك، فإنه قد أجاب دعوتك فى ولدك، وإنه قد عفا عما صنعوا، فإنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة، وذلك الذى ذكرت وقصصت عليك.

❖ ❖ ❖

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ
تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ
ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم
مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ
ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ

نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ والخطاب لرسول الله ﷺ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أى تعاهدوا على إلقاء يوسف فى غيابة الجب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أى على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: جعل وجزاء ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنى القرآن والوحى ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾: عظة وتذكير ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ وكم من قول فيه عظة وعبرة ودلالة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

الحارث بن قدامة عن عكرمة أنه قرأ: (والأرضُ يمرون عليها) رفعًا، عن محمد بن عمر قال: سمعت عمرو بن وائل يقرأ: (وكأين من آية فى السموات) قطعًا، (والأرضُ يمشون عليها) رفعًا، أبو حمزة الثمالى عن السدى: أنه قرأ (والأرض يمرون عليها) نصبًا، وقرأ: (يمرون على الأرض)، وعن ابن مجاهد قال: حدثنا إسحاق الحربى أبو حذيفة، حدثنا سفيان قال: وقرأ عبد الله: (وكأين من آية فى السموات والأرض يمشون عليها).

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ عكرمة فى قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: من إيمانهم إذا سئلوا: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله وإذا سئلوا من نزل القطر؟ قالوا: الله، ثم هم يشركون، وروى جابر عن عكرمة وعامر، فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قالا: يؤمنون بالله أنه ربهم وهو خالقهم ويشركون من دونه، وهذا قول أكثر المفسرين.

وروى ابن جبير عن الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى تلبية مشركى العرب وكانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، وكان فيها يخزونك من تلبى: فأجب يا الله أن بكرًا دونك بنى غطفان وهم يلونك، ينزل الناس ويخزونك، ما زال منا غنجًا يأتونك، وكانت تلبية حرمهم: خرجنا عبادك الناس طرف وهم تلادك، وهم قديمًا عمروا بلادك، وقد تعادوا فيك من يعادك، وكانت تلبية قريش: اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وكانت تلبية حمدان وغسان وقضاعة وجذام وتلقين وبهرا: نحن عبادك اليمانى إنا نحج ثانى (على الطريق الناجى نحن نعادى)

جئنا إليك حادى. فأنزل الله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يعنى فى التلبية.

وقال: لما سمع المشركون ما قبل هذه الآية من الآيات قالوا: فإنا نؤمن بالله الذى خلق هذه الأشياء ولكنا نزعم أن له شريكًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

عطاء: هذا فى الدعاء وذلك أن الكفار أشركوا بربهم فى الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء، بيانه قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (يونس: ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (لقمان: ٣٢)، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ (يونس: ١٢)، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت: ٥١).

وقال بعض أهل المعانى: معناه وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون قبل إيمانهم، نظيره قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ (ق: ٣٦) يعنى كانوا هم أشد منهم بطشًا. وقال وهب: هذه فى وقعة الدخان وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدخان فى سنى القحط قالوا: ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون، وذلك إيمانهم وشكرهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب بيانه قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (الدخان: ١٥) والعود لا يكون إلا بعد ابتداء والله أعلم.

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: مجللة، مجاهد: عذاب يغشاهم، نظيره قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٥٥) قتادة: وقيعة، الضحاك: يعنى الصواعق والقوارع ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها، ابن عباس: تصيح الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَٰذِهِ﴾ الدعوة التى أدعو إليها والطريقة التى أنا عليها ﴿سَبِيلِي﴾ سنتى ومنهاجى، قاله ابن زيد، وقال الربيع: دعوتى، الضحاك: دعائى، مقاتل: دينى، نظيره قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥) أى دينه، ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على يقين، يقال: فلان مستبصر فى كذا أى مستيقن ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ آمن بى وصدقنى فهو أيضًا يدعو إلى الله، هذا قول الكلبى، وابن زيد قال: أحق والله على من اتبعه أن يدعو إلى الله بما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة، وينهى عن معاصى الله.

وقيل: معناه أنا ومن اتبعنى على بصيرة، يقول: كما أنى على بصيرة، فكذلك من آمن بى واتبعنى فهو على بصيرة أيضًا، قال ابن عباس: يعنى أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان وجند الرحمن. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى وقل:

سبحان الله تنزيهًا له عما أشركوا ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ : يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة، ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعنى من أهل الأمصار دون أهل البوادى لأن أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ يعنى هؤلاء المشركين المنكرين لنبوتك ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أخبر بأمر الأمم المكذبة من قبلهم، فيعتبروا ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يقول جل ثناؤه: هذا فعلنا فى الدنيا بأهل ولايتنا وطاعتنا أن ننجيهم عند نزول العذاب، وما فى دار الآخرة لهم خير، فترك ما ذكرنا، آنفًا لدلالة الكلام عليه، وأضيف الدار إلى الآخرة ولا خلاف لتعظيمها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ (الواقعة: ٩٥) وقولهم: عام الأول، وبارحة الأولى ويوم الخميس وربيع الآخر. وقال الشاعر:

ولو أقوت عليكم ديار عبس عرفت الذل عرفان اليقين

يعنى عرفانًا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تؤمنون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ اختلف القراء فى قوله: ﴿كُذِبُوا۟﴾ فقرأها قوم بالتخفيف وهى قراءة على بن أبى طالب عليه السلام وابن عباس وابن مسعود وأبى بن كعب وأبى عبد الرحمن السلمى وعكرمة والضحاك وعلقمة ومسروق والنخعى وأبى جعفر المدنى ومحمد بن كعب والأعمش وعيسى بن عمر الهمدانى وأبى إسحاق السبيعى وابن أبى ليلى وعاصم وحمزة وعلى بن الحسين وابنه محمد بن على وابنه جعفر بن محمد، وعبد الله بن مسلم وابن يسار، واختارها الكسائى وأبو عبيدة.

وروى عن النبى ﷺ أنه قرأ ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ مخففة وهى قراءة عائشة و(هرقل) الأعرج ونافع والزهرى وعطاء بن أبى رياح وعبد الله بن كثير وعبد الله بن الحارث وأبى رجاء والحسن. وقتادة وأبى عمرو وعيسى وسلام وعمرو بن ميمون ويعقوب، ورويت أيضًا عن النبى ﷺ، فمن قرأ بالتخفيف، فمعناه: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم فى وجود العذاب.

وروى الخبر عن شعيب بن الحجاج عن إبراهيم عن أبى حمزة الجزرى: قال صنعت طعامًا فدعوت ناسًا من أصحابنا منهم: سعيد بن جبير وأرسلت إلى الضحاك بن مزاحم فأبى أن يجيئنى فأتيته فلم أدعه حتى جاء، قال: فسأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال: يا أبا عبد الله كيف تقرأ هذا الحرف فإنى إذا أتيت عليه تمنيت أنى لا أقرأ هذه السورة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ قال: نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم،

وظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوهم. قال: فقال الضحاك: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلكأ، لو رحلت فى هذه إلى اليمن لكان قليلاً.

وقال بعضهم: معنى الآية على هذه القراءة حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وجدوا من النصرة وهذه رواية ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال: كانوا دعوا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم أخلفوا ثم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢١٤) الآية، ومن قرأ بالتشديد فمعناها، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يؤمنوا بهم وظنت الرسل أى استيقنت أن أممهم قد كذبوهم جاءهم نصرنا، وعلى هذا التأويل يكون الظن بمعنى العلم واليقين كقول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفى متلبب سراتهم فى الفارسى المسرد

أى أيقنوا.

وهذا معنى قول قتادة، وقال بعضهم: معنى الآية على هذه القراءة حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم، وظنت الرسل أن من قد آمن بهم وصدقوهم قد كذبوهم فارتدوا عن دينهم لاستبطائهم النصر ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ وهذا معنى قول عائشة.

وقرأ مجاهد (كَذَبوا) بفتح الكاف والذال مخففة ولها تأويلان: أحدهما: حتى إذا استيأس الرسل أن يعذب قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا جاء الرسل نصرنا، والثانى حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنت الرسل أن قومهم قد كذبوا على الله بكفرهم ويكون معنى الظن اليقين على هذا التأويل، والله أعلم.

﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ عند نزول العذاب وهم المطيعون والمؤمنون ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعنى المشركين، واختلف القراء فى قوله (فنجى) فقرأها عامة القراء (فننجى) بنونين على معنى فنحن نفعل بهم ذلك، فأدغم الكسائى أحد النونين فى الأخرى فقرأ: فنجى بنون واحدة وتشديد الجيم، وقرأ عاصم بضم النون وتشديد الجيم وفتح الياء على مذهب ما لم يسم فاعله، واختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها فى مصحف عثمان، وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة وقرأ ابن محيصن (فنجا من نشاء) بفتح النون والتخفيف على أنه فعل ماضٍ ويكون محله على قراءة عاصم وابن محيصن رفعًا، وعلى قراءة الباقين نصبًا.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أى فى خبر يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ﴾ عظة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ﴾ يعنى القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ يختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ﴾ يعنى ولكن كان تصديق ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى ما قبله من الكتب ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاج إليه العباد ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سورة الرعد

مدنية

قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : إنها مكية إلا آيتين ، قوله : ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ (الرعد: ٣١) ، وقوله ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٤٣) .

وهى ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف وثمان و(. . . .)[1] وخمسون كلمة وثلاث وأربعون آية .

سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ سورة الرعد أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة ، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل» .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾

﴿الٓمٓر﴾ قال ابن عباس : معناه : أنا الله أعلم وأرى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعنى تلك الأخبار التى قصصناها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ يعنى وهذا القرآن الذى أنزل ﴿إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فاعتصم به واعمل بما فيه ، فيكون محل الذى رفعا على الابتداء و «الحق» خبره ، وهذا كله معنى قول مجاهد وقتادة ويجوز أن يكون محل

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

«الذى» خفضًا يعنى تلك آيات الكتاب وآيات الذى أنزل إليك ثم ابتداء الحق يعنى ذلك الحق كقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٤٦، ١٤٧) يعنى ذلك الحق.

وقال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن فيكون معنى الآية على هذا القول: هذه آيات الكتاب يعنى القرآن، ثم قال: وهذا القرآن الذى أنزل إليك من ربك هو الحق، قال الفراء: وإن شئت جعلت «الذى» خفضًا على أنه نعت الكتاب وإن كانت فيه الواو كما تقول فى الكلام: أتانا هذا الحديث عن أبى حفص والفاروق وأنت تريد ابن الخطاب، قال الشاعر:

أنا الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال مقاتل: نزلت هذه الآية فى مشركى مكة حين قالوا: إن محمدًا يقول القرآن من تلقاء نفسه، ثم بين دلائل ربوبيته وشواهد قدرته فقال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهذه الآية من جملة مائة وثمانين آية أجوبة لسؤال المشركين رسول الله ﷺ: إن الرب الذى تعبده ما فعله وصنيعه؟ وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يعنى السوارى والدعائم واحدها عمود وهو العمد والبناء، يقال: عمود وعمد مثل أديم وأدم، وعمدان، وكذا مثل رسول ورسل، ويجوز أن يكون العمد جمع عماد، ومثل إهاب وأهب، قال النابغة:

وخيس الجن إنى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

واختلفوا فى معنى الآية فنفى قوم العمد أصلاً، وقال: رفع السموات بغير عمد وهو الأقرب الأصوب، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: يعنى ليس من دونها دعامة تدعمها، ولا فوقها علاقة تمسكها، وروى حماد بن سلمة عن إياس بن معاوية قال: السماء مقببة على الأرض مثل القبر، وقال آخرون: معناه: الله الذى رفع السموات بعمد ولكن لا ترونها، فأثبتوا العمد ونفوا الرؤية، وقال الفراء من تأول ذلك فعلى مذهب تقديم العرب الجملة من آخر الكلمة إلى أولها كقول الشاعر:

إذا أعجبتك الدهر حال من أمرى فدعه وأوكل حاله واللياليا

تهين على ما كان عن صالح به فإن كان فيما لا يرى الناس آليا

معناه: وإن كان فيما يرى الناس لا يألو. وقال الآخر:

ولا أراها تزال ظالمة تحدث لى نكبة وتنكرها

معناه: أراها لا تزال ظالمة فقدم الجحد.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا عليه وقد مضى تفسيره، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أى ذللها لمنافع

خلقه ومصالح عباده ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى كل واحد منهما يجرى إلى وقت قدر له، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التى عندها تكور الشمس ويخسف القمر وتنكدر النجوم، وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهين إليهما لا يجاوزانها.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قال مجاهد: يقضيه وحده ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ ينتهيان، ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكى توقنوا بوعدكم وتصدقوه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً، واحدتها راسية وهى الثابتة، يقال: إنما رسيت السفينة، وأرسيت الوتد فى الأرض إذا أثبتها، قال الشاعر:

حبذا ألقاه سائرين وهامــد وأشعث أرست الوليدة بالقهر

قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض، ﴿وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ صنفين وضربين ﴿ٱثْنَيْنِ﴾: قال أبو عبيدة يكون الزوج واحداً واثنين، وهو ها هنا واحد، قال القتيبى: أراد من كل الثمرات لونين حلواً وحامضاً ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يستدلون ويعتبرون ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ﴾ أبعاض متقاربات متدانيات يقرب بعضها من بعض بالجوار ويختلف بالتفاضل، ومنها عذبة ومنها طيبة ومنها طيبة منبت، لأنها بجنته ومنها سبخة لا تنبت.

﴿وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ رفعها ابن كثير وأبو عمرو عطفًا على الجنات، وكسرها الآخرون عطفًا على الأعناب. والصنوان جمع صنو، وهى النخلات يجمعهن أصل واحد فيكون الأصل واحداً، ويتشعب به الرءوس فيصير نخلاً، كذا قال المفسرون، قالوا: ﴿صِنْوَانٌ﴾ مجتمع ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ متفرق.

قال أهل اللغة: نظيرها فى كلام العرب، صنوان واحد، واحدها صنو والصنو المثل وفيه قيل: شم الرجل صنوانه ولا فرق فيهما بين التثنية والجمع إلا بالإعراب، وذلك أن النون فى التثنية مكسورة غير منونة وفى الجمع منونة تجرى جريان الإعراب.

خالفوا كلهم على خفض الصاد من صنوان إلا عبد الرحمن السلمى فإنه ضم صاده.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ قرأ عاصم وحميد وابن الحسن وابن عامر: بالياء على معنى يسقى ذلك كله بماء واحد.

وقرأ الباقون: بالتاء لقوله جنات.

واختاره أبو عبيد قال: وقال أبو عمرو: مما يصدق التأنيث قوله ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولم يقل بعضه ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائى بالياء رداً على قوله: يدبر ويفصل ويغشى.

وقرأها الباقون: بالنون بمعنى ونحن نفضل بعضها على بعض فى الأكل.

قال الفارسى: والدقل والحلو والحامض.

قال مجاهد: كمثل صالح بنى آدم وخبيثهم أبوهم واحد.

عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال: سمعت النبى ﷺ يقول لعلى كرم الله وجهه: «الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة» ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ حتى بلغ ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾.

قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بنى آدم، كانت الأرض فى يد الرحمن طينة واحدة فبسطها وبطحها فصارت الأرض قطعًا متجاورة، فينزل عليها الماء من السماء فيخرج هذه زهرتها وثمرها وشجرها ويخرج قاتها ويحيى موتاها ويخرج هذه سبخها وملحها وخبثها وكلتاهما تسقى بماء واحد. فلو كان الماء مجا قيل: إنما هذه من قبل الماء، كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب فتخنع وتخشع، وتقسو قلوب فتلهو وتقسو وتجفو.

وقال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده إلا فى زيادة أو نقصان.

قال الله عز وجل ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذى ذكرت ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من تكذيب هؤلاء المشركين واتخاذهم ما لا يضر ولا ينفع يعبدونها من دون الله، وهم قرءوا تعبدون من الله وأمره وما ضرب الله من الأمثال ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾

فتعجب أيضًا من قيلهم ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ بعد الموت ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيعاد خلقًا جديدًا كما كنا قبل الوجود.

قال الله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ جهنم ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يعنى مشركى مكة ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالبلاء والعقوبة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الرخاء والعافية، وذلك أنهم سألوا رسول الله ﷺ إن جاءهم العذاب فاستهزأ منهم بذلك.

وقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأنفال: ٣٢) الآية ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ وقد مضت من قبلهم فى الأمم التى عصت ربها وكذبت رسلها، العقوبات المنكلات واحدتها: مثلة بفتح الميم وضم الثاء مثل صدقة وصدقات.

وتميم بضم الثاء والميم جميعًا، وواحدتها على لغتهم مثلة بضم الميم وجزم الثاء مثل عرفة وعرفات والفعل منه مثلت به أمثل مثلاً بفتح الميم وسكون الثاء.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أحمد بن منبه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: ولما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ قال رسول الله ﷺ: لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ يعنى على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ علامة وحجة على نبوته، قال الله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مخوف ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ داع يدعوهم إلى الله عز وجل إمام يأتمون به.

وقال الكلبى: داع يدعوهم إلى الضلالة أو إلى الحق.

أبو العالية: قائد، أبو صالح، قتادة، مجاهد: نبى يدعوهم إلى الله.

سعيد بن جبير: يعنى بالهادى الله عز وجل.

وهى رواية العوفى، عن ابن عباس قال: المنذر محمد، والهادى الله.

عكرمة وأبو الضحى: الهادى محمد ﷺ.

وروى السدى عن عبد الله بن على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: قال النبى ﷺ: «المنذر أنا، الهادى رجل من بنى هاشم يعنى نفسه».

وروى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية وضع

رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: «أنا المنذر» وأومأ بيده إلى منكب على رضى الله عنه فقال: «فأنت الهادى يا على، بك يهتدى المهتدون من بعدى».

ودليل هذا التأويل:

ما روى عن سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن زيد عن ربيع عن حذيفة: إن النبى ﷺ قال: «إن وليتموها أبا بكر فزاهد فى الدنيا راغب فى الآخرة وفى جسمه ضعف، وإن وليتموها عمر فقوى أمين لا تأخذه فى الله لومة لائم، وإن وليتموها علياً فهاد مهدى يقيلكم على طريق مستقيم».

ردًا على منكرى البعث القائلين ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ يعنى تنقص.

قال المفسرون: غيض الأرحام الحيض على الحمل، فإذا حاضت الحامل كان نقصانًا فى غذاء الولد وزيادة فى مدة الحمل، فإنها بكل يوم حاضت على حملها يوم تزداد فى طهرها حتى يستكمل ستة أشهر ظاهرا. فإن رأت الدم خمسة أيام ومضت التسعة أشهر وخمسة أيام، وهو قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾.

روى ابن أبى نجيح، عن مجاهد، قال: ﴿مَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ خروج الدم حتى تحيض، يعنى حين المولد، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ استمساك الدم إذا لم تهرق المرأة تم الولد وعظم، وفى هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض وإليه ذهب الشافعى.

وقال الحسن: غيضها ما تنقص من التسعة الأشهر وزيادتها ما تزداد على التسعة الأشهر.

الربيع بن أنس: ﴿مَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ يعنى السقط ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يعنى توءمين إلى أربعة.

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: ما تغيض الأرحام يعنى به السقط.

وروى عبيد بن سليمان عن الضحاك قال: الغيض النقصان من الأجل، والزيادة ما يزداد على الأجل، وذلك أن النساء لا يلدن لعدة واحدة ولا لأجل معلوم وقد يولد الولد لستة أشهر فيعيش ويولد الولد لسنتين ويعيش.

قال: وسمعت الضحاك يقول: ولدت لسنتين قد نبتت ثناياى، وروى هيثم عن حصين قال: مكث الضحاك فى بطن أمه سنتين.

وروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحول ظل المغزل، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وجماعة من الفقهاء.

وقال الشافعى وجماعة من الفقهاء: أكثر الحمل أربع سنين، يدل عليه ما أخبرنى أبو

عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الحافظ، أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن محمد قال: سمعت أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الفرج الأحمرى سمعت عباس بن نصر البغدادى سمعت صفوان بن عيسى يقول: مكث محمد بن عجلان فى بطن أمه ثلاث سنين فشق بطن أمه وأخرج وقد نبتت أسنانه.

وروى ابن عائشة عن حماد بن سلمة قال: إنما سمى هرم بن حيان هرمًا لأنه بقى فى بطن أمه أربع سنين.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ بحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه، والمقدار مفعال من القدر ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذى كل شىء دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلى على كل شىء بقدرته ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ فى ظلمته ﴿وَسَارِبٌۢ﴾ ظاهر ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ ضوءه لا يخفى عليه من ذلك.

وقال أبو عبيدة: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أى سالك فى سربه أى مذهب ووجهة، يقال: سارب سربه بفتح السين أى طريقه.

قال قيس بن الحطيم:

إنى سربت وكنت غير سروب ... وتقرب الأحلام غير قريب

الشعبى: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ منصرف فى حوائجه يقال: سرب يسرب.

قال الشاعر:

أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم ... ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أى ذاهب.

قال ابن عباس: فى هذه الآية هو صاحب ريبة مستخف بالليل، فإذا خرج بالنهار رأى الناس أنه برىء من الإثم.

وقال بعضهم: ﴿مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أى ظاهر، من قولهم: خفيت الشىء إذا أظهرته، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أى متوار داخل فى سرب.

❖ ❖ ❖

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ

خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾
لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ
لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾».

﴿لَهُۥ﴾ أى لله تعالى ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار أعقبتها ملائكة الليل، والتعقيب العود بعد المبدأ، قال الله ولم يعقب وإنما ذكرها هنا بلفظ جمع التأنيث، لأن واحدهما معقب وجمعه معقبة، ثم جمع المعقبة معقبات فهى جمع الجمع، كما قيل: أما قال قد حالات بكم، وقوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يعنى من قدام هذا المستخفى بالليل والسارب بالنهار ومن خلفه من وراء ظهره.

قال ابن عباس: ملائكة يحفظونه من أمر الله من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء القدر خلوا عنه.

حماد بن سلمة عن عبد الله بن جعفر عن كنانة العمرى قالوا: دخل عثمان بن عفان رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أسألك عن العبد كم معه من ملك؟ قال «ملك على يمينك يكتب حسناتك، وهو أمين على الذى على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشراً وإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين: أأكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله أو يتوب فإذا قال ثلاثًا قال: نعم؟ اكتب أراحنا الله منه فبئس القرين هو، ما أقل مراقبته لله عز وجل وأقل استحياءه منا يقول الله ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨) وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ، وآله، وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك، وملكان على عينيك هؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتداولون ملائكة الليل على ملائكة النهار، لأن ملائكة الليل أى ليسوا من ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكًا على كل آدمى وإبليس مع بنى آدم بالنهار وولده بالليل».

قتادة وابن جريج: هذه ملائكة الله عز وجل يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، وذكر لنا أنهم يجتمعون عند صلاة العصر وصلاة الصبح.

همام بن منبه عن أبى هريرة عن محمد رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج إليه الذين باتوا

فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادى؟ قالوا: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون».

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية قال: ذكر ملكًا من ملوك الدنيا له حرس من دونه حرس فإذا جاء أمر الله لم ينفعوا شيئًا.

عكرمة: هؤلاء ملائكة من بين أيديهم ومن خلفهم لحفظهم.

شعبة عن شرقى عن عكرمة قال: الجلاوزة.

الضحاك: هو السلطان المحترس من الله وهم أهل الشرك، وقوله ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ اختلفوا فيه فقال قوم: يعنى: بأمر الله، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض، وهذا قول مجاهد وقتادة ورواية الوالبى عن ابن عباس، وقال الآخرون: يحفظونه من أمر الله ما لم يجئ القدر.

لبيد عن مجاهد: ما من عبد إلا به ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منهم شىء بأمره يريده إلا قال فذاك لا يأتى بإذن الله عز وجل فيه فيصيبه.

وقال كعب الأحبار: لولا وكل الله بكم ملائكة يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذًا لتخطفتكم الجن.

وروى عمار بن أبى حفصة عن أبى مجلز قال: جاء رجل من مراد إلى على رضى الله عنه وهو يصلى، فقال: احترس فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإن الأجل جنة حصينة، وقال أهل المعانى: إن أوامر الله عز وجل على وجهين أحدهما قضى حلوله ووقوعه بصاحبه، فذلك ما لا يدفعه أحد ولا يغيره بشر ولا حتى الجن ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظة كقصة يونس عليه السلام، وقال ابن جريج: معناه ينكصون من الله أمر الله يعنى يحفظون عليه الحسنات والسيئات، وقال بعض المفسرين: إن هذه الآية أن الهاء فى قوله: ﴿لَهُۥ﴾ راجعة إلى رسول الله عليه السلام.

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ يعنى محمدًا عليه السلام من الرحمن حراس من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، يعنى من شر الجن والإنس ومن شر طارق الليل والنهار، وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت هذه الآية فى عامر بن الطفيل وزيد ابن ربيعة وكانت قصتهما على ما روى محمد بن مروان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: أقبل علينا زيد بن ربيعة هو وعامر بن الطفيل يريدان رسول الله ﷺ وهو جالس

فى نفر من أصحابه، فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس.

وقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل وهو مشرك.

فقال: دعه فإن يرد الله به خيراً يهده، فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد ما لى إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال: تجعل لى الأمر بعدك. قال: ليس ذلك إلى إنما ذاك إلى الله يجعله حيث يشاء.

قال: فاجعلنى على الوبر وأنت على المدر، قال الرجل: فماذا يجعل لى؟ قال: أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها.

قال: أوليس ذلك لى اليوم؟ قال: لا. قال: قم معى أكلمك، فقام رسول الله ﷺ وكان يوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتنى أكلمه فدر من ورائه السيف فجعل يخاصم رسول الله ﷺ فدار أربد بن ربيعة خلف النبى ﷺ ليضربه فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله عنه فلم يقدر على قتله وعامر يومئ إليه فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما منع بسيفه.

فقال: اللهم اكفينهما بما شئت، فأرسل الله على أربد صاعقة فى يوم صاح صائف وولى عامر هاربًا.

وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً وفتيانًا مرداً.

فقال رسول الله ﷺ: «يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة» يعنى الأوس والخزرج، فنزل عامر ببيت امرأة سلولية فأنشأ يقول:

بخير أبيت اللعن إن شئت ودنا ... فإن شئت حربًا بأس ومصدق
وإن شئت فنسيا ما يكفى أمرهم ... يكبون كبش العــارفين متألق

فلما أصبح ضم إليه سلاحه وقد تغير لونه، وهو يقول: واللات لئن أصحر محمد إلى وصاحبه - عنى ملك الموت لأنفذنهما برمحى، فلما رأى الله تعالى ذلك منه أرسل ملكًا فلطمه بجناحه فأذراه فى التراب، وخرجت على ركبته غدة فى الوقت كغدة البعير فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: غدة كغدة البعير وموت فى السلولية ثم مات على ظهر فرسه.

لعمرى ومـا عمرى على بهين ... لقد شان حمر الوجه طعنة مسهر
قــد علم المزنــوق أنى أكر ... على جمعهم كر المنيح المشهر
وأزود من وقع السنان زجرته ... وأخبرته أنى امرؤ غير مقصر
وأخبرتــه أن الفرار خزايــة ... على المرء ما لم يبل عـذراً فيعذر

لقـد علمت عليًّا هـوازن أننى — أنا الفارس الحامى حقيقـة جعفر

فجعل يركض فى الصحراء ويقول: أبرز يا ملك الموت، ثم أنشأ يقول:

لا قرب المزنوق ولتجـد مـا أرى — لنفر من يـوم شره غيـر حامـد
إلا قرباه إن غايـة حرمنـــاه — إذا قرب المزنوق بين الصفــايد
هو من عامر قدن إذا مـا دعوتهم — أجابوا ولبى منهـم كل ماجـد

وكان بعضهم يعير بعضًا النزول على سلولية ولذلك ركب فرسه ليموت خارجًا من بيتها ما أحس بالموت، ثم دعا بفرسه يركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره.

فأجاب الله تعالى دعاء رسوله ﷺ وقتل عامرًا بالطاعون وأربد بالصاعقة، فرثى لبيد بن ربيعة أخاه أربد بجملة من المراثى فمنها هذه:

وأنا لك فاذهـــب والحـــق — بأسرتـك الكـــرام الغيـــب
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم — وبقيت فى خلف كجلد الأجرب
يتآكلـــون مغـــالة ومـــلاذة — ويعـــاب قائلهم وإن لم يشغب
فنعـــد فى هـذا وقل فى غيره — واذكر شمائل من أخ لك معجب
إن الرزيئـة لا رزيئـة بعدهـــا — مثلها فقدان كل أخ كضوء الكوكب
مـن معشر بنت لهـم آباؤهـم — والعـــز لا يأتى بغيـــر تطلـــب
يا أربد الخير الكريم جـــدوده — أفردتنى أمشى بقرن أعضـــب

ومنها قوله:

مـا أن تعزى المنون من أحـد — لا والد مشنـــق ولا ولد
أخشى على أربد الحتوف — أرهب نوأ السمـاك والأسد
فعين هـــلا بكيت أربد إذ — قمنا وقام النساء فى كبـد
فجعنى البرق والصواعـــق — بالفارس يوم الكريهة النجد

فأنزل الله تعالى فى هـذه القصـة ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ يعنى رسول الله ﷺ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ يحفظونه ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يعنى تلك المعقبات من أمر الله وهى مقدم ومؤخر لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه تلك المعقبات من أمر الله وقال الذين (آمنوا): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وقرأ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾،

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحال لا (. . . .)[١] فيعصون ربهم ويظلمون بعضهم بعضًا.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ عذابًا وهلاكًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ علمها المخاوف بالله وقيل: وال ولى أمرهم ما يدفع العذاب عنهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ يخاف أذاه ومشقته ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم يرجو بركته وشفعته أن يمطر ﴿وَيُنشِئُ﴾ بينهم ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ يعنى قال إن شاء الله السحابة فيشاء أى أبدأها فبدلت وأسحاب جمع واحدتها سحابة ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أقبلت اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم نسألك خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (يوسف: ٦٦).

قال ﷺ: «هاتوا»، قالوا: أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة الموكلة بالسحاب معه مخاريف من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله».

قالوا: فما هذا الذى نسمع؟ قال: «زجر السحاب إذا زجر حتى ينتهى إلى حيث أمر».

قالوا: صدقت.

قال عطية: الرعد ملك، وهذا تسبيحه، والبرق سوطه الذى يزجر به السحاب فقال: لذلك الملك رعد وقد ذكرنا معنى الرعد والبرق بما أغنى عن إعادته.

وقال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ (إذا سمع صوت الرعد) قال سبحانه من يسبح الرعد بحمده.

عكرمة عن ابن عباس: أنه كان إذا سمع الرعد قال: سبحان الذى سبحت له.

وقال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شىء قدير، فإن أصابته صاعقة فعلى ذنبه.

وروى مالك بن أنس عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد.

وروى حجاج بن أرطأة عن أبى مطر عن سالم يحدث عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك».

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ يعنى ويسبح الملائكة من خيفة الله وخشيته، وقيل أراد هو أن

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الملائكة أعوان الرعد، جعل الله تعالى له أعوانا فهم جميعا خائفون، خاضعون طائعون به يرسل الصواعق عن الضحاك عن ابن عباس قال: الرعد ملك يسوق السحاب، وإن بحور الماء لفى نقرة إبهامه وإنه موكل بالسحاب يصرفه حيث يؤمر وإنه يسبح الله فإذا سبح الرعد لم يبق ملك فى السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أصاب أربد بن ربيعة.

قال أبو جعفر الباقر: الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب ذاكرًا.

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ وقد أصابت أربد وعامر، وقيل نزلت هذه الآية فى بعض كفار العرب.

حديث إسحاق الحنظلى عن ريحان بن سعيد الشامى عن عماد بن منصور عن عباس بن الناجى قالت: سألت الحسن عن قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الآية.

فقال كان رجل من طواغيت العرب بعث النبى ﷺ نفرًا يدعونه إلى الله ورسوله والإسلام، فقال لهم: أخبرونى عن رب محمد هذا الذى يدعونى إليه وما هو، ومم هو أمن فضة أم حديد أم نحاس، فاستعظم القوم مقالته وانصرفوا إلى النبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا رجلاً آخر أكفر منه، ولا أعتى على الله منه، فقال رسول الله ﷺ: «ارجعوا إليه»، فرجعوا إليه فجعل يزيدهم على مثل مقالته الأولى وقال: أجيب محمدًا إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا إليه، فقالوا: يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى إلا قوله: أجيب محمدًا إلى رب لا يعرفه، فقال: فقال رسول الله ﷺ: ارجعوا إليه، فرجعوا إليه فبينا هم عنده ينازعونه ويدعونه ويعظمون عليه، وهو يقول: هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم فرعدت ثم برقت فرمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس فجاءوا يسعون ليخبروا النبى ﷺ فاستقبلهم بعض أصحاب النبى ﷺ فقالوا لهم: احترق صاحبكم.

قالوا: من أين علمتم؟ قال: أوحى الله إلى النبى ﷺ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ فقال الحسن: ما شديد المحال؟

قال: شديد الحمل.

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: شديد الأخذ.

مجاهد: شديد القوة. أبو عبيدة: شديد العقوبة، والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة.

وأنشد أبو عبيدة للأعشى:

فرع نبع يهتز فى غصن المجد ... غزير الندى شديد المحال

وقال الآخر:

ولبس بين أقـوام كل ... أعد له الشغارب والمحالا

﴿لَهُۥ﴾ لله عز وجل ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ الصدق وأضيفت الدعوة إلى الحق لاختلاف الاسمين وقد مضت هذه المسألة.

قال علي رضي الله عنه: دعوة الحق التوحيد.

ابن عباس رضي الله عنه: شهادة أن لا إله إلا الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني المشركين الذين يعبدون الأصنام من دون الله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ يريدونه منهم من نفع أو دفع ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ إلا كما ينفع باسط كفيه إلى الماء من العطش يبسطه إياهما إليه يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدًا.

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هذا مثل لمشرك عبد مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي نظر إلى خياله في الماء من بعيد فتصور أن يتناوله فلا يقدر عليه، عطية عنه يقول: مثل الأوثان التي يعبدون من دون الله كمثل رجل قد بلغه العطش حتى كربه الموت وكفاه في الماء وقد وضعهم لا يبلغان تناوله.

الضحاك عنه يقول: كما أن العطشان إذا يبسط كفيه إلى الماء لا ينفعه ما لم يحفظهما ويروى بهما الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسط كفيه إلى الماء ليقبض على الماء، لأن القابض على الماء لا شيء في يده. قال ضاني بن الحارث المزني:

فإني وإياكم وشوقا إليكم ... كقابض ماء لم تسقه أنامله

وقال الشاعر:

وأصبحت مما كان بيني وبينها ... من الود مثل القابض الماء باليد

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أصنامهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ يضل عنهم إذا احتاجوا إليه.

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: ما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال، لأن أصواتهم تحجب عن الله تعالى.

❖ ❖ ❖

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ

شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى
ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ
جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ
لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ
أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا
يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ
ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن
صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ
عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ
أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ
أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني الملائكة والمؤمنين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يعني المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسبعة.

وروى ابن المبارك عن سفيان قال: كان ربيع بن هيثم إذا قرأ هذه الآية قال: بل طوعا يا رباه.

﴿وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ يعني ظلال الساجدين طوعًا أو كرهًا يسجد لله حين يبقى ظل

أحدهم عن يمينه أو شماله.

قال ابن عباس: نظيرها فى النحل.

قال الكلبى: إذا سجد بالغدو أو العشى سجد معه ظله.

وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعا وهو كاره، والآصال جمع أُصل، والأُصل جمع الأصيل وهو العشاء من العصر إلى غروب الشمس. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى خالقهما ومدبرهما فسيقولون الله ولا بد لهم من ذلك فإذا أجابوك ﴿قُلِ﴾ أنت أيضًا ﴿ٱللَّهُ﴾ ثم قيل لهم إلزامًا للحجة ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعنى الأصنام يعبدونها من دون الله وهى لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ثم نضرب لهم الأمثال ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وكذلك لا يستوى الضال والمؤمن المهتدى.

وقرأ الأعمش وعاصم وحمزة والكسائى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ بالياء. الباقون: بالتاء واختاره أبو عبيد قال: لأنه يحصل من اسم المؤنث ومن الفعل مقابل والظلمات والنور مثل الكفر والإيمان ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فأصبحوا لا يدرون أمن خلق الله هو أو من خلق آلهتهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ (. . . .)[1] للحق والباطل مثلين. فقال عز من قائل ﴿أَنزَلَ﴾ هو ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعنى المطر ﴿مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ الكبير بقدره والصغير بقدره ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ الذى حدث على ذلك الماء ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾ حال ارتفاعها بورد الماء فالماء الباقى الصافى النافع هو الحق.

والذاهب الزائل الباطل الذى يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية والأنهار وهو الباطل ويقال: إن هذا سيل القرآن ينزل من السماء فيحتمل منه القلوب حظها على قدر اليقين والشك والعقل والجهل فهذا مثل الحق والباطل.

والمثل الآخر قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾.

قرأ حميد أبو محجن أبو وهب وحمزة والكسائى يوقدون بالياء، واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ ولا مخاطبة هـهنا ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أى زينة يتخذونها ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ وهو ما ينتفع به وكل ما تمتعت به فهو متاع.

قال المشعث:

تمتع يا مشعث إن شيئًا سبقت به الممات هو المتاع

أراد به جواهر الأرض من الذهب والفضة.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

والحديد والصفر والنحاس والرصاص، ومنه يستخلص الأشياء مما ينتفع به من الحلى والجواهر وغيرهما.

﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ يقول: له زبد إذا أنث مثل زبد السيل، والباقى الصافى من هذه الجواهر فيذهب خبثه والزبد لا يبقى ولا ينتفع به مثل الباطل.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ الذى علا السيل.

﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ سريعا متفرقا.

قال أبو عمرو: هو من قول العرب: أجفأت القدر النذر وجنات وذلك إذا غلت فأنصب زبدها أو سكنت لم يبق منه شىء.

وقال القتيبى: الجفاء ما رمى به الوادى إلى جنانه. فقال: جفأته إذا صرعته.

وقال ابن الأنبارى: جفاء يعنى باليا متفرقا.

يقال: جفأت الريح بالغيم إذا فرقته وذهبت به.

قال بعضهم: يعنى تباعد الأرض. يقال جفأ الوادى وأجفأ إذا نشف.

قال الفراء: إنما أراد بقوله جفاء الجفاء لأنه مصدر، قولك جفأ الوادى غثاه جفاء فخرج مخرج الاسم وهو مصدر.

وكذلك يفعل العرب فى مصدر كل ما كان من فعل شىء اجتمع بعضه إلى بعض كالقماش والرقاق والحطام والغنام يخرجه على مذهب الاسم، كما فعلت ذلك فى قولهم أعطيته عطاء بمعنى الإعطاء، ولو أريد من القماش المصدر على الصحة لقيل قمشته قمشا.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من العوالق ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تم الكلام على هذا. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أطاعوه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالجنة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ يوم القيامة، قال الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ مجازيا بالعقوبة، قال إبراهيم النخعى والزبد. أتدرى ما سوء الحساب؟ قلت: لا. قال: هو أن يحاسب الرجل على معصية فعلها ويكفر عنه خطيئته، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الفراش والمصير ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾(. . . .)[1] فهو كافيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عنه لا يعلمه ولا يعمل ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الخطاب للأصحاب وذوى العقول ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ فى أمرهم يعنى فرضه عليهم فلا هم يخالفونه إلى ما هم فيه. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل أراد الإيمان بجميع الكتب والرسل

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ولا يعترفون بها.

وقال أكثر المفسرين: يعنى الرحم ويقطعونها.

الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: اشتكى أبو الدرداء فعاده عبد الرحمن بن عوف. فقال: خيرهم أوصلهم ما علمت يا محمد. فقال عبد الرحمن: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا الله وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته».

عن شيبة قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن وهب وأبوه عثمان بن عبد الله، أنهما سمعا موسى بن طلحة يحدث عن أبى أيوب الأنصارى: أن رجلا قال: يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، فقال القوم: ماله وماله. فقال النبى ﷺ: أرب ماله، فقال النبى ﷺ «تعبد الله لا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم ذرها» قال: كأنه كان على راحلته.

عطاء بن أبى مروان عن أبيه عن كعب قال: والذى فلق البحر لبنى إسرائيل إن فى التوراة لمكتوبًا يا بن آدم اتق ربك وأبر والديك وصل رحمك أمد لك فى عمرك وأيسر لك يسرك وأصرف عنك عسرك.

وعن أبى إسحاق عن مغراء العبدى عن عبد الله بن عمرو قال: من اتقى ربه ووصل رحم نسئ له فى عمره وثرا ماله وأحبه أهله.

صالح عن جرير عن برد عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «اعمل الخير (ليس شىء أطيع الله فيه أعجل ثوابًا من صلة) الرحم وليس شىء أعجل عقابا من البغى وقطيعة الرحم واليمين الفاجرة تدع الديار بلا قع».

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على طاعة الله وتصبروا عن معصية الله.

قاله ابن زيد، وقال ابن عباس: وصبروا على أمر الله.

قال عطاء: على الرزايا والمصائب والحوادث والنوائب.

أبو عمران الجونى: صبروا على دينهم.

﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طالب يعتصم بالله ويستغفر ربه أن يعصيه ويخالفه فى أمره ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعنى الزكاة ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ ويدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يقال: درأ الله عنى بشرك.

قال ابن زيد: يعنى لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعونه بالخير.

وقال القتيبى: معناه إذا سفه عليهم حلموا فالسفه السيئة والحلم الحسنة.

قتادة: ردوا عليهم معروفا نظيره ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

قال الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا أخلصوا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا.

ابن كيسان: إذا أذنبوا أيسوا وإذا حرموا أثابوا ليدفعوا بالتوبة عن أنفسهم فغفر الذنب.

فهذا قول ابن عباس فى رواية الضحاك عنه قال: يدفعون بالصالح من العمل الشر من العمل، ويؤيد هذا الخبر المأثور: أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله أوصنى. قال: «إذا عملت سيئة فاعمل لجنبها حسنة تمحها، السر بالسر والعلانية بالعلانية».

قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمانى خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة.

أبو بكر الوراق: هذه ثمانية جسور فمن أراد القربة من الله عبرها.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ثم بين فقال: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ .

قراءة العامة بفتح الياء وضم الخاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمر: بضم الياء وفتح الخاء.

قال عبد الله بن عمير: وإن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد.

﴿وَمَن صَلَحَ﴾ لهن ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ أهلهم وولدهم أيضًا يدخلونها ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم﴾ فيه آمنا تقديره ويقولون سلام عليكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ .

قال مقاتل: يدخلون فى مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات معهم الهدايا والتحف يقولون: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ .

صالح عن يزيد عن أنس بن مالك: أنه تلا هذه الآية جنات عدن إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ثم قال: إنه جنة من در وفضة طولها فى الهواء ستون ميلا ليس فيها صدع ولا وصل منه كل زاوية منها أهل فقال: لها أربعة آلاف مصراع من ذهب يقوم على كل باب سبعون ألف من الملائكة مع كل ملك منهم هدية من الرحمن ليس فى مثلها، لا يعلون (. . . .)[1] ليس بينهم وبينه حجاب.

وروى ابن المبارك عن عقبة بن الوليد قال: حدثنا أرطأة بن المنذر قال: سمعت رجل من ملجف بالجند يقال له أبو الحجاج يقول: حدثنى خالى أبو أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئا على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين سور فيقبل الملك، يستأذن فيقول الذى يليه: ملك يستأذن ويقول الذى يليه: ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

المؤمن فيقول: ائذنوا فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا فيقول الذى يليه كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الفقراء والمهاجرون الذين تسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء».

قال: فيأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.

وروى سهيل بن أبى صالح عن محمد بن إبراهيم قال: كان النبى ﷺ يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: السلام عليكم بما صبرتم فنعمى عقبى الدار.

أبو بكر وعمر وعثمان عليهم السلام كانوا يفعلون كذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يعنى النار.

وقال سعد بن أبى وقاص: هم الحرورية.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يوسع عليه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقتر ويضيق ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعنى فرطوا وجهلوا ما عند الله ويطمعون ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ قليل ذاهب قاله مجاهد، وقال عبد الرحمن بن باسط: كزاد الراعى يزود، أهله الكف من التمر أو الشىء من الدقيق أو الشىء عليه اللبن.

الكلبى: كمثل السكرجة والقصعة أو القدح والقدر ونحوها ينتفع بها ثم يذهب ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ويرشد الأمة إلى طاعته من رجع إليه بقلبه ثم وصفهم فقال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فى محل النصب والأمن قبله من ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ وتسكن فستأنس ﴿قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

مقاتل: بالقرآن ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

قال ابن عباس: هذا فى الحلف ويقولها إذا حلف الرجل المسلم بالله على كل شىء إلا سكن قلوب المؤمنين إليه.

وقال مجاهد: هم أصحاب رسول الله ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ابتداء ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبره، وقيل: معناه لهم طوبى خبر الابتداء الأول.

واختلف العلماء فى تفسير «طوبى».

الوالبى عن ابن عباس: طوبى لهم: فرح وقرة عين لهم، عكرمة: نعم ما لهم، الضحاك: غبطة لهم.

قتادة: حسنى لهم، معمر عنه: هذه كلمة عربية، يقول الرجل للرجل طوبى لكم أى أصبت خيرًا.

إبراهيم: خير وكرامة لهم.

شميط بن عجلان: طوبى يعنى دوام الخير. الفراء: أصله من الطيب وإنما جاءت الواو لضم ما قبلها وإتيان بقول العرب: طوباك، طوبى لك.

سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية.

سعيد بن مسجوح: اسم الجنة بالهندية، ربيع البستان بلغة الهند.

وروى ابن سعيد الهندى عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال له: يا رسول الله ما طوبى؟ قال: «شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة يخرج من أكمامها».

وروى معاوية بن مرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلى والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة».

وقال أبو هريرة: طوبى شجرة من الجنة (غرسها) الله لها (ثمر) تقتفى لعبدى عياشا صنعه له من الحلى بسرجها ولحمها وعن الإبل بأن تحتها قماشًا من الكسوة.

وقال مغيث بن سمى: طوبى شجرة من الجنة، لو أن رجلاً ركب قلوصًا جذعا ثم دار بها لم يبلغ المكان الذى ارتحل منه حتى يموت هرما وما فى أهل منزل إلا فيه غصن من أغصان تلك الشجرة متدل يصلهم الماء بالدلاء وإذا أرادوا أن يأكلوا من الثمرة تدلى إليهم فأكلوا منه ما شاءوا ويجيء عليها الطير أمثال البخت، يعنى الطير ويأكلون منه قديدا وشواء ثم تطير.

قال عبد بن حميد: هى شجرة فى جنة عدن أصلها فى دار النبى ﷺ وفى كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لونًا ولا زهرة إلا وفيها منها إلا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل مقابل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح.

وقال أبو سلام: حدثنى عامر بن زيد البكالى أنه سمع عتبة بن عبيد السلمى يقول: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله فى الجنة فاكهة؟ قال: «فيها شجرة تدعى طوبى هى تطابق الفردوس».

قال: أى شجر أرضنا تشبه؟ قال: «ليس تشبه شيئًا من شجر أرضك ولكن أتيت الشام»،

فقال: أتيت الشام يا رسول الله ﷺ؟ قال: فإنها تشبه شجرة تدعى الجوز ينبت على ساق واحد ثم ينتشر أعلاها. فقال: ما أعظم أصلها.

قال: لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتاها هرمًا.

قال وهب بن منبه: إن فى الجنة شجرة. قال: الطوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام ولا يقطعها زهوها رياط وورقها برود وقضبانها عنبر وبطحاؤها ياقوت وترابها كافور وحملها مسك يخرج من أصلها أنها الخمر واللبن والعسل، وهى مجلس لأهل الجنة فبينما هم فى مجلسهم إذا أتتهم الملائكة من ربهم يقودون لجامها مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا ووبرها كخز المرعزى من لينة، عليها رحال ألواحها من ياقوت ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس وإستبرق فيفتحونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا لتزوروه وتسلموا عليه.

قال: فيركبونها فهى أسرع من الطائر وأوطأ من الفراش نجبًا من غير مهنة يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها حتى إن الشجرة لتتنحى عن طرقهم فهم لا يفرقون بين الرجل وبين أخيه، قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه فإذا رأوه، قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام وأنت الجلال والإكرام، ويقول تبارك وتعالى عند ذلك: أنا السلام ومنى السلام وعليكم حقت رحمتى ومحبتى مرحبا بعبادى الذين خشونى بالغيب وأطاعوا أمرى، قال: فيقولون ربنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك فأذن لنا فى السجود قدامك، قال: فيقول الله عز وجل: إنها ليست بدار نصب وعبادة ولكنها دار ملك ونعيم وإنى قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلونى ما شئتم فإن لكل رجل منكم أمنيته، فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنية يقول: رب يتنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها فأتنى مثل كل شىء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت. فيقول الله عز وجل: لقد قصرت بك أمنيتك ولقد سألت دون منزلتك هذا لك منى وسألحقك بمن أتى، لأنه ليس فى عطائى تكدير ولا تصدير.

قال: ثم يقول: أعرضوا على عبادى ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال، فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منهم سرير من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة. فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين وعلى كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما ولا ريح طيب إلا وقد عبق بهما ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة يرى مخهما من

فوق سقفهما، كالسلك الأبيض من ياقوتة حمراء.

يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ويرى هو لهما مثل ذلك ثم يدخل إليهما فيطيبانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك، ثم يأمر الله الملائكة فيسيرون بهم صفًا في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له.

الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ شجرة أصلها في دار علي في الجنة، وفي دار كل مؤمن منها غصن يقال له طوبى.

﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ حسن المرجع.

وروى داود بن عبد الجبار عن جابر عن أبي جعفر قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ فقال: «شجرة أصلها في داري وفرعها في الجنة». ثم سئل عنها مرة أخرى. فقال: «شجرة في الجنة أصلها في دار علي وفرعها على أهل الجنة».

فقيل له: يا رسول الله نسألك عنها مرة فقلت: «شجرة في الجنة أصلها في دار علي وفرعها على أهل الجنة» فقال: «ذلك في داري ودار علي أيضًا واحدة في مكان واحد».

❖ ❖ ❖

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ المكان ﴿أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ

إِلَيْكَ﴾ ليقرأ عليهم القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾.

قال قتادة ومقاتل وابن جريج: نزلت فى صلح الحديبية حتى أرادوا كتاب الصلح. فقال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل بن عمرو والمشركون معه: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، اكتب باسمك اللهم وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون.

ثم قال رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فقال المشركون وقريش: لئن كتب رسول الله بم قاتلناك وصددناك قال فأمسك ولكن اكتب هذا ما صالح محمد بن عبد الله.

فقال أصحاب رسول الله ﷺ: دعنا نقاتلهم. قال: لا ولكن اكتبوا كما تريدون، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى ﷺ: «اسجدوا للرحمن» فقالوا: وما الرحمن؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال: قل لهم يا محمد: إن الرحمن الذى أنكرتم معرفته ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ومضى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية نزلت فى نفر من مشركى مكة فيهم أبو جهل ابن هشام وعبد الله بن أبى أمية المخزومى جلسوا خلف الكعبة فأرسلوا إلى النبى ﷺ فأتاهم فقال له عبد الله بن أبى أمية: إن تشرك نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا حتى تفتح. فإنها ضيقة، واجعل لنا فيها عيونًا وأنهارًا حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال يسبح لربه، أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضى عليه أمورنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا.

فقد كان سليمان سخرت له الريح، فكما حملت لنا فلست بأهون على ربك من سليمان فى داود.

وأحى لنا جدك أيضًا ومن شئت من موتانا لنسأله أحق ما يقول أم باطل؟ فإن عيسى كان قد يحيى الموتى ولست بأهون على الله منه، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ وأذهبت عن وجه الأرض ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أى شققت فجعلت أنهارًا وعيونًا.

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ واختلفوا فى جواب لو، فقال قوم: هذا من النزول المحذوف الجواب اقتضى بمعرفة سامعه مراده وتقدير الآية لكان هذا القران.

كقول امرئ القيس:

فلو أنها نفس تموت بتوبة ولكنها نفس بقطع النفسا

يعنى لهان على، وهى آخر بيت فى القصيدة.

وقال آخر:

فأقسم لو شىء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مرفعا

فأراد أرددناه، وهذا معنى قول قتادة. لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم.

وقال آخرون: جواب لو تقدم وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية كأنه قال ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن وبما آمنوا.

ثم قال: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ .

قال المفسرون: أفلم يعلم.

وقال الكلبى: هى بلغة النخع حى من العرب.

وقال القاسم بن معن: هى لغة هوازن.

وقال سحيم بن وثيل الرياحى:

أقول لهم بالشعب إذ يسروننى ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

أراد ألم يعلموا، وقوله: إذ يسروننى أى يقتسموننى من الميسر كما يقتسم الجزور.

ويروى: لمسروننى من الأسر.

وقال الآخر:

ألم ييأس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

ودليل هذا التأويل قراءة ابن عباس: (أفلم يتبين)، وقيل لابن عباس: المكتوب «أفلم ييئس» قال: أظن الكاتب كتبها وهو ناعس.

وأما الفراء: فكان ينكر ذلك ويزعم أنه لم يسمع أحد من العرب يقول: يئست وهو يقول هو فى المعنى وإن لم يكن مسموعًا يئست بمعنى علمت متوجه إلى ذلك، وذلك أن الله تعالى قد أوحى إلى المؤمنين أنه لو شاء الله لهدى الناس جميعًا.

فقال ألم ييئسوا علمًا يقول يؤسهم العلم فكان العلم فيه مضمرًا كما يقول فى الأعلام يئست منك أن لا يفلح علمًا كأنه قال علمته علمًا. قال الشاعر:

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفًا دواجن قافلاً أعصامها

بمعنى إذا يئسوا من كل شىء مما يمكن إلا الذى ظهر لهم أرسلوا فهو فى معنى: حتى إذا

علموا أن ليس وجه إلا الذى رأوا وانتهى علمهم فكان ما سواه يأسًا.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية ومصيبة شديدة تقرعهم من أنواع البلاء والعذاب أحيانًا بالجدب وأحيانًا بالسلب وأحيانًا بالقتل وأحيانًا بالأسر.

وقال ابن عباس: أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليها ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أى تنزل أنت يا محمد بنفسك ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

وقال قتادة: هى تاء التأنيث يعنى وتحل القارعة قريبًا من دارهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الفتح والنصر وظهور رسول الله ﷺ ودينه وقيل يعنى القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أصلهم واطلب لهم ومنه الملاوة والملوان ويقال طبت حينًا، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى حافظها ورازقها وعالم بها ومجاز بها ما عملت، وجوابه محذوف تقديره: كمن هو هالك بائد لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم شيئًا ولا يدفع عن نفسه، نظيره قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ (الزمر: ٩) يعنى كمن ليس بقانت ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بينوا أسماءهم ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ يعنى يخبرون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه لم يعلم لنفسه شريكًا ولا فى الأرض إلهًا غيره ﴿أَم بِظَٰهِرٍ﴾ يعنى بظاهر ﴿مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مسموع وهو فى الحقيقة باطل لا أصل له ولا باطل صالح ولا حاصل وكان أستاذنا أبو القاسم الحبيبى يقول: معنى الآية عندى: قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر من القول يعلمه؟ فإن قالوا بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا: بظاهر يعلمه قل لهم سموهم، وبينوا من هم، فإن الله لا يعلم لنفسه شريكًا، ثم قال: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ كيدهم.

قال مجاهد: قولهم يعنى شركهم وكذبهم على الله.

﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وصرفوا عن الدين والطريق المستقيم.

قرأ أهل الكوفة: بضم الصاد واختاره أبو عبيد بأنه قراءة أهل السنة: وفيه إثبات القدر.

وقرأ الباقون: بالفتح، واختاره أبو حاتم اعتبارًا بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٢٥) وقوله ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (الفتح: ٢٥) وقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٦٧) ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يعنى إياه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ موفق ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشد ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ مانع يمنعهم من العذاب.

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فى دخولها اختلفوا فى الرافع للمثل.

فقال الفراء: هو ابتداء وخبر على قوله ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وقيل معنى المثل الصفة كقوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النحل: ٦٠) أى الصفة العليا وقوله ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ (الفتح: ٢٩) ومجاز الآية صفة الجنة التى وعد المتقون أن الأنهار تجرى من تحتها وكذا وكذا.

وقيل مثل وجه مجازها الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار، والعرب تفعل هذا كثيراً بالمثل والمثل كقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١) أى ليس هو كشىء.

وقيل معناه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الرعد: ١٨) قيل الجنة (بدل) منها.

قال مقاتل: معناه شبه الجنة التى وعد المتقون فى الخير والنعمة والخلود والبقاء كشبه النار (فى العذاب) والشدة والكرب.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ولا يفنى ﴿وَظِلُّهَا﴾ ظليل لا يزال وهذا رد على الجهمية، حيث قالوا: إن نعيم الجنة يفنى ﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ يعنى ما فيه ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الجنة ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعنى القرآن وهم أصحاب محمد ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعنى الكفار الذين كذبوا على رسول الله ﷺ وهم اليهود والنصارى ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وذلك أنهم آمنوا بسورة يوسف وقالوا إنها واطأت كتابنا وهذا قول مجاهد وقتادة.

وقال باقى العلماء: كان ذكر الرحمن فى القرآن قليلاً فى بدء ما أنزل فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه؛ ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن، لأن ذكر الرحمن فى التوراة كثير فسألوا

رسول الله ﷺ فى ذلك قوله تعالى ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ (الإسراء: ١١٠) الآية.

فقالت قريش حين نزلت هذه الآية: ما بال محمد كان يدعو إلى إله واحد فهو اليوم يدعو إلى إلهين: الله والرحمن، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٦) وهم يكفرون بالرحمن وفرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن فأنزل الله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الله من ذكر الرحمن ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعنى مشركى قريش ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾. قال الله ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ مرجعى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ وكما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد وأنكره الأحزاب، كذلك أيضًا أنزلنا الحكم والدين حكمًا عربيًا، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزل على محمد وهو عربى، فنسب الدين إليه إذ كان منزلاً عليه فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضًا، وقال قوم معنى الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغناهم كذلك أنزلنا عليك القرآن حكمًا عربيًا ثم توعده على اتباع هوى الأحزاب فقال ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ قيل بما شاء الله، وقيل فى أهل القبلة لأنه ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ فجعلناهم بشرًا مثلك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا﴾ نكحوهن ﴿وَذُرِّيَّةً﴾ وأولاد ينسلونهم ولم يجعلهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعل الرسول إلى قومك ملائكة ولكن أرسلنا إلى قومك بشرًا مثلهم كما أرسلنا إلى من قبلهم من الأمم بشرًا مثلهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهذا جواب عبد الله بن أبى أمية ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل أمر أمضاه الله كان قد كتبه لجميع عبيده، الضحاك: معناه لكل كتاب نزل من السماء أجل ووقت ينزل فيه وهذا من المقلوب ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

قرأ حميد وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بالتخفيف.

وقرأ الآخرون: بالتثقيل واختاره أبو عبيد لكثرة من قرأها ولقوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (إبراهيم: ٢٧).

واختلف المفسرون فى معنى الآية، فروى نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء إلا الشقاوة والسعادة والموت».

وعن ابن عباس قال: يمحو الله ما يشاء إلا أشياء: الخَلْق والخُلُق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة.

عكرمة عنه: هما كتابان سوى أم الكتاب يمحو الله فيهما ما يشاء ويثبت ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الذى لا يغير منه شىء.

أبو صالح والضحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه ثواب وعقاب.

وروى عفان عن همام عن الكلبى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه ويمحو من الأجل ويزيد فيه. قلت من حدثك؟

قال أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رئاب الأنصارى عن النبى ﷺ فقدم الكلبى بعد فسئل عن هذه الآية فقال: حتى إذا كان يوم الخميس يطرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قولك أكلت، شربت، دخلت، خرجت ونحوها من الكلام وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب.

وقال بعضهم: يمحو الله ما يشاء ويثبت كل ما يشاء (من) غير استثناء كما حكى الكلبى عن راذان عن جابر عن النبى ﷺ.

روى أبو عثمان النهدى: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف بالبيت السبت وهو يبكى ويقول: اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فإن كنت كتبت على الذنب والشقوة فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

ابن مسعود: إنه كان يقول: اللهم إن كنت كتبتنى فى السعداء فأثبتنى فيهم وإن كنت كتبتنى فى الأشقياء فامحنى من الأشقياء وأثبتنى فى السعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

وروى حماد بن أبى حمزة عن إبراهيم: أن كعبًا قال لعمر رضى الله عنه: يا أمير المؤمنين لولا آية فى كتاب الله لأنبئنك بما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال: وما هو؟ قال: قول الله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وروى عطية عن ابن عباس فى هذه الآية قال: هو الرجل يعمل للزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذى يمحو، والذى يثبت الرجل الذى عمل بطاعة الله وقد كان يقول: خير أمتى يموت وهو فى طاعة الله، فهو الذى يثبت.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: يمحو الله ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها كقوله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ (يس: ٣١) وقوله ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (المؤمنون: ٣١).

سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء وما ينسخه.

الحسن: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ يعنى آجال بنى آدم فى كتاب يمحو الله ما يشاء من جاء أجله فيذهب به ويثبت من لم يجئ أجله إلى أجله.

مجاهد وابن قيس: حينما أنزل ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ٣٨) ما نراك يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ من أمره. فأنزلت هذه الآية تخويفًا ووعدًا لهم أي إن يشأ أحدثها من أمر. قاله بأشياء ويحدث فى كل رمضان فى ليلة القدر فيمحو ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وينسئهم له.

محمد بن كعب القرظى: إذا ولد الإنسان أثبت أجله ورزقه وإذا مات محى أجله ورزقه.

وروى سعيد بن جبير: يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء بتركها فلا يغفرها.

عكرمة: يمحو الله ما يشاء يعنى بالتوبة جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات فإنه ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠).

وروى عن الحسن أيضًا: يمحو الله ما يشاء يعنى الآباء ويثبت يعنى الأبناء.

السدى: يمحو الله ما يشاء يعنى القمر ويثبت يعنى الشمس.

بيانه قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء: ١٢).

ربيع: هذا فى الأرواح فى حال النوم يقبضها عند النوم فمن أراد موته محا وأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه.

بيانه قوله ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الزمر: ٤٢).

وقيل: يمحو الله ما يشاء الدنيا ويثبت الآخرة.

وروى محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل، فى الساعة الأولى منهن ينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه آخر غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء».

ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: إن لله لوحًا محفوظًا مسيرة خمسمائة عام من درة جنانها رمان من ياقوت ولله فى كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو منها ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

قال قيس بن عباد: العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب يعنى اللوح المحفوظ الذى لا يغير ولا يبدل.

قال قتادة والضحاك: حلية الكتاب وأصله فيه ما يمحو ويثبت.

فسأل ابن عباس كذا عن أم الكتاب.

قال: يعلم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون فقال لعلمه: كن كتابًا فكان كتابًا ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ الذى عليك (أن تبلغهم) ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ والجزاء.

❖ ❖ ❖

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعنى أهل مكة الذين يسألون محمدًا الإيمان ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ نقصدها ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ يفتحها لمحمد ﷺ أرضًا بعد أرض حوالى أرضهم فلا يخافون أن نفتح أرضهم كما فتحنا له غيرها، وبنحو ذلك قال أهل التأويل. روى صالح بن عمرو عن عمرو بن عبيد عن الحسن قال: ظهور المسلمين على المشركين.

وروى وكيع عن سلمة بن سبط عن الضحاك قال: ما تغلب عليه محمد ﷺ من أرض العدو.

جبير عن الضحاك قال: أولم ير أهل مكة أنا نفتح لمحمد ما حوله من القرى.

وروى إسحاق بن إبراهيم السلمى عن مقاتل بن سليمان قال: الأرض مكة وننقصها من أطرافها غلبة النبى ﷺ والمؤمنين عليها وانتقاصهم وازدياد المسلمين. فكيف لا يعتبرون! وقال قوم: معناه أولم يروا إلى الأرض ننقصها أفلا تخافون إن جعل بهم وبأرضهم مثل ذلك فيهلكهم ويخرب أرضهم.

ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: خراب الأرض وقبض أهلها.

يزيد الخوى عن عكرمة قال: يعنى قبض الناس.

وقال: لو نقصت الأرض لصارت مثل هذه وعقد بيده سويتين.

عثمان بن السناج عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: موت أهل الأرض.

طلحة بن أبى طلحة القناد عن الشعبى: قبض الأنفس والثمرات.

على بن أبى طلحة عن ابن عباس: نقصان أهلها وتركها.

عثمان بن عطاء عن أبيه: قال ذهاب علمائها وفقهائها.

قال الثعلبى: أخبرنا أبو على بن أحمد الفقيه السرخسى قال: حدثنا أبو لبيد بن محمد بن إدريس البسطامى حدثنا سعد بن سعيد حدثنا أبى حدثنا أبو حفص عن محمد بن عبد الله عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا العلم قبل أن يذهب».

قلنا: وكيف يذهب العلم والقرآن بين أظهرنا قد أثبته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا نقرأه ونقرئه أولادنا فأنصت ثم قال هل ظلت اليهود والنصارى إلا والتوراة بين أظهرهم ذهاب العلم ذهاب العلماء.

وحدثنا الأستاذ أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب لفظًا فى صفر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فى آخرين.

قالوا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أبو ضمرة وأنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

وحدثنا أبو القاسم أخبرنا محمد بن أحمد بن سعيد حدثنا العباس بن حمزة حدثنا (. . . .)[١] السدى حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان عن عبد الله بن عبد الرحمن عن سالم ابن أبى الجنيد عن أبى الدرداء أنه قال: يا أهل حمص ما لى أرى أن علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون، فأراكم قد أقبلتم على ما يكفل لكم، وضيعتم ما وكلتم به اعلموا قبل أن يرفع العلم فإن رفع العلم ذهاب العلماء.

وأخبرنا أبو القاسم حدثنا عبد الله بن المأمون بهرات حدثنا أبى حدثنا خطام بن الكاد بن الجراح عن أبيه عن جويبر عن الضحاك قال: قال على رضى الله عنه: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كف لم تعد.

حدثنا أبو القاسم حدثنا أبى حدثنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد الرازى الزعفرانى حدثنا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

عمر بن مدرك البلخي، أبو حفص حدثنا مكي بن إبراهيم حدثنا هشام بن حيان عن الحسين قال: قال عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار.

ومنه عن الرازي حدثنا عمرو بن تميم الطبري. أخبرنا محمد بن الصلت. حدثنا عباد بن العوام عن هلال عن حيان قال: قلت لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم، ونظير هذه الآية في سورة الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا راد لحكمه، والمعقب في كلام العرب الذي يكرّ على الشيء ويتبعه.

قال لبيد:

حتى تهجر في الرواح وهاجه طلب المعقب حقه المظلوم

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني من قبل مشركي مكة ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ يعني له أسباب المكر وبيده الخير والشر وإليه النفع والضر فلا يضر مكر أحد أحدًا إلا من أراد الله ضره، وقيل: معناه له جزاء إليكم.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (الكافر) على الواحد، والباقون على الجمع.

﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدار الآخرة ممن يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أني رسوله إليكم، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أيضًا يشهدون على ذلك. هم مؤمنو أهل الكتاب.

وقرأ الحسين وسعيد بن جبير: ﴿وَمِنْ عِندِهِۦ﴾ بكسر الميم والدال. علم الكتاب مبني على الفعل المجهول.

وروى أبو عوانة عن أبي الخير قال: قلت لسعيد بن جبير ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ قال: كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية.

وكان سعيد يقرأها ﴿وَمِنْ عِندِهِۦ عُلِمَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، ودليل هذه القراءة قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥)، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (الرحمن: ١، ٢).

وأخبرنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن بابويه أخبرنا أبو رجاء محمد بن حامد بن محمد المقرئ بمكة حدثنا عبد الله بن عمر حدثنا سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن النبي ﷺ قرأها: ﴿وَمِنْ عِندِهِۦ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وبه عن السمرى حدثنا أبو توبة عن الكسائى عن سليمان عن الزهرى عن نافع عن ابن عمر قال: قال: وذكر الله أشد فذكر أنه حيث جاء إلى الدار ليسلم سمع النبى ﷺ يقرأ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بكسر الميم وسمعه فى الركعة الثانية يقرأ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ﴾ (العنكبوت: ٤٩) الآية.

أخبرنى أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسى حدثنا القاضى الحسين بن محمد بن عثمان النصيبى أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين السميعى بحلب حدثنى الحسين بن إبراهيم بن الحسين الجصاص. أخبرنا الحسين بن الحكم حدثنا سعيد بن عثمان عن أبى مريم وحدثنى ابن عبد الله ابن عطاء قال: كنت جالسًا مع أبى جعفر فى المسجد فرأيت ابن عبد الله بن سلام جالسًا فى ناحية فقلت لأبى جعفر: زعموا أن الذى عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام. فقال: إنما ذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وفيه عن السبيعى: حدثنا عبد الله بن محمد بن منصور بن الجنيد الرازى عن محمد بن الحسين بن الكتاب.

أحمد بن مفضل حدثنا مندل بن على عن إسماعيل بن سلمان عن أبى عمر زاذان عن ابن الحنفية ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: هو على بن أبى طالب رضى الله عنه.

❖ ❖ ❖

سورة إبراهيم عليه السلام

كلها مكية غير آيتين وهما قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ (إبراهيم: ٢٨) إلى قوله ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾(إبراهيم: ٣٠) نزلتا فى قتلى بدر وأسراهم، (مكية) وهى ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفًا وثمانمائة وإحدى وثلاثون كلمة فى اثنتين وخمسين آية.

أخبرنا أبو الحسين بن على بن محمد بن الحسن المقرى غير مرة قال: حدثنا أبو بكر أحمد ابن إبراهيم وأبو الشيخ عبد الله بن محمد قالا: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن شريك، أحمد ابن يونس اليربوعى عن سلام بن سليم المدائنى، عن عمرو بن كثير عن يزيد بن أسلم عن أبيه عن أبى أمامة عن أبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم والحجر أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿الر﴾ ابتدأ ﴿كِتَابٌ﴾ خبره وإن قلت هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد يعنى القرآن

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ لتدعوهم (إليه) ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ الضلالة والجهالة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ العلم والإيمان ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيق ربهم إياهم ولطفه بهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قرأ أهل المدينة والشام: (الله) برفع الهاء على الاستئناف وخبره: «الذى» وقرأ الآخرون: بالخفض نعتًا للعزيز الحميد.

وقال أبو عمر: بالخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض. كقول القائل مررت بالظريف عبد الله.

لو كنت ذا نبل وذا شريب ما خفت شدات الخبيث الذيب

وكان يعقوب بن إسحاق الحضرمى إذا وقف على الحميد رفع قوله ﴿ٱللَّهِ﴾ وإذا وصل خفض على النعت ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويضربون ويميلون الناس عن دين الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويطلبونها زيغًا وقيلاً، والعوج بكسر العين فى الدين والأمر والأرض كل ما لم يكن قائمًا.

والعوج بفتح العين فى كل ما كان قائمًا كالحائط والرمح ونحوهما ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ بلغتهم ليفهموا لغته، بيانه قوله ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بالدعوة ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾.

قال ابن عباس وأُبى بن كعب ومجاهد وقتادة: بنعم الله.

قال مقاتل: بوقائع الله فى الأُمم السالفة وما كان فى أيام الله الخالية من النقمة والمحنة فاجتزأ بذكر الأيام عنه؛ لأنها كانت معلومة عندهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قال أهل المعانى: أراد لكل مؤمن؛ لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين وأفعالهم إلى قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

قال الفراء: العلّة الجالبة لهذه الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير الذبح والتذبيح وإن طرح الواو فى قوله ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ ويقتلون فإنه أراد تفسير صفات العذاب الذى كانوا يسومونهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يتركونهن حبالى لأنفسهنّ ومنه قول النبى ﷺ: «اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم» أى دعوا شبانهم أحياء ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أى أعلم ودليله قراءة عبد الله بن مسعود: وإذ قال

ربكم به. وأذن ويأذن بمعنى واحد مثل أوعد وتوعد.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمتى وآمنتم وأطعتم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فى النعمة قال ابن عيينة: الشكر بقاء النعمة ومن الزيادة ومرضاة المؤمن، وقيل الشكر قيد للموجود وقيد للمفقود.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمتى فصددتموها ولم تشكروها.

﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود فى أفعاله لأنه فيها سيفصل أو يعدل.

❖ ❖ ❖

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعنى من كان بعد قوم نوح وعاد وثمود.

وكان ابن مسعود يقرأها: ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم يقول كذب النسابون ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾

قال ابن مسعود: يعنى عضوا على أيديهم غيظًا.

قال ابن زيد وقرأ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ (آل عمران: ١١٩).

ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا فرجعوا بأيديهم إلى أفواههم.

مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردّوا ما حلوا به.

الأخفش وأبو عبيدة: أى تركوا ما أُمروا به وكفوا عنه ولم يمضوه ولم يؤمنوا.

تقول العرب للرجل إذا أمسك عن الجواب فلم يجب وسكت: قد ردّ يده فى فيه.

قال القيسى: إنا لم نسمع واحدًا من العرب يقول ردّ يده فى فيه إذا ترك ما أمر به وإنما المعنى: أنهم عضوا على الأيدى حيفًا وغيظًا.

كقول الشاعر:

❖ تردون فى فيه غش الحسود ❖

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أنامله العشر.

وقال الهذلى:

قد أفنى أنامله أزمة   فأضحى يعض على الوظيفا

الوظيف يعنى الذراع والساق، واختار النحاس هذا القول؛ لقوله تعالى ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾.

وأنشد:

لو أن سلمى أبصرت تخددى   ودقة فى عظم ساقى ويدى
وبعد أهلى وجفاء عودى   عضت من الوجد بأطراف اليد

قال الكلبى: يعنى من الأمم ردّوا بأيديهم إلى أفواههم أى فى أفواه أنفسهم؛ إشارة إلى الرسل إن سكتوا.

مقاتل: فردوا أيديهم على أفواه الرسل حين يسكتونهم بذلك ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ يعنى الأُمم للرسل، ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ موجب الريبة، موقع للتهمة ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ من تعجله ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعنى الموت فلا يعاجلكم بالعذاب والعقاب ﴿قَالُوٓاْ﴾ الرسل ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فى الصورة والهيئة ولستم بملائكة وإنما يريدون بقولكم ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أى بينة على صحة دعواكم، والسلطان فى القرآن على وجهين وجه ملائكة ووجه بينة كقوله ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ (إبراهيم: ٢٢) ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ (سبأ: ٢١) فصحة قوله ﴿إِنْ عِندَكُم

مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ (يونس: ٦٨) بهذا وقوله: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (إبراهيم: ١٠).

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالنبوة والحكمة إلى قوله ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ بيّن لنا الرشد وبصرنا طريق النجاة، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ اللام للقسم مجازه لنصبرن ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله تعالى ﴿فِى مِلَّتِنَا﴾ يعنون الآن ترجعون وحتى ترجعوا إلى ديننا ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أى من بعد هلاكهم ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أى مقامه وقيامه بين يدى، فأضاف قيام العبد إلى نفسه، كما يقول يذهب على ضربك أى ضربى إياك، ويسوف رويتك أى برويتى إياك. قال الله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢) أى رزقى إليكم فإن شئت قلت ذلك لمن يخاف قيامى عليه ومراقبتى له، مثاله قوله ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: ٣٣).

وقال الأخفش: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أى عذابى.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ ۝ وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ واستنصروا الله عليها.

قال ابن عباس ومقاتل: يعنى الأمم، وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، نظيره قوله تعالى ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٩) وقالوا ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ (الأنفال: ٣٢) الآية.

وقال مجاهد وقتادة: يعنى الرسل وذلك أنهم لما تبينوا من إيمان قومهم استنصروا عدوّهم ودعوا على قومهم بالعذاب.

بيانه قوله تعالى فى قصة نوح ولوط وموسى ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

مجاهد: معاند للحق ويجانبه.

وقال إبراهيم: الناكب عن الحق.

ابن عباس: المعرض.

وقتادة: العنيد الذى لا يقول لا إله إلاّ الله.

مقاتل: المستكبر.

ابن كيسان: الشامخ بالحق.

ابن زيد: المخالف للحق.

والعرب تقول: شر الإبل العنيد الذى يخرج من الطريق خيره، المريد العاصى، ويقال عند العرب إذا لم يرقأ دمه.

وقال أهل المعانى: المعاند والعنيد هو المعارض لك بالخلاف وأصله من العند وهو الناحية.

قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلونى وسطا إنى كبير لا أطيق العندا

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ يعنى أمامه وقدامه كما يقال: إن الموت من ورائك. قال الله ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ (الكهف: ٧٩).

قال الشاعر:

أتوعدنى وراء بنى رياح كذبت لتقصرن يداك دونى

أى قدامهم.

أبو عبيدة: من الأضداد.

وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الآخر من ورائك أى سوف يأتيك.

وأنا من وراء فلان يعنى أصل إليه.

وقال الشاعر:

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكـــــون وراءه فرج قريب

وقال بعضهم: إنما يجوز هذا فى الأوقات؛ لأن الوقت يمر عليك فيصير إن أخرته خلفك.

مقاتل: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ يعنى بعده.

وكان أُستاذنا أبو القاسم الحبيبى يقول: الأصل فى هذا أنّ كل ما ورائى عندك شىء من خلفك وقدام فهو (. . . .)[1]، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ ثم بين ذلك لنا فقال ﴿صَدِيدٍ﴾ وهو القيح والدم.

قتادة: هو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه.

محمد بن كعب والربيع بن أنس: هو غسالة أهل النار وذلك ما يسيل من ابن الزنا يسقى الكافر ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يتحساه ويشربه ويجرع لا بمرة واحدة لمرارته وحرارته ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ لا يكاد أستقبله مجازه ولا يستسيغه كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ (النور: ٤٠) أى لم يرها.

قال ابن عباس: لم يحبوه، وقيل لا يحبّونه.

وروى أبو أُمامة عن النبى ﷺ فى هذه الآية يعطى إليه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه فقطع أمعاءه وحتى يخرج من دبره. يقول الله ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (محمد: ١٥) وقال: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ (الكهف: ٢٩)﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

مَكَانٍ﴾ من أعضائه فيجد ألم الموت وسقمه.

وقال إبراهيم التيمى: حتى من تحت كل شعرة فى جسده.

الضحاك: حتى من إبهام رجله.

الأخفش: يعنى البلايا التى تصيب الكافر فى النار سمّاها موتًا.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ولا يخرج نفسه فيستريح.

وقال ابن جريج: تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة، نظيره قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (طه: ٧٤) ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ شديد.

❖ ❖ ❖

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ اختلفت النحاة فى رفع مثل، قال الفراء: أضاف المثل إلى الكافرين والمثل للأعمال؛ لأن العرب تقدم الأسماء؛ لأنها أعرف ثم تأتى بالخبر الذى يخبر عنه مع صاحبه، ومجاز الآية (مثل الذين كفروا بربهم كرماد)، قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ (السجدة: ٧) أى أحسن خلق كل شىء وقوله ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ (الزمر: ٦٠) معناه يوم القيامة ترى وجوه الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة سيئة، فى الآية إضمار معناها ولا يمنّ عليك مثل الذين كفروا بربهم، ثم ابتدأ وأخذ يفسره فقال: أعمالهم ﴿كَرَمَادٍ﴾ وإن شئت جعلت المثل صفة فقلت: الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ﴾ وصف اليوم بالعصوف وهو من صفة الريح؛ لأن الريح تكون فيه كما يقال يوم بارد وحار؛ لأن البرد والحر يكونان فيه، وليل نائم ونهار صائم. قال الله ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ (يونس: ٦٧) ويدلّ عليه الليل والنهار.

قال الشاعر:

❖ يومين غيمين ويومًا شمسًا ❖

وقال الفراء: إن شئت قلت: فى يوم فى عصوف وإن شئت قلت: فى يوم عاصف الريح، تحذف الريح؛ لأنها قد ذكرت قبل ذلك.

كقول الشاعر:

❖ إذا جاء يوم مظلم الشمس كاسف ❖

أراد كاسف الشمس.

وقيل هو من نعت الريح غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل (حجر ضب خرب) ونحوه، وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكافر يعنى هم لا ينتفعون بأعمالهم التى عملوها فى الدنيا؛ لأنهم أشركوا فيها كما أنّ الرماد الذى فرّقه الريح لا ينتفع به. فذلك قوله ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ يعنى الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ فى الدنيا ﴿عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾ فى الآخرة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۞ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

قرأ أهل الكوفة إلاّ عامرًا: (خالق السموات والأرض) على التعظيم.

وقرأ الآخرون: خلق السموات على الفصل.

﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ قال المفسرون: لم يخلقهما باطلاً وإنما خلقهما لأمر عظيم.

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ يبدلكم أحسن وأفضل وأطوع منكم، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ منيع متعذر ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ خرجوا من قبورهم وظهروا لله جميعًا، الاستقبال ﴿فَقَالَ

﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾ يعنى الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ يعنى المتبوعين من القادة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع تابع مثل حارس وحرس، وقيل: راصد ورصد ونافر ونفر، ويجوز أن يكون تبع مصدراً سمى به أى كنا ذوى تبع.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أى هل أنتم دافعون عذاب الله عنا، قال المتبوعون ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى قوله ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ مهرب ولا منجى، ويجوز أن يكون بمعنى المصدر وبمعنى الاسم.

يقال حاص فلان عن كذا أى فرّ وزاغ عنه يحيص حيصًا وحيوصًا وحيصانًا.

قال مقاتل: إنهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع.

يقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فحينئذ يقولون ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ يعنى إبليس ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فرغ من الأمر فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

قال مقاتل: يوضع له منبر من نار فيرقاه ويجتمع الكفار عليه بالأئمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ يوفى لكم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ ولاية ومملكة وحجة وبصيرة ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هذا من الاستثناء المنقطع مجازه لمن يدعونكم ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ بإجابتى ومتابعتى من غير سلطان وغير برهان ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمعينكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ﴾ بمغنىّ وبمغيثى.

قرأه العامة: ﴿بِمُصْرِخِىَّ ۖ﴾ بفتح الياء.

وقرأ الأعمش وحمزة: بكسر الياء، والأصل فيه بمصرخيين فذهبت النون لأجل الإضافة وأدغمت ياء الجماعة فى ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر؛ لأن الياء أُخت الكسرة ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾ أى لا يمكن أن أكون شريكًا لله فيما أشركتمونى به من طاعتكم إياى واستهزأت من ذلك ﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الكافرين الواضعين للعباد الطاعة فى غير موضعها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

روى عتبة بن عامر عن النبى ﷺ فى حديث الشفاعة قال: يقول عيسى عليه السلام: ذلكم النبى الأُمى فيأتوننى فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسى أطيب ريح شمها أحد حتى آتى فيشفّعنى ويجعل لى نوراً من شعر رأسى إلى ظفر قدمى.

ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا؟ فيقولون: ما هو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتون فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا

فإنك أضللتنا قال: فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم نحيبهم فيقول عند ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى قوله ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يسلم الله ويسلم الملائكة عليهم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد يعنى فإن الله يعلم بإعلامى إياك ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ يعنى ما بين الله شبهها ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهى النخلة يدل عليه حديث عتيب الحجاب قال: كان أبو العالية أمينى فأتانى يومًا فى منزلى بعدما صليت الفجر فانطلقت معه إلى أنس بن مالك فدخلت عليه فجىء بطبق عليه رطب.

فقال أنس: كل يا أبا العالية فإنّ هذه من الشجرة التى قال الله فى كتابه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾. ثم قال أنس أتى رسول الله ﷺ بقناع بُسر، فقرأ هذه الآية، ومعنى الآية: كشجرة طيبة الثمرة، فترك ذكر الثمرة استغناءً بدلالة الطعام عليه.

وقال أبو ظبيان عن ابن عباس: هذه الشجرة فى الجنة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها عالٍ فى السماء كذلك أصل هذه الكلمة راجع فى قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق والإخلاص.

وإذا تكلم بالشهادة تذهب فى السماء فلا يكتب حتى ينتهى إلى الله تعالى. قال الله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (فاطر: ١٠).

وروى مقاتل بن حيان عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «إن لله عمودًا من نور أسفله تحت الأرض السابعة ورأسه تحت العرش، فإذا قال العبد أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله اهتز ذلك العمود، فيقول الله عزّ وجلّ: اسكن، فيقول: كيف أسكن؟ ولم تغفر لقائلها فيقول الرب: قد غفرت له فيسكن عند ذلك».

فقال النبى ﷺ: «أكثروا من هز ذلك العمود».

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ تعطى ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ اختلفوا فى الحين.

فقال مجاهد وعكرمة وابن زيد: كل سنة.

قال عكرمة: أرسلت إلى عمر بن عبد العزيز أنى نذرت أن أقطع يد رجل من هكذا سنة وحينًا، ما عندك فيه. قال ابن عباس: فقلت له: لا تقطع يده واحبسه سنة. إنّ ابن عباس يقول: الحين حينان حين يعرف ويبدل وحين لا يعرف. فأما الحين الذى لا يعرف ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٨) وأما الذى يعرف ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ فهو ما بين العام إلى العام المقبل.

فقال: أصبت يا مولى ابن عباس وأحسنت.

وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: كل ستة أشهر ما بين عرامها إلى حملها.

وروى طارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل عن رجل حلف ألا يكلم أخاه حينًا فقال: الحين سبعة أشهر وقرأ هذه الآية.

فقال سعيد بن المسيب: الحين شهران؛ لأن النخلة لا يكون فيها أكلها إلا شهرين.

وقال الربيع بن أنس: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ كل غدوة وعشية، كذلك يصعد عمل المؤمن عن أول النهار وآخره، وهى رواية أبى ظبيان عن ابن عباس.

قال الضحاك: كل ساعة ليلاً ونهارًا، شتاءً وصيفًا يؤكل فى جميع الأوقات. كذلك المؤمن لا يخلو من الخير فى الأوقات كلها.

وقرأ أبو الحكم فى تمثيل الله الإيمان بالشجرة فهى أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عود راسخ وأصل قائم وفرع عال. كذلك الإيمان لا يتم ولا يقوم إلا بثلاثة أشياء تصديق القلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

يدل عليه ما روى جعفر بن محمد عن أبيه على بن الحسين عن أبيه الحسين بن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالإيمان».

لحميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن مثل هذا الدين مثل شجرة ثابتة، الإيمان أصلها، والزكاة فرعها، والصيام عروقها، والداعى فى الله نباتها، وحسن الخلق ورقها، والكف عن محارم الله خضرتها، فكما لا يكمل هذه الشجرة إلا بثمر طيب لا يكمل الإيمان إلا بالكف عن محارم الله».

والحكمة فى تشبهها إياه النخلة من بين سائر الأشجار أنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شبهت به وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت بالغصون عن جوانبها والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهب أصلها؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوانات فى الإلقاح؛ لأنها لا تحمل حتى يلقح.

قال النبى ﷺ: «خير المال سكة مأبورة ومهدة مأمورة».

ومنه حديث ابن عمر: إن النبى ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «إن شجرة من الشجر لا يطرح ورقها وهى مثل المؤمن فأخبرنى ما هى؟» قال: فوقع الناس فى شجر البوادى ووقع فى نفسى أنها النخلة ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم فاستحييت وسكت. فقال رسول الله ﷺ: «هى النخلة» فذكرت ذلك لأبى فقال: يا بنى لو كنت قلتها لكانت أحب إلى من فضلة؛ لأنها من شجرة آدم.

يروى أن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا عمتكم» فقيل ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال:

«النخلة» وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم فصلت من طينه فصلة فخلق منها النخلة قال الله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهى الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هى الحنظلة.

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأرض.

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ اقتلعت. قال ابن عباس، والسدى: استرخت.

الضحاك: استؤصلت. المؤرج: أخذت حيثما هى يقينًا ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ يحقق الله إيمانهم وأعمالهم بالقول والتثبيت، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعنى فى القبر، وقيل: فى الحياة فى القبر عند الله تعالى وفى الآخرة إذا بعث.

مقاتل: ذلك أن المؤمن إذا مات بعث الله إليه ملكًا يقال له: رومان فيدخل قبره فيقول له: إنه يأتيك الآن ملكان أسودان فيسألانك من ربك ومن نبيك وقادتك فأجبهما بما كنت عليه فى حياتك، ثم يخرج فيدخل الملكان وهما منكر ونكير أسودان أزرقان فظان غليظان أعينهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالريح العاصف معهما مرزبة، فيقعدان ويسألانه لا يشعران بدخول رومان فيقول ربى الله ونبيى محمد ودينى الإسلام، فيقولان له عند الله سعيد ثم يقولان: اللهم فأرضه كما أرضاك، ويفتح له فى قبره باب من الجنة يأتيه منها التحف، فإذا انصرفا عنه قال له: نَمْ نومة العروس، فهذا هو التثبيت ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعنى يلعنهم وذلك أن الكافر إذا دخل عليه الملكان قالا له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ قال: لا أدرى. قالا له: لا دريت ولا هديت عشت عصيًا ومت شقيًا، ثم يقولان له نم نومة المنهوس ويفتح من قبره باب من جهنم ويضربانه ضربة بتلك المرزبة فيشهق شهقة يسمعها كل حيوان إلا الثقلين ويلعنه كل من يسمع صوته فذلك قوله ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩).

روى البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «فيعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره، ويقولان من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول: ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد، وينتهرانه ويقولان الثانية من ربك وما دينك ومن نبيك؟ وهو آخر أسئلة الملكان فيثبته الله فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ﷺ فينادى مناد فى السماء أن ثبت عبدى» فنزل قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية.

وقال ابن عباس فى هذه الآية: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه

وبشروه بالجنة فإذا مات مشوا مع جنازته وصلوا عليه مع الناس، فإذا دفن جلس فى قبره فيقال له من ربك؟ فيقول ربى الله. فيقال له من رسولك؟ فيقول محمد. فيقال له ما شهادتك؟ فيقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فيوسع له فى قبره حد بصره، وذلك قوله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وروى أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة فقال: «يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أحباؤه جاءهُ ملك بيده مطراق فأقعده فقال: ما تقول فى هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول له: صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقال له: هذا منزلك كان لو كفرت بربك، فأما إذا آمنت به فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض له فيقال له اسكن ثم يفتح له فى قبره، وأما الكافر أو المنافق فيقال له ما تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، فيقال له: لا دريت ولا تليت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا كان منزلك لو آمنت بربك، فأما إذا كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعها خلق الله كلهم إلا الثقلين».

قال بعض أصحابه: يا رسول الله ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل جزعًا لذلك، قال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

وقال أبو هريرة: إن الميت يسمع خفق نعالهم حتى يولون عنه مدبرين وإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصيام عن يساره وفعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف فيصلى الناس عند رجليه فيؤتى من عند رأسه فيقول للصلاة: ما قبلى مدخل فيؤتى يمينه فيقول الزكاة ما قبلى مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام ما قبلى مدخل، فيدخل من عند رجليه فيقول فعل الخيرات ما قبلى مدخل، فيقال له: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد دخل الغروب فيقال له: أخبرنا عما نسألك فيقول: دعونى أصلى، فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك عنه فيقول وعم تسألوننى؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وماذا شهد عليه، فيقول أمحمد؟ فيقال: نعم، فيقول: أشهد أنه لرسول الله قد جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح إليه فى قبره سبعون ذراعًا وينور له فيه، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال

له: انظر إلى ما صرف الله عنك لو عصيته، فيزداد غبطة وسروراً، ثم يجعل نسمه فى النسيم الطيب، وهى طير (خضر) تعلق بشجر الجنة ويعاد جسده إلى ما بدئ منه من التراب، وذلك قوله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾.

وعن أبى نافع قال: بينما رسول الله ﷺ يمشى بغدير وأنا أمشى خلفه فقال ﷺ: «لا هديت لا هديت ـ ثلاثًا».

قال أبو نافع قلت: يا رسول الله ما لى؟ قال: ليس إياك أريد، وإنما أريد صاحب هذا القبر، يسأل عنى فيزعم أنه لا يعرفنى فإذا هو قبر قد رش عليه الماء حين دفن صاحبه.

وأخبرنا أبو القاسم السلمى عن أبى الطيب محمد بن على الخياط يقول: سمعت سهيل بن جابر العتكى يقول: رأيت يزيد بن عثمان بعد موته فى المنام، فقلت له ما فعل الله بك فقال: إنه أتانى فى قبرى ملكان فظان غليظان فقالا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فأخذت بلحيتى البيضاء وقلت لهما ألمثلى يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا وقالا أكتبت عن جريز بن عثمان؟ قلت: نعم. قالا: إنه كان يبغض عليًا فأبغضه الله.

❖ ❖ ❖

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ يعنى غيّروا نعمة الله عليهم فى تكذيبهم محمداً ﷺ حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا به وكذبوه فصيروا نعمة الله عليهم كفراً ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ وأنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ ممن تابعهم على كفرهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ الهلاك، ثم (ترجم) عن دار البوار من هى؟ فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ المستقر.

عامر بن واثلة سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول فى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ﴾

الآية قال: هم كفار قريش الذين نحروا يوم بدر.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: هما الأفجران من قريش بنى أمية، فأما بنو أمية فمتعوا إلى حين، وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر.

ابن عباس: هم متنصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ﴾ قرأ الكوفيون بضم الياء على معنى ليضلوا الناس ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وقرأ الباقون بفتح الياء على اللزوم ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ عيشوا متاع الدنيا.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وهذا وعيد.

قوله: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. قال الفراء: جزم ﴿يُقِيمُواْ﴾ بتأويل الجزاء ومعناه الأمر.

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إلى قوله ﴿وَلَا خِلَـٰلٌ﴾ مخالة فيقال خلت فلانًا فأنا أخاله مخالة وخلالاً وخلة.

قال امرؤ القيس:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ... وخلت بمقلى الخـــلال ولا قالى

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ إلى قوله ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾.

قال ابن عباس: دءوبهما فى طاعة الله.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ متعاقبان فى الضياء والظلمة والنقصان والزيادة ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يعنى وآتاكم من كل شىء سألتموه شيئًا فحذف الشىء الثانى اكتفاءً بدلالة الكلام على التبعيض كقوله ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٢٣) يعنى وأوتيت من كل شىء فى زمانها شيئًا وقيل هو التكثير نحو قولك: فلان يعلم كل شىء وأتاه كل الناس، وأنت تعنى بعضهم نظيره قوله ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٤٤).

وقال بعض المفسرين: معناه وآتاه من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وهذه قراءة العامة بالإضافة (. . . .)[1].

وقرأ الحسن والضحاك وسلام: (من كل) بالتنوين على النفى يعنى من كل ما لم تسألوه فيكون ما يجد.

قال الضحاك: أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها، صدق الله لكم من شىء أعطاناه الله ما سألناه إياه ولا خطرنا ببال.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تطيقوا ذكرها ولا القيام بشكرها لا بالجنان ولا باللسان ولا بالبيان ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ لشاكر غير من أنعم عليه واضع الشكر فى غير موضعه ﴿كَفَّارٌ﴾ جحود لنعم الله، وقيل ظلمه لنفسه بمعصيته كفار لربه فى نعمته، وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع، كفار فى النعمة يجمع ويمنع.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يعنى الحرم مأمونًا فيه ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾.

﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ويقال جنبته أجنبه جنبًا وأجنبته إجنابًا بمعنًى وأجنبك وجنبته تجنيبًا.

قال الشاعر وهو أمية بن الأشكر الليثى:

وتنفض مهده شفقًا عليه ... وتجنبه فلا يصعى الصعابا

والأصنام جمع صنم وهو التمثال المصور.

قال الشاعر:

وهنانة كالزون يجلى ضمه ... تضحك عن أشنب عذب ملثمه

وقال إبراهيم التيمى فى قصصه: من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم عليه السلام حين يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعنى ضل بهن كثير من الناس عن طريق الهدى حتى عبدوهن وهذا من المقلوب. نظيره قوله ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٧٥) أى يخوفكم بأوليائه.

﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ على دينى وملتى ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال السدى: معناه ومن عصانى فتاب.

مقاتل بن حيان : ومن عصانى فيما دون الشرك .

روى عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

وقول عيسى عليه السلام : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ (المائدة:١١٨) الآية ، فرفع يديه ثم قال : اللهم أمتى اللهم أمتى وبكى ، فقال الله : يا جبرائيل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فاسأله ما بك ، فأتى جبرائيل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال ، فقال الله : يا جبرائيل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا يسؤك .

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ إنما أدخل : «من» للتبعيض ومجاز الآية أسكنت من ذريتى ولداً ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وهو مكة ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ .

قتادة : المحرم من المسجد محرم الله فيه ، والاستخفاف بحقه ، فإن قيل ما وجه قول إبراهيم عند بيتك وإنما بنى إبراهيم البيت بعد ذلك بمدة ، وقيل معناه عند بيتك المحرم الذى كان قبل أن يرفعه من الأرض حتى رفعته فى أيام الطوفان .

وقيل عند بيتك المحرم الذى قد مضى فى علمك أنه يحدث فى هذا البلد .

وكانت قصة الآية على ما ذكره سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إن أول من سعى بالصفا والمروة هاجر أم إسماعيل ، وإن أول ما أحدثت جر الذيول لهى وذلك أنها لما فرت من ساره فأرخت من ذيلها ليعفى أثرها فجاء بها إبراهيم ومعها ابنها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت فوضعهما ثم رجع فأثبتته فقالت : إلى من تكلنا ، فجعل لا يرد عليها شيئًا ، فقالت : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت : إذًا لا يضيعنا ، فرجعت ومضى (إبراهيم) حتى إذا كان على ثنية كداء أقبل على الوادى . فقال : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ الآية .

قال : ومع الإنسانة شنة فيها ماء فنفد الماء فعطشت فانقطع لبنها فعطش الصبى ، فنظرت إلى الجبال أدنى من الأرض فصعدت الصفا فتسمعت هل تسمع صوتًا أو ترى أنيسًا فلم تسمع شيئًا فانحدرت فلما نزلت على الوادى سعت وما تريد السعى كالإنسان المجهول الذى يسعى وما يريد بذلك السعى ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض فصعدت المروة فتسمعت هل تسمع صوتًا أو ترى أنيسًا ، فسمعت صوتًا فقالت كالإنسان الذى يكذب سمعه : صه حتى استيقنت ، فقالت : قد أسمعتنى صوتك فأغثنى فقد هلكت وهلك من معى ، فإذا هو الملك فجاء بها حتى انتهى بها إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عينًا فعجلت الإنسانة فجعلت تفرغ فى شنتها ، فقال رسول الله ﷺ يرحم الله أم إسماعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عينًا

معينًا، وقال لها الملك: لا تخافى الظمأ على أهل هذا البلد فإنما هى عين لشرب ضيفان الله وقال: إن أبا هذا الغلام سيجيء فيبنيان لله بيتًا هذا موضعه.

قال: ومرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير على الجبل وقالوا: إن هذا الطير لعائف على ماء فأشرفوا فإذا هم بالإنسانة فأتوا هاجر وقالوا إن شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم فنزلوا معها وكانوا هناك حتى شب إسماعيل وماتت هاجر فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتى هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، وذكر الحديث فى صفة مقام إبراهيم وقد مضت هذه القصة فى سورة آل عمران.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ﴾ تفزع وقيل تشتاق ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وهذا دعاء منه (عليه السلام) لهم بأن يرزقهم حج بيته الحرام.

قال سعيد بن جبير: ويقال أفئدة الناس تهوى إليهم لحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال أفئدة من الناس منهم المسلمون.

وقال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند ولكنه أفئدة من الناس ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ما رزقت سكان القرى ذوات المياه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ من جميع أمورنا.

وقال ابن عباس ومقاتل من الوجد إسماعيل وأمه حيث أسكنها بوادٍ غير ذى زرع ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

قال بعضهم: هذه صلة فولد إبراهيم (عليه السلام).

وقال الآخرون: قال الله عز وجل وما يخفى على الله وهو قول الله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى﴾ أعطانى ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

قال ابن عباس: ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة.

وقال سعيد بن جبير: بشر إبراهيم بإسحاق بعد اثنتى عشرة ومائة سنة.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أيضًا واجعلهم مقيمى الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾.

قال المفسرون: أى عبادتى. نظيره قول النبى ﷺ: «الدعاء مخ العبادة» ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ (غافر: ٦٠) فسمى الدعاء عبادة.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ إن آمنا وتابا، وقد أخبر الله عن عذر خليله فى استغفاره لأبيه فى سورة التوبة.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كلهم.

قال ابن عباس: من أمة محمد ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أى يبدو ويظهر. قال أهل المعانى: أراد يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذكر الحساب عن ذكر الناس إذ كان مفهومًا.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. قال ميمون بن مهران: فهذا وعيد للظالم وتعزية المظلوم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يمهلهم ويؤخر عذابهم.

وقرأه العامة: بالتاء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾، وقرأ الحسن والسلمى: بالنون.

﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أى لا تغمض من هول ما ترى فى ذلك اليوم قاله الفراء.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال قتادة: مسرعين. سعيد بن جبير عنه: منطلقين.

عابد بن الأوزاعى وسعيد بن جبير: الإهطاع سيلان كعدو الذئب.

مجاهد: مديمى النظر.

الضحاك: شدة النظر من غير أن يطرف، وهى رواية العوفى عن ابن عباس، الكلبى: ناظرين. مقاتل: مقبلين إلى النار.

ابن زيد: المهطع الذى لا يرفع رأسه، وأصل الإهطاع فى كلام العرب البدار والإسراع، يقال: أهطع البعير فى سيره واستهطع إذا أسرع.

قال الشاعر:

وبمهطع سرح كأنَّ زمامـــــه ... فى رأس جذع من أراك مشذب

وقال آخر:

بمستهطع رسل كأن جديله ... بقدوم رعن من صوام ممنع

وقال آخر:

تعبدنى نمر بن سعد، وقد أرى ... ونمر بن سعد لى مطيع ومهطع

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها.

قال القتيبى: المقنع الذى يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه، ومنه الإقناع فى الصلاة.

قال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد وأصل الإقناع فى كلام العرب رفع الرأس.

قال الشماخ:

يباكرن العضاه بمقنعات ... نواجذهن كالجد الوقيع

يعنى برؤوس مرفوعات إليها ليتناولها.

قال الراجز:

أنغض نحوى رأسه وأقنعا ... كأنمـــا أبصر شيئًا أطمعا

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهى شاخصة ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾

قال ابن عباس: خالية من كل خير.

مجاهد ومرة بن شرحبيل وابن زيد: منخرقة خربة ليس فيها خير ولا عقل، كقولك فى البيت الذى ليس فيه شىء: إنما هو هواء. هذه رواية العوفى عن ابن عباس.

سعيد بن جبير: تمور فى أجوافهم ليس لها مكان يستقر فيه.

قتادة: انتزعت حتى صارت فى حناجرهم لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أمكنتها.

الأخفش: جوفاء لا عقول لها.

والعرب تسمى كل أجوف نخبًا وهواء، ومنه أهواء وهو الخط الذى بين الأرض والسماء.

قال زهير يصف ناقة:

كأن الرجل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هـواء

وقال حبان:

ألا أبلغ أبا سفيان عنّى فأنت مجوف نخب هواء

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ﴾ عطف على يوم يأتيهم وليس بجواب فلذلك وقع ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أشركوا ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ أمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ وهو الدنيا يعنى أرجعنا إليها ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجابون ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ حلفتم ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ فى دار الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ فيها أى لا يبعثون، وهو قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ (النحل: ٣٨)، ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ فى الدنيا ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكفر والمعصية قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أى جزاء مكرهم ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ .

قرأه العامة: بالنون.

وقرأ عمر وعلى وابن مسعود وأبى: وإن كاد مكرهم ما يزال.

﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ قرأه العامة: بكسر اللام الأولى وفتح الثانية.

وقرأ ابن جريج والكسائى: بفتح الميم الأولى وضم الثانية بمعنى قراءة العامة الزجاج فى قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ ، أى ما كان مكرهم لتزول.

أمر النبى ﷺ وأمر الإسلام وثبوته كثبوت الجبال الراسخة؛ لأن الله وعده إظهار دينه على الأديان كلها، وقيل معناه: كان مكرهم.

قال الحسن: إن كان مكرهم لأوهن وأضعف من أن يزول منه الجبال، وقال خمس مواضع فى القرآن (إن) بمعنى (ما) قوله ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ ، وقوله: ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٧)، وقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١)، ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ (الأحقاف: ٢٦)، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ (يونس: ٩٤)، ومن فتح اللام الأولى فعلى استعظام مكرهم.

قال ابن جرير: الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة وكان مكرهم ما ذكره على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره قالوا: نمرود الجبار الذى حاج إبراهيم فى ربه قال: إن كان ما يقوله إبراهيم حقًا فلا انتهى حتى أعلم ما فى السماء، فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور وعلفها اللحم ورباها حتى شبت واستعلجت ثم قعد فى تابوت وجعل معه رجلاً آخر، وجعل له بابًا من أعلى وبابًا من أسفل وربط التابوت بأرجل النسور وعلق اللحم فوق

التابوت على عصًا ثم خلى النسور فطرن وصعدن طمعًا فى اللحم حتى بعدن فى الهواء.

قال نمرود لصاحبه افتح الباب الأول وانظر فى السماء هل ترى منه شيئًا ففتح ونظر، فقال: إن السماء كهيئتها ثم قال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل ذلك فقال أرى الأرض مثل اللجة البيضاء، والجبال مثل الدخان، وطارت النسور وارتفعت حتى حالت بينها وبين التابوت فقال لصاحبه افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة، ونودى: أيها الطاغية أين تريد.

قال عكرمة: كان معه فى التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى عليهم فعاد إليه السهم متلطخًا بدم. فقال: كفيت نفسك إله السماء.

واختلفوا فى ذلك السهم من أى شىء تلطخ.

قال عكرمة: سمكة فدت نفسها لله من بحر فى الهواء معلق.

وقال بعضهم: من طائر من الطيور أصابه السهم.

قالوا: ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن ينكس اللحم ففعل ذلك فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال حفيف التابوت فى النسور ففزعت وظنت أن قد حدث بها حدث فى السماء أو أن القيامة قد قامت فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه وفى الكلام تقديم وتأخير تقديره: ولا يحسبن الله مخلف رسله وعده؛ لأن الخلف يقع بالوعد.

يقول الشاعر:

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه ... وسائر باد إلى الشمس أجمع

وقال القتيبى: هو من المقدم الذى يوضحه التأخير والمؤخر الذى يوضحه التقديم، وهو قولك يخلف وعده رسله، ومخلف رسله وعده؛ لأنه الخلف يقع بالوعد كما يقع بالرسل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وروى عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية قال: البدل أرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة.

وقال على رضى الله عنه فى هذه الآية: الأرض من فضة والسماء من ذهب.

وروى سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها علم لأحد».

قال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظى: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من

تحت قدميه.

روى خيثمة عن ابن مسعود قال: تبدل الأرض ناراً تصير الأرض كلها يوم القيامة ناراً والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها ويلجم الناس العرق ولم يبلغوا الحساب بعد.

قال كعب: تصير السموات جنانًا ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها.

ابن عباس: الأرض هى تلك الأرض وإنما تبدل كلها وجبالها وأنهارها.

ثم أنشد:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التى كنت أعرف

وتصديق قول ابن عباس، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «تبدل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى لا ترى فيها عوجًا وأمتًا ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى من كان فى بطنها كان فى بطنها وما كان على ظهرها كان على ظهرها».

وقيل: تبدل الأرض غير الأرض بأرض (بيضاء كالفضة).

الشعبى عن مسروق عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله أخبرنى عن قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ أين يكون الناس يومئذ قال: «على الصراط».

وروى يحيى بن أبى كثير عن أبى أسماء عن ثوبان قال: سأل نفر من اليهود رسول الله ﷺ أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟.

قال: «هم فى الظلمة دون الحشر».

وروى حكيم بن ثوبان الكلابى عن أبى أيوب الأنصارى قال: أتى النبى ﷺ خبر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله عز وجل فى كتابه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: أضياف الله فلم يعجزهم ما لديه.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾ ظهروا وخرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الغلاب الذى يفعل ما يشاء وقهر العباد بالموت ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ مشدودين بعضهم ببعض، وقيل مقرنين بالشياطين. بيانه قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ (الصافات: ٢٢) وهم الشياطين، فقال ابن زيد: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ بالقيود والأغلال، واحدها صفد والصفاد أيضًا القيد وجمعه صفد يقال: صفدته صفداً وأصفاداً التكثر، قلت: صفدته تصفيداً.

قال عمرو بن كلثوم:

فأتوا بالنهاب وبالسبايا وأبناء الملوك مصفدينا

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصهم واحدها سربال والفعل منه تسربلت وسربلت غيرى ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو الذى تهنأ به الإبل ويقال له الخضخاض.

قال الحسن وقرأ عيسى بن عمر: ﴿قَطِرَانٍ﴾ بفتح القاف وتسكين الطاء، وفيه لغة ثالثة قطران بكسر القاف وجزم الطاء، ومنه قول أبى النجم:

جون كأن العرق المنتوحا لبسه القطران والمسوحا

وقرأ عكرمة: برواية زيد: قطران على كلمتين منونتين ﴿قَطِرَانٍ﴾ والقطر النحاس الصفر المذاب. قال الله: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ (الكهف: ٩٦)، والآن الذى انتهى خبره قال الله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ (الرحمن: ٤٤)، ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا﴾ أى هذا القرآن ﴿بَلَٰغٌ﴾ تبليغ وعظة ﴿لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ حجج الله التى أقامها فيه ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

❖ ❖ ❖

سورة الحجر

مكية، وهي ألفان وسبعمائة وستون حرفًا،
وستمائة وأربع وخمسون كلمة وتسع وتسعون آية

روى حبيش عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ
مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن
قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧
مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا
بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۝١٥﴾.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ **يعني وآيات قرآن.** ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾.

قرأ عاصم وأهل المدينة: بتخفيف الباء.

وقرأ الباقون: بتشديده، وهما لغتان.

قال أبو حاتم وأهل الحجاز: يخففون ربما.

وقيس وبكر وتميم: يثقلونها وإنما أدخل ما على رب ليتكلم بالفعل بعدها.

﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ .

روى أبو موسى عن النبى ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار فى النار ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة . قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة : ألستم مسلمين؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم شيئًا؟ وقد صرتم معنا فى النار . قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فغضب الله لهم بفضل رحمته فأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار يخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية .

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : ما يزال الله يدخل الجنة ويرحم ويشفع حتى يقول لمن كان من المسلمين : ادخلوا الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿ذَرْهُمْ﴾ يا محمد يعنى الذين كفروا ﴿يَأْكُلُواْ﴾ فى الدنيا ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ من لذاتها ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ ويشغلهم ﴿ٱلْأَمَلُ﴾ عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بما وردوا القيامة ونالوا وبال ما صنعوا فنسختها آية القتال ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أى من أهل قرية ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أجل مؤقت قد كتبناه لهم لا يعذبهم ولا يهلكهم حتى يلقوه ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من ملة ﴿أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ ونظيرها ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف : ٣٤) ، ﴿وَقَالُواْ﴾ يعنى مشركى مكة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ يعنى القرآن وهو محمد ﷺ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا﴾ هلاّ ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ شاهدين لك على صدق ما تقول ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ .

قال الكسائى : لولا ولوما سواء فى الخبر والاستفهام .

ومنه قول ابن مقبل :

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عودى

يريد لولا الحياء .

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ .

قرأ أهل الكوفة : ننزل الملائكة بضم النون ورفع اللام ، الملائكة نصبًا ، واختاره أبو عبيد .

وقرأ الباقون : بفتح التاء ورفع اللام فى ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ رفعها ، واختاره أبو عبيد اعتبارًا بقوله : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ (القدر : ٤) .

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالعذاب ولو نزلت ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من الباطل ومن الشياطين وغيرهم أن يزيدوا فيه وينقصوا منه ويبدلوا حرفًا ، نظيره قوله : ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت : ٤٢) الآية .

وقيل بأن الهاء فى قوله له راجعة إلى محمد ﷺ يعنى وإنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء

نظيره ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (المائدة: ٦٧).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فى الآية إضمار، مجازها ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع أمم من الأولين.

قاله ابن عباس وقتادة، وقال الحسن: فرق الأولين وواحدتها شيعة وهى الفرقة والطائفة من الناس ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ كما فعلوا بك يعزى نبيه ﷺ ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ يعنى كما أسلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل فى قلوب شيع الأولين كذلك نسلكه أى نجعله وندخله فى قلوب مشركى قومك ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعنى حتى لا يؤمنوا بمحمد، وفى هذه الآية رد على المعتزلة، فقال سلكه يسلكه سلكًا وسلوكًا وأسلكه إسلاكًا.

قال عدى بن زيد:

وكنت لزاز خصمك لم أعرد   وقد سلكوك فى قوم عصيب

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وقائع الله لا من خلا من هكذا فى الأمم نخوف أهل مكة.

﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾ يعنى ولو فتحنا على هؤلاء القائلين لوما تأتينا بالملائكة ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ فظلت الملائكة تعرج فيه وهم يرونهم عيانًا، ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ هذا قول ابن عباس وأكثر العلماء.

قال الحسن: هذا العروج راجع إلى بنى آدم يعنى فظل هؤلاء الكافرون فيه يعرجون أى يصعدون ومنه المعراج ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ﴾ سدت ﴿أَبۡصَٰرُنَا﴾ قاله ابن عباس، وقال الحسن: سحرت.

قتادة: أخذت.

الكلبى: أغشيت وعميت.

وكان أبو عمرو وأبو عبيدة يقولان: هو من سكر الشراب ومعناه قد عش أبصارنا السكر، المؤرج: دير بنا.

وقرأ مجاهد وابن كثير: سكرت بالتخفيف أى حبست ومنعت بالنظر كما سكر النهر ليحبس الماء ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ سحرنا محمد.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ۝ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ

وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أى قصوراً ومنازل وهى كواكب وبروج الشمس والقمر والكواكب السيارة وأسماؤها الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ يعنى السماء ﴿لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ لكن ما استرق السمع ، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ نار ﴿مُّبِينٌ﴾ بين .

قال ابن عباس : تصعد الشياطين أفواجًا يسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو فيرمى بالشهاب فيصيب جبهته أو جبينه أو حيث شاء الله منه فيلتهب فيأتى أصحابه وهو ملتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليه تسعًا فيحدثون بها أهل الأرض الكلمة حق والتسع باطل فإذا رأوا شيئًا مما قالوا قد كان صدقوهم بما جاءوا به من كذبهم .

وقال ابن عباس أيضًا : كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات فكانوا يدخلونها فيأتون بأخبارها فيلقونها على الكهنة فلما ولد عيسى منعوا عن ثلاث سموات فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمى بشهاب ، فلما منعوا بتلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس فقال لقد حدث فى الأرض حدث .

قال : فبعثهم فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن فقالوا : هذا والله حديث وإنهم ليرمون فإذا نوّر النجم عنكم فقد أدركه لا يخطئ أبدًا ولكن لا يقتله بحرق وجهه وجنبه ويده ، وبعضهم من يخبله فيصير حولاً ، يضل الناس فى البوادى .

قال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق : إن أول من فزع للرمى بالنجوم حين رمى بها هذا الحى من ثقيف ، وإنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بنى علاج وكان أدهى العرب وأمكرها رأيًا فقالوا له : ألم تر ما حدث فى السماء فى القذف بهذه النجوم؟ قال : بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء؟ لما يصلح الناس من معايشهم هى التى يرمى بها فهو والله طىّ الدنيا وهلاك الخلق الذى فيها ، وإن كانت نجوم غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا الأمر أراد الله به هذا فى الخلق .

وروى عمارة بن زيد عن عبد الله بن العلاء عن أبى الشعشاع عن أبيه عن أبى لهب بن مالك قال: حضرت رسول الله ﷺ وقد ذكرت عنده الكهانة فقلت: بأبى أنت وأمى نحن أول من تطوع لحراسة السماء وزجر الشياطين ومنع الجن من استراق السمع عند قذفها بالنجوم، وإنا لما رأينا ذلك اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك وكان شيخًا كبيرًا قد أتت عليه ثلاثمائة وستون سنة هل عندك علم من هذه النجوم التى يرمى بها فإنا قد فزعنا وخفنا سوء عاقبتها، فقال لنا: اعدوا على فى السحر، ائتونى بسحر أخبركم الخبر إما بخير أو ضرر، قال: فانصرفوا عنه يومنا فلما كان فى وقت السحر أتينا فإذا هو قائم على قدميه شاخص بعينه إلى السماء فناديناه يا خطر فأومأ إلينا أن أمسكوا فأمسكنا فانقض من السماء نجم عظيم وصرخ الكاهن بأعلى صوته: أصابه أصابه، خامرة عاقبة، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوابه، يا ويله ما حاله، تغيرت أحواله.

ثم أمسك وطفق يقول:

يا معشر بنى قحطان أخبركم بالحق والبيان
أقمت بالكعبة والأركان والبلد المؤتمن السدان
قد منع السمع عتاة الجان بثاقب بكف ذى سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان يبعث بالتنزيل والفرقان
وبالهدى وفاضل القرآن تبطل به عبادة الأوثان

قال: فقلت: ويحك يا خطر إنك لتذكر أمرًا عظيمًا فماذا ترى لقومك؟

فقال:

أرى لقومى ما أرى لنفسى أن يتبعوا خير بنى الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس يبعث فى مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس

قال: فقلنا له: من هو وما اسمه وما مدته؟ قال: الحياة والعيش إنه لمن قريش ما فى حكمه من طيش ولا فى خلقه هيش، تكون فى جيش وأى جيش من آل قحطان وآل أيش، والأيش الأخلاط من كل قوم، فقلنا له من أى البطون هو فقال: بطن إسماعيل ولد إبراهيم، فقلنا له بين لنا من أى قريش هو؟ قال:

والبيت ذى الدعائم والسدير والحمائم
إنه لمن نسل هاشم من معشر أكارم

يبعـث بالملاحـــم   وقتل كـل ظـــالم

ثم قال: الله أكبر الله أكبر جاء الحق وأظهره وانقطع عن الإنس الخبر هذا هو البيان أخبرنى به رأس الجان، ثم قال هذا وسكت وأُغمى عليه فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام فلما أفاق قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم مات.

قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله سبحان الله لقد نطق عن مثل نبوة وإنه ليحشر يوم القيامة أمة وحده».

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ بسطناها على رحبة الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أى فى الأرض ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مقدر معلوم وقيل: بغى به فى الجبال وهو جواهر من الفضة والذهب والحديد والنحاس وغيرها حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يوزن وزنًا.

قال ابن زيد: هى الأشياء التى توزن.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ جمع معيشة ﴿وَمَن لَّسْتُمْ﴾ يعنى ولمن لستم ﴿لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ هى الدواب والأنعام.

عن شعبة قال: قرأ علينا منصور: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال: الوحش.

قال أبو حسن: «من» فى محل الخفض عطفًا على الكاف والميم فى قوله: ﴿لَكُمْ﴾.

وقد يفعل العرب هذا كقول الشاعر:

هلا سألت بذى الجماجم عنهم   وأبى نعيـــم ذى اللوا المخرق

فعطف بالظاهر على المكنى و (من) فى هذه الآية بمعنى: ما، كقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ (النور: ٤٥)، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ وما من شىء من أرزاق الخلق ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ من السماء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لكل أرض حد مقدر.

قال ابن مسعود: وما من أرض أمطر من أرض، وما عام أمطر من عام ولكن الله يقسمه ويقدره فى الأرض كيف يشاء عامًا هاهنا وعامًا هاهنا ثم قرأ هذه الآية.

وروى إسماعيل بن سالم عن الحكم بن عيينة فى هذه الآية: ما من عام بأكثر مطرًا من عام ولكن يُمطر قوم ويحرم آخرون وربما كان فى البحار والقفار قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يحصون كل قطرة حيث يقع وما ينبت.

جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: «فى العرش مثال كل شىء خلقه الله فى البر والبحر. وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾».

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝﴾ .

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ العامة بالجمع لأنها موصوفة وهو قوله: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ ، وقرأ بعض أهل الكوفة: الريح على الواحد وهو فى معنى الجمع أيضًا وإن كان لفظها لفظ الواحد، لأنه يقال: جاءت الريح من كل جانب، وهو مثل قوله: أرض سباسب وثوب أخلاق، وكذلك تفعل العرب فى كل شيء اتّسع، وقول العلماء فى وجه وصف الرياح: باللقح، وإنما هى ملقحة لأنها تلقح السحاب والشجر.

فقال قوم: معناها حوامل؛ لأنها تحمل الماء والخير والنفع لاقحة كما يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد، ويشهد على هذا قوله: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ (الذاريات: ٤١) فجعلها عقيمًا إذا لم تلقح ولم يكن فيها ماء ولا خير، فمن هذا التأويل قول ابن مسعود فى هذه الآية قال: يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمرى السحاب فتدرّ كما تدر اللقحة ثم يمطر.

قال الطرماح:

❖ لأفنان الرياح للاقح قال منها وحائل ❖

وقال الفراء: أراد ذات لقح: كقول العرب: رجل نابل ورامح وتامر.

قال أبو عبيدة: أراد ملاقح جمع ملقحة كما فى الحديث «أعوذ بالله من كل لامّة» أى ملمّة.

قال النابغة:

كلينى لهمٍّ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

أى منصب.

قال زيد بن عمر: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ .

وقال أبو بكر بن عياش: لا يقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه: فالصبا تهيجه، والدبور تلقحه، والجنوب تدره، والشمال تفرقه.

ويروى أبو المهزم عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح الجنوب من الجنة وهى الرياح اللواقح التى ذكر الله فى كتابه وفيها منافع للناس».

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أى جعلنا المطر لكم سقيًا، ولو أراد أنزلناه ليشربه لقال: فسقيناكموه، وذلك أن العرب تقول: سقيت الرجل ماءً ولبنًا وغيرهما ليشربه، إذا كان لسقيه، فإذا جعلوا له ماءً لشرب أرضه أو ماشيته قالوا: أسقيته وأسقيت أرضه وماشيته، وكذلك إذا استسقت له، قالوا: أسقيته واستسقيته، كما قال ذو الرمة:

وقفت على رسم لمية ناقتى … فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثّه … تكلمنى أحجاره وملاعبه

قال المؤرج: ما تنال الأيدى والدلاء فهو السقى وما لا تنال الأيدى والدلاء فهو الإسقاء.

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ يعنى المطر. قال سفيان: بمانعين.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ بأن نميت جميع الخلق فلا يبقى من سوانا، نظيره قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (مريم: ٤٠).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

ابن عباس: أراد بالمستقدمين: الأموات، والمستأخرين: الأحياء.

عكرمة: المستقدمين: من خلق، والمستأخرين: من لم يخلق، قد علم من خلق إلى اليوم وقد علم من هو خالقه بعد اليوم.

قتادة: المستقدمون: من مضى، والمستأخرون: من بقى فى أصلاب الرجال.

الشعبى: من استقدم فى أول الخلق، ومن استأخر فى آخر الخلق.

مجاهد: المستقدمون: القرون الأولى، والمستأخرون: أمة محمد ﷺ.

الحسن: المستقدمون بالطاعة والخير، والمستأخرون المبطئون عن الطاعة والخير.

وقيل: ولقد علمنا المستقدمين منكم فى الصفوف فى الصلاة، والمستأخرين فيها بسبب النساء.

وروى أبو الجوزاء وابن أبى طلحة عن ابن عباس قال: كانت النساء يخرجن إلى الجماعات فيقوم الرجال صفوفًا (خلف) النبى ﷺ والنساء صفوفًا خلف صفوف الرجال، وربما كان فى الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر إلى الصف الأخير من صفوف الرجال، وربما كان فى النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال، وكانت امرأة من أحسن الناس لا والله ما رأيت مثلها قط، تصلى خلف النبى ﷺ وكان بعض الناس يتقدم فى الصف

الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع وسجد نظر إليها من تحت يديه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال النبى ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها».

وقال الربيع بن أنس: حضّ رسول الله ﷺ على الصف الأول فى الصلاة فازدحم الناس عليه، وكانت بنو عذرة دورهم قاصية عن المسجد. فقالوا: نبيع دورنا ونشترى دوراً قريبة من المسجد، فأنزل الله تعالى هذه الآية وفيهم نزلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ (يس: ١٢).

الأوزاعى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ يعنى المصلين فى أول الأوقات، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ يعنى المؤخرين صلاتهم إلى آخر الأوقات.

مقاتل بن حيان: يعنى المستقدمين والمستأخرين فى صف القتال. ابن عيينة: يعنى من يسلم ومن لا يسلم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾. قال ابن عباس: وكلهم ميت ثم يحشرهم ربهم جميعًا الأول والآخر ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعنى آدم عليه السلام، قال إنسانًا لأنه عهد إليه فنسى. وذهب إلى هذا قوم من أهل اللغة وقالوا: وزنه إنسيان على وزن إفعلان فأسقط الياء منه لكثره جريانه على الألسن، فإذا صغر ردت الياء فيقول أنيسان على الأصل لأنه لا يكثر مصغرًا كما لا يكثر مكبرًا.

وقال آخرون: إنما سمى إنسانًا لظهوره وإدراك البصر إياه وإليه ذهب نحاة البصرة وقالوا: هو على وزن فعلان فزيدت الياء فى التصغير كما زيدت فى تصغير رجل فقالوا: رويجل وليلة فقالوا: لويلة.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ وهو الطين اليابس إذا نقرته سمعت له صلصلة أى صوتًا من يبسه، قيل: أن تمسه النار فإذا أصابته النار فهو فخار، هذا قول أكثر المفسرين.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: هو الطين الحر الطيب الذى إذا نضب عنه الماء تشقق وإذا حرك تقعقع.

وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: هو الطين المنتن، واختاره الكسائى وقال هو من قول العرب: صل اللحم وأصل إذا أنتن.

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ جمع حمأة ﴿مَّسْنُونٍ﴾.

قال ابن عباس: هو التراب المبتل المنتن، يجعل صلصالاً كالفخار ومثله، قال مجاهد

وقتادة: المنتن المتغير.

قال الفراء: هو المتغير وأصله من قول العرب: سننت الحجر على الحجر أى أحككته وما يخرج من بين الحجرين يقال له السنن والسنانة ومنه المسن.

أبو عبيدة: هو المصبوب، وهو من قول العرب: سننت الماء على الوجه وغيره إذا صببته.

(سيبويه): المسنون: المصور، مأخوذ من سنة الوجه وهى صورته.

قال ذو الرمة:

(تريك) سنة وجـه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ﴾.

قال ابن عباس: هو أب الجن.

قتادة ومقاتل: هو إبليس، خُلق قبل آدم.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

قال ابن عباس: السموم: الحارة التى تقتل.

الكلبى عن أبى صالح عنه: هى نار لا دخان لها والصواعق تكون منها، وهى نار بين السماء وبين الحجاب، فإذا أحدث الله له أمراً خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت، فالهدة التى تسمعون خرق ذلك الحجاب.

أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال: كان إبليس من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة قال: وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار.

روى سعيد عن أبى إسحاق قال: دخلت على عمرو بن الأصم أعوده فقال: ألا أحدثك حديثًا سمعته من عبد الله (قال: بلى، قال:) سمعت عبد الله يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التى خلق منها الجان وتلا: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ

أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ﴾ سأخلق ﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدلت صورته وأتممت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فصار بشراً حياً ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ سجود تحية وتكرمة لا سجود صلاة وعبادة ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المأمورون بالسجود ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ على التأكيد ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ .

روى عكرمة عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إنى خالق بشراً من طين فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقهم. ثم خلق ملائكة فقال: إنى خالق بشراً من طين فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فأبوا، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقهم. ثم خلق ملائكة فقال: إنى خالق بشراً من طين فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، قالوا: سمعنا وأطعنا إلا إبليس كان من الكافرين.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ محل (أن) النصب بفقد الخافض.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أى من الجنة ومن السموات ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ملعون طويلاً ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أى بإغوائك وهو الإضلال والإبعاد ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معاصيك ولأحببنها إليهم ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأضلنهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ .

قرأ أهل الكوفة والمدينة والشام: بفتح اللام. واختاره أبو عبيد، يعنى إلا من أخلصته بتوفيقك فهديته واصطفيته.

وقرأ أهل مكة والبصرة: بكسر اللام، واختاره أبو حاتم، يعنى من أخلص لك بالتوحيد والطاعة. وأراد بالمخلصين فى القرائتين جميعًا: المؤمنين.

﴿قَالَ﴾ الله لإبليس ﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ﴾ طريق ﴿عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

قال الحسن: هذا صراط إلىَّ مستقيم.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج عليه شىء.

وقال الأخفش: يعنى على الدلالة صراط مستقيم.

وقال الكسائى: هذا على الوعيد فإنه تهديد كقولك للرجل خاصمتُه وتهدده: طريقك علىَّ، كما قال الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤) فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إلى فأجازى كلاً بأعمالهم.

وقال ابن سيرين وقتادة وقيس بن عبادة وحميد ويعقوب: هذا صراط علىٌّ برفع الياء على نعت الصراط أى رفيع، كقوله: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧).

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ قوة.

قال أهل المعانى: يعنى على قلوبهم.

وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية، فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عبدى، وهؤلاء يثبت الله الذين رأى فيهم إحسانهم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أطباق ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ يعنى من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ حظ معلوم.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: تدرون كيف أبواب النار؟ قلنا: نعم كنحو هذا الباب. فقال: لا ولكنها هكذا ـ ووضع إحدى يديه على الأخرى ـ وإن الله تعالى وضع الجنان على الأرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم وفوقها لظى وفوقهما الحطمة وفوقها سقر وفوقها الجحيم وفوقها السعير وفوقها الهاوية.

وأبو سنان عن الضحاك فى قول الله: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: للنار سبعة أبواب هى سبعة أدراك بعضها على بعض.

فأولها: أهل التوحيد يعذّبون على قدر أعمالهم وأعمارهم فى الدنيا ثمّ يخرجون.

والثانى: فيه اليهود.

والثالث: فيه النصارى.

والرابع: فيه الصابئون.

والخامس: فيه المجوس.

والسادس: فيه مشركو العرب.

والسابع: فيه المنافقون.

فذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (النساء: ١٤٥) الآية.

أبو رياح عن أنس بن مالك عن بلال قال: كان رسول الله ﷺ يصلى فى مسجد المدينة وحده، فمرت به أعرابية فاشتهت أن تصلى خلف رسول الله ﷺ ركعتين، فدخلت وصلت ولم يعلم بها رسول الله، فقرأ رسول الله ﷺ حتى بلغ هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فخرت الأعرابية مغشية عليها فسمع رسول الله ﷺ وجبتها فانصرف وقال: «يا بلال علىَّ بماء» فجاء فصب على وجهها حتى أفاقت وجلست، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا هذه ما حالك؟» فقالت: رأيتك تصلى وحدك فاشتهيت أن أصلى خلفك ركعتين، فهذا شىء من كتاب الله أو تقول من تلقاء نفسك؟

قال بلال: فما أحسبه إلا قال: «يا أعرابية بل هو فى كتاب الله المنزل».

فقالت: كل عضو من أعضائى يعذب على باب منها.

فقال: «يا أعرابية لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب على كل باب على قدر أعمالهم».

فقالت: والله إنى لامرأة مسكينة ما لى مالٌ وما لى إلا سبعة أعبد أشهدك يا رسول الله أن كل عبد منهم على كل باب من أبواب جهنم حر لوجه الله. فأتاه جبرئيل فقال: يا رسول الله بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها، وفتح لها أبواب الجنة كلها.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا﴾ قرأه العامة بوصل الألف وضم الخاء على الأمر، مجازه: يقال لهم ادخلوها.

وقرأ الحسن: أدخلوها بضم الهمزة وكسر الخاء على الفعل المجهول، وحينئذ لا يحتاج إلى الضمير.

﴿بِسَلَـٰمٍ﴾ بسلامة ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الموت والعذاب والآفات ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا﴾ نصب على الحال، وإن شئت قلت: جعلناهم إخوانًا ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير مثل جديد وجدد ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ يقابل بعضهم بعضًا لا ينظر أحد منهم فى قفا صاحبه ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ لا يصيبهم ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝ ۞ نَبِّئْ﴾ أخبر ﴿عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال ابن عباس: يعنى لمن تاب منهم.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لمن لم يتب منهم.

روى ابن المبارك عن مصعب بن ثابت عن عاصم بن عبيد الله عن ابن أبى رباح عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك، فقال: «لا أراكم تضحكون»، ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال: «إنى لما خرجت جاء جبرئيل فقال: يا محمد لم تقنط عبادى ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

وقال قتادة: بلغنا أن نبى الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن محارم الله، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه».

❖ ❖ ❖

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟
لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟
بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦ قَالَ
فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ
أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا
لَصَـٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟
حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦ وَجَآءَ أَهْلُ
ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩
قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ

مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾».

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعنى الملائكة الذين أرسلهم الله ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمؤنث والمذكر ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ (خائفون) ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ يعنى إسحاق، فعجب إبراهيم من كبره وكبر امرأته ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ أى على الكبر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فأى شىء تبشرون.

واختلف القراء فى هذا القول، فقرأ أهل المدينة والشام بكسر النون والتشديد على معنى تبشروننى، فأدغمت نون الجمع فى نون الإضافة.

وقرأ بعضهم: بالتخفيف على الخفض.

وقرأ الباقون: فى النون من غير إضافة.

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾.

قرأه العامة: بالألف.

وقرأ يحيى بن وثاب: القانطين.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾.

قرأ الأعمش وأبو عمرو والكسائى بكسر النون، وقرأ الباقون: بفتحه (وقال الزجاج): قنط يقنط، وقنط يقنط إذا يئس من رحمة الله.

﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ شأنكم وأمركم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ مشركين ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أتباعه وأهل دينه ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قرأ أهل الحجاز وعاصم وأبو عمرو: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ بالتشديد، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، وخففه الآخرون.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ سوى امرأة لوط ﴿قَدَّرْنَآ﴾ قضينا ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقين فى العذاب، وخفف ابن كثير (قدرنا).

قال أبو عبيد: استثنى آل لوط من القوم المجرمين، ثم استثنى امرأته من آل لوط فرجعت امرأته فى التأويل إلى القوم المجرمين، لأنه استثناء مردود على استثناء، وهذا كما تقول فى الكلام: لى عليك عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهمًا، فلك عليه سبعة دراهم؛ لأنك لما قلت: إلا أربعة، كان لك عليه ستة، فلما قلت: إلا درهمًا كان هذا استثناء من الأربعة فعاد إلى الستة فصار سابعًا.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالَ﴾ لوط لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ يعنى لا أعرفكم ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنى يشكّون أنه ينزل بهم وهو العذاب ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وجئناك باليقين، وقيل: بالعذاب ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ فى قولنا ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ أى كن وراءهم وسر خلفهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

قال ابن عباس: يعنى الشام. وقال خليل: يعنى مصر.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ يعنى وفرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأخبرناه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾.

يدل عليه قراءة عبد الله: وقلنا له إن دابر هؤلاء، يعنى أصلهم، ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مستأصل ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ فى وقت الصبح إذ دخلوا فيه ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعنى سدوم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضياف لوط طمعًا منهم فى ركوب الفاحشة ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ وحق على الرجل بإكرام ضيفه ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ فلا تهينون ولا تخجلون، يجوز أن يكون من الخزى، ويحتمل أن يكون من الخزاية ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أولم ننهك أن تضيف أحدًا من العالمين.

﴿قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ أزوجهن إياكم إن أسلمتم فأتوا النساء الحلال ودعوا ما حرم الله عليكم من إتيان الرجال ﴿إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ ما أمركم به.

قال قتادة: أراد أن يقى أضيافه ببناته، وقيل: رأى أنهم سادة إليهم يؤول أمرهم فأراد أن يزوجهم بناته ليمنعوا قومهم من التعرض لأضيافه، وقيل: أراد بنات أمته لأن النبى (أب) لأمته، قال الله ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يا محمّد يعنى وحياتك.

وفيه لغتان: وعُمر وعَمر.

يقول العرب: عَمرك وعُمرك.

﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ ضلالتهم وحيرتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون.

قاله مجاهد، وقال قتادة: يلعبون.

ابن عباس: يتمادون.

أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: فالخلق لله عز وجل ولا برأ ولا ذرأ نفسًا أكرم عليه من محمّد، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلا حياته قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ حيث أشرقت الشمس، أى أضاءت، وهو نصب على الحال ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال ابن عباس والضحاك: للناظرين.

مجاهد: للمتفرسين.

قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ هذه الآية.

وقال الشاعر:

توسمته لما رأيت مهابة ... عليه وقلت المرء من آل هاشم

وقال آخر:

أوكلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا إلى عريفهم يتوسم

وقال قتادة: للمعتبرين.

﴿وَإِنَّهَا﴾ يعنى قرى قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ بطريق واضح.

قاله قتادة، ومجاهد، والفراء، والضحاك: بطريق معلم ليس بخفى ولا زائغ.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ﴾ وقد كان أصحاب الغيضة لكافرين، وهم قوم شعيب كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر متناوش متكاوش ملتف وكانوا يأكلون فى الصيف الفاكهة الرطبة وفى الشتاء اليابسة وكان عامة شجرهم الدوم وهو المُقل ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب، وذلك أن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام لا يمنعهم منه شىء، فبعث الله عليهم سحابة فالتجأوا إلى ظلها يلتمسون روحها فبعث الله عليهم منها نارًا فأحرقتهم فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ (الشعراء: ١٨٩)، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعنى مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ طريق مستبين، وسمّى الطريق إمامًا لأنه يؤتم به.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ أى الوادى، وهو مدينة ثمود وقوم صالح وهى فيما بين المدينة والشام ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أراد صالحًا وحده.

عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله قالا: مررنا مع النبى ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا بأن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم قال: «هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله إلا رجلاً فى حرم الله منعه حرم الله من

عذاب الله» قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال». ثم زجر ﷺ فأسرع حتى خلفها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعنى الناقة وولدها و (السير) ﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ من الخراب ووقع الجبل عليهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعنى صيحة العذاب والهلاك ﴿مُصْبِحِينَ﴾ فى وقت الصبح وهو نصب على الحال ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من الشرك والأعمال الخبيثة. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ وإن القيامة لجائية ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم واعف عفواً حسنًا، نسختها آية القتال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٣ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ اختلفوا فيه:

روى عبد الوهاب عن ابن مسعود عن أبى نصر عن رجل من عبد القيس يقال له جابر أو جويير عن ابن مسعود أن عمر قال: السبع المثانى هى فاتحة الكتاب.

روى إسماعيل السدى عن عبد خير عن على رضى الله عنه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: فاتحة الكتاب.

عن ابن سيرين أن ابن مسعود قال فى السبع المثانى: فاتحة الكتاب، والقرآن العظيم سائر القرآن.

وعن عبد الرحمن عن أحمد الطابقى قال: أتيت أبا هريرة وهو فى المسجد فقرأت عليه فاتحة القرآن.

فقال أبو هريرة: هذه السبع المثاني.

شعبة عن قتادة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾، قال: هي فاتحة الكتاب.

وسمعت الكلبي يقول: هي أم الكتاب.

ابن جريج عن عطاء في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: هي أم القرآن والآية السابعة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وهذا قول الحسن وأبي العالية وسعيد بن جبير وإبراهيم وابن أبي مليكة وعبد الله بن عبيد وابن عمرو ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وصالح الحنفي قاضي مرو.

ويدل عليه ما روى أبو سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين سبع آيات إحداهن بسم الله الرحمن الرحيم وهي السبع المثاني وهي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب».

وروى ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

وروى حفص بن عاصم عن أبي سعيد المعلي عن أُبي بن كعب قال: كنت أُصلي فناداني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فلما صليت أتيته، فقال: «ما منعك أن تجيبني؟» قلت: كنت أصلي، قال: «أولم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ (الأنفال: ٢٤) الآية».

ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن نخرج من المسجد» فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن.

قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت».

وعن أبي هريرة قال: قرأ أبي بن كعب على رسول الله ﷺ أم القرآن. فقال: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت».

عن ابن جريج قال: أخبرني أبي أن سعيد بن جبير أخبره فقال له: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: هي أم القرآن، قال: هي، وقرأ عليّ سعيد بن جبير بسم الله الرحمن الرحيم حتى ختمها، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة.

قال سعيد بن جبير لأبي: وقرأ عليّ ابن عباس كما قرأتها عليك، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة.

قال ابن عباس: قد ادخرها الله لكم فما أخرجها لأحد قبلكم.

فقلت: هذه اختيار الصحاح أن السبع المثانى هى فاتحة الكتاب، وأن الله تعالى امتن على رسوله ﷺ بهذه السورة كما امتن عليه بجميع القرآن، وقيل: نزلت هذه السورة فى خيبر.

وفى هذا دليل على أن الصلاة لا تجوز إلا بها ويؤيد ما قلنا ما روى الزهرى عن محمد بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب عوض من كل القرآن والقرآن كله ليس منه عوض».

واختلف العلماء فى حديث آيات هذه السورة مثانى، فقال ابن عباس والحسن وقتادة والربيع: لأنها تثنى فى كل صلاة وفى كل ركعة.

وقال بعضهم: سمّيت مثانى لأنها مقسومة بين الله وبين العبد قسمين اثنين، بيانه والذى يدل عليه ما روى أبو السائب مولى هشام بن زهرة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، فهى خداج هى خداج غير تمام».

قال أبو السائب لأبى هريرة: إنى أحيانًا أكون وراء الإمام.

قال: فغمز أبو هريرة ذراعى، وقال: يا فارسى اقرأها فى نفسك إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى، ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل».

وقال رسول الله ﷺ: «اقرءوا، يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله: حمدنى عبدى، ويقول العبد: الرحمن الرحيم، فيقول الله: أثنى علىَّ عبدى، فيقول العبد: مالك يوم الدين، فيقول الله: مجدنى عبدى، يقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذه الآية بينى وبين عبدى، يقول العبد: اهدنا الصراط إلى آخره، يقول الله: فهذا لعبدى ولعبدى ما سأل».

ويقال: سميت (مثانى) لأنها منقسمة إلى قسمين: نصفها ثناء ونصفها دعاء، ونصفها حق الربوبية ونصفها حق العبودية، وقيل: لأن ملائكة السموات يصلّون الصلوات بها، كما أن أهل الأرض يصلّون بها. وقيل: لأن حروفها وكلماتها مثناة، ومثل الرحمن الرحيم، إياك وإياك، الصراط الصراط، عليهم عليهم، غير غير، فى قراءة عمر.

وقال الحسين بن الفضل وغيره: لأنها تقرأ مرّتين كل مرة معها سبعون ألف ملك، مرة بمكة من أوائل ما نزل من القرآن، ومرة بالمدينة، والسبب هو أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود بنى قريظة والنضير فى يوم واحد وفيها أنواع من البز وأوعية (وأفاوية) الطيب والجواهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها ولأنفقناها فى

سبيل الله فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وقال: لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير لكم من هذه السبع القوافل، ودليل هذه التأويل قوله فى عقبها: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية.

وقيل: لأنها متصدرة بالحمد، والحمد أول كلمة تكلم بها آدم حين عطس وهى آخر كلام أهل الجنة من ذريته، قال الله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (يونس: ١٠).

وقيل: لأن الله استثناها وادّخرها لهذه الأمة فما أعطاها لغيرهم، كما روينا فى خبر سعيد ابن جبير عن ابن عباس.

وقال أبو زيد اللخمى: لأنها تثنى أهل الدعارة والشرارة عن الفسق والبطالة من قول العرب ثنيت عنانى، قال الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ (هود: ٥).

وقيل: لأن أولها ثناء على الله عزّ وجلّ.

وقال قوم: إن السبع المثانى هو السبع الطوال، وهى: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معًا.

وقال بعضهم: يونس، وعليه أكثر المفسرين.

روى سفيان عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾، قال: السبع الطوال.

سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: هو السبع الطوال.

وهو قول عمر، ورواية أبى بشر وجعفر بن المغيرة ومسلم البطين عن سعيد بن جبير، ورواية ليث وابن أبى نجيح عن مجاهد، ورواية عبيد بن سليمان عن الضحاك. يدل عليه ما روى أبو أسماء الرحبى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة، وأعطانى المبين مكان الإنجيل، وأعطانى الطواسين مكان الزبور وفضلنى ربى بالمفصّل».

وروى الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أوتى رسول الله ﷺ السبع المثانى الطوال، وأعطى موسى ستًا فلما ألقى الألواح رفعت اثنتان وبقى أربع.

روى عروة عن عائشة أن النبى ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول فهو حبر».

قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطوال مثانى؛ لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والعبر تثبت فيه.

طاوس وأبو مالك: القرآن كلّه مثانى، وهى رواية العوفى عن ابن عباس قال: ألم تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ (الزمر: ٢٣) وسمّى القرآن مثانى لأن القصص ثبتت فيه.

وعلى هذا القول المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن. ويكون فيه إضمار تقديره: وهى للقرآن العظيم.

فاحتج بقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام — وليث الكتيبة فى المزدحم

مجازه: الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة فى المزدحم.

وروى عتاب بن بشر عن حنيف عن زياد بن أبى مريم فى قوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء وهى سبعة معان فى القرآن: مرّ، وإنه، وبشر، وأنذر، واضرب الأمثال، وأعدد النعم، وآتينك نبأ القرآنً.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا﴾ أصنافًا ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ من الكفار متمنيًا إياها. نهى رسوله عن الرغبة فى الدنيا.

وقال أنس: مرت برسول الله ﷺ إبل أيام الربيع وقد حبست فى أبعارها وأبوالها. فغطى رسول الله ﷺ عينه بكمّه وقال: «بهذا أمرنى ربى» ثم تلا هذه الآية.

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ لين جانبك ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وارفق بهم.

والجناحان من ابن آدم جانباه، ومنه قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ (طه: ٢٢) أى جنبك وناحيتك.

﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ۝ كَمَآ أَنزَلۡنَا﴾، قال الفراء: مجازه: أنذركم عذابًا ﴿عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾. فاختلفوا فيهم:

فروى الأعمش عن أبى ظبيان قال: سمعت ابن عباس يقول فى قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، قال: هم اليهود والنصارى.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ جزّءوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

وقال عكرمة: سموا مقتسمين لأنهم كانوا يستهزئون فيقول بعضهم: هذه السورة لى. وقال بعضهم: هذه لى، فيقول أحدهم: لى سورة البقرة، ويقول الآخر: لى سورة آل عمران.

وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى، قسّموا كتابهم ففرقوه وبددوه.

وقال مقاتل: كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقاب مكة وطرقها وقعدوا على أبوابها وقبابها وإذا جاء الحجاج، قال فريق منهم: لا تغتروا بخارج منا يدعى النبوة فإنه مجنون.

وقالت طائفة أخرى: على طريق آخر أنه كاهن.

وقالت طائفة: عرّاف. وقالت طائفة: شاعر، والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكمًا، فإذا سئل عن رسول الله ﷺ قال: صدق لوليك المقتسمين.

وقال مقاتل بن حيان: هم قوم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: سمر، وقال بعضهم: كذب. وقال بعضهم: شعر، وقال بعضهم: أساطير الأولين.

وقال بعضهم: هم الذين تقاسموا صالحًا وأرادوا تبييته.

وقرأ قول الله: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ (النمل: ٤٨، ٤٩) الآية.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ يعنى عضوا كتاب الله ونبيه وأمره ونهيه أى كذبوا.

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾، قال بعضهم: هو جمع عضو وهو مأخوذ من قولهم عضيت يعضيه إذا فرقته. وقال رؤبة:

❖ وليس دين الله بالمعضى ❖

يعنى: بالمفرق. وقال آخر:

وعضى بنى عوف، فأما عدوهم　　　فأرضى وأمــا العز منهم فغيرا

يعنى بقوله وعضى بنى عوف: سبّاهم وقطعهم بلسانه.

وقال آخرون: بل هو جمع عضة، يقال: عضة وعضين. مثل يرة ويرين، وكرة وكرين، وقلة وقلين، وعزة وعزين، وأصله عضهة ذهبت هاؤها الأصلية كما نقصوا الهاء من الشفة وأصلها شفهة ومن الشاة وأصلها شاهة يدلك على ذلك التصغير تقول: شفيهة وشويهة، ومعنى العضة: الكذب والبهتان، وفى الحديث: «لا يعضه بعضكم بعضًا».

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا.

وروى أنس عن النبى ﷺ فى هذه الآية قال: «عن لا إله إلا الله».

قال عبد الله: والذى لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله تعالى به يوم القيامة (كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة بدر) فيقول: يا ابن آدم ماذا غرك منى، يا ابن آدم ما عملت، فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين.

واعترضت الملحدة بأبصار كليلة وأفهام عليلة على هذه الآية على قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ (الرحمن: ٣٩) وحكموا عليهما بالتناقض.

والجواب عنه: ما روى عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾. قال: لا نسألهم هل عملتم كذا وكذا، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لهم: لِمَ عملتم كذا وكذا؟

واعتمد قطرب هذا القول، وقال: السؤال على ضربين: سؤال استعلام واستخبار، وسؤال توبيخ وتقرير. فقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ يعنى استعلامًا واستخبارًا، لأنه كان عالمًا بهم قبل أن يخلقهم. وقوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعنى تقريعًا وتقريرًا ليريهم القدرة فى تعذيبنا إياهم.

وقال عكرمة: سألت مولاى عبد الله بن عباس عن الآيتين، فقال: إن يوم القيامة يوم طويل وفيه مواقف، يسألون فى بعض المواقف ولا يسألون فى بعضها. ونظيره قوله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ (المرسلات: ٣٥)، وقال فى آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (الزمر: ٣١).

وقال بعضهم: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ﴾ إذا كان المذنب مكرهًا مضطرًا، و ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ إذا كانوا مختارين، وقيل: لا يسأل إذا كان الذنب فى حال الصبى أو الجنون أو النوم، بيانه قوله ﷺ «رفع القلم عن ثلاث» وقوله: لنسألنهم، إذا كان عملهم خارجًا من هذه الأحوال وقيل: لا يسأل إذا كان الذنب فى حال الكفر.

وقوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ يعنى المؤمنين، بيانه قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ (الأنفال: ٣٨)، وقوله ﷺ: «إن الإسلام يجبّ ما قبله».

﴿فَٱصْدَعْ﴾ قال ابن عباس: أظهر. الوالبى عنه: فاقض.

عطية عنه: افعل. الضحاك: اعلم، الأخفش: افرق، المؤرج: افصل، سيبويه: اقض.

﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ يعنى بأمرنا (ما) المصدر.

وأصل الصدع: الفصل والفرق.

قال ذؤيب يصف الحمار والأتن:

وكأنهن ربابــــة وكأنــــه ... يسر يفيض على القداح ويصدع

(وقيل): أمر رسول الله ﷺ بإظهار الدعوة.

روى موسى عن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيدة قال: ما زال النبى ﷺ مستخفيًا حتى

نزلت ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه.

وقال مجاهد: أراد الجهر بالقرآن فى الصلاة.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لا تبال بهم ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾.

يقول الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ فاصدع بأمر الله ولا تخف شيئًا سوى الله فإن الله كافيك من عاداك وآذاك كما كفاك المستهزئين وهم من قريش ورؤساؤهم خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، وعبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان رأسهم، والعاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم، والأسود بن المطلب بن الحارث بن (أسد) بن عبد العزى أبو زمعة - وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: «اللهم أعم بصره وأثكله بولده» - والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف ابن زهرة، والحارث بن قيس بن الطلاطلة فإنه عيطل.

فأتى جبرائيل محمداً ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت، فقام جبرائيل وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمرّ به الوليد بن المغيرة، فقال جبرائيل: يا محمد كيف تجد هذا؟ قال: بئس عبد الله.

قال: «قد كفيت» وأومأ إلى ساقه ويده، فمر برجل من خزاعة (نبال) يريش نبلاً له وعليه برد يمان وهو يجر إزاره فتعلقت شظية من نبل بإزاره فمنعه الكبر أن يطمئن ونبذ عمامته وجعلت تضرب ساقه فخدشته فمرض منه ومات.

وقال الكلبى: تعلق سهم بثوبه فأصاب أكحله فقطعه فمات.

ومر به العاص بن وائل، فقال جبرائيل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: «بئس عبد الله»، فأشار جبرائيل لأخمص رجله وقال: «قد كفيت» وقد خرج على راحلته ومعه اثنان يمنعانه فنزل شعبًا من تلك الشعاب فوطئ على شرقة فدخلت منها شوكة فى أخمص رجله، فقال: الوقت لدغت. فطلبوا ولم يجدوا شيئًا فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق بعير فمات مكانه.

ومر به الأسود بن عبد المطلب، فقال جبرائيل: كيف تجد هذا يا محمد؟

قال: «عبد سوء» فأشار إلى عينه، وقال: «قد كفيت» فعمى.

قال ابن عباس: رماه جبرائيل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عينه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك.

وفى رواية الكلبى: أتاه جبرائيل وهو قاعد فى ظل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك واستغاث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئًا

غير نفسك حتى مات وهو يقول: قتلني رب محمد.

ومر به الأسود بن عبد يغوث فقال جبرئيل: كيف تجد هذا؟ فقال: «بئس عبد الله، على أنه خالي»، فقال: قد كفيت، وأشار إلى بطنه فشق بطنه فمات حينها.

وفي رواية الكلبي: أنه خرج من أهله فأصابه السموم فاسود حتى عاد حبشيًا فأتى أهله فلم يعرفوه فأغلقوا دونه الباب وهو يقول: قتلني رب محمد.

ومر به الحارث بن قيس، فقال جبرئيل عليه السلام: يا محمد كيف تجد هذا؟ قال: «عبد سوء» فأومأ إلى رأسه وقال: قد كفيت، فامتخط قيحًا فقتله.

وقال ابن عباس: إنه أكل حوتًا مالحًا فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى انقدّ بطنه فمات، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ يعني بك والقرآن.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

قال ابن عباس: فصل يا محمد لربك.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ المتواضعين.

وقال الضحاك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قل سبحان الله وبحمده ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ أي المصلين.

ويروى أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ يعني الموت، ومجازه: الموفق به.

روى يونس بن زيد عن ابن شهاب: أن خارجة بن زيد بن ثابت أخبره عن أم العلاء - امرأة من الأنصار قد بايعت النبي ﷺ - أخبرته أنهم اقتسموا المهاجرين قرعة قالت: فصار لنا عثمان ابن مظعون فأنزلناه في أبياتنا فوجع وجعه الذي مات فيه، فلما توفي وغسّل وكفّن في ثوبه دخل رسول الله ﷺ فقلت: يا عثمان بن مظعون رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله.

فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه» قالت: فقلت: بأبي أنت يا رسول الله فمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين ووالله إني لأرجو له الخير».

قالوا: فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليَّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحي إليَّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين».

سورة النحل

مكية ، إلا قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ (النحل:١٢٦) إلى آخرها وهى سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف ، وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة ، ومائة وثمان وعشرون آية

أبو أمامة الباهلى عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : «ومن قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بالنعم التى أنعمها عليه فى دار الدنيا ، وأعطى من الأجر كالذى مات فأحسن الوصية» .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أى جاء فدنا ، واختلفوا فى هذا الأمر ما هو.

فقال قوم : هو الساعة .

قال ابن عبّاس : لما أنزل الله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ (القمر:١) قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم (أن) يوم القيامة قد قرب فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما رأوا أنه لا ينزل شىء ، قالوا : ما نرى شيئًا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (الأنبياء:١) الآية .

فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمّد ما نرى شيئًا مما تخوّفنا

به فأنزل الله ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب النبى ﷺ ورفع الناس رؤوسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فاطمأنوا فلما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بأصبعيه ـ إن كادت لتسبقنى».

وقال ابن عبّاس: كان بعث النبى ﷺ من أشراط الساعة. وإن جبرائيل لما مرَّ بأهل السموات مبعوثًا إلى محمد ﷺ قالوا: الله أكبر قد قامت الساعة.

قال الآخرون: الأمر هاهنا العذاب بالسيف، وهو جواب للنضر بن الحارث حين قال: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ (الأنفال: ٣٢) ـ الآية ـ يستعجل العذاب، فأنزل الله هذه الآية، وهذا من الجواب المقصور فقتل النضر يوم بدر صبرًا.

وقال الضحاك: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: الأحكام والحدود والفرائض.

والقول الأوّل أولى بالصواب؛ لأنه لم يبلغنا أن أحدًا من الصحابة مستعجل بفريضة الله قبل أن تفرض عليهم، وأمّا مستعجل العذاب من المشركين فقد كانوا كثيرًا.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قرأه العامّة: بضم الياء وكسر الزاى المشددة، الملائكة نصب. وخففه معظم أهل مكة والبصرة بمعنى ينزل الله.

وقرأ المفضل وروح وسهيل وزيد: ينزل بفتح الياء والزاى، الملائكة رفع.

وقرأ الأعمش: ينزل بفتح الياء وجزم النون وكسر الزاى من النزول، والملائكة رفع على هاتين القراءتين والفعل للملائكة.

﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحى سمّاه روحًا، لأنه تحيا به القلوب والحق، ويموت به الكفر والباطل.

وقال عطاء: بالنبوة فطرة يلقى الروح من أمره.

قتادة: بالرحمة.

أبو عبيدة: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾، يعنى: مع الروح وهو جبرائيل.

﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ﴾ محله نصب بنزع الخافض، ومجازه بأن ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾ اعلموا، من قولهم: أنذر به أى أعلم ﴿أَنَّهُۥ﴾ فى محل النصب بوقوع الإنذار عليه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ﴾ يجادل بالباطل ﴿مُّبِينٞ﴾ نظيره قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ (النساء: ١٠٥) نزلت هذه الآية فى أُبى بن خلف الجمحى حين جاء بالعظم الرميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد أترى الله يحيى هذا بعدما قد رمَّ؟ نظيرها قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ (يس: ٧٧) إلى آخر السورة نزلت فى هذه القصة أيضًا.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ﴾ يعنى الإبل والبقر والغنم ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ يعنى من أوبارها وأصوافها وأشعارها ملابس و(لحفًا) وقطن يستدفئون ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ بالنسل والدرّ والركوب والحمل وغيرها ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ يعنى لحومها ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أى حين يردّونها بالعشى من مراعيها إلى مباركها التى تأوى إليها . يقال: أراح فلان ماشيته يريحها إراحة ، والمكان الذى يراح إليه: مراح .

﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ أى يخرجونها بالغداة من مراعيها إلى مسارحها . يقال: سرّح ماشيته يسرّحها سُرحًا وسروحًا إذا أخرجها للرعى ، وسرحت الماشية سروحًا إذا رعت .

قال قتادة: وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظامًا ضروعها طوالاً أسنمتها .

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ﴾ آخر غير بلدكم .

عكرمة: البلد مكة .

﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ أى تكلفتموه ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ .

قرأه العامّة: بكسر الشين ، ولها معنيان: أحدهما: الجهد والمشقة .

والثانى: النصف ، يعنى لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق النفس من القوة وذهاب شق منها حتّى لم تبلغوه إلاّ بنصف قوى أنفسكم وذهاب نصفها الآخر .

وقرأ أبو جعفر: بشق بفتح الشين . وهما لغتان مثل برَق وبرِق ، وحَصن وحصِن ، ورَطل ورطِل .

وينشد قول النمر بن تولب: بكسر الشين .

وذى إبل يسعى ويحسبها له أخى نصب من شقها ودؤوب

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر من شققت عليه يشق شقًا .

﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ بخلقه حيث خلق لهم هذه الأشياء وهيّأ لهم هذه المنافع والمرافق .

﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾ يعنى وخلق الخيل وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء ﴿وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ يعنى وجعلها زينة مع المنافع التى فيها .

واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على تحريم لحوم الخيل ، روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنه سئل عن أكل لحوم الخيل فكرهها وتلا هذه الآية: ﴿وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ .

قال: هو المركوب ، وقرأ التى قبلها: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ﴾ الآية ، وقال: هذه للأكل .

وقال: الحكم بلحوم الخيل حرام فى كتاب الله ، ثمّ قرأ هذه الآيات ، وقال: جعل هذا للأكل وهذا للركوب .

وإلى هذا ذهب أبو حنيفة ومالك وغيرهما من العلماء، واحتجوا أيضًا فى ذلك بما روى صالح بن يحيى بن المقدام بن معدى كرب عن أبيه عن جدّه عن خالد بن الوليد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير».

وقال الآخرون: لا بأس بأكل لحوم الخيل، وليس فى هذه الآية دليل على تحريم شىء، وإنما عرّف الله عباده بهذه الآية نعمه عليهم ونبههم على حجج وحدانيته وربوبيته وكمال قدرته، وإليه ذهب الشافعى واحتج بما روى محمّد بن على عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى لحوم الخيل.

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن جابر قال: أطعمنا رسول الله ﷺ يعنى يوم خيبر - لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر.

وروى سفيان عن عبد الكريم عن عطاء عن جابر قال: كنا نأكل لحوم الخيل، قلت: والبغال؟ قال: لا.

هشام عن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبى بكر (رضى الله عنه) قالت: أكلنا لحم فرس على عهد رسول الله ﷺ.

سفيان عن منصور عن إبراهيم قال: نحر أصحابنا فرسًا فى النخع فأكلوا منه ولم يروا به بأسًا.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال بعض المفسرين: يعنى ما أعدَّ فى الجنة لأهلها، وفى النار لأهلها ما لم تره عين ولا سمعته أُذن ولا خطر على قلب بشر.

قال قتادة: يعنى السوس فى الثياب، والدود فى الفواكه.

وروى مقاتل عن الضحاك عن ابن عبّاس فى قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: يريد أن عن يمين العرش نهرًا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع. يدخل جبرائيل كل سحر فيغتسل فيزداد نورًا إلى نوره وجمالاً إلى جماله وعظمًا إلى عظمته فينتفض فيخرج الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك بالبيت المعمور وفى الكعبة سبعون ألفًا لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعنى طريق الحق لكم، والقصد: الطريق المستقيم، وقيل على الله القصد بكم إلى الدين ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يعنى ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوج، وإنما أُنث للكناية، لأن لفظ السبيل واحد ومعناها جمع، والسبيل مؤنثة فى لغة أهل الحجاز، والقصد

من السبيل هو الحنيفية دين الإسلام، والجائر منها اليهودية والنصرانية وغير ذلك من الملل والكفرة.

وقال جابر بن عبد الله: قصد السبيل يعنى بيان الشرائع والفرائض، وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله: ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ السنّة، ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يعنى الأهواء والبدع، بيانه قوله: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٥٣) الآية. وفى مصحف عبد الله: ومنكم جائز.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ نظيرها قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (يونس: ٩٩) وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ (السجدة: ١٣).

❖ ❖ ❖

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ﴾ أى من ذلك الماء ﴿شَرَابٌ﴾ يشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ شراب أشجاركم حياة غروسكم ونباتكم ﴿فِيهِ﴾، فى الشجرة وهو اسم علم، وإنما ذكر الكناية، لأنه ردّه إلى لفظ الشجر.

﴿تُسِيمُونَ﴾ ترعون، يقال: أسام فلان إبله يسميها إسامة، إذا رعاها، فهو مسيم وسامت هى تسوم فهى سائمة.

قال الشاعر:

ومشى القوم بالعمـــاد إلى المرعى وأعيا المسيم أين المساق

يعنى يدخلون العماد تحت بطون الزرعى (. . . .)[1].

قال الشاعر:

❖ أولى لك ابن مسيمة الأجمال ❖

أى يا بن راعية الإبل.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾. قرأه العامّة بالياء يعنى: ينبت لكم. وقرأ عاصم برواية المفضل وحماد ويحيى بالنون، والأوّل الاختيار.

﴿بِهِ﴾ بالماء الذى أنزل ﴿ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾ قرأه العامّة بالنصب نسقًا على ما قبله.

وروى حفص عن عاصم، ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾: بالرفع على الخبر والابتداء، وقرأ ابن عامر ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾ كلها بالرفع على الابتداء والخبر.

﴿بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾ بإذنه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ﴾ يعنى وسخّر ما ذرأ ﴿لَكُمۡ﴾ أى خلق لأجلكم من الدواب والأشجار والثمار وغيرها ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾ نصب على الحال.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمًا طَرِيًّا﴾ يعنى السمك ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةً﴾ يعنى اللؤلؤ والمرجان.

روى حماد بن يحيى عن إسماعيل بن عبد الملك قال: جاء رجل إلى ابن جعفر قال: فى حلىّ النساء صدقة؟ قال: لا، هى كما قال الله: ﴿حِلۡيَةً تَلۡبَسُونَهَا﴾.

﴿تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.

قال ابن عبّاس: جوارى.

سعيد بن جبير: معترضة. قتادة ومقاتل: (تذهب وتجىء) مقبلة ومدبرة بريح واحدة.

الحسن: مواقر.

عكرمة والفراء والأخفش: شقاق يشق الماء بجناحيها.

مجاهد: يمخر السفن الرياح ولا يمخر الريح من السفن إلاّ الملك العظيم.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أبو عبيدة: سوابح.

وأصل المخر الدفع والشق، ومنه مخر الأرض، ويقال: امتخرت الريح وتمخّرتها، إذا نظرت من أين مبعوثها، وفى الحديث: «إذا أراد أحدكم البول فليمتخر الريح» أى لينظر من أين مخرها وهبوبها فيستدبرها حتّى لا يرد عليه البول.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعنى التجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعنى لئلاّ تميد بكم، أى تتحرك وتميل، والميل: هو الاضطراب والتكفّؤ، ومنه قيل للدوار الذى يعترى راكب البحر: ميد.

قال وهب: لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتمور، فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرّة أحدًا على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ولم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال.

وقال على رضى الله عنه: لما خلق الله الأرض رفضت وقالت: أى رب أتجعل علىَّ بنى آدم يعملون علىَّ الخطيئة ويلقون علىّ الخبث، فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ يعنى وجعل فيها أنهاراً ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقًا مختلفة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ فلا تضلون ولا تتحيرون، يعنى معالم الطرق.

وقال بعضهم: هاهنا تم الكلام ثمّ ابتدأ.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. قال محمّد بن كعب القرظى والكلبى: أراد بالعلامات الجبال، فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل.

وقال مجاهد وإبراهيم: أراد بهما جميعًا النجوم، فمنها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون به.

قال السدى: يعنى بالثريا وبنات نعش والفرقدين والجدى فيهتدون إلى الطرق والقبلة.

قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينة للسماء، وعلامات للطريق ورجومًا للشياطين. فمن قال غير هذا فقد قال برأيه وتكلّف ما لا علم به.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ يعنى الله تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يعنى الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ نظيرها قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ (لقمان: ١١) وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٤٠).

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لما كان منكم من تقصير شكر نعمه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث وسّع عليكم نعمه ولم يقطعها عنكم بتقصيركم ومعاصيكم. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قرأه العامّة بالتاء، لأن ما قبله كلّه خطاب.

وقرأ يعقوب وعاصم وسهل بالياء.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثمّ وصف الأوثان فقال: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ أى هى أموات ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى الأصنام ﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ عبّر عنها كما عبّر عن الآدميين وقد مضت هذه المسألة، وقيل: وما يدرى الكفّار عبدة الأوثان متى يبعثون.

﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جاحدة غير عارفة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ متعظّمون ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنى إذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم مشركو قريش الذين اقتسموا عقاب مكة وأبوابهم، سألهم الحجاج والوفد أيام الموسم عن رسول الله ﷺ وعما أنزل عليه قالوا: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأباطيلهم.

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوب أنفسهم التى هم عليها مقيمون ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيصدونهم عن الإيمان ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ألا ساء الوزر الذى يحملون، نظيرها قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ (العنكبوت: ١٣) الآية.

قال النبى ﷺ: «أيّما داع دعا إلى ضلاله فاتُّبع، فإن عليه مثل أوزار من اتّبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، وأيّما داع دعا إلى هدى فاتّبع، فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل ولزم منها الصعود إلى السماء ينظر ويزعم إلى إله إبراهيم، وقد مضت هذه القصة.

قال ابن عبّاس ووهب: كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراعًا.

وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين فهبّت ريح وألقت رأسها فى البحر وخرّ عليهم الباقى وانفكت بيوتهم وأحدث نمرود، ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانًا فلذلك سميت بابل، وإنما كان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أى قصد تخريب بنيانهم من أصولها فأتاها أمر الله وهو الريح التى خرّبتها ﴿فَخَرَّ﴾ فسقط ﴿عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ يعنى أعلى البيوت، ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من مأمنهم ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلّهم بالعذاب. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تخالفون فيهم لا ينقذونكم فيدفعوا عنكم العذاب.

وقرأ العامّة على فتح النون من قوله: ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾ إلاّ نافع فإنه كسرها على الإضافة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم المؤمنون ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر نصب على الحال، أى فى حال كفرهم ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أى استسلموا وانقادوا وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ شرك، فقالت لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال عكرمة: عَنى بذلك من قتل من قريش وأهل مكة ببدر وقد أُخرج إليها كرهًا.

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ

يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى ﷺ فإذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه، فيقولون: شاعر وساحر وكاهن وكاذب ومجنون ويفرّق الأخوان، ويقولون: إنه لو لم تلقه خير لك، فيقول السائل: أنا شرّ داخل إن رجعت إلى قومى دون أن أدخل مكة وأستطلع أمر محمّد أو ألقاه، فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله ﷺ فيخبرونه بصدقه وأنه نبى مبعوث، فذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾.

فإن قيل: لمَ ارتفع جواب المشركين فى قولهم ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤) وانتصب فى قوله ﴿خَيْرًا﴾.

فالجواب: أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل فلما سئلوا قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنى الذى يقوله محمد ﷺ أساطير الأولين، والمؤمنين إنما كانوا مقرّين بالتنزيل، فإذا قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ يعنون أنزل خيراً.

ثمّ ابتدأ فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كرامة من الله، ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ثمّ فسرها فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ بدل عن النار، فلذلك ارتفع ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ مؤمنين.

مجاهد: زاكية أعمالهم وأقوالهم.

﴿يَقُولُونَ﴾ يعنى فى الآية ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال القرظى: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك ولىّ الله، الله يقرأ عليك السلام ويبشرك بالجنة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقبضون أرواحهم.

﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعنى يوم القيامة، وقيل: العذاب ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبه إياهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ عقوبات كفرهم وأعمالهم الخبيثة.

﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ قل للذين اقتدينا بهم ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ يعني البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فلولا أن رضيها لغير ذلك لبعض عقوباته أو هدانا إلى غيرها.

قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يعني إلاّ عليه، فإنّها لم تحرم هذه الأشياء وأنهم ادعو على الله.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني بأن اعبدوا الله ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وهو كل معبود من دون الله ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ في دينه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ﴾ أي وجبت ﴿عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ حتّى مات على كفره ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي خراب منازلهم وديارهم بالعذاب والهلاك ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا محمّد ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾.

قرأ أهل الكوفة: يهدي بفتح الياء وقسموا ذلك، ولها وجهان: أحدهما: إن معناه فإنّ الله لا يهدي من أضله الله، والآخر: أن يكون يهدي بمعنى يهتدي، بمعنى من أضله الله لا يهتدي.

يقول العرب: هدى الرجل وهم يريدون اهتدى.

وقرأ الباقون: بضم الياء وفتح الدال، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم على معنى من أضله الله فلا هادي له، دليله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ (الأعراف: ١٨٦).

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يمنعونهم من عذاب الله ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

الربيع عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه

يتقاضاه فكان فيما تكلّم به: والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك تُبعث بعد الموت فأقسم بالله (لا يبعث الله من يموت) فأنزل الله هذه الآية.

قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لابن عبّاس: إن ناسًا بالعراق يزعمون أن عليًا مبعوث قبل يوم القيامة ويتأولون هذه الآية.

فقال ابن عبّاس: كذب أولئك، إنما هذه الآية عامة للناس، لو كان علىّ مبعوثًا قبل يوم القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه، قال الله ردًا عليهم: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فى الخبر أن الله تعالى يقول: كذّبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى، وشتمنى ابن آدم ولا ينبغى له أن يشتمنى، فأمّا تكذيبه إياى فحلفه بى أن لا أبعث الخلق، وأمّا شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدًا وأنا الله الواحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوًا أحد.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هو مردود إلى قوله: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يبين لهؤلاء المنكرين المقتسمين الذين يختلفون ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ۝ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ﴾ الآية، يقول الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيائهم ولا فى غير ذلك (مما نخلق ونكون ونُحْدث). لأنا إذا أردنا خلق شىء وإنشاءه ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وفى هذه الآية دليل على أنّ القرآن غير مخلوق، فذكر أن الله عزّ وجلّ أخبر أنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، فلو كان قوله كن مخلوقًا لاحتاج إلى قول ثان ولاحتاج ذلك القول إلى قول ثالث إلى ما لا نهاية فلما بطل ذلك ثبت أن الله خلق الخلق بكلام غير مخلوق.

❖ ❖ ❖

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟

ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ عُذّبوا وقُتلوا فى الله، نزلت فى بلال وصهيب وخبّاب وعمار وعابس وجبير وأبى جندل بن سهيل، أخذهم المشركون بمكة فعذّبوهم.

وقال قتادة: يعنى أصحاب محمّد ﷺ ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم حتّى لحق جماعة منهم بالحبشة ثمّ بوّأهم الله بالمدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار الهجرة وجعل لهم على من ظلمهم أنصاراً من المؤمنين والآية تعم الجميع.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أنزلهم المدينة وأطعمهم الغنيمة.

ويروى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كان إذا أعطى لرجل من المهاجرين عطاء يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ذخر لك فى الآخرة أفضل، ثمّ تلا هذه الآية.

وقال بعض أهل المعانى: مجاز قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ليحسنن إليهم فى الدنيا. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ فى الله على ما نابهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الآية نزلت فى مشركى مكة حين أنكروا نبوة محمّد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فهلا بعث إلينا ملكًا.

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ يعنى هم أهل الكتاب ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ فإن قيل: ما الجالب لهذه الباء؟

قيل: قد اختلفوا فى ذلك: فقال بعضهم: هى من صلة أرسلنا و﴿إِلَّا﴾ بمعنى غير، مجازه: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر غير رجال يوحى إليهم ولم نبعث ملائكة. وهذا كما تقول: ما ضرب إلاّ أخوك عمر، وهل كلم إلا أخوك زيداً بمعنى ما ضرب عمر غير أخيك هل كلم زيداً غير أخيك. قال أوس بن حجر:

أبنى لبينى لستمُ بيد إلا يد ليست لها عضد

يعنى غير يده، قال الله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) أى غير الله.

وقال بعضهم: إنما هذا على كلامين، يريد: وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً أرسلنا بالبينات والزبر ويشهد على ذلك بقول الأعمش:

وليس مجيراً إن أتى الحى خائف ولا قائلا إلاّ هـــــو المتعيّبا

يقول: لو كان بذلك على كلمة لكان خطأ من سفه القاتل، ولكن جاء ذلك على كلامين كقول الآخر:

نبّئتهم عذّبوا بالنار جارهم وهل يعذّب إلا الله بالنار

وتأويل الكلام: وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحى إليهم أرسلناهم البينات والزبر.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعنى نمرود بن كنعان وغيره من الكفار وأهل الأوثان ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العقاب ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ تصرفهم فى أسفارهم بالليل والنهار ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ مسابقى الله ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾.

قال الضحاك والكلبى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يعنى يأخذ طائفة ويدع طائفة فتخاف الطائفة الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها.

وقال سائر المفسرين: التخوّف: التنقّص، يعنى ينقص من أطرافهم ونواصيهم الشىء بهذا الشىء حتّى يهلك جميعهم.

يقال: تخوّف مال فلان الإنفاق، إذا انتقصه وأخذه من حافته وأطرافه.

وقال الهيثم بن عدى: هى لغة لأزد شنوءة، وأنشد:

تخوّف عدوهم مالى وأهدى سلاسل فى الحلوق لها صليل

قال سعيد بن المسيب: بينما عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على المنبر فقال: يا أيها الناس ما تقولون فى قول الله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ فسكت الناس، فقام شيخ فقال: يا أمير المؤمنين هذه لغتنا فى هذيل، التخوّف: التنقص، فقال عمر: وهل تعرف العرب ذلك فى أشعارهم قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلى:

تخوّف السير منها تامكًا قردًا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر: يا أيها الناس عليكم بديوانكم الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يعنى لم يعجّل العقوبة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى والأعمش: (تروا) بالتاء على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء خبراً عن ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وهو اختيار الأئمة.

﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ يعنى من جسم قائم له ظل ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾.

بالتاء أهل البصرة. الباقون بالياء، ومعنى قوله ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾: يميل ويرجع من جانب إلى جانب فهي في أوّل النهار ثمّ تعود إلى حال أخرى في آخر النهار، فميلانها ودورانها من موضع إلى موضع سجودها، ومنه قيل للظل بالعشي: فيء، لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، والفيء: الرجوع، قال: ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (الحجرات: ٩) يقال: سجدت النخلة إذا مالت، وسجد البعير وأسجد إذا جعل للركوب، ومثله قال في هذه الآية على هذا التأويل.

قتادة والضحاك: أمّا اليمين فأول النهار وأمّا الشمال فآخر النهار، تسجد الظلال لله غدوة إلى أن تفيء الظلال ثمّ تسجد أيضًا إلى الليل.

وقال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله.

وقال عبد الله بن عمر: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «أربع قبل الظهر بعد الزوال تحسب بمثلهن في صلاة السحر وليس من شيء إلاّ وهو يسبح لله تعالى تلك الساعة» ثمّ قرأ ﴿يَتَفَيَّؤُا۟﴾ الآية.

الكلبي: الظل قبل طلوع الشمس عن يمينك وعن شمالك وقدامك وخلفك، ولذلك إذا غابت وإذا طلعت كان قدامك، فإذا ارتفعت كان عن يمينك وإذا كان بعد ذلك كان خلفك، فإذا كان قبل أن تغيب الشمس كان على يسارك فهذا تفيؤه أي تضلله هاهنا وهاهنا، وهو سجوده.

وأمّا الوجه في توحيد اليمين وجمع الشمال، فهو أنّ من شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن يبقى واحدة ويلقي الأخرى، واكتفى بالمبقى على الملقى كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ (البقرة: ٧) وكقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

وقال بعضهم: اليمين راجع إلى قوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ ولفظة من أحد، والشمائل راجعة إلى المعنى وقيل: هذا في الكلام كثير.

قال الشاعر:

بقي الشامتين الصخر إن كان هدني ... رزية شبلي مخدر في الضراغم

لم يقل: بأفواه الشامتين.

وقال آخر:

الوارون وتيم في ذرا سبأ ... قد عض أعناقهم جلد الجواميس

لم يقل: جلود.

﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (وإنما أخبر بـ(ما) عن

الذى يعقل ولا يعقل على التغليب، كما يغلب الكثير على القليل والمذكر على المؤنث) ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يدب عليها كل حيوان يموت، كقوله: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود:٦) وقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ (هود:٥٦).

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ خص الملائكة بالذكر مع كونهم من جملتها فى الآية لرفع شأنهم، وقيل: لخروجهم من جملة الموصوفين بالتسبيب إذ جعل الله لهم أجنحة كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ (فاطر:١) فالطيران أغلب عليهم من الدبيب، وقيل: أراد الله يسجد ما فى السموات من الملائكة وما فى الأرض من دابة ويسجد ملائكة الأرض.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يعنى: يخافون (قدرة) ربهم أن يأتيهم بالعذاب من فوقهم، ويدل عليه قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ما يؤمرون يعنى الملائكة، وقيل: معناه يخافون ربهم الذى فوقهم بالقول والقدرة فلا يعجزه شىء ولا يغلبه أحد (يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ (الأنعام:١٨) وقوله إخباراً عن فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ (الأعراف:١٢٧).

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص.

﴿وَاصِبًا﴾ دائمًا ثابتًا.

وقال ابن عبّاس: واجبًا، تعنى الآية أنه ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع عنه بزوال أو

هلاك غير الله عزّ وجلّ، فإن الطاعة تدوم له وتصيب واصبًا على القطع.

قال أبو الأسود الدؤلى:

لا أبتغى الحمد القليل بقاؤه يومًا بذم الدهر أجمع واصبًا

أى دائمًا.

وقال الفراء: ويقال خالصًا.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم﴾.

قال الفراء: (ما) فى معنى الجزاء ولها فعل مضمر، كأنه قال: وما يكون لكم من نعمة فمن الله.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (. . . .)[1] أن لاّ تتقوا سواه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ لذلك دخلت الفاء فى قوله: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ يصيحون بالدعاء ويضجون بالاستغاثة. وأصله من جؤار الثور إذا رفع صوتًا شديدًا من جوع أو فزع. قال القتيبى يصف بقرة:

فطافت ثلاثًا بين يوم وليلة وكأن النكير أن تضيف وتجأرا

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعد ما خلصوا له بالدعاء فى حال البلاء ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ كفروا نعمته فيما أعطيناهم من النعماء وكشف الضرّ والبلاء ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد لهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ له نفعًا ولا فيه ضرًا ولا نفعًا ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ من الأموال وهو ما حملوا لأوثانهم من هديهم وأنعامهم نظيره قوله ﴿هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ (الأنعام: ١٣٦).

ثمّ رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ فى الدنيا ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ وهم خزاعة وكنانة قالوا: الملائكة بنات الله سبحانه.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعنى البنين، وفى قوله: ﴿مَّا﴾ وجهان من الأعراب: أحدهما الرفع على الابتداء، ومعنى الكلام: يجعلون لله البنات ولهم البنين، والثانى: النصب عطفًا على البنات تقديره: ويجعلون لله البنات ويجعلون لهم البنين الذى يشتهون.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من الكراهة ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غمًا وغيظًا ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ يخفى ويغيب ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ من الخزى والعار والحياء ثمّ يتفكر

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ ذكر الكناية لأنه مردود إلى (ما) ﴿عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ يخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾ فيئده.

وذلك أن مضر وخزاعة وتميمًا كانوا يدفنون الإناث أحياء - زعموا - خوف الفقر عليهن وطمع غير الأكفاء فيهن، وكان صعصعة عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت يستحييها بذلك، ولذلك قال الفرزدق:

ومنا الذى منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم يوأد

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس ما (يجعلون لله الإناث) ولأنفسهم البنين، نظيره قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ (النجم: ٢١، ٢٢).

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعنى لهؤلاء الواضعين لله سبحانه البنات ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ احتياجهم إلى الأولاد وكراهيتهم الإناث منهم أو قتلهم إياها خوف الفقر وإقرارًا على أنفسهم بالهتك لقول رسول الله ﷺ: «أكبر الكبائر أن تدعو لله ندًّا وهو خلقك، وأن تقتل ولدك من أجل أن يأكل معك وأن تزني بحليلة جارك».

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الصفة العليا وهى التوحيد والإخلاص.

وقال ابن عبّاس: مثل السوء: النار، والمثل الأعلى: شهادة أن لا إله إلاّ الله.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أى على ظهر الأرض كناية عن غير مذكور ﴿مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يمهلهم عليه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ منتهى آجالهم ساعة وانقضاء أعمارهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولا يقال موت قبله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم، يعنى البنات ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ محل (أن) نصب بدل عن الكذب لأنه بيان وترجمة له.

وقرأ ابن عبّاس: والحسنى (الكذب) برفع الكاف والذال والباء على نعت الألسنة، والكذب: جمع كذوب، مثل رسول ورسل وصبور وصبر وشكور وشكر.

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ يعنى اليقين ومعنى الآية: ويجعلون له البنات ويزعمون أن لهم البنين.

وقال حيان: يعنى بالحسنى الجنة فى المعاد إن كان محمّد صادقًا فى البعث.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا، وقال ابن عبّاس: بلى.

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فى الآخرة ﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ منسيون فى النار.

قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير: مبعدون.

مقاتل: متروكون.

قتادة: معجلون إلى النار.

الفراء: مقدمون على النار.

وقرأ نافع: (مفرطون) بكسر الراء مع التخفيف أى مسرفون، وقرأ أبو جعفر: بكسر الراء مع التشديد أى مضيّعون أمر الله تعالى.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبۡلِكَ﴾ كما أرسلنا إلى هذه الأُمة ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الخبيثة التى كانوا عليها مقيمين ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ ناصرهم ومعينهم وقرينهم ومتولى أمورهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الآخرة.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ من الدين والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةً لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ عطف الهدى والرحمة على موضع قوله ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ لأن محله نصب ومجاز الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ بيانًا للناس وهدى ورحمة.

❖ ❖ ❖

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾
وَإِنَّ لَكُمۡ فِى ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةًۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ
مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ

وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ
بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ
سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ
أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢
وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣
فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ يعنى المطر ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ جدوبها ودروسها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ بسمع القلوب ولا بسمع الآذان.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ لعظة ﴿نُّسۡقِيكُم﴾.

قرأ أهل المدينة وابن عامر ونافع وعاصم بفتح النون.

وقرأ الباقون بضمه. واختاره أبو عبيد قال: لأنه شراب دائم.

وحكى عن الكسائى أن العرب تقول: أسقيته نهراً وأسقيته لبنًا إذا جعلت له سقيًا دائمًا، فإذا أراد أنهم أعطوه شربة قالوا: سقيناه.

وقال غيره: هما لغتان يدل عليه قول لبيد فى صفة السقاية:

سقى قومى بنى مجد وأسقى ... نميرًا والقبائل من هلال

فجمع بين اللغتين.

﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ ولم يقل بطونها والأنعام جمع، قال المبرد: كناية إلى النعم والنعم والأنعام واحد ولفظ النعم، واستشهد لذلك برجز بعض الأعراب.

إذا رأيت أنجمًا من الأسد ... جبهبه أو الخراة والكند

بال سهيل فى الفضيح ففسد ... وطاب ألبان اللقاح فبرد

ولم يقل فبردت لأنه رد إلى اللبن أو الخراة.

قال أبو عبيدة والأخفش: النعم يذّكر ويؤنث فمن أنّث فلمعنى الجمع، ومن ذكر فلحكم اللفظ، ولأنه لا واحد له من لفظه. وقال الشاعر يذكره:

أكل عام نِعَم تحوونه ... يلقحه قوم وتنتجونه

إن له نخيل فلا يحمونه

وقال الكسائى: ردَّ الكناية إلى المراد فى بطون ما ذكر.

وقال بعضهم: أراد بطون هذا الشىء، كقول الله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى﴾ (الأنعام:٧٨) وقوله: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ (النمل:٣٥) الآية ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ (النمل:٣٦) ولم يقل: جاءت.

وقال الصلتان العبدى:

إن السماحــة والمروءة ضمّنا قبرًا بمرو على الطريق الواضح

وقال الآخر:

وعفراء أدنى الناس منى مودة وعفراء عنى المعرض المتوانى

وقال الآخر:

إذا الناس ناس والبلاد بغبطة وإذ أُم عمّار صديق مساعف

كل ذلك على معنى هذا الشخص وهذا الشىء.

وقال المؤرج: الكناية مردودة إلى البعض والجزء، كأنه قال: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونه اللبن، إذ ليس لكلّها لبن وإنما يسقى من ذوات اللبن، فاللبن فيه مضمر.

﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو ما فى الكرش فإذا أُخرج منه لا يسمى فرثًا ﴿وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ خلص من الفرث والدم ولم يختلط بهما ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ جاهزًا هنيئًا يجرى فى الحلق ولا يغص شاربه، وقيل: إنه لم يغص أحد باللبن قط.

قال ابن عبّاس: إذا أكلت الدابة العلف واستقرّ فى كرشها لحينه، وكان أسفله فرث وأوسطه لبن وأعلاه دم الكبد (فما كان) على هذه الأصناف الثلاثة يقسم فيجرى الدم فى العروق، ويجرى اللبن فى الضرع، ويبقى الفرث كما هو.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ﴾ يعنى ذلكم أيضًا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ الكناية فى قوله: ﴿مِنْهُ﴾ عائدة إلى المذكورين.

﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

قال قوم: السكر: الخمر، والرزق الحسن: الخل والعنب والتمر والزبيب، قالوا: وهذا قبل تحريم الخمر، وإلى هذا القول ذهب ابن مسعود وابن عمرو وسعيد بن جبير وأيوب وإبراهيم والحسن ومجاهد وعبد الرحمن بن أبى ليلى والكلبى، وهى رواية عمرو بن سفيان البصرى عن ابن عبّاس قال: السكر: ما حرم من ثمرتها، والرزق الحسن: ما حل من ثمرتها. أما السكر فخمور هذه الأعاجم، وأما الرزق الحسن فما تنتبذون وما تخلّلون وما تأكلون.

قال: ونزلت هذه الآية ولم يحرم الخمر يومئذ، وإنما نزل تحريمها بعد ذلك فى سورة المائدة.

وقال الشعبى: السكر: ما شربت، والرزق الحسن: ما أكلت.

وروى العوفى عن ابن عبّاس: أن الحبشة يسمّون الخل السكر.

وقال بعضهم: السكر: النبيذ المسكر وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتد، والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والشعبى برواية مجالد وأبى روق وقول النخعى ورواية الوالبى عن ابن عبّاس، وقيل: هو نبيذ التمر.

قال النبى ﷺ: «الخمر ما اتخذ من العنب، والسكر من التمر، والبتع من العسل، والمزر من الذرة ومن الحنطة، وأنا أنهاكم عن كل مسكر».

وقال أبو عبيدة: السكر: الطعم، يقال: هذا سكر لك، أى طُعم لك.

وأنشد:

❖ جعلت عيب الأكرمين سكرا ❖

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أى ألقى (على مسامعها) أو قذف فى أنفسها ففهمته، والنحل: زنابير العسل، واحدها نحلة.

﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يبنون، وقال ابن زيد: هو الكرم.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ليس معنى الكل العموم وهو كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٢٣) وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ (الأحقاف: ٢٥).

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ فادخلى طرق ربك ﴿ذُلُلًا﴾.

قال بعضهم: الذلل يعنى الطرق، ويقول هى مذللة للنحل.

قال مجاهد: (لا يتوعر عليها مكان سلكته).

قال آخرون: الذلل نعت (النحل).

قال قتادة وغيره: يعنى مطيعة منقادة.

﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أبيض وأحمر وأصفر ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

يروى أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: إن أخى يشتكى بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب ثمّ رجع فقال: سقيته فلم يغن عنه شيئًا. فقال عليه الصلاة والسلام: «اذهب واسقه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطن أخيك» فسقاه فكأنما نشط من عقال، (رواه) عطية عن أبى المتوكل عن أبى سعيد الخدرى.

وقال مجاهد: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أى فى القرآن. والقول الأوّل أولى بالصواب وأليق بظاهر الكتاب.

روى وكيع عن سفيان عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء ما فى الصدور.

الأعمش عن خيثم عن الأسود قال: قال عبد الله: عليكم بالشفائين: العسل والقرآن.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أى فيما ذكرنا ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ صبيانًا وشبابًا وكهولاً ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أى أردؤه، يقال منه: (ذل الرجل وفسل، يرذل رذالة ورذولة ورذلته أنا).

قال ابن عبّاس: يعنى إلى أسفل العمر.

مقاتل وابن زيد: يعنى الهرم.

قتادة: أرذل العمر سبعون سنة.

وروى الأصبغ بن نباتة عن على (رضى الله عنه) قال: أرذل العمر خمس وسبعون سنة.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أى لا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ نظيرها فى سورة الحج.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ فى الرزق ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ من العبيد حتّى يستووا هم وعبيدهم فى ذلك، يقول الله جل ثناؤه: فهم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقناهم سواء وقد جعلوا عبيدى شركائى فى ملكى وسلطانى. يلزم بهذا المثل الحجة على المشركين، وهذا مثل ضربه الله عزّ وجل، فما منكم من يشرك مملوكه فى زوجته وقرابته وماله أفتعدلون بالله خلقه وعباده، فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه عن ذلك ولا تعدل به أحدًا من عباده وخلقه.

عبد الله بن عبّاس: نزلت هذه الآية فى نصارى نجران حين قالوا: عيسى ابن الله، يقول: لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتّى يكون (المولى والملوك) فى المنال شرعًا سواء فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم نظيرها فى سورة الروم ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (الروم: ٢٨) (مثلاً تعاينه).

قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ بالإشراك به.

قرأ عاصم: بالتاء على الخطاب، لقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وقرأ الباقون: بالياء لقوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم: لقرب المخبر منه.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعنى أنه خلق من آدم زوجته حوّاء ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ .

ابن عبّاس والنخعى وابن جبير وأبو الأضحى : هم الأصهار أختان الرجل على بناته .

روى شعبة عن عاصم بن بهدلة قال : سمعت زر بن حبيش وكان رجلاً غريبًا أدرك الجاهلية قال : كنت أمسك على عبد الله المصحف فأتى على هذه الآية قال : هل تدرى ما الحفدة ، قلت : هم حشم الرجل .

قال عبد الله : لا ، ولكنهم الأختان . وهذه رواية الوالبى عن ابن عبّاس .

وقال عكرمة والحسن والضحاك : هم الخدم .

مجاهد وأبو مالك الأنصارى : هم الأعوان ، وهى رواية أبى حمزة عن ابن عبّاس قال : من أعانك حفدك .

وقال الشاعر :

حفد الولائد حولهن وأسلمت ... بأكفهنّ أزمّة الأجمال

وقال عطاء : هم ولد الرجل يعينونه ويحفدونه ويرفدونه ويخدمونه .

وقال قتادة : (مهنة يمتهنونكم) ويخدمونكم من أولادكم .

الكلبى ومقاتل : البنين : الصغار ، والحفدة : كبار الأولاد الذين يعينونه على عمله .

مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عبّاس : إنهم ولد الولد .

ابن زيد : هم بنو المرأة من الزوج الأوّل . وهى رواية العوفى عن ابن عبّاس : هم بنو امرأة الرجل الأوّل .

وقال العتبى : أصل الحفد : مداركة الخطر والإسراع فى المشى .

فقيل : لكل من أسرع فى الخدمة والعمل : حفدة ، واحدهم حافد ، ومنه يقال فى دعاء الوتر : إليك نسعى ونحفد ، أى نسرع إلى العمل بطاعتك .

وأنشد ابن جرير (للراعى) :

كلفت مجهولها نوقًا يمانية ... إذا الحداة على أكسائها حفدوا

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ .

قال ابن عبّاس : بالأصنام .

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يعنى التوحيد الباطل فالشيطان أمرهم بنحر البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بما أحلّ الله لهم ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدون تحليله .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعنى المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يعنى النبات.

﴿شَيْـًٔا﴾، قال الأخفش: هو بدل من الرزق وهو فى معنى: ما لا يملكون من الرزق شيئًا قليلاً ولا كثيرًا.

قال الفراء: نصب ﴿شَيْـًٔا﴾ بوقوع الرزق عليه. كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ (المرسلات: ٢٥ـ٢٦). أى يكفت الأحياء والأموات. ومثله قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (البلد: ١٤ـ١٥).

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون على شىء، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ يعنى الأشباه والأشكال فيشبهوه بخلقه ويجعلون له شريكًا فإنه واحد لا مثيل له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ خطأ ما يضربون له من الأمثال ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ صواب ذلك من خطئه.

❖ ❖ ❖

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾

ثمّ ضرب الله تعالى مثل المؤمن والكافر فقال عز من قائل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ هو مثل الكافر رزقه الله مالاً فلم يقدّم خيرًا ولم (يعمل) فيه بطاعة الله تعالى ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ هو مثل المؤمن أعطاه الله مالاً فعمل فيه بطاعة الله وأنفقه فيما يرضى الله سرًا وجهرًا فأثابه الله على ذلك النعيم المقيم فى الجنة ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ ولم يقل يستويان لمكان (من) لأنه اسم مبهم يصلح للواحد، والاثنين، والجمع، والمؤنث، والمذكر، وكذلك قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ (النحل: ٧٣) ثمّ قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (النحل: ٧٣) بالجمع لأجل (ما) ومعنى الآية: هل يستوى هذا الفقر والبخل والغنى (والسخاء) فكذلك لا يستوى الكافر العاصى المخالف لأمر الله والمؤمن المطيع له.

روى ابن جريج عن عطاء: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال: هو أبو جهل بن هشام ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ أبو بكر الصديق (رضى الله عنه).

ثمّ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول الله تعالى: ليس الأمر كما يفعلون ولا القول كما يقولون، ماللأوثان عندهم من يد، ولا معروف فيحمد عليه، إنما الحمد هو الكامل لله خالصًا، لأنه هو المنعم والخالق والرازق ولكن أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون أنها كذلك. ثمّ ضرب مثلاً آخر بنفسه والأصنام فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ يرسله ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لأنه لا يفهم ما يقال، ولا يفهم عنه.

وقال ابن مسعود: أينما توجهه لا يأت بخير، هذا مثل للصنم الذى لا يسمع ولا ينطق ولا يعقل ولا يفعل وهو كَلّ على (عائده) يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعنى الله قادر متكلم بأمر التوحيد فليس كصنمكم، فإنه لا يأمر بالتوحيد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قال الكلبى: يعنى وهو يدلكم على صراط مستقيم، وقيل: هو رسول الله ﷺ وهو على صراط مستقيم.

قال الكلبى: يعنى وهو يدلكم على صراط مستقيم.

آخر: ومن قال: كل المسلمين المؤمن والكافر، وهى رواية عقبة عن ابن عبّاس.

وروى إبراهيم بن عكرمة بن يعلى بن منبّه عن ابن عبّاس قال: نزلت هذه الآية فى عثمان ابن عفان (رضى الله عنه) ومولاه. وكان عثمان ينفق عليه ويكفيه المؤنة وكان مولاه يكره الإسلام (ويأباه وينهاه عن) الصدقة ويمنعه من النفقة.

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية فى هاشم بن عمرو بن الحارث بن ربيعة القرشى وكان رجلاً قليل الخير يعادى رسول الله ﷺ.

وقال عطاء: (الأبكم: أبى بن خلف)، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فى قريب كونها وسرعة قيامها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ كالنظر فى البصر، ورجع الطرف؛ لأن ذلك هو أن يقال له: كن فيكون، ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بل هو أقرب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ نزلت فى الكفار الذين استعجلوا القيامة استهزاء منهم.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

قرأ الأعمش: ﴿أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ بكسر الألف والميم.

وقرأ حمزة والكسائى بكسر الألف وفتح الميم.

وقرأ الباقون بضم الألف وفتح الميم.

وأصل الأمهات: أمات، فزيدت الهاء للتأكيد كما زادوها فى أهرقت الماء وأصله أرقت ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ هذا كلام تام.

ثمّ ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لأن الله تعالى جعل (لعباده السمع) والأبصار والأفئدة قبل إخراجهم من بطون أمهاتهم وإنما (أعطاهم العلم) بعد ما أخرجهم منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه.

❖ ❖ ❖

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾. قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة ويعقوب بالتاء.

وقرأ عاصم بضم التاء. واختاره أبو عبيد لما قبلها.

﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مذللات ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أى فى الهواء بين الأرض والسماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فى الهواء ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التى هى من الحجر والمدر ﴿سَكَنًا﴾ مسكنًا تسكنونه.

قال الفراء: السكن: الدار، والسكن بجزم الكاف: أهل البلد.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا﴾ يعنى الخيام والقباب والأخبية (والفساطيط من الأنطاع) والأدم وغيرها ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ رحلكم وسفركم ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ فى بلادكم (لا يثقل) عليكم فى الحالتين.

واختلف القرّاء فى قوله: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾.

فقرأ الكوفيون بجزم العين، وقرأ الباقون: بفتحه. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لأنه (أشهر) اللغتين وأفصحهما. ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ يعنى أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز. والكنايات كلها راجعة إلى الأنعام.

﴿أَثَٰثًا﴾ قال ابن عبّاس: مالاً، مجاهد: (متاعًا).

حميد بن عبد الرحمن: (أثاثًا) يعنى الأثاث: المال أجمع من الإبل والغنم والعبيد، والمتاع غيره هو متاع البيت من الفرش والأكسية وغيرها ولم يسمع له واحد مثل المتاع.

وقال أبو زيد: واحد الأثاث أثاثة. قال الخليل: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتّى يكثر ومنه شعر الشعراء كثر وأثّ شعر فلان أى إذا كثر والتف.

قال امرؤ القيس:

❖ أثيث كقنو النخلة المتعثكل ❖

قال محمّد بن نمير الثقفى فى الأثاث:

أهاجتك الظعائن يوم باتوا ... بذى الزى الجميل من الأثاث

﴿وَمَتَٰعًا﴾ (بلاغًا) تنتفعون بها ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعنى الموت. وقيل: إلى حين يبلى ويفنى.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ تستظلون بها من شدة الحر وهو ظلال الأشجار والسقوف والأبنية ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ يعنى الغيران والأسراب والمواضع التى تسكنون فيها واحدها كنّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ قمصًا من الكتان والقطن والخز والصوف ﴿تَقِيكُمُ﴾ تمنعكم. ﴿ٱلْحَرَّ﴾.

(وقال) أهل المعانى: (أراد) الحر والبر فاكتفى بأحدهما عن الآخر بدلالة الكلام عليه نظيره قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (الليل: ١٢) يعنى الهدى والإضلال.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعنى الدروع ولباس الحرب والمعنى: تقيكم فى بأسكم السلاح أن يصل إليكم ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ يخضعون له بالطاعة ويخلصون له بالعبادة.

وروى نوفل بن أبى (عقرب) عن ابن عبّاس أنه قرأ: (يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) بالفتح، يعنى من الجراحات.

قال أبو عبيد: الاختيار قراءة العامّة، لأن ما أنعم الله علينا فى الإسلام أكثر من إنعامه علينا فى السلامة من الجراح.

وقال عطاء الخراسانى فى هذه الآية: إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا﴾ وما جعل لكم من السهول أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال. وقال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ (النور: ٤٣) وما ينزل من (الثلج) أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه، ألا ترى إلى قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وما يقى من البرد أعظم وأكثر ولكنهم ظلوا أصحاب حر.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

قال السدى: يعنى محمد ﷺ.

﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يكذبون ويجحدون نبوّته.

قال مجاهد: يعنى ما عدد عليهم فى هذه السورة من النعم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوا ذلك عن آبائهم، وبمثله قال قتادة.

وقال الكلبى: وإن رسول الله ﷺ ذكر هذه النعم لهم فقالوا: نعم هذه كلها من الله تعالى ولكنها بشفاعة آلهتنا. . وقال عون بن عبد الله: هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا، لولا فلان ما أصبت كذا. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ الجاحدون.

❖ ❖ ❖

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ۝ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعنى رسولها ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فى الاعتذار ﴿وَلَا هُمْ

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يسترضون، يعنى لا يكلّفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون للرجوع إلى دار الدنيا (فيتوبون) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا ﴿ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يؤخّرون ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ يوم القيامة ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ أوثانهم ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ أربابًا ونعبدهم ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أى قالوا لهم، يقال: ألقيت إليك كذا، يعنى: قلت لك ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فى تسميتنا آلهة ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا علمنا بعبادتكم إيانا ﴿وَأَلْقَوْاْ﴾ يعنى المشركين ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئًا ﴿وَضَلَّ﴾ زال (. . . .)[1] ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من أنها تشفع لهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾.

روى عبد الله بن مرة عن مسروق قال: قال عبد الله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، قال: عقارب لها أنياب أمثال النخل الطوال، ابن عبّاس ومقاتل: يعنى خمسة أنهار من صفر مذاب كالنار يسيل من تحت العرش، يعذبون بها ثلث على مقدار الليل وثلثان على مقدار النهار.

سعيد بن جبير: حيّات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة يجد صاحبها حمّتها أربعين خريفًا.

وقيل: إنهم يخرجون من حر النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار.

ويقال: هو أنهم يحملون أثقال أتباعهم. كما قال تعالى ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (العنكبوت: ١٣).

ويقال: إنه يضاعف لهم العذاب.

﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ فى الدنيا من الكفر وصد الناس عن الإيمان ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعنى عليها، وإنما قال: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لأنه كان يبعث إلى الأمم أنبياءها منها ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمّد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين بعثت إليهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه من الأمر والنهى، والحلال والحرام، والحدود والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

❖ ❖ ❖

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعنى بالإنصاف ﴿وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ إلى الناس، والوالبى عن ابن عبّاس: العدل: التوحيد، والإحسان أداء الفرائض.

(وقيل:) العدل: شهادة أن لا إله إلاّ الله، والإحسان: الإخلاص فيه.

عطاء عنه: العدل: مصطلح الأنداد، والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، مقاتل: العدل: التوحيد، والإحسان: العفو عن الناس، وقيل: العدل فى الأفعال والإحسان فى الأقوال. كقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣).

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صلة الرحم ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ القبيح من الأقوال والأفعال.

وقال ابن عبّاس: الزنا.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما لا يُعرف فى شريعة ولا سنّة ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ الفسق والظلم.

وقال ابن عيينة: (والعدل فى مستوى) السر والعلانية. والإحسان أن تكون سريرته أحسن

من علانيته. والفحشاء أن تكون علانيته أحسن من سريرته.

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

قتادة: إن الله تعالى أمر عباده بمكارم الأخلاق ومعاليها، ونهاهم عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

وقال ابن مسعود: وأجمع آية في القرآن هذه الآية.

شهر بن حوشب عن ابن عبّاس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالسًا إذ مرّ به عثمان بن مظعون فكسر إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله: «ألا تجلس» قال: بلى، فجلس إلى رسول الله ﷺ مستقبله فبينما هو يحدّثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فنظر ساعة فأخذ يضع بصره حتّى وقع على يمينه في الأرض فتحرّف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنّه يستفهم شيئًا يقال له، ثمّ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتّى توارى في السماء فأقبل إلى عثمان كحالته الأولى، فقال: يا محمّد فيما كنت أُجالسك ما رأيتك تفعل فعلتك الغداة؟ قال: «وما رأيتني فعلت»؟ قال: رأيتك تشخص بصرك إلى السماء ثمّ وضعته على يمينك فتحرّفت إليه وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفهم شيئًا يقال لك. فقال: «أوَفطنت إلى ذلك»؟ قال: نعم، قال: «أتاني رسول الله جبرائيل آنفًا وأنت جالس» قال: نعم: فماذا قال: لك؟ قال: قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى آخره.

قال عثمان: فذلك الحين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ.

وروى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة عن النبي ﷺ أنه قرأ على الوليد بن المغيرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ إلى آخر الآية، قال له: يا بن أخي أعد، فأعاد عليه. فقال: إن له والله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر، ثمّ لم يسلم، فأنزل الله فيه: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ (النجم: ٣٤).

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تشديدها (ويحنثوا فيها)، والتوكيد لغة أهل الحجاز، أمّا أهل نجد فإنهم يقولون: أُكدت تأكيداً ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ بالوفاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية وإن كان حكمها عامًا.

فقال بعضهم: نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ أمرهم الله بالوفاء بها.

وقال مجاهد وقتادة: نزلت في حلف أهل الجاهلية.

ثمّ ضرب جلّ ثناؤه مثلاً لنقض العهد، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ

﴿بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أى من بعد إبرامه وإحكامه، وكان بعض أهل اللغة يقول: القوة ما غزل على طاقة واحدة ولم يثن.

الكلبي ومقاتل: هى امرأة خرقاء حمقاء من قريش يقال لها: ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم كانت اتخذت مغزلاً بقدر ذراع وصنارة مثل الإصبع وفتل عظمة على قدرها وكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر وتأمر جواريها بذلك فكنّ يغزلنّ من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرت جواريها بنقض جميع ما غزلن فهذا كان دأبها.

وقوله ﴿أَنكَـٰثًا﴾ يعنى أنقاضًا واحدتها نكثة، وهو كل ما نقض بعد الفتل غزلاً كان أو حبالاً ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أى دخلاً وخيانة وخديعة.

قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحًا فهو دخل.

﴿أَن تَكُونَ﴾ أى لأن تكون ﴿أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ﴾ أكثر وأجلّ ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾.

قال مجاهد: ذلك أنهم كانوا يحالفون الحلف فيجدون أكبر منهم وأعز ويستيقنوه فيحلف هؤلاء ويحالفون الأكثر فنهاهم الله تعالى عن ذلك ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ يختبركم بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فى الدنيا ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على ملّة واحدة، ﴿وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بخذلانه إياهم عدلا منه فيهم ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه إياهم فضلاً منه ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا﴾ خديعة وفسادًا ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يغرون بها الناس فتسكنون إلى إيمانكم ويأمنون ثمّ ينقضونها ويختلفون فيها ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتهلكوا بعدما كنتم آمنين، والعرب تقول لكل مبتل بعد عافية أو ساقط فى ورطة بعد سلامة: زلّت قدمه. كقول الشاعر:

سيمنع منك السبق إن كنت سابقًا وتطلع إن زلت بك القدمان

﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ يعنى ولا تنقضوا عهودكم تطلبون بنقضها عوضًا قليلاً من الدنيا، ولكن أوفوا بها ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب لكم على الوفاء بذلك ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فصل ما بين العوضين ثمّ بين ذلك ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ بالنون عاصم. الباقون بالياء.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ على الوفاء فى السرّاء والضراء ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دون أسوئها ويغفر سيئاتهم بفضله ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾ اختلفوا فيها:

فقال سعيد بن جبير وعطاء والضحاك: هى الرزق الحلال، وهو رواية ابن أبى مالك وأبى الربيع عن ابن عبّاس.

وقال الحسن وعلى وزيد ووهب بن منبّه: هى القناعة والرضا بما قسم الله، وهذه رواية عكرمة عن ابن عبّاس.

وقال مقاتل بن حيان: يعنى أحسن فى الطاعة، وهى رواية عبيد بن سليم عن الضحاك، فقال: من يعمل صالحًا وهو مؤمن فى فاقة أو ميسرة فحياة طيبة. ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل عملاً صالحًا فمعيشة ضنك لا خير فيها.

أبو بكر الوراق: هى حلاوة الطاعة.

الوالبى عن ابن عبّاس: هى السعادة، مجاهد وقتادة وابن زيد: هى الجنة، ومثله روى عن الحسن وقال: لا تطيب الحياة لأحد إلاّ فى الجنة.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

قال أبو صالح: جلس ناس من أهل التوراة وأهل الإنجيل وأهل الأوثان، فقال هؤلاء: نحن أفضل، وقال هؤلاء: نحن أفضل، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعنى فإذا كنت قارئًا للقرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

قال محمّد بن جرير، وقال الآخرون: مجازه: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾ (المائدة: ٦) الآية: أى الطهارة مقدمة على الصلاة، وقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ (الطلاق: ١) معناها وإذا أردتم تطليق النساء لأنه محال أن يأمرهم بالتطليق المعين بعدما مضى التطليق. وأما حكم الآية: فاعلم أن الاستعاذة عند قراءة القرآن مستحبة فى الصلاة وغير الصلاة، هذا قول جماعة الفقهاء إلاّ مالكًا، فإنه لا يتعوذ إلاّ فى قيام رمضان، واحتج بما روى أن النبى ﷺ كان يفتتح الصلاة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وإنما تأويل هذا الحديث أنه كان يفتتح القراءة فى الصلاة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، يدل عليه أن الصلاة تفتتح بالتكبير بلا خلاف على أن الخبر متروك الظاهر.

ويدل على صحة ما قلنا حديث جبير بن مطعم قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلّى فقال: «الله أكبر كبيرًا والحمد لله وسبحان الله بكرة وأصيلاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه».

وقال ابن مسعود: نفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه المرض يعنى الجنون، فإذا تقرر هذا ثبت أن الخبر المتقدم متروك بالظاهر مأخوذ المعنى.

واختلف الفقهاء فى وقت الاستعاذة:

فقال أكثرهم: قبل القراءة، وهو قول الجمهور، وهو الصحيح المشهور.

وقال أبو هريرة: يتعوذ بعد القراءة وإليه ذهب داود بن على.

وقال مالك فى الصلاة التى يتعوذ فيها وهى قيام رمضان: يتعوذ بعد القراءة واحتج بظاهر الآية، وقد بينّا وجهها، والدليل على أنها قبل القراءة، ما روى أبو المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثمّ يقرأ، وأما الكلام فى محل الاستعاذة فى الصلاة، فقد قال الشافعى: يقولها فى أول الركعة، وقيل: إن قال حيث يفتتح كل ركعة قبل القراءة فحسن ما يقرأ به فى شىء من الصلاة كما أمره به فى أول ركعة. هذا قول عامة الفقهاء.

وقال ابن سيرين: يتعوذ فى كل ركعة قبل القراءة. والصحيح المذهب الأوّل، لأن المروى فى الأخبار أن النبى ﷺ ما كان يتعوّذ إلاّ فى الأولى، وأما صفتها وفى الصلاة فهى أن ينظر فإن كانت صلاة يسرّ فيها بالقراءة أسرّ فيها بالاستعاذة، وإن كانت يجهر فيها بالقراءة:

فقال الشافعى فى (الأم): روى أن أبا هريرة أمّ الناس رافعًا صوته: ربنا إنا نعوذ بك من الشيطان الرجيم، وكان ابن عمر يعوذ فى نفسه.

قال الشافعى: فإن شاء جهر بها وإن شاء أسرّ بها.

قال الثعلبى: والاختيار الإخفاء ليفرّق بين ما هو قرآن وما هو ليس بقرآن.

فأما لفظة الاستعاذة فالأولى والمستحب أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لنص القرآن والخبر المتصل المتسلسل، وهو أنى قرأت على الشيخ أبى الفضل محمّد بن أبى جعفر الخزاعى، قلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فى المواضع كلّها فإنى قرأت على أبى الحسين عبد الرحمن بن محمّد بالبصرة فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنى قرأت على عبد الله أبى حامد الزنجانى فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنى قرأت على أبى عثمان إسماعيل بن إبراهيم الأهوازى فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنى قرأت على محمّد بن عبد الله بن بسطام فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنى قرأت على روح بن عبد المؤمن فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنى قرأت على يعقوب الحضرمى فقلت: أعوذ

بالسميع العليم، قال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنى قرأت على سلام بن المنذر، فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلقد قرأت على عاصم فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلقد قرأت على زر بن حبيش فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلقد قرأت على عبد الله بن مسعود فقلت: أعوذ بالسميع العليم، فقال لى: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلقد قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم، فقال لى: «يا ابن أم عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبرائيل عن القلم عن اللوح المحفوظ».

قال ابن عجلان: وهكذا علمنى أخى أحمد، وقال: هكذا علمنى أخى، وقال: هكذا علمنى وكيع بن الجراح، وقال: هكذا علمنى سفيان الثورى.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ حجة وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قال سفيان: ليس له سلطان أن يحملهم على ذنب لا يغفر.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يطيعونه ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ أى بالله ﴿مُشْرِكُونَ﴾.

وقال بعضهم: الكناية راجعة إلى الشيطان، ومجاز الكلام: الذى يسمعون قوله مشركون بالله، وهذا كما يقال: صار فلان بك عالمًا، أى من أجلك وبسببك عالمًا.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ﴾ يعنى وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكمًا آخر، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فيما يغير ويبدل أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما عدّل من أحكامه ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا

محمّد ﴿مُفْتَرٍ﴾ وذلك أن المشركين قالوا: إن محمداً يسجد بأصحابه يأمرهم اليوم ويأمّرهم غداً ويأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه.

قال الله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن وبيان الناسخ والمنسوخ من الأحكام ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾ يعنى القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جبرائيل ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تثبيتًا للمؤمنين وتقوية لإيمانهم (. . . .)[1] تصديقًا ويقينًا ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ آدمى وما هو من عند الله، واختلف العلماء فى هذا البشر من هو:

قال ابن عبّاس: كان قينًا بمكة اسمه بلعام وكان نصرانيًا يسمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج منه فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال عكرمة وقتادة: كان النبى ﷺ يقرّى غلامًا لبنى المغيرة يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب، (فقالوا): إنما يعلمه يعيش فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الفراء: قال المشركون إنما يتعلّم محمّد عن مملوك كان لحويطب بن عبد العزى وكان قد أسلم فحسن إسلامه وكان أعجمى فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام رومى نصرانى، يقال له: خير، عبد لبعض بنى الحضرمى وكان يقرأ الكتب.

وقال المشركون: والله ما يعلم محمداً كثير ما يأتى به إلاّ خير النصرانى، فأنزل الله تعالى هذا الآية.

وقال طلحة بن عمر: بلغنى أن خديجة رضى الله عنها كانت تختلف إلى خير فكانت قريش تقول: إن عبد بنى الحضرمى يعلّم خديجة، وخديجة تعلّم محمّدًا فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال عبيد الله بن مسلم الحضرمى: كان لنا عبدان من أهل (عين التمر) يقال لأحدهما يسار وللآخر خير، وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن بالتوراة والإنجيل، فربما مرَّ بهما النبى ﷺ وهما يقرآن فيقف فيسمع.

وقال الضحاك: وكان النبى ﷺ إذا آذاه الكفار يقصد إليهما فيستروح بكلامهما، فقال المشركون: إنما يتعلم محمّد منهما، فنزلت هذه الآية.

وقال السدى: كان بمكة رجل نصرانى يقال له ابن ميسرة يتكلّم بالرومى، فربما يقعد إليه رسول الله ﷺ فقال الكفار: إنما يتعلم محمّد منه، فنزلت هذه الآية.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وروى على بن الحكم وعبيد بن سليمان عن الضحاك: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ قال: كانوا يقولون: إنما يعلمه سلمان الفارسى، وهذا قول غير مُرْضٍ؛ لأن سلمان إنما أتى رسول الله ﷺ بالمدينة وهذه الآية مكية.

قال الله تكذيبًا لهم (وإلزامًا) للحجة عليهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أى يميلون إليه ويشيرون إليه. وخص الكسائى هذا الحرف من بين سائره فقرأ بفتح الياء والحاء؛ لأنه كان يحدّثه عن سفيان عن أبى إسحاق عن أصحاب عبد الله كذلك.

﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ والفرق بين الأعجمى والعجمى، والعربى والأعرابى: أن الأعجمى لا يفصح وأنه كان نازلاً بالبادية والعجمى منسوب إلى العجم وإن كان فصيحًا. والأعرابى: البدوى، والعربى منسوب إلى العرب وإن لم يكن فصيحًا.

﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فصيح، وأراد باللسان القرآن؛ لأن العرب تقول للقصيدة واللغة: لسان، كقول الشاعر:

لسان السوء تهديها إلينا وحنت ما حسبتك أن تحينا

يعنى باللسان القصيدة والكلمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثمّ إن الله تعالى بعدما أخبر عن إغراء المشركين على رسول الله ﷺ فيما نسبوه إليه من الافتراء على الله وتبين أنهم المفترون دونه، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ لا محمداً.

روى يعلى بن الأشدق عن عبد الله بن حماد قال: قلت يا رسول الله المؤمن يزنى؟ قال: «يكون ذلك». قال: قلت: يا رسول الله المؤمن يسرق؟ قال: «قد يكون ذلك». قال: قلت: يا رسول الله المؤمن يكذب؟ قال: «لا، قال الله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾».

وروى (سهيل) بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم قال: سمعت أبا بكر يقول: إيّاكم والكذب فإن الكذب مجانب الإيمان. ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ اختلف النحاة فى العامل فى (من) فى قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ ومن قوله: ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

فقال نحاة الكوفة: جوابهما جميعًا فى قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ إنمّا هذان جزءان إن اجتمعا أحدهما منعقد بالآخر فجوابهما واحد، كقول القائل: من يأتنا فمن يحسن نكرمه، بمعنى من يحسن ممن يأتينا نكرمه.

وقال أهل البصرة: بل قوله ﴿مَن كَفَرَ﴾ مرفوع بالرد على الذى فى قوله ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى الكلام: إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه، ثمّ استثنى فقال ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

قال ابن عبّاس: نزلت هذه الآية فى عمار وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسر وأُمه سمية وصهيبًا وبلالاً وخبابًا وسالمًا فعذبوهم، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قُبلها بحربة، وقيل: لما أسلمت من أجل الرجال فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين فى الإسلام رحمة الله ورضوانه عليهما، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا.

قال قتادة: أخذ بنو المغيرة عماراً وغطوه فى بئر مصون وقالوا له: اكفر بمحمد (ولم يتعمد) ذلك وقلبه كان مطمئنًا فأُخبر رسول الله ﷺ بأن عماراً كفر. فقال: «كلا إن عماراً ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه».

فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكى، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، وقال: «ما لك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت».

فأنزل الله هذه الآية.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية فى ناس من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض أصحاب محمّد: إن هاجروا إلينا فإنا (لا نرى أنكم) منّا حتّى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة فأدركهم قريش بالطريق ففتنوهم فكفروا كارهين.

وروى ابن عون عن محمّد بن سيرين قال: تحدثنا أن هذه الآية نزلت فى شأن عياش بن أبى ربيعة، وكان عياش من المهاجرين الأولين، وألجأ بضربه، أن يكون بلغ ما بلغ أصحابه هذه (الفعلة) وكان قدم مهاجراً وكان براً بأُمه، فحلفت أن لا تأكل خبزاً ولا تستظل بظل حتّى يرجع إليها ابنها قال: فقدم عليه أبو جهل وكان أخاه لأُمه ورجل آخر فأراد أن يرجع معه فقال له أبو جهل: أمك (لو قد جاعت ما أكلت ولو قد شمست) ما استظلت، فقال ابنها: بلى ألقاها ثمّ أرجع. فقال: أما إذا أتيت فلا (تعطين راحلتك) أحدًا، فإنه لا يزال لك من أمرك النصف ما لم تعط راحلتك أحدًا فانطلق هو وأبو جهل والرجل، فلما كانوا ببعض الطريق قال أبو جهل: لو تحوّل كل واحد منا على راحلة صاحبه فتحول كل واحد منهم على راحلة صاحبه فساروا. وضربه أبو جهل بالسوط على رأسه وحلّفه باللات والعزى فلم يزل به حتّى أعطاه الذى أراد بلسانه، ثمّ انطلق فرجع، وفيه نزلت هذه الآية ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾.

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية فى جبر مولى عامر بن الحضرمى، أكرهه سيّده على الكفر

فكفر مكرهًا وقلبه مطمئن بالإيمان، وأسلم مولى جبر وحسنُ إسلامه وهاجر جبر مع سيده. ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أى فتح صدرًا وكفر بالقبول وأتى على اختيار واستحباب ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفى هذه الآية دليل على أن حقيقة الإيمان والكفر تتعلق بالقلب دون اللسان وأن اللسان هو المعبّر والترجمان.

❖ **حكم الآية:**

اتفق الفقهاء على أن المكره على الكفر، وعلى شتم الرسول ﷺ والأصحاب وترك الصلاة وقذف المحصنة وما أشبهها من ترك الطاعات وارتكاب الشبهات بوعيد متلف أو ضرب شديد لا يحتمله أن له أن يفعل ما أكره عليه، وإن أبى ذلك حتى يغضب فى الله فهو أفضل له.

وأما الإكراه على الطلاق فاختلفوا فيه:

فأجاز أهل العراق الطلاق المكره، وكذلك قالوا فى الإكراه على النذور والأيمان (والرجعة) ونحوها، رأوا ذلك (جائزًا) ورووا فى ذلك أحاديث واهية الأسانيد.

وأما مالك والأوزاعى والشافعى: فإنهم أبطلوا طلاق المكره وقالوا: لما وجدنا الله سبحانه وتعالى عذر المكره على شىء، ليس (وراءه) فى الشر مذهب وهو الكفر ولم يحكم به مع الإكراه، علمنا أن ما دونه أولى بالبطول وأجرى فى العذر.

وهو قول عمر بن الخطاب وابنه وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عبّاس وعبد الله بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن المسيب والقاسم بن مخيمرة وعبيد بن عمير، وللشافعى فى هذه المقالة مذهب ثالث: وهو أنه أجاز طلاق المكره إذا كان الإكراه من السلطان، ولم يجوز ذلك إذا كان الإكراه من غير السلطان.

❖ ❖ ❖

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟

يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ
وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾
وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ أي (طردوا) ومنعوا من الإسلام (ففتنهم) المشركون ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الإيمان والهجرة والجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد تلك الفتنة (والفعلة) ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخو أبي جهل من الرضاعة، وأبي جندل بن سهل بن عمرو والوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن أسيد الثقفي، فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم، ثمّ إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا، فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وقال الحسن وعكرمة: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي سرح، وكان يكتب للنبي ﷺ فاستزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر النبي ﷺ أن يقتل يوم فتح مكة، فاستجار له عثمان وكان أخاه لأُمه فأجاره رسول الله ﷺ ثمّ أسلم وحسن إسلامه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وأما قوله ﴿فُتِنُوا﴾ فقرأ عبد الله بن عامر: (فتنوا) بفتح الفاء والتاء، ردّه إلى من أسلم من المشركين الذين فتنوا المسلمين واعتبر بقوله ﴿جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ فأخبر بالفعل عنهم.

وقرأ الباقون: بضم الفاء وكسر التاء، اعتباراً بما قبله إلا من أُكره.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ تخاصم وتحتج عن نفسها بما أسلفت من خير وشر (مشتغلاً بها لا تتفرّغ) إلى غيرها والنفس تذكر وتؤنث ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

روى أبو صالح المري عن جعفر بن زيد قال: قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لكعب الأحبار: يا كعب خوّفنا وحدّثنا حديثًا (تنبهنا به) قال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو (وافيت) القيامة بمثل عمل سبعين نقيبًا، لأُتيت عليك ظلمات وأنت لا تهمل إلاّ نفسك وإن لجهنم زفرة ما يبقى ملك مقرّب ولا نبي مبعث إلا وقع جاثيًا على (ركبتيه) حتّى إن إبراهيم

ليدلى (بالخلة) فيقول: يا رب أنا خليلك إبراهيم لا أسالك إلا نفسى وأن تصديق ذلك الذى أنزل عليكم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ .

وروى عكرمة عن ابن عبّاس فى هذه الآية قال: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة، حتّى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح: يارب الروح منك وأنت خلقته لم تكن لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولا عين أبصر بها، ويقول الجسد إنما خلقتنى كالخشب ليس لى يد أبطش بها ولا عين أبصر بها ولا رجل أمشى بها، فجاء هذا كشعاع النور فبه نطق لسانى وبه أبصرت عينى وبه مشت رجلى فجدد عليه العذاب. قال: فيضرب الله لهما مثال أعمى ومقعداً دخلا حائطًا فيه ثمار، فالأعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يناله، فنادى المقعد الأعمى: ائتنى هاهنا حتّى تحملنى، قال: فدنا منه فحمله فأصابوا من الثمر فعلى من يكون العذاب، قال: عليهما قال: عليكما جميعًا العذاب، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ يعنى مكة ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾ لايهاج أهلها ولا يغار أهلها ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ قارة بأهلها (لا يحتاجون) إلى الانتقال للانتجاع كما يحتاج إليها سائر العرب ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يحمل إليها من البر والبحر، نظيره قوله ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (القصص: ٥٧) ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ جمع النعمة وقيل: جمع نعم، وقيل: جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله ﷺ حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرّقة والجيفة والكلاب الميتة (والعلهز) وهو الوبر يعالج بالدم، ثم إن رؤساء مكة تكلموا مع رسول الله ﷺ وقالوا: هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان؟ فأذن رسول الله ﷺ بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون ﴿وَالْخَوْفِ﴾ يعنى بعوث رسول الله ﷺ وسراياه التى كانت تطيف بهم.

وروى الخفاف والعباس عن أبى عمرو: (والخوف) بالنصب بإيقاع أذاقها عليه ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

روى مشرح به فاعان عن سليمان بن عمر بن عثمان قال: صدرنا من الحج مع حفصة زوجة النبى ﷺ وعثمان محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه حين رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما فقالا: قتل. فقالت حفصة: والذى نفسى بيده إنها ـ يعنى المدينة ـ القرية التى قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ بفتح التاء والكاف بمعنى ولا تقولوا الكذب الذى تصف ألسنتكم وتكون (ما) للمصدر.

وقرأ ابن عبّاس: (الكذب) برفع الكاف والذال والباء على نعت الألسنة ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ يعني البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ويقولون: إن الله حرّم هذا وأمرنا بها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من عذاب الله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ يعني الذي هم فيه من الدنيا متاع قليل أو لهم متاع قليل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

❖ ❖ ❖

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني في سورة الأنعام وهو قوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ (الأنعام: ١٤٦) الآية.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بتحريم ذلك عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فجزيناهم ببغيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ الآية قيل الهاء في قوله ﴿بَعْدِهَا﴾ راجع إلى الجهالة، وقيل: إلى المعصية لأن السوء بمعنى المعصية، فردّ الكناية إلى المعنى، وقيل: إلى الفعلة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي معلمًا للخير يأتم بأهل الدنيا، وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة والأخلاق الجميلة ما يجتمع في أمة.

روى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذ كان أمة قانتًا لله

حنيفًا، فقلت: إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾. فقال: أتدرى ما الأُمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، قال: الأُمة الذى يعلّم الخير والقانت المطيع لله. وكذلك كان معاذ ابن جبل فكان يعلّم الخير وكان مطيعًا لله ولرسوله.

وقال مجاهد: كان مؤمنًا وحده والناس كفار كلهم، وقال قتادة: ليس من أهل دين إلا يقولونه ويرضونه.

شهر بن حوشب قال: لم يبق الأرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض ويخرج بركتها، إلاّ زمن إبراهيم فإنه كان وحده ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ مسلمًا مستقيمًا على دين الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعنى الرسالة والحكمة والثناء الحسن.

وقال مقاتل بن حيان: يعنى الصلوات فى قول هذه الأُمة: اللهم صل على محمّد وعلى آل محمّد كما صليت على إبراهيم، (وقيل) أولادًا أبرارًا على الكبر. وقيل: القبول العام فى جميع الأمم ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ حاجًا مسلمًا ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ابن أبى مليكة عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال: «جاء جبرائيل (عليه السلام) إلى إبراهيم (عليه السلام) فراح به إلى منى فصلى به الصلوات جميعًا الظهر، والعصر، والمغرب والعشاء، والفجر ثمّ غدا به إلى عرفات فصلى به الصلاتين جميعًا الظهر والعصر، ثمّ راح فوقف به حتّى إذا غربت الشمس أفاض به إلى جمع فصلى به الصلاتين المغرب والعشاء، ثمّ بات به حتّى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من المسلمين صلى به (الفجر)، ثمّ وقف حتّى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين أفاض به إلى منى فرمى الجمرة وذبح وحلق، ثمّ أفاض به إلى البيت فطاف به» فأوحى الله تعالى إلى محمّد ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يقول: ما فرض الله تعالى بتعظيم السبت وتحريمه إلاّ على الذين اختلفوا فيه.

فقال بعضهم: هو أعظم الأيام، لأن الله فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة ثمّ سبت يوم السبت.

وقال آخرون: بل أعظم الله يوم الأحد لأنه اليوم الذى ابتدأ الله فيه خلق الأشياء واختاروا

تعظيم غير ما فرض الله عليهم تعظيمه، وتركوا تعظيم يوم الجمعة الذى فرض عليهم تعظيمه واستحلوه.

قال الكلبى: أمرهم موسى بالجمعة فقال: تفرغوا لله عزّ وجلّ فى كل سبعة أيام يومًا واحدًا فاعبدوه فى يوم الجمعة ولا تعملوا فيه لصناعتكم، وستة أيام لصناعتكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد إلاّ اليوم الذى فرغ الله من الخلق يوم السبت، فجعل ذلك عليهم وشدد عليهم فيه.

ثمّ جاءهم عيسى بن مريم بالجمعة فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، يعنون اليهود واتخذوا (يوم) الأحد فقال الله ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾.

قال قتادة: الذين اختلفوا فيه يعنى اليهود واستحله بعضهم وحرمه بعضهم.

روى همام بن منبه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بَيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم فهذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدًا والنصارى بعد غد».

روى المسيب عن أبى سنان عن مكحول الشامى قال: كان لعمر بن الخطاب على يهودى حق فلقيه عمر فقال: والذى اصطفى أبا القاسم على البشر لا تعمل لى وأنا أطلبك (بشىء).

فقال اليهودى: ما اصطفى الله أبا القاسم على البشر، فرفع عمر عليه السلام يده فلطم عينه، فقال اليهودى: بينى وبينك أبو القاسم، فأتوا النبى ﷺ، فقال اليهودى: إن عمر زَعم أن الله اصطفاك على البشر وإنى زعمت أن الله لم يصطفك على البشر، فرفع يده فلطمنى، فقال ﷺ: «أما أنت يا عمر فأرضه منْ لطمته، بلى يا يهودى، آدم صفى الله، وإبراهيم خليل الله، وموسى نجى الله، وعيسى روحَ الله، وأنا حبيب الله، بلى يا يهودى اسمان من أسماء الله تعالى سمّى بهما أمتى، سمّى نفسه السلام وسمّى أمتى المسلمين، وسمّى نفسه المؤمن وسمّى أمتى المؤمنين، بلى يا يهودى طلبتم يومًا وذخر لنا ـ يعنى يوم الجمعة ـ فاليوم لنا عيد وغدًا لكم وبعد غد للنصارى، بلى يا يهودى أنتم الأولون ونحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بلى يا يهودى إن الجنة محرّمة على الأنبياء حتّى أدخلها أنا وإنها لمحرمة على الأمم حتّى يدخلها أمتى».

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ دين ربك ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالقرآن ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ يعنى مواعظ القرآن ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التى هى أحسن.

قال المفسرون: أعرض عن أذاهم ولا تقصّر فى تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق، ونسختها

آية القتال ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾.

قال أكثر المفسرين: سورة النحل مكية كلها إلاّ ثلاث آيات ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخرها، فإنها نزلت بالمدينة فى شهداء أحد، وذلك أن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقير البطون وقطع المذاكير والمثلة السيئة، حتّى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلا وقد مُثّل به غير حنظلة الراهب فإن أباه أبو عامر الراهب كان مع أبى سفيان، فتركوا حنظلة لذلك، فقال المسلمون حين رأوا ذلك: لئن أظهرنا الله عليهم لنزيدنّ على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ولنفعلنّ ولنفعلنّ، ووقف رسول الله ﷺ على عمّه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه، وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمصتها ثمّ استرطتها لتأكلها، فلم تلبث فى بطنها حتّى رمت بها، فبلغ ذلك النبى ﷺ وقال: «أما إنها لو أكلته لم تدخل النار أبدًا، حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئًا من جسده النار» فلما نظر رسول الله ﷺ إلى عمه حمزة نظر إلى شىء لم ينظر إلى شىء قط كان أوجع لقلبه منه فقال ﷺ: «رحمة الله عليك فإنك ما علمتك ما كنت إلا فعالاً للخيرات وصولا للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسّرنى أن أدعك حتّى تحشر من أفواه شتى، أما والله لئن أظفرنى الله عليهم لأُمثلن بسبعين منهم مكانك».

فأنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية فقال ﷺ: «بل نصبر» فأمسك عمّا أراد وكفّر يمينه.

وقال ابن عبّاس والضحاك: وكان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبى ﷺ أن يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال، فلمّا أعز الله الإسلام وأهله ونزلت براءة وأُمروا بالجهاد، نسخت هذه الآية.

وقال قوم: بل هذه الآية محكمة وإنما نزلت فيمن ظلم بظلامة فلا يحل له أن ينال من ظالم أكثر مما نال الظالم منه أمر بالجزاء أو العفو ونهى عن الاعتداء. وهذا قول النخعى والثورى ومجاهد وابن سيرين، ثمّ قال لنبيه ﷺ ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أى بمعونة الله وتوفيقه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فى إعراضهم عنك ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ﴾.

قرأها بكسر الضاد هاهنا وفى سورة النحل ابن كثير والباقون: بالفتح واختاره أبو عبيد، وقال: لأن الضيق فى قلة المعاش وفى المساكن، فأما ما كان فى القلب والصدر فإنه ضيق.

وقال أبو عمرو وأهل البصرة: الضَّيق بفتح الضاد، الغم والضِّيق بالكسر (الشدّة).

وقال الفراء وأهل الكوفة: هما لغتان معروفتان فى كلام العرب مثل رَطل ورِطل.

وقال ابن قتيبة : الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهيّن ولين وليّن ، وعلى هذا التأويل صفته كأنه قال : ولا تكن فى أمر ضيق .

﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ بالعون والنصرة .

روى شعبة عن أبى يونس عن أبى قزعة عن هرم بن حيان وقالوا له : أوصنا .

قال : أوصيكم بالآيات الأواخر من سورة النحل ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ إلى آخر السورة .

❖ ❖ ❖

انتهى بفضل الله تعالى الجزء الثالث من تفسير الثعلبي

ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع وأوله: سورة الإسراء

❖ ❖ ❖

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
سورة الأعراف	٣
سورة الأنفال	١١٢
سورة التوبة	١٦١
سورة يونس	٢٦٩
سورة هود	٣٠٩
سورة يوسف	٣٥٠
سورة الرعد	٤٢٠
سورة إبراهيم	٤٥٤
سورة الحجر	٤٧٨
سورة النحل	٥٠٤